لجنة التاريخ والآثار

موسوعة تاريخ مصر عبر العصور

تاريخ مصر القديمة

تأليف

أ.د. عبد العزيز صالح

أ.د. جمال مختار

أ.د. محمد إبراهيم بكر

أ.د. إبراهيم نصحي

أ.د. فاروق القاضي

أشرف على النشر

أ.د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تــــاريخ المصـــــــريين ١٠٠

تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



الإخراج الفني :

مراد نسيم

لجنة التاريخ والآثار

موسوعة تاريخ مصر عبر العصور

تاريخ مصر القديمة

أ.د. عبد العزيز صالح

أ.د. جمال مختار

أ.د. محمد إبراهيم بكر

أ.د. إبراهيم نصحي

أ.د. فاروق القاضي

أعدها للنشر

أ.د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة

فرع الصحافة

١٩٩٧

تقديم

يسرني أن أقدم للقارىء العزيز هذا الجزء من موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ، الذى يتناول تاريخ مصر القديمة ، الذى أعدته لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة .

وكانت اللجنة قد لاحظت أنه منذ صدور كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » الذى صدر عن جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ لم تظهر دراسات أخرى موسوعية تغطى تاريخ مصر عبر العصور ، فأسندت الى عدد مهم من المؤرخين المتخصصين اعداد هذه الموسوعة، على أن تشتمل على ما جد فى حقل الدراسة التاريخية عن مصر منذ ذلك الحين . وقد نفذت الفكرة بالفعل ، ولكن الدراسات التى أعدت ظلت حبيسة أرشيف لجنة التاريخ والآثار دون أن ترى النور فى انتظار الاعتمادات المالية اللازمة ، حتى تولت اللجنة الجديدة التى أتشرف برئاستها الأمر ، فكان من أول الموضوعات التى رأيت بعثها من مرقدها هذه الموسوعة الهامة .

ولما كان الجزء الخاص بتاريخ مصر الاسلامية كاملا وجاهزا للنشر فى ذلك الحين ، فقد رأيت أن أبدأ به على أن تستكمل الأجزاء الخاصة بالعصور الأخرى ، وبالفعل صدر الجزء الخاص بمصر الاسلامية فى هذه السلسلة تحت رقم ٦٣ فى عام ١٩٩٣ ، وعهدنا الى الأساتذة باستكمال الجزء الخاص بمصر القديمة ، وهو ما تم بالفعل ، وهو ما يمثل الجزء الحالى الذى بين يدى القارىء ، والذى أعددته للنشر ويشمل ستة أبواب :

الباب الأول ، ويتناول العصور المصرية القديمة (الفرعونية) حتى نهاية الدولة القديمة ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ، ويتناول تقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة حتى عصر بداية الأسرات فى أوائل القرن ٣٢ ق.م ، ثم عصور الدولة القديمة من عصر الأسرة الثالثة الى نهاية عصر الأسرة السادسة ، ورحلات الكشف فى الجنوب .

أما الباب الثاني ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور جمال مختـــار ، فيتناول العصر المتوسط الأول الذى يشمل الأسر السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، والعصر المتوسط الثانى الذى يشمل الأسر الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامســة عشرة والسادســة عشرة والسابعة عشرة (والأسرتان الأخيرتان تمثلان عصر الهكسوس) .

أما الباب الثالث ، فقد كتبه الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر ، ويتناول عصر الدولة الحديثـــة • ويشتمل على تاريخ الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (الرعامسة) والعشرين والواحدة والعشرين •

أما البــاب الرابع ، فقد كتبه أيضــا الأســتاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر ، ويتناول العصور المتأخرة ، ويشــتمل على تاريخ الأسر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ (النوبية) و ٢٦ (الصاوية) و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ حتى غــزو الاســـكندر المقــــدونى لمصـــر عام ٣٣٢ ق•م •

أما الباب الرابع فهو عن العصر البطلمى ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى ، ويتناول دولة البطالـــة ، وأجهزة الحكم ، وسياسة البطالـــة الدينية والاقتصادية والنظام المـالى والاقتصادى والقضائى والحياة الاجتماعية والآداب والعلوم والفنون •

أما الباب السادس ، فقد أعده الدكتور فاروق القاضى ، وهو عن العصر الرومانى ، ويتناول معالم التاريخ الســياسى ، والنظم الادارية ، والحياة الاجتماعية ، والسياســة الاقتصادية ، والديانات والعقائد ، والحياة العلمية والثقافية فى مدينة الاسكندرية •

ويتضح من ذلك مدى أهميــة هذا الجزء من موسوعة تاريخ مصر عبر العصور التى آمل أن ينتفع بها القارىء المثقف والمتخصص على الســواء •

رئيس التحرير
أ• د• عبد العظيم رمضان

الباب الأول

تاريخ العصور المصرية القديمة (الفرعونية)
حتى نهاية الدولة القديمة ..

للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

تمهيد :

تميز التاريخ المصرى القديم بالسبق الزمنى المبكر ، ووفرة المصادر المكتوبة ، وطابع المركزية الغالبة ، واتصال الحلقات الحضارية دون فجوات كبيرة فيها ، فضلا عن روح المحافظة ، واستمرارية الطابع الثقافى العام ، مع ايثار التطور البطىء على تطور الطفرة ، والجمع بين الخصوصية الاقليمية والانفتاح على العالم الخارجى .

وفضلا عن اسم « مصر » الذى أوردته بعض المصادر المكتوبة القديمة منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، وربما استخدم شفهيا فيما قبل ذلك بكثير ، عبرت النصوص المصرية القديمة عن وطنها بأسماء أخرى كان من أكثرها استخداما اسم « تاوى » ، واسم « كيمة » واسم « آجبة » وكلها اسماء وصفية (يمكن مراجعة آرائنا فى تفسير مدلولاتها فى كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها ــ ج ١ ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ١ ــ ١١) .

ومثل المصريون القدماء ، فى وطنهم الكبير بين أطراف افريقيا وآسيا ، سلالة جنسية ولغوية متمايزة من سلالات البحر المتوسط

الجنوبية ، أو من السلالات التي سميت اصطلاحا باسم المجموعة السامية الحامية ، وانتشرت فروعها بين غرب آسيا وشمال وشرق افريقيا ، على تفاوت فيما بينها فى نسب التأثر أو التأثير والاختلاط مع من جاورها من أجناس وسلالات أخرى ، تبعا لطبيعة موقعها وملابساتها الخاصة ٠

وتفاعلت الحضارة المصرية القديمة خلال مراحلها المبكرة مع عدة عوامل بيئية وبشرية متداخلة ٠ ومن أكثر هذه العوامل وضوحا وايجابية ضخامة نصيب مصر من وادى النيل الأدنى ، وفيضاناته الدورية ، والخصوبة المتجددة للتربة الزراعية ، والمناخ الجاف شبه المعتدل ، والموقع الجغرافى المطل على البحرين المتوسط والأحمر وعلى زاوية الالتقاء بين افريقيا وآسيا ٠ ومنها كذلك قلة العوائق التضاريسية الحادة فى طرق الاتصالات والمواصلات الداخلية ، ووفرة الأحجار والمعادن الرئيسية ، وحصانة الحدود الصحراوية ٠ وذلك فضلا عن كثافة أعداد جموع المصريين كثافة نسبية ، وميلهم الى الترابط الاجتماعى والاستقرار السياسى ، مع وحدة لغتهم وندرة الفوارق الجنسية فى تكوينهم ٠

وفى مقابل كل هذه العوامل الايجابية قامت مشكلات كثيرة تحدت الحضارة المصرية القديمة بصور مختلفة ، ومنها غلبة الطبيعة الصحراوية القاحلة على ما لا يقل عن ٩٠٪ من المساحة الكلية للأراضى المصرية ، وتكدس السكان بالتالى على شريط زراعى طولى ضيق على جانبى النيل ، فضلا عن رتابة مظاهر البيئة الداخلية ، والتعرض أحيانا لأطماع بعض القوى الخارجية فى خيرات مصر ، لا سيما فى فترات ضعفها ٠

وعلى أية حال ، فلم تسلم كل هذه العوامل الايجابية والسلبية من تعدد وجهات النظر فى تقويمها ٠ ويكفى الاستشهاد

هنا بما يتعلق بنهر النيل وتأثيراته فى مصر القديمة • فغالبا ما يقرن المؤرخون المحدثون فضله عليها بمقولة شهيرة نسبت الى المؤرخ هيرودوت (من القرن الخامس ق•م) وهى أن « مصر هبة النيل » • وعلى الرغم من شيوع هذه المقولة فانه يبدو أنها صورت نصف الواقع ولم تصور الواقع كله •

فهى صحيحة على اعتبار أنه لولا جريان نهر النيل فى مصر طوال العام ، وانتظام مواسم فيضاناته ، وتوالى غرينه الدسم ، ما تمايزت أرضها الزراعية بشىء كثير عما يحوطها من صحراوات قاحلة مترامية الأطراف فى كل اتجاه ، وما تكاثرت أعداد أهلها بمثل ما تكاثروا به ، وما تهيأ لهم كثير مما نعموا به من وفرة الانتاج والاستقرار وشرايين الاتصالات والمواصلات •

غير أن كل هذا لا ينفى أن مصر الزراعية المتحضرة كانت ثمرة مباشرة من ثمرات التحدى المصرى القديم ، على نحو ما كانت هبة من هبات النيل الكريم ، على حد سواء •

وزكى هذا الواقع عدة أدلة ، ومن أولها أن نهر النيل قبل أن يدخل أرض مصر يجرى فى عدة بلاد افريقية واسعة يكاد يوفر لها من الرى الدائم وفرص الانبات والزراعة ما هو قريب مما يوفره لمصر •• ومع ذلك فهو لم يستطع وحده أن يخلق فيها من أسس الحضارة ما يضارع أسس الحضارة المصرية القديمة فى شىء ما ، ولم يلق من استجابة أهلها للتعامل معه والانتفاع به ما وجده فى مصر ، وذلك مما يعنى أن عوامل رئيسية أخرى أدت دورها معه •• ومن أخصها العوامل البشرية وقدرتها على تحدى مشكلات البيئة • ولن يكفى لتبرير اختلاف مدى التحدى الاستجابة والتعامل بين النيل والفريقين ، مجرد فوارق المناخ وأخطار النباتات

المـائية فى الجنوب • فلم تكن أوضاع النيل واستزراع الأرض فى مصر نفسها هينة ميسرة فى بداية أمرها ، وانما صاحبتها صعاب شتى تطلبت قوة التحـدى العملى وكثيرا من الجهد والمثابرة •• ففيضانات النهر ظلت لآماد طويلة غامرة مدمرة ، تهدد الحرث والنسل وتجرف شطآن النيل وتغير ضفافه واتجاهاته باستمرار • وعندما عمق النهر مجراه بقيت فيضاناته على الرغم من وفرتهـا وعظيم نفعها تتطلب اليقظة والقدرة على مواجهتها ، وتستدعى التعاون والتكاتف الجمـاعى للتحـكم فيهـا وضبط اندفاعاتها وتقليـل أخطارها ، ثم تنظيم الانتفاع بها ، وتوصيل فروعها الى المسطحات المرتفعة عن مستوياتها •• وهلم جرا • واستمرت بعض ضفاف النيل المصرى فى مجراه الأدنى ومناطق دلتاه بخاصـة ، على الرغم من خصوبتها المتجددة ، تغطيها البرك والمناقع المـائية وتكسـوها الأحراج النباتية قليلة النفع ، طوال فجر التاريخ وخلال بدايات العصور التاريخية ذاتها • وكان لابد من بذل مجهود عملى طويل متصل فى سبيل تحدى مشكلاتها واستدرار خيرها وتهيئتها للانتاج الواسـع •

وأدت جهود أجيـال المصريين الأوائل فى كل من الحالين الى تعميق احساسهم بضرورة تجميع أمورهم تحت اشراف حكم مركزى مستقر ينظم جهودهم المشتركة وينسق الانتفاع بنتائجها •

وجدير بالتنويه هنا أن المؤرخ هيرودوت لم يقتصر فيما ذكره عن مصر على أنها « هبة النيل » وحده أو على وجه التعميم ، وانما خص بهـذا التعبير أساسا « أراضى الدلتا التى يبحر اليها الاغريق وما يمتد منها الى بحيرة مويرس » على حد قوله ، فى مصر الوسطى •• وروى فيما سمعه عن الكهنة المصريين ورآه بنفسه أن « الجزء الأكبر من الأراضى التى تـكلم عنها هو جزء اكتسبه المصريون ،

وكان حتى عهـد الملك منى وفيمـا عدا الاقليم الطيبى (وهو قلب الصعيد) أشبه بمستنقعات بعد أن كان فيما مضى خليجـا من البحر ·· » · وقد لا نسلم بتفاصيل هذه الرواية على علاتهـا ، ولكنها كافية لتبرير قول هيرودوت فى موضع آخر من كتابه عن مصر بأن مشـكلة الأرض والفيضان ظلت هى مشـكلة الحيـاة أو الموت بالنسبة للمصريين · وهكذا ما كان للمؤرخين المحدثين أن يستشهدوا بجزء مما ذكره هيرودوت ويغفلوا معه جـزءا آخر · وقد يضاف هنا تصحيح آخر يراه بعض الباحثين ، وهو أن عبارة « مصر هبـة النيل » أو « هديـة النهر » ، لم تكن من وضـع هيرودوت نفسـه ، وانما كانت عبارة نقلها عن سـلفه الرحـالة هيكاتيوس الميليتى الذى سـبق عهـده بما يزيد على نصف قرن (خلال القرن السادس قبل الميلاد) ·

١ ـ تقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة :

صنف المؤرخ المصرى الأشهر مانيثون السمنودى (فى القرن الثالث قبل الميلاد) تتابع الأسرات الملكية المصرية القديمـة فى ثلاثين أسرة · وهو تصنيف يبدو أنه كانت له أصـول قديمة ، ومازال مأخوذا به على وجه الاجمال حتى الآن فيما يختص بالعصور المصرية التاريخيـة القديمـة التى اسـتمرت نحو ٢٨ قرنـا (من القرن الـ ٣٢ ق·م الى أواخر القرن الرابع ق·م) ·

ومهدت الدراسات التاريخية والأثرية الحديثة لهذا التصنيف التقليدى بدهور أخرى طويلة سبقته وهى دهور ما قبل التـاريخ بتقسيماتها الكثيرة ، كما قسمت عصور الحضارة المصرية القديمة فى مجملها الى ثمان مجموعات اعتبارية كبيرة تمايزت كل مجموعة منها عما سواها بمدى استمرارها الزمنى ، وطاقتهـا البشرية ، ومستوياتها الحضارية · ولكنها اتصلت فيما بينها اتصالا تطوريا

وثيقا ، وتعاقبت أسماؤها الاصطلاحية العامة من الأقدم الى الأحدث على النحو التالى فى ايجاز شديد يرد بعض تفصيله فيما بعد :

دهور ما قبل التاريخ :

أو هى دهور ما قبل معرفة الكتابة ، أو الدهور الحجرية بأقسامها المتنوعة . وبدأت فى أزمنة سحيقة يصعب تحديد مداها الا بعشرات أو مئات الآلاف من السنين ، وامتدت فى مصر حتى أواخر الألف الرابعة ق.م .

عصر بداية الأسرات :

أو بداية العصور التاريخية أو العصر العتيق ، وشمل عهود الأسرتين الأولى والثانية الملكيتين ، منذ أوائل القرن ال ٣٢ ق.م حتى أوائل القرن ال ٢٨ ق.م .

عصور الدولة القديمة :

وبدأت بعصر الأسرة الملكية الثالثة فى حوالى عام ٢٧٨٠ ق.م ، وانتهت بأواخر عصر الأسرة الملكية السادسة فى خواتيم القرن ال ٢٣ ق.م .

عصر الانتقال الأول :

وامتد من عصر الأسرة السابعة فى أواخر القرن ال ٢٣ ق.م ، حتى نهاية عصر الأسرة العاشرة فى القرن ال ٢١ ق.م .

عصور الدولة الوسطى :

ابتداء من عصر الأسرة الحادية عشرة فى أواسط القرن ال ٢١ ق.م ، حتى منتصف عصر الأسرة الثالثة عشرة ، فى القرن ال ١٨ ق.م .

عصر الانتقـال الثانى :

وامتد فيما بينأواخر عصر الأسرة ال ١٣ فى القرن ال ١٨ق٠م، حتى نهاية عصر الأسرة السابعة عشرة فى أوائل القرن ال ١٦ ق٠م ٠

عصور الدولة الحديثة :

وبدأت بعصر الأسرة الثامنة عشرة فى حوالى عام ١٥٧٥ ق٠م ، وامتدت الى نهايــة عصر الأسرة العشرين فى عــام ١٠٨٧ ق٠م ، او الأصح الى نهاية عصر الأسرة الحــادية والعشرين فى منتصف القرن العاشر ق٠م ٠

العصــور المتأخرة :

واستمرت من بداية عصر الأسرة ال ٢٢ فى عام ٩٤٥ ق٠م ، الى نهاية عصر الأسرة الثلاثين فى عام ٣٣٢ ق٠م ٠

٢ ــ مصادر البحث فى الحضارة المصرية القديمة :

اقتصرت مصادر ما قبل التاريخ أو الدهور الحجرية القديمة ، على ما تركه الانسان الأول ، فى مصر وغيرها ، من أدوات بدائية متواضعة صنع اغلبها من الحجر ، وصنع بعضهــا من قطع فروع الأشجار وعظام الحيوانات وقرونها وأنيابها ٠ وما خلفــه هــذا الانسان أحيانا من رسوم أولية بدائية تمثل طفولة الفن البدائى المتأثر بأوهام السحر وبدايات العقائد الدينيــة ٠ ثم ما تركه فى أواخر هــذه الدهور من بقايا أدوات الزراعة الأولية وما شابهها من الحرف البسيطة وأوانى وأدوات الاستعمال اليومى ، وقطــع الحلى والزينــة المناسبة لعصرها ، فضــلا عن المقابر الصغــيرة وبقايا الهياكل البشرية والحيوانية الموجودة بها ٠٠ الخ ٠

اما بالنسبة للعصور التاريخية القديمة ، فقد تعددت مصادرها الأصيلة تعددا كبيرا ٠

ومن أهم مصادر حياتها السياسية الداخلية والخارجية ما نقشه الفنانون والمؤرخون المصريون كتابة وتصويرا من أعمال الملوك الحربية والمدنية والدينية على النصب الحجرية وعلى المسلات وجدران المعابد ، ثم ما سجلوه من قوائم أسماء ملوك العهود الغابرة أو السابقة المتعاقبة ٠ ومن أشهر هذه القوائم قائمة حجر بالرمو التى سجلت أسماء ملوك مصر منذ ما قبل الأسرات حتى عهد الملك نى وسررع فى منتصف عصر الأسرة الخامسة وبداية القرن الخامس والعشرين ق٠م ٠ وشفعت بعض هذه الأسماء بمدد حكمهم وأهم منجزاتهم ٠

ونقل الجزء الأكبر من هذا الحجر الى متحف بالرمو فى القرن الماضى ، وبقيت أجزاء أخرى صغيرة منه فى متحف القاهرة ٠

وتضمنت قائمة الكرنك التى سجلت على جدار فى معبد تحوتمس الثالث بالأقصر فى النصف الأول من القرن ال ١٥ ق٠م ، واحدا وستين اسما لأسلافه الملوك (ونقلت فى القرن الماضى الى متحف اللوفر) ٠

كما تضمنت قائمة أبيدوس التى سجلت داخل معبد أنشىء فى عهد الملك سيتى الأول فى أواخر القرن ال ١٤ ق٠م ، ٧٦ اسما ملكيا كان من المفروض أن تقدم القرابين الى أصحابها باعتبارهم يمثلون الدوحة المقدسة التى ينتسب اليها الملك الحاكم ٠

وامتازت قائمة تورين التى دونت فى القرن الثالث عشر ق٠م، بتسجيلها على بردية تاريخية ، والتزامها بتصنيف بعض أسمائها فى مجموعات وأسر ملكية ، واهتمامها بتقصى مدد حكم بعضهم بالأعوام والشهور والأيام ٠

واهتمت بعض النصوص الفردية لكبار رجال الدولة بتسجيل ما قام به أصحابها من أعمال ووظائف وبعثات ومنشآت •

بل تضمنت قائمة سقارة التى سجلت فى مقبرة ثونرى أحد كبار كهنة عهد الملك رمسيس الثانى فى النصف الأخير من القرن الـ ١٣ ق•م ، ٥٨ اسما ملكيا • ونقلت حديثا الى متحف القاهرة •

وعبرت عن العقائد الروحيـة فى مصر القديمة ، ما تضمنته نقوش المعابد والمقابر ومخطوطات البردى من أسماء المعبودات ، والدعوات والأناشيد ، وهيئات التعبيد ، والتصـورات المختلفـة المتوارثة عن العالم الآخر ، لاسـيما فيما يعرف باسم نصـوص الأهـرام ، ومتون التوابيت ، وكتب الموتى • وذلك فضـلا عمـا رمزت اليه اشكال المعبودات المصـورة وتماثيلهم ، والنصوص التى وصفت خصائصهم وأساطيرهم •

وتستمد المعرفـة بالعمـارة الانشائيـة والفنون التشكيلية والتطبيقية فى مصر القديمة مما بقى من أهرامها ومقابرها ومعابدها ومساكنها وحصونها ، وما صورته منها المناظر المنقوشة والمصورة هنا وهناك ، فضلا عن التماثيل الكبيرة والصغيرة وأدوات الترف والحلى والزخارف العديدة التى عثر عليها فى بقايا المقابر والمساكن والمعـابد •

وتمثلت مصادر المعرفة بآداب مصر القديمة وعلومها فيمـا تضمنتـه مخطوطات البردى واللوحـات الخشبيـة وأوستراكات الفخار والأحجار التى كشف عنها حتى الآن ، من قصص وأساطير وتعاليم تهذيبية ومعلومات طبية ورياضية ودروس تعليمية •

وتستمد صـور الحيـاة اليومية العادية من مناظر الزراعـة والصناعة والتجارة والمناظر الأسرية المصورة على جدران المقـابر

وعلى النصب ، ومما عثر عليه من أدوات الاستعمال والنماذج الصغيرة للمصانع والشون ، ثم الوسائل الشخصية المتبادلة بين الأفراد ، ونصوص القضايا والشكاوى التى صورت انفعالات أصحابها ومشاعرهم .

وأرخ المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى الذى عاصر عهد الملك بطلميوس الثانى فى القرن الثالث ق.م ، للحياة السياسية والاجتماعية فى مصر منذ أقدم العصور التى امتد علمه اليها حتى أيامه .. واستمد بعض مادته التاريخية عنها من مصادرها المصرية القديمة الأصيلة ، ومما بقى حتى أيامه من قصص وأساطير قومية ، ثم أصدر ما كتبه عنها باللغة الاغريقية لغة الثقافة فى عهده . ولم يبق من كتبه للأسف الا ما اقتبسه منها بعض المؤرخين الذين اتوا بعده . وأفاد فى التعريف ببعض جوانب التاريخ المصرى القديم ، ولو من وجهة نظر خاصة ، ما تضمنته الكتب السماوية المقدسة من اشارات قصيرة عن صلات مصر المتنوعة ببعض الأنبياء . ثم ما تضمنته النصوص المسمارية العراقية والخاتية (الحيثية) والفارسية عن علاقات ملوكها وشعوبها بمصر والمصريين فى حالات السلم أو الحرب فى عصور متنوعة معينة .

ما زالت مؤلفات الرحالة والمؤرخين الاغريق والمتأغرقين والرومان القدامى عن مصر القديمة من المصادر التى يستشهد بها من حين الى آخر ، بل كانت هى المصادر الرئيسية المعروفة حتى أواخر القرن الـ ١٨ الميلادى قبل الاهتداء الى قراءة اللغة المصرية الأصيلة . ومن أشهر من كتب عن تاريخ مصر والمجتمع المصرى القديم : هيكاتيوس الميليتى (فى فترة من القرن الـ ٦ ق.م) ، وهيرودوت (فى منتصف القرن الـ ٥ ق.م) ، وهيكاتيوس الأبديرى

(فى بداية القرن الـ ٣ ق٠م) ، وديودور الصقلى (فى منتصف القرن الأول ق٠م) واسترابون (فى الربع الأخير من القرن الأول ق٠م) ، وبلينى (فى القرن الأول الميلادى) ، وبلوتارخ (فى أوائل القرن الثانى الميلادى) ٠ وشابههم من مواطنى الاسكندرية المتمصرين أرسطوفانيس ، واراتوستينوس ، وأبوللودوروس ، وهو رابوللو ، واكسينفون ، وتاكيتوس ، ويوسيفوس ، وكليمنت ، ويوليوس أفريكانوس ، ويوسيبيوس ، وجيوجورجيوس ٠٠ الخ ٠

وتفاوت حظ كل من هؤلاء وهؤلاء عن زميله فى مدى صحة معرفته بحقيقة الحياة المصرية القديمة ، بل ان ما كتبه كل واحد منهم قد جمع طياته أحيانا بين الواقع والأساطير ، لاسيما فيما سمعوه من الرواة والتراجمة عن العصور البعيدة التى سبقتهم ٠ ولهذا يصعب الحكم على أحدهم بحكم عام ، وينبغى تمحيص ما أتوا به والتفرقة فيه بين الخطأ والصواب قياسا الى ما أوردته عنه المصادر المصرية الأصيلة ٠

وبعد أن تغيرت الديانة والكتابة المصرية القديمة مرتين ، باعتناق المسيحية ثم باعتناق الاسلام ، أحاط الغموض بمصادر التراث المصرى القديم وقلت المعرفة والعناية بها ، الى أن عاد الاهتمام بها مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى على أيدى بعض العلماء الفرنسيين الذين صحبوا حملة نابليون الى مصر ووصفوا ورسموا عددا من آثارها الظاهرة ثم نشروا عنها فى بضعة مجلدات ضخمة صدرت فى باريس بين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٣ باسم « وصف مصر » وهو عمل تتوج بالعثور على حجر رشيد (وهو من البازلت الأسود وبلغت أبعاده الباقية ١١٣ سم × ٥ر٧٥ سم × ٥ر٢٧ سم) خلال حفر خندق حول احدى قلاع رشيد ٠ وقد استنسخت نصوصه بصورة تقريبية عقب العثور عليه وأرسلت

نسخ منهـا الى بعض المعنيين بالدراســات القديمـة فى العــالم الخارجى • وحاولت القوات الفرنسية أن تخرج به من مصر مع عديد من الآثار الأخرى ، ولكن هزيمتها فى أبى قير أدت الى انتقاله وعدد من هــذه الآثار الى بريطانيا حيث أودع فى المتحف البريطانى فى عام ١٨٠٢ •

بقى على واجهة حجر رشــيد ١٤ سطرا بالخط الهيروغليفى فى أعلاه ، و ٣٢ سطرا بالخط الديموطى المصرى فى منتصفه ، ثم ٥٤ سطرا باللغة الاغريقية فى أدناه ، وحاول التعرف على مضمون نصوصه عدد من الباحثين ، من أشهرهم دى ساسى (الفرنسى) ، وأكربلاد (السويدى) ، وتوماس ينج (البريطــانى) ، وجــان فرنسوا شمبيلون (الفرنسى) ، وكان هذا الأخير أكثرهم نجاحا ومثابرة وشهرة •

وتبينت دراســاتهم المتفرقة أن نصــوص الحجر تضمنت قرارا لكهنة منف أصدروه فى عام ١٩٦ ق•م ، وشكروا فيه للملك البطلمى ابيفانس بطلميوس الخامس اعفــاءه لمعــابدهم من بعض التكاليف التى فرضها أسلافه عليها •

كما تبينوا فى النص الاغريقى الذى كانوا يعرفونه عبــارة توصى بكتابة القرار بالكتابات الهيروغليفية والديموطية والاغريقية ، وذلك بما يعنى أن الكتابات الثلاث لم تكن غير ثلاث نسخ لقرار واحد • وبناء على هــذا أمكن الاستدلال على مترادفات ما ورد بها من أسماء الأعلام التى لا تتغير صيغها ومنها اسم الملك بطلميوس ، وألفــاظ أخــرى فى كــل من اللغتــين اليونانيـــة والمصريــة • وكان التعرف على القيم الصــوتية للحروف المصرية فى هذه الأسماء بمثابة المفتــاح لقراءة اللغة المصريــة القديمة قراءة سليمة ، وهو

ما لم يتم بطبيعة الحـال الا بعد تكرار التجارب مع نصـوص أخرى تضمنت أسماء قديمة مشهورة ، أو كتبت بكتابتين ٠

وترى توجيه النظر فى نصوص حجر رشيد الى حرص كاتبه المصرى على نقش الكتابة الهيروغليفية المقدسـة فى أعلى الحجر ، والكتابة الديموطية أو كتابة الجمهور فى وسطه ، والكتابة الاغريقية لغة الملك البطلمى فى أدناه ٠ وكان لترتيب المناظر والنصـوص أهمية خاصة فى الفن المصرى القديم ٠ وقد يعنى ذلك أن سـلطان البطالمـة ذوى الأصل الاغريقى ، لم يمنع بعض القوميين المصريين من أن يتلمسوا أى سبيل يعبر عن وطنيتهم الدفينة ويرضى كرامتهم، ولو كان سـبيلا غير مبـاشر ٠ وربما شجعهم على هـذا الاجراء حينذاك على حجر رشيد ، قرب مشاركتهم فى الجيش البطلمى بعد حرمانهم منه ، وانتصارهم معه فى موقعـة رفح خلال عهد الملك بطلميوس الرابع ٠

كان من رواد النشر عن الآثار المصرية القديمة بعد علمـاء الحمـلة الفرنسية ، كل من الايطـالي روسلليني ، وليبسيوس الألمـانى ، منذ حوالى عام ١٨٢٨ ٠

وواكب هذا النشر اهتمام آخر بالتنقيب عن الآثار الدفينة لولا أن بدأ به للأسـف خـلال النصف الأول من القرن ال ١٩ م مغامرون غير متخصصين ٠ وعن طريقهم انتقلت كنوز أثرية كثيرة الى المتاحف الأوروبية والأمريكية والى المجموعات الخاصة ٠

وكانت فكرة انشـاء ادارة مصريـة للآثار قد ظهرت أيـام محمد على فى الربع الثانى من القرن ال ١٩ ، لولا أنها تعثرت واكتفت بتخزين الآثار المكتشفة فى مبنى بالأزبكية ، ثم فى مبنى بقلعـة

محمد علي وظلت كذلك حتى أحيا الفرنسي أوجست ماريبت هـذه الفكرة في عهد الخديوى سعيد ، ونجح في الاشراف على انشاء متحف مصرى منظم لأول مرة في بولاق عام ١٨٥٩ ، وبعد أن تنقل هذا المتحف بين عدة مبان ، استقر أخيرا في مبناه الحالى منذ عام ١٩٠٣ ٠

وكما نجح ماريبت في انشاء هذا المتحف نجح كذلك في التنقيب عن الآثار في أماكن قديمة كثيرة ٠ وعمل هنرى بروكش الألمانى على الحاق دراسة مسائية للآثار المصرية القديمة بمدرسة المعلمين العليا ٠ كان من دارسيها المصريين النابهين كل من أحمد كمال ، ومحمد نجيب ، ثم سليم حسن ، وآخرون ٠٠ وتوالت البعثات الأجنبية المتخصصة للبحث عن الآثار المصرية منذ أواخر القرن الماضي ، وزاد نشاطها كثيرا خلال القرن الحالي ٠ وساهم بعدها عدد متزايد من الباحثين المصريين في أعمال الكشف الأثرى والنشر العلمي والتحليل التاريخي ٠ وبفضل هذه الجهود المتنوعة وكثير غيرها أصبح التاريخ المصرى القديم بكل ما يتضمنه من ضروب السياسة واللغة والعلم والدين والفن والأدب ، يعرف اليوم بنصيب من الوضوح والصحة يزيد على نصيب غيره من التواريخ القديمة المعاصرة له ٠

٣ ـ مصر والدهور الحجرية فيما قبل التاريخ :

تعبير ما قبل التاريخ زمنى اصطلاحى مرن ، يطلق على الأزمنة السحيقة التى سبقت عصور اهتداء الأمم القديمة الى الكتابة والى تكوين الوحدات السياسية المستقرة ٠٠ ويرادفه الى حد ما تعبير حضارى اصطلاحى آخر وهو تعبير « الدهور الحجرية » ٠ ويقصد به الدهور التى بدأت معها حضارة الانسان الأول البدائى ،

أو التى بدات بمعنى آخر بالدهر الذى اســتطاع ذلك الانســان الأول أن يصنع فيه شيئا بيده عن قصد منه ورغبة ، والذى لم تستخدم جماعاته معادن مصنوعة ، اعتمدوا أساســا على أدوات حجرية وخشبية وعظمية بدائيــة كانوا يشكلونها بما يناســب مطالبهم الوقتية المحدودة ٠ (واستخدام لفظ الدهر هنا للتفرقــة بينه وبين اللفظ الشائع للعصر من حيث مدى الامتداد الزمنى) ٠

وتقسم الدهور الحجرية عادة على النحو التالى :

الدهرالحجرى القديم الأسفل :

بدأت بواكير النشاط الحضارى البدائى فى المناطق الصالحة للاقامة فى العالم القديم ، فى الدهر الحجرى القديم الأسفل ٠ وهو دهر أرخ بعشرات الآلاف من السنين ٠٠ وتعاقبت فيه على منــاطق العروض الوسطى والمدارية التى تقع مصر فيها ، حقب ممطرة طويلة جدا ، وحقب أخرى جافة طويلة جدا ، وذلك فى مقابل ما شهدته العــروض العليــا فى أوروبــا من حقب تقــدم الجليــد ، وحقب انحســاره ٠

وكانت بدايات الحضارة فى هذا الدهر بطيئة للغاية ، تشابهت مظاهرها المتواضعة حيثما وجدت ، واستخدم الانسان الأول فيهــا أدوات يدوية بدائية فى الدفاع عن نفسه ضــد الحيوان وضــد أخيه الانسان ٠ واستعان بها فى صيد الحيوانات الصغيرة وتهشيم عظامها وتقطيع لحومها وسلخ جلودها ٠ كما استخدمها فى اقتلاع جذور النباتات واسقاط ثمار الشجر ، واتخذ ذلك الانسان أدواته تلك من الأحجار وفروع الأشجار ومن العظام والمحــار ٠ ولكنه حرص حيثما استطاع على أن يتخذ أكثرها استعمالا من قطع الظران التى يجدها فى بيئته ، على أن تكون قاعدتها مناســبة لقبضة يده ويترك

هذه القاعدة على حالها وبقشرتها الطبيعية حتى لا تؤذى كفه ، ثم يشكل قمتها وجوانبها بما يسمح له بأن يستخدمها فى أغراضه المحدودة · وتسمى الواحدة من هذه الأدوات باسم الفهر ·

وافترض بعض الباحثين منطقة قديمة واسعة منبسطة متوسطة الموقع معتدلة المناخ مفتوحة المداخل والمخارج ، تمرس الانسان الأول فيها على صناعة الفهر الحجرى وتطويره ، ثم انتشر به منها الى بقية المناطق الصالحة للسكنى فى العالم القديم · ويعتقد أن هذه المنطقة ذات الميزات الخاصة كانت فى شمال افريقيا وغرب آسيا بخاصة ، وكانت منها هضاب مصر التى كانت تتلقى نصيبا كافيا من الأمطار وتنمو عليها نباتات تشبه نباتات السفانا الحالية· وما زالت شواهد صلاحيتها المناخية الأولى ماثلة فى بقاء عدد من الوديان والينابيع القديمة التى شقتها المياه الغزيرة وجرت فيها ، ثم جفت أو تحجرت وتصحرت بيئتها فى عصور انقطاع الأمطار · وما زالت شواهد سكناها القديمة ماثلة فى وجود كثير من الأدوات الحجرية البدائية التى خلفها انسانها الأول فى مواضع متفرقة على سطوح الهضاب المصرية المتسعة التى ما لبثت حتى غلبها الجفاف ·

وتقسم الحضارات البدائية فى الدهر الحجرى القديم الأسفل بوجه عام الى قسمين متعاقبين وهما : الحضارة الشيلية (أو الأبيفيلية) ، ثم الحضارة الأمثولية · وتلخص التطور الصناعى بين الحضارتين ، فى بداية اهتمام الانسان بتصغير سمك وحجوم أدواته الحجرية ، ثم اهتمامه بتحديد حوافها وتهذيب سطوحها وازالة القشرة الطبيعية منها ·

واهتدى الانسان القديم فى خواتيم هذا الدهر ، الى طريقة ايقاد النار · وكان اهتداؤه اليها مبشرا بأول انقلاب مادى فعال

فى تاريخ الحضـــارة البشرية ، انقلاب تميز به طعامه بعد طهيــه بالنار عن طعام الحيوان ، وأصبح بفضله أكثر اطمئنانا على نفسه وأهله حين الاستعانة بدفء النار على مقاومة البرد والصقيع ، وحين الاستعانة بنورها على مخـاوف ظلام الليل ، وحين الاستعانة بحرارتها على انضــاج وحفظ لحم الصيد وعدم فساده بسرعة .. الـخ .

فى الدهر الحجرى القديم الأوسط :

أعقبت حضارتى الدهر الحجرى القديم الأسفل ، حضــارة الدهر الحجرى القديم الأوسط التى قامت فى معظم أحوالهــا فى ظل حقب مطيرة طويلة ، وان تكن أقل أمدا واتصالا من الحقب المطيرة التى سبقتها خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل . وجرى الاصطلاح العلمى على تسمية أدواتهــا الشائعــة باسم الأدوات الموستيرية ، وتسمية الجنس البشرى الشائع فيها باسم الانســان النيادرتى ، أو انسان نياندرتال . وقامت هــذه الحضــارة على أساس استخدام الشظايا التى تنفصـــل عن جــوانب الفهر حين صناعته ، بأشكال مختلفة ، بحيث اذا حدد جانبا الشظية استخدمت كالمدية ، واذا دبب أحد طرفيها استخدمت كالمثقاب أو المخراز .

ورغم شيوع الخصــائص العامة لهذه الصناعات الحجريــة فى اغلب المناطق المعمورة من العالم القديم خلال الدهر الحجرى القــديم الأوســط ، فان بعض المنــاطق المصرية نحت بصناعتهــا الحجرية المتواضعة نحو بعض التخصص فى عمل النصال والأفهار (الليفلوازية) التى ميزت بعض الشىء بين انتاجهـــا وانتـــاج الأدوات والشظايا الموستيرية العامة الشائعــة فى بقيــة البــلاد الأخــرى .

فى الدهر الحجرى القديم الأعلى :

تغيرت بانتهاء الدهر الحجرى القديم الأوسط صورة البيئة المصرية وما حولها • فانتهت الأمطار الكثيفة المتصلة فيها ، وتضاءلت فرص نمو نباتات السفانا الوفيرة ، وبذلك قلت فرص الحياة للحيوانات الضخمة التى تحب وفرة الماء والنباتات كالفيل والخرتيت والثور البرى ، فانقرض بعضها ، ولجأ بعضها الآخر الى المناطق الاستوائية ، أو الى المناطق الشمالية • وبدأت ظروف الجفاف تسود الشرق شيئا فشيئا ، وظهرت معها حينذاك حضارات الدهر الحجرى القديم الأعلى ، وفيها غلب جنس الانسان العاقل (Homo Sapiehs) الذى استطاع أن يتطور بوسائله المادية الى ما يناسب ظروفه الجديدة ، فقلل استعمال وحجوم أدواته الحجرية الكبيرة ، وأصبح يستخدم معها أدوات حجرية صغيرة تصلح لأن يصيد بها الحيوانات الخفيفة سريعة العدو التى عاشت معه فى ظل الجفاف وحلت محل الحيوانات القديمة الكبيرة • وبلغ من صغر بعض هذه الأدوات أن أطلق عليها اسم الأدوات الضئيلة والأدوات القزمية ، وكانت أكثرها تنوعا هى القطع التى استخدمها الانسان استخدام السهام بعد معرفته بعمل الأقواس ، وقطع أخرى كان يثبتها فى بعض فروع الشجر لتغنيه عن ثقل الأدوات الكبيرة وتؤدى أغراض الخناجر أو الحراب والمزاريق •

ومن الأهمية بمكان أن الصناعة الحجرية المصرية توسعت الى حد ما فى طابعها الاقليمى خلال هذا الدهر الحجرى القديم الأعلى ، فأنتجت حضارتها السبيلية فى منطقة كوم امبو نوعا من المناحت الحجرية الصغيرة ، رأى بعض الباحثين أنها أصبحت أساسا لما يشبهها من المناحت القزمية فى العالم القديم كله بعد أن انتشر بعض المصريين بها خارج أرضهم حينما اشتد الجفاف الذى حل بها •

بداية حرفة الزراعة المصرية فى العصر الحجرى الحديث :

واصلت الحضـارة المصريـة القديمة المبكرة تحديها للبيئـة الطبيعية وعملت على حسن استغلال أرضها الخصبة وبدأت انقلابا اقتصاديا رئيسيا فيها بممارسـة حرفة الزراعة الأولية منذ أوائل الألف السادسة قبل الميلاد • وكانت قد مهدت لهذه الممارسة معرفة متقطعة سابقة بالقيمـة الغذائية للحبوب الطبيعية كالشعير البرى والحنطة البرية ، وعمليـة حصادها وطريقة جرشها ، ثم ادخارها لوقت الحاجة اليها ، منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى • وولدت هذه المعرفة الرغبة فى زيادة نمو هـذه الحبوب فى مساحات واسعة نسبيا ، وكان من المتوقع أن ينجح مسعاها فى وديان الأنهار الكبرى أكثر من غيرها •

ووجدت ظروف وادى النيل الأدنى فى مصر تزكية كبيرة لتأكيد تحقيق هـذه الرغبة لأول مرة فى الوجود على أرضها • وذلك على أساس أن اشتداد الجفاف على هضابها فى أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى كان من شأنه أن يدفع بعض أهلها الى تتبع بقايا النباتات والحبوب البريـة التى ما زالت ناميـة على ضفـاف نهر النيل مورد المـاء الدائم فى أرضهم ، والذى يستمد مياهـه من مناطق بعيدة كانت لا تزال تتمتع بأمطار غزيرة وهى المنـاطق الاستوائية • وعندما طالت اقامتهم قرب هـذه الضفاف للانتفاع بخيراتها الطبيعية فضلا عن أسماك النهر والحيوانات التى تقصده لترتوى منه •• أصبحت ملاحظـاتهم لعمليـة نمو النباتـات الطبيعية أكثر اطرادا ووضـوحا ، بناء على ما كانوا يلمسونه من اثر التعاقب السنوى لفيضان النيل وانسياب مياهه على ضفافـه الطميية ثم انحسارها عنها فى النمو التلقـائى السـنوى لهـذه النباتات ، كلما توافرت لها التربة الخصبة السوداء •

ولما استقرت أسباب هذه الظواهر الطبيعية لدى أجيال المصريين واستوعبوها ، وأدركوا معها العلة فى جفاف النباتات حين قلة الماء وجفاف التربة ، حاولوا أن يكرروا عملية النمو الطبيعية ويتحكموا فى الاكثار من النباتات والحبوب الغذائية بأنفسهم . وبمعنى آخر عملوا على أن يصبحوا منتجين للغذاء متحكمين فيه بعد أن كانوا مجرد مستهلكين لما يجمعونه من مصادر الغذاء البرية المتفرقة .. وانتهت تجاربهم ومحاولاتهم باهتدائهم الى أساليب الزراعة الأولية منذ أكثر من ثمانية آلاف عام ، وقبل اهتداء المناطق الأوروبية الى مثلها بنحو ألفى عام .

وترتبت على بدايات معرفة حرفة الزراعة فى مصر ، وبعض ما سواها من وديان الأنهار الكبرى ، نتائج اقتصادية واجتماعية وعمرانية تزايدت وضوحا فشيئا فشيئا مع مر الزمن . وكان من أهمها زيادة التماسك الأسرى ، والاستقرار السكنى والمعيشى فى المجتمع وزيادة التعود على ادخار الحبوب للاستعانة بها فى غير فصول الانبات وفى مواسم الجفاف ، ثم اتاحة المزيد من أوقات الفراغ للسكان ومحاولة استغلالها بالتالى لابتداع أشياء أخرى جديدة . وتطلبت حياة الزراعة الاقامة المستقرة بالقرب من حقولها لرعايتها ، كما تطلبت التعاون اليدوى والجماعى من أجل استصلاح الأرض واستغلالها ، وتقليل أخطار الفيضانات وتيسير الانتفاع بها .

وأدت هذه العوامل الى زيادة تجمع أهل المناطق الزراعية فى قرى صغيرة على مناطق الحواف المرتفعة بعض الشيء عن رطوبة الأرض الطميية . وشجع هذا التجمع على شعور الفرد بالأمن فى ظل ملكيته الزراعية الخاصة ، وفى حماية المجموع . وتزايد

الاشتغال بالحرف الأولية التى تخدم الزراعة وتنتفع بها ، مثل صناعات الفئوس والحبال والسلال والحصير والكتان ٠٠ فضلا عن صناعة اوانى الفخار ثم الأوانى الحجرية ٠

حرفة الرعى :

ارتبط العصر الحجرى الحديث فى أوائل الألف السادسة قبل الميلاد بتطور مناخى جديد ، فعوضا عن الجفاف العنيف الذى ساد مصر وما حولها فى الدهر الحجرى القديم الأعلى ، ظهرت فترة رطيبة صحبتها أمطار قليلة أفادت النباتات الطبيعية وحيوانات البيئة كما شجعت على ممارسة حرفة الرعى ٠ ويبدو أنه مهدت لمرحلة الرعى هذه مرحلتان سابقتان لأسر بعض الحيوانات البرية ثم استئناسها ٠ وذلك بمعنى أنه حدث خلال أواخر ظروف الجفاف المناخى أن عمل بعض الصيادين على أسر أعداد من صغار الحيوانات التى اعتادوا على أكلها ليحتفظوا بها دون ذبحها لكى تنمو وتتوالد عندهم وتصبح هى ونسلها أشبه باحتياطى حى من اللحم الطازج ، لا سيما فيما يختص بالحيوانات ذوات الظلف المدرة باللبن ٠ ثم عملوا على تربيتها حتى استأنست بهم ٠ واستأنسوا معها بعض أنواع الكلاب لحراستها ٠٠ ويعتقد أن مرحلة استئناس الحيوانات هذه بدأت فى منطقة أناو فى التركستان وما يليها غربا من مناطق الاستبس ، ثم انتشرت منها الى غيرها ٠

وعلى الرغم من اعتماد مصر فى عهود فجر التاريخ على الزراعة أكثر من الرعى ، فان الرغبة فى استخدام بعض الحيوانات المستأنسة فى عمليات الزراعة جعلتها تهتم بتربيتها ورعيها ٠

مراكز الحضارات المصرية الأولية فى عصر فجر التاريخ :

عاشت القرى المصرية الصغيرة الأولى فى وحدات صغيرة متفرقة لفترات طويلة ، ولكنها لم تعدم على الرغم من تفرقها ملامح مشتركة قربت بينها ، كما لم تعدم فنونها الأولية روحا من التشابه آخت بينها ، وذلك بحيث أصبح التنوع بينها تنوعا داخل وحدة كبيرة ، وهى وحدة الجنس والذوق ، ووحدة البيئة والمطالب المحدودة ٠

وتميز من المراكز الحضارية الأولية فى بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر كل من : حضارة مرمدة بنى سلامة قرب رأس الدلتا ، وحضارة الفيوم فى مدخل مصر الوسطى ، ثم حضارة دير تاسا فى أسيوط بقلب الصعيد ٠ ولم تكن هذه المراكز هى كل التجمع والحضارة فى ذلك العصر ٠٠ وانما هى التى أجريت فيها بحوث أثرية حديثة أكثر مما سواها من المراكز المصرية الأخرى المعاصرة لها ٠

فى مرمدة بنى سلامة :

تبين من خصائص حضارة هذه البلدة أن أهلها اعتادوا على أن يخزنوا غلالهم فى زنابيل وحفر بين مساكنهم المتواضعة ، بحيث يكون لكل مسكن منها خزينه الخاص ٠ واعتادوا كذلك على دفن موتاهم بين مساكنهم أيضا ، دون تزويدهم بقربان خاص عدا حفنة من الحبوب توضع أحيانا قرب أفواههم ربما اعتقادا بأن دفنهم بين المساكن يمكن أن يهيىء لأرواحهم أن تشارك أهلها الأحياء فى الانتفاع بما يطعمونه ويشربونه فى الحياة الدنيا ٠

وتبين من أطلال المساكن البسيطة لأهل مرمدة أن مجموعة منها التزمت صفين شبه مستقيمين يفصل بينهما طريق ضيق يمتد

نحو ٨٠ مترا . ويعتبر ذلك أقدم تخطيط سكنى معروف حتى الآن، وأقدم ظاهرة تدل على نوع من التفاهم الاجتماعى ووجود سلطة فى البلدة استحبت التنظيم وعملت على تنفيذه .

ووجدت فى مرمدة قطع صغيرة مشكلة من الصلصال المحروق مثل بعضها جذع أنثى ، وقدما بشرية ، ونموذجا لقارب . وهى من أقدم قطع الفن التشكيلى فى عصرها .

فى الفيوم :

تقع الفيوم فى منطقة من مناطق الحواف الصحراوية ولكنها انتفعت كما هو معروف ببحيرة متسعة كانت عذبة وتحيط بها المدرجات الخصبة الصالحة للزراعة . ولوحظ فى آثار العصر الحجرى الحديث بالفيوم أن مطامير غلالها جمعت فى مجموعتين خارج منطقة المساكن على ربوة مرتفعة نوعا ، رغبة فى الابتعاد بها عن رطوبة أرض الزراعة وعن منطقة السكن ، وحيث تتيسر حراستها فى جملتها . والى جانب هذا الفرض العملى ظهر فرض آخر رأى أن تفرق مطامير مرمدة بنى سلامة بين مساكنها يدل على استقلال كل فرد فيها بملكيته الخاصة ، وأن تجمع مطامير الفيوم فى منطقة واحدة أو منطقتين يمكن أن يدل على شيوع الملكية الجماعية بين أهلها .

فى دير تاسا :

تميز فخار دير تاسا عن فخار المناطق المعاصرة لها فى بعض أشكاله وزخارفه . فقد صنعت منه كئوس تشبه زهرة اللوتس ، وزخرفت بخطوط محفورة كانت تملأ بعجينة بيضاء فى تشكيلات بسيطة ولكنها لطيفة وراقية بالنسبة لعصرها .

ووضحت عادات الدفن الأولية وتصورات ما بعد الموت فى مقابر دير تاسا • وكانت المقبرة عبارة عن حفرة صغيرة ذات أركان ملفوفة يكفن المتوفى فيها بالجلد أو الكتان أو الحصير ، ويوضع على جانبه الأيسر فى هيئة الانثناء بحيث يتجه وجهه ناحية الغرب ، وتوضع معه بعض الأوانى الفخارية وبعض الأدوات التى كان يستخدمها فى حياته ، وبعض الحلى وأدوات الزينة المناسبة له •

ويبدو أن وضع القرفصاء أو الانثناء للمتوفى كان مرتبطا بضيق الحفرة ، كما كان يشبه وضع النوم العادى لاسيما أنه كانت توضع تحت رأسه أحيانا كومة من القش أو الكتان تشبه الوسادة •

فى عصر بداية المعادن :

كان الانقلاب الحضارى الكبير التالى فى فجر التاريخ بعد معرفة الزراعة ، والرعى ، ونشأة القرى ، هو استخراج بعض المعادن وصهرها وتصنيعها • وكان أقدم ما استخدمه الانسان من المعادن (خلا حديد النيازك الذى كان يجده عفوا أحيانا ولا يعرف صهره) ، هو معدن النحاس الذى يمكن العثور عليه قرب سطح الأرض فى مناطق الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء ، مختلطا بمواد يمكن صهرها بمجهود يسير وفى حرارة ليست عالية جدا •

وبدأ الانتفاع بالنحاس على نطاق ضيق بتصنيعه على هيئة الخرز الصغير المستخدم فى الزينة ، وفى شكل مثاقب دقيقة استخدمت فى ثقب حبات الخرز الحجرية ، ودبابيس طويلة استخدمت فى شبك الملابس الجلدية والكتانية • ثم اتسع استخدام النحاس اتساعا نسبيا مع مرور الزمن ، وصنعت منه بعض المدى

والأسلحة الصغيرة ، وبدأ ذلك فيما يغلب على الظن فى منطقة البدارى بمحافظة أسيوط منذ أواسط الألف الخامسة ق٠م ٠

فى حضارة البدارى :

صنع البداريون أوانى فخارية رقيقة الى حد ملحوظ مما دفع بعض الباحثين الى تسميتها أوانى قشر البيض ، وكانت أنواعها الفاخرة تزخرف برسوم محفورة حفرا بسيطا بأشكال تقلد غصون النبات وأوراق الشجر وأشكالا تكوينية أخرى متعددة ٠

وشغف البداريون بأدوات الزينة للرجال والنساء ، كالأساور والقلائد والخواتم وشنوف الآذان ٠ وصنعوا أمشاطا بأسنان طويلة مع تشكيل أجزائها العليا على هيئة رؤوس الطيور ، وصنعوا ابرا من النحاس والعظم والعاج واهتدوا الى طريقة ثقبها ٠ وكان أمتع ما صنعوه ملاعق عاجية نوعوا تجاويفها المستطيلة والبيضية والمربعة بما لا يكاد يختلف كثيرا عن أشكال الملاعق الحالية ، كما شكلوا مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية ، وأبدعوا فى هذا كله على الرغم من أنهم عاشوا قبل العصر الحاضر بأكثر من ستة آلاف وخمسمائة عام ٠

ومارس مهرة الصناع فى البدارى الفن التشكيلى فى الصلصال والفخار والعاج ٠ ومن أفضل ما بقى لهم تمثال صغير من الفخار الملون لفتاة عارية بلغ تناسق جسمها درجة واضحة من الابداع لولا بروز عجزها الذى يحتمل أنه قصد لذاته ، ولولا عدم تشكيل كفيها ، فضلا عن ضياع راس التمثال وجزء من ساقيه ٠

وزاد البداريون من العناية بمقابرهم وعقائد ما بعد الموت ٠ وبدأوا بعادتين جديدتين ، وهما وضع المتوفى على لوحة مستطحة

كمرحلة من مراحل التطور الى فكرة التابوت ، ثم تبطين جوانب حفرة الدفن بالحصير ، حماية لها من تساقط الرمال والحصباء فيها ·

ويدل ما سلف ذكره على تجديدات البداريين وجيرانهم التاسيين من قبلهم فى صناعة الفخار وزخرفته وتشكيل الملاعق وحلى الزينة والتماثيل الصغيرة فضلا عن العناية بالموتى ، على أن ما توسعت فيه الحضارة المصرية فيما بعد فى بداية عصورها التاريخية من العقائد والصناعات والأذواق الفنية انما نشأ فى أرض مصر وبأيدى أهلها وامتدت أصوله الى ما قبل العصور التاريخية بزمن طويل ·

بدايات ما قبل الأسرات :

لم تستمر القرى المصرية الأولى متفرقة عهودا طويلة وانما شجعتها على التقارب من بعضها البعض عوامل متعددة ومنها : عوامل المصالح المشتركة ، وتبادل المواد الأولية والمصنوعات والمتاجر، ومناسبات الزواج ، والرغبة فى التحالف لدرء خطر عدو قريب أو بعيد · ثم عوامل بسط النفوذ التى كانت تدفع الجماعات القوية لضم الجماعات القريبة منها تحت زعامتها ، وعوامل الاشتراك فى تقديس مظهر الهى معين يتضح أثره فى منطقة واسعة تشترك فى سكناها أكثر من جماعة واحدة ·

وليس من نصوص ولا مناظر قديمة تصور نتائج العوامل السابقة فى حياة أهلها واحدة فواحدة ، ولكن يبدو أنه ترتب على انضمام بعض القرى الى بعض أن نشأ عدد من الأقاليم ذات الحدود الاعتبارية والحدود الطبيعية ، ثم تهيأ للفريق الأقوى فى كل اقليم أن يجعل قريته الكبيرة مدينة حاضرة لاقليمه ما دامت تتوافر لها

الحصانة الطبيعية والمقومات المادية والكثرة العددية • كما تهيأ له أن يسود حاكمه ومعبوده على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق اقليمه ، وبهذا أصبح لكل اقليم عاصمته ومعبوده الأكبر ، وأصبح له رمزه الذى يقوم مقام اللواء والعلم ، وقد يكون هذا الرمز ذا صلة بصورة المعبود الأكبر فى بلده ، أو ذا صلة بخصائص بيئة اقليمه • أو ذا صلة بالمهنة الغالبة فى مجتمعه ، أو ذا صلة بالصفات التى يعتقدها أهله فى انفسهم • واستمرت ذكريات هذه الرموز باقية فيما احتفظت به العصور التاريخية من شعارات الأقاليم وأسمائها القديمة • ويبدو أنه تكرر بين الأقاليم بعد ذلك ما حدث بين القرى ، فنما بعضها نموا حضاريا سليما ، أى باستصلاح أراض زراعية جديدة ، وبالتوسع فى الانتاج والتبادل الاقتصادى ، والتوسع فى الاتصالات والمحالفات ، بينما اتسع بعضها الآخر عن طريق القوة وبسط النفوذ على حساب جيرانه المستضعفين • ثم أدى هذا وذاك الى نشأة بضعة أقاليم كبيرة قامت فى زمانها مقام الممالك الصغيرة ، وازدهرت فى ظلها أهم حضارات عصر بداية المعادن الخالكوليثى ، وبدايات عصر ما قبل الأسرات ، لا سيما فى عهد حضارة نقادة الأولى ، وحضارة المعادى ، وحضارة نقادة الثانية •

حضارة نقادة الأولى :

كانت نقادة التى نسبت اليها هذه الحضارة مجرد جبانة متسعة لمدينة متحضرة قريبة منها اسمها « نوبت » ربما بمعنى الذهبية • وقامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية فى محافظة قنا ، فى مواجهة مدينة قفط ، وعلى بداية الطريق الى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية وساحل البحر الأحمر • وكان معبودها الأكبر هو المعبود سوتخ (أوست) • وربما رجع توقيتها الى الربع الأول من الألف الخامسة قبل الميلاد •

وزادت هذه الحضارة من استخدام معدن النحاس ، وارتقت رقيا نسبيا بزخارف الفخار وصناعة الخناجر والأسلحة من الظران الرقيق ، كما ارتقت بالمساكن والمقابر ومحتوياتها ، بالنسبة لكبار القوم على أقل تقدير ٠

كانت زخارف أوانى الفخار فى حضارة نقادة الأولى رسوما تخطيطية فى مجملها اعتمدت على الخطوط المستقيمة والمائلة ، وملئت فراغاتها بخطوط أخرى بيضاء متقاطعة ٠ وذلك مما دعا تسمية فخارها باسم الفخار ذى الرسوم البيضاء المتقاطعة ٠ وصنعت بعض هذه الأوانى المزخرفة على هيئة كئوس بشعبتين وثلاث شعب ، وصنع بعضها بأربعة قوائم ، مما يعنى أنها كانت تعتبر مقتنيات فاخرة بمقاييس عصرها ٠

وجمعت زخارف نقادة بين الرسوم التخطيطية والرسوم اللينة والطبيعية ٠ وصورت حيوانات محلية ، كما صورت راقصين وراقصات بأحجام صغيرة وأشكال تقريبية ، ومناظر صيد وقوارب ملاحية ٠٠ والتزمت فى هذا ببعض المبادىء التى لازمت الفن المصرى القديم فى بقية عصوره المتتالية ، من حيث تصوير الانسان من زاويتين ، صدره وكتفيه من الأمام وبقية جسمه من الجانب ، وتصوير مفردات الرسم مستقلة عن بعضها البعض ، الواحد منها أعلى الآخر او بجانبه دون أن يخفيه أو يقاطعه ٠

وبدأ بعض الصناع المهرة من النقاديين تصوير الدوائر المنتظمة فى زخارفهم وارتقوا برسم الاطارات حول صور الفخار ، وكانت قد ظهرت بصورة مختصرة فى زخارف البدارى ٠ وامتازت بعض صورهم بدقة الملاحظة ، ومنها رسم قارب بمسقط جانبى ، ورسم قارب آخر بمسقط أفقى ٠ ولم يكن تصوير هذه المساقط شيئا

هينا بالنسبة لعصره . وتميزت سطوح بعض الأوانى بعلامات مفردة مختصرة كان بعضها يرمز الى أصحابها أو صناعها ، وبعضها يرمز الى معبوداتهم ، بل جسم أحدها هيئة تاج الوجه البحرى على سطح آنية ، وصور آخر واجهة قصر الحكم تعلوه صورة الصقر . مما يعنى أن هذه الرموز السياسية المصرية ترجع بدورها الى عهود سحيقة من فجر التاريخ .

واستمرت صناعة التماثيل الصغيرة من الصلصال والفخار بل من العاج أحيانا ، وظل أغلبها لنساء ، ربما لحب تمثيل الجنس الآخر ، أو لكى ترمز الى الزوجات اللائى يتمنى المتوفى أن ينجبن له فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة ، وما يمثل الجوارى والراقصات لمتعته فى العالم الآخر ، فضلا على تمثيل ربات الأمومة لكى يسبغن على الشخص الحماية والرعاية .

حضارة المعادى :

اكتسبت حفائر المعادى لما قبل الأسرات بعض الأهمية لوجودها قرب رأس الدلتا القديمة ، وقيام البحث فيها فى منطقة المساكن . ومثلت بانتاجها حضارة منطقتها فى عصر بداية المعادن (أو العصر النحاسى الحجرى) .

وعثر فيها على ثلاثة أنواع من المساكن المتواضعة اتخذ أكثرها تطورا هيئة الاستطالة . وعثر فيها على حفر مختلفة الشكل والسعة استخدمت لخزن الحبوب وللمواقد ، ولمدقات الحبوب . وتجمعت أعداد كثيرة من حفر الخزين لدى الأطراف الشمالية والجنوبية من البلدة . ويحتمل أنه كانت تتضمنها مبان مسقوفة ومسورة بالدبش وجواليس الطين ، قامت بدور المخازن العامة وخضعت لسلطة ما فى البلدة أشرفت عليها .

واختلفت زخارف فخار المعادى عن فخار حضارة نقادة الأولى وعن زخارف حضـــارة نقادة الثانية ، ومثلت فيما نعتقد مرحــلة تتوسطهما • وانتفع أهل المنطقة بموقعها على بداية طريق يؤدى الى خليج الســويس وما وراءه من أرض ســيناء ، فى استخراج النحاس وجلب الأحجار وتنشيط التبادل التجارى الذى امتد الى جنوب الأردن وفلسطين ، سواء باتصـــال مباشر أو باتصال غير مباشر عن طريق الوسطاء •

حضارة نقــادة الثانية :

اتسعت مجالات الانتاج الاقتصادى والفنى فى نقادة خــلال عصر حضارتها الثانيــة • ولم تقتصر خصائصها على مناطق الصعيد كما كان شأن حضارتها الأولى ، وانما ظهرت بعض معالم انتاجها فى الشمال حتى الدلتا ، وفى الجنوب حتى النوبة ، كما دل ما وجد فيها من أحجار شبه كريمة ومعادن على تعاملها المتقطع مع مناطق خارجيــة فى الشام حتى ضفاف الفرات وربما فى افريقيا لمـــا بعد السودان • وانعكس رخاء عصرها على تطور المهارات بها فى الرسم والنقش وعمل التماثيل ، وبنـــاء المساكن والمقابر بل بعض وسائل التسليــة •

ونفذت زخارف الفخار فى هذه الحضارة بلون أحمر ، وزادت فيها صــور البشر والنباتات والحيوانات والمراكب • وكان من تجديداتها فى رسم الأفراد تصفيف شعر الأنثى على هيئة دائرية عوضا عن الشعر المسترسل فى فترة نقادة الأولى ، وكثرة صــور الرقص الدينى والدنيوى الذى يشترك فيه رجال ونساء • والتعبير عن نشاط الرجل فى حياته العمليــة بتقديم احــدى ساقيــه عن الأخرى على عكس ساقى الأنثى المتجاورتين • وتصوير يده اليسرى

تمسك بعصا أو قوس أو رمح ٠٠ وهذه كلها ظواهر استمرت فيما بعد مع الفن المصرى خلال العصور التاريخية ٠

وزاد تصوير المراكب على أوانى الفخار النقادى ، ودل ذلك على زيادة استخدامها فى السفر ونقل المنتجات وفى نقل الموتى ٠ وغالبا ما كانت تصور على سطح المركب قمرتان خفيفتان من سيقان الغاب يفصل بينهما ممر ضيق ، وجريدة نخل بفروع مختلفة لتميز بين كل مركب وأخرى ولكى تظلل الملاح تحتها ، فضلا عن صار طويل يعلوه رمز خاص يدل على صاحب المركب أو بلده أو معبوده ٠

وقلت رسوم الفخار شيئا فشيئا فى نقادة بعد أن زاد تصنيع استخدام الأوانى من الأحجار المختلفة ٠ وحل النقش محلها على مقابض الخناجر والسكاكين والأمشاط العريضة ، وعلى صلايات الشست ورؤوس مقامع القتال الفاخرة ٠ وبلغ من دقة أحد الفنانين حينذاك أن نقش ٢١٨ صورة دقيقة لحيوانات مختلفة فى صفوف أفقية على مقبض سكين لا يتعدى عرضه سنتيمترات قليلة ٠ واعتبر عالم الحيوان مجالا خصبا للتعبير عن أساطير العصر وأحداثه وخيالاته ٠ والى جانب الحيوانات الطبيعية صور الرسامون كائنات خرافية تخيلوها فى أحجام متواضعة ٠

وتنوعت أشكال المساكن والمقابر فى حضارة نقادة الثانية ٠ والى جانب المساكن البدائية القديمة من البوص وفروع الأشجار ، ظهرت مساكن أخرى مستطيلة أو مربعة المساحة تبنى من اللبن ٠ وعثر على نموذج لمسكن مستطيل الشكل ذى واجهة مائلة الجوانب يزداد اتساعها فى أسفلها عن اتساعها فى أعلاها ضمانا لثبات رصات اللبن ٠ ولتخفيف الضغط العلوى عليها ٠ وتوسط هذه الواجهة مدخل ضيق صنع قائماه الجانبيان وعتبه العلوى من الخشب ،

وظهرت له شراعة علوية للاضاءة ، وثبتت تحتهـا طبلة خشبية أسطوانية كان يلف عليهـا حصير يجذب الى أسفل لستر المدخل • وتوسطت الجزء العلوى من الواجهـة الخلفيـة للمسكن نافذتان علويتان ضيقتان للاضاءة مع الحفاظ على حرمة المسكن • وظهر منظر لمسكن آخر فاخر بثلاثة مداخل متجاورة •

وكما تطورت مباني المساكن المهمة تطورت أيضا مباني المقابر المهمـة فى نقادة • وأصبحت جوانب حفرة الدفن تكسى بالبـوص أو الحصير أو بألواح خشبية أو بجواليس الطين وقوالب اللبن ، مما أدى الى تحويلها من حفرة الى حجرة •• ثم قسمت هـذه الحجرة الى حجرتين احداهما لجثة المتوفى وحاجاته الثمينة والثانية لقرابينه الأخرى ، وفى نهاية العصر قسمت الى ثلاث حجرات ، مما مهد لتوسعات أخري فى عصور تالية •

وعلى الرغم من اتساع ازدهار حضـارة نقادة الثانيـة فى الصعيد وما تلاه ، فانه يحتمل أن تكون قد نشأت أولا فى الوجـه البحرى حين أدت ظروفه الخاصبـة الى تجميـع سلطاته تحت رئاسة ملك تتوج بتاج أحمر ذي شكل معين أسلفنا من قبل أن صورته جسدت على آنية فخارية عثر عليها فى نقادة • وعندما اتسع التفوق الحضارى والسياسي لهذه المملكة الشـمالية التى اتخذت عاصمتها حينذاك فى مدينة « أونو » قرب رأس الدلتا ، وهى عين شمس الحالية كما سيرد النص عليها بعد قليل ، شجعها ذلك على مد نفوذها السيـاسي والحضارى على الصعيد واتخـاذ عاصمته القديمة نوبت مركزا لها •

ممالك فجر التاريخ والسعى الي تحقيق الوحدة السياسية :

لم يكن من المتوقع أن تتحد أجزاء مصر القديمة فى دولة واحدة فجأة أو بمجهود ملك واحد مثل مينى أول ملوك العصور التاريخية

كما كانت تظن بعض المراجع القديمة . وانما تم ذلك بعد عدة مراحل قد تبلغ تسع مراحل تعاقب فيها النجاح والفشل ، وأدت كل مرحلة منها الى ما تلاها .

وبناء على عدد من البحوث الأثرية والتاريخية أمكن إستنتاج مسيرة هـذه المراحل من مصـادر متفرقة يرجـع بعضها الى فجر التاريخ ، ويرجع بعضها الآخر الى ما بعده . وكان منها ما دلت عليه الوية ورموز الأقاليم والممالك الأولى الصغيرة ، وبعض نقوش الصلايات ورؤوس مقامع القتـال الفـاخرة ، وما تضمنته القصص والأساطير ونصـوص الأهرام فيما بعد من تلميحات عن أحـداث بعيدة وعقائد عتيقة ، ثم ما جاءت به بعض قوائم الملوك التى أشار كتبتها الى تاريخ أوائل الحكام القدامى بأسـلوب درامى تخيلى . وكذا ما دلت عليه الألقاب الملكية التقليدية التى توارثها فراعنـة العصور التاريخية وتبين أنها ترجع الى أصول بعيدة .

ونرتب هذه المراحل المقترحة من ناحيتنا على النحو التالى :

اولا ــ بدأت مناطق الوجه البحرى نضجها السياسى الفعلى منذ تجمع أغلبهـا فى مملكتين صغيرتين خـلال مرحلة عتيقـة من مراحل ما قبل الأسرات قد ترجع احتمالا الى الربع الأول أو الثانى من الألف الخامسة ق.م : مملكة فى شرق الدلتا قامت عاصمتها فى مدينة « عنجة » قرب بلدة سمنود الحالية ، وكان لواؤها على شكل الحربة ، وصور ربها الأكبر « عنجتى » فيما بعد بصـورة بشرية وريشتين ومذبة عبرت فى العصور التاريخية عن الصولجان .. وعصـا معقوفـة الطرف العـلوى عبرت عن الرئاسـة ، وذلك مما يعنى أن الرموز التقليدية للملكية المصرية تضرب بجذورهـا الى ما قبل العصور التاريخية بكثير . وقامت المملكة الثانية فى غرب الدلتا واعتبرت المعبود حور (أو حورس) ربها الأكبر ورمزت اليه

بهيئة الصقر • ويحتمل أنها جعلت عاصمتها فى موقع مدينة دمنهور الحالية التى يعنى اسمها فى اللغة المصرية القديمة « مدينة حور » •

ثانيا ــ تمت الخطوة السياسية باتحاد مملكتى الوجه البحرى فى دولة واحدة قامت عاصمتها فى مدينة « ساو » ، أو سايس ، التى قامت على أطلالها واحتفظت باسمها القديم بلدة صا الحجر الحالية قرب فرع رشيد • واتخذت الربة نيت حامية لها باعتبارها من رعاة الحرب • كما جعلت هيئة النحلة شعارا لمملكتها وربما للتمثل بعملها الدءوب المنتج • وتتوج ملكها بتاج أحمر • واصبحت هذه الظواهر بدورها من رموز الملكية المصرية التاريخية التى احتفظت بها حتى آخر أيامها •

ثالثا ــ قامت فى الصعيد مملكة مقابلة عاصرت الخطوة الثانية السابقة ، حيث اجتمع شمل أكبر أقالم الصعيد تحت زعامة مدينة نوبت فى قنا ، واعترفت بسيادة معبودها الأكبر « ست » (أو سوتخ) الذى رمزت اليه بصورة حيوان خرافى •• وازدهرت حضارة نقادة الأولى فى ظل هذه المملكة الصعيدية الناهضة وتبادلت متاجرها مع المملكة الشمالية المنافسة لها •

رابعا ــ عادت عاصمة مملكة الوجه البحرى الى مدينة عنجة القديمة التى اعترفت بزعامة وربوبية المعبود أوزير (أو أوزيريس) • وأصبحت تنسب اليه وتسمى «بر أوزير » ، وقامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة أبو صير الحالية بجوار سمنود • ويبدو أن هذه المملكة قد نجحت فى بسط سلطانها على الصعيد وأوشكت أن تحقق أول وحدة سياسية لمصر كلها أو لأغلب أقاليمها ، بحيث رددت الأساطير أن ربها أوزير كان أول

من ولى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة على هيئة البشر ٠ وصورته العقائد على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج للصعيد والدلتا ٠

خامسا — انقلب الصعيد بزعامة أنصار معبوده ست على دولة أوزير ، وانتصر عليها وقضى على سلطانها ٠٠ وهو ما رمزت الأساطير اليه فيما بعد بنقمة المعبود ست على أخيه المعبود أوزير وحسده على ملكه ، ثم تدبيره أمر مقتله والاستيلاء على عرشه ٠ ومن الملاحظ هنا اعترافها بأخوتهما لبعضهما رغم التنافس القائم بينهما ٠

سادسا — سعت دولة الوجه البحرى الى استعادة زعامتها القديمة ، وجعلت عاصمتها هذه المرة فى مدينة تتوسط بين نهاية الدلتا ونهاية الصعيد وهى مدينة أونو (أى هليوبوليس أو عين شمس والمطرية الحاليتين) ٠ وبقى الولاء الدينى فيها لأوزير الى جانب ربها المحلى آتوم ، ثم رب آخر أصبح فيما بعد أكثر شهرة منهما وهو رع رب الشمس ٠

وعندما تحققت الوحدة السياسية والحضارية والسياسية الثانية للدلتا والصعيد بزعامة أونو ، خرج فلاسفة هذه المدينة بأقدم مذهب دينى لتفسير نشأة الوجود ٠ وقد بدأ بصورة مادية ثم مال الى المعنويات شيئا فشيئا ٠ ولم يسجل كتابة الا بعد تأليفه بقرون طويلة ٠ وفى احدى صوره المكتوبة رد عناصر الكون واسباب عمرانه الى تسعة أرباب ، وتخيل فى بداية الأمر محيطا مائيا أوليا يسمى « نون » ٠ ومن هذا المحيط ظهر الاله الخالق أتوم الذى أوجد نفسه بنفسه ثم خلق من ذاته ذكرا وأنثى ، وهما : شو (روح الهواء والفضاء والنور) وتفنوت (روح الرطوبة والندى) ٠ وتولد عن هذين العنصرين القدسيين ، ذكر وأنثى

آخران ، وهما : جب (رب الأرض) ، ونوت (ربة السماء) • وظل هذان متصلين حتى رفع شــو السماء بربتها الى اعلى وملأ ما بينها وبين الأرض وربها بنوره ، ولكن بعد ان تولد عنهما فى فترة اتصالهما أربعة أبناء ذكران وأنثيان ، أوزير وست ، وايسه ونبت حت (أو على حد التعبير الاغريقى الشائع • أوزيريس وست ، وايزيس ونفتيس) • ومثل هؤلاء الأربعة الرعيل الأول الذى جمع بين الألوهية والبشرية وبدأ به عمران الكون ، كمــا تم به كيــان تاســوع عين شــمس الأكبر • وهو رعيل يكاد يشبه أولاد آدم الأربعــة •

ويبدو أن عصر هذه الوحدة السياسية والعقائدية كان هو عصر نقادة الثانيــة الذى نشأت حضارته فى الوجه البحرى أولا ثم زحف أصحابها بها الى الصعيد وصبغوا حضارته بصبغتها وتطوروا بها فى رحابه • ولكن أمور دولة عين شمس لم تسر هينة ولم تســلم من منازعات قامت قرب عاصمتها نفسها وكذا فى مصر الوســطى ، مما أضعف كيانها وجرأ الصعيد على الانفصــال عنها وتمزيق وحدتها ، أو على حد رواية الأساطير جعل المعبود ست يعمل على قتل أخيه المعبود أوزير وتمزيق جثته •

ســابعا ــ لم يكن ضياع نفوذ زعماء الوجه البحرى وأربابه بغير رد فعل فى الدلتا • وترتب عليه أن اتحد أتبــاع أوزير القدامى وحلفاؤهم من أتباع الأرباب المتصلين به • وابتغوا القصــاص لمقتله وتمزيقه على حد قول الأساطير ، وبمعنى أصح ابتغوا القصــاص لضياع نفوذهم القديم وتمزيق وحــدة دولتهم • فجعلوا زعامتهم الدينية والرمزية للمعبود « حور » (حورس) فى مدينة « بــه » قرب دســوق الحالية ، باعتباره ولدا روحيا لأوزير من زوجتــه ايســة ، ولقب بالمنتقم لأبيــه ، وبدأوا جهودهم لتنفيذ القصاص

وتوحيد البلاد تحت زعامتهم ، وطالت المواقع بينهم وبين أتباع ست رب الصعيد • ويبدو أن كلا منهما أضر بالآخر ضررا بليغا ، حتى تدخل بعض زعماء منطقة ملوى الحالية بينهما ونجحوا فى عقد هدنة بينهما • وشجعت هذه الهدنة أنصار حور على عرض الأمر على حكماء البلاد أو أرباب البلاد ، فبرأوا أوزير من تهمة العدوان • وتشجع أنصار ولده حور بهذا الحكم القضائى أو الالهى وعادوا نشر نفوذهم الدينى ونجحوا فى ذلك الى حد أن أصبحت هيئة الصقر رمز ربهم حور علما على أرباب مدن كثيرة فى الدلتا وفى الصعيد أيضا • ولكن هذا لم ينفعهم سياسيا ، وظل اغلب زعماء الصعيد يصرون على استقلالهم فيه •

ثامنا ــ عادت مصر بهذا الوضع مملكتين : مملكة فى الوجه البحرى استقرت عاصمتها فى « بـه » مدينة حور التى قامت على انقاضها قرية ابطو أو تل الفراعين قرب دسوق الحالية ، واحتفظ ملوكها بميراث مملكة غرب الدلتا القديمة وعاصمتها « ساو » ، فتتوجوا بتاجها الأحمر وتلقب كل منهم بلقب « بيتى » أى المنتسب الى رمزها المصور على هيئة النحلة ، وذلك الى جانب اعتبارهم ورثة حور (حورس) على الأرض • أما مملكتهم ذاتها فاتخذت نبات البردى شعارا لها • وجاورت مدينة « بـه » ضاحية دينية تسمى « دب » قدست معبودة باسم واجة رمز اليها بهيئة الحية ، فاعتبرها الملوك حاميتهم واعتادوا على وضع رمزها فوق جباههم تبركا به والتماسا لحمايته •

ثم مملكة الصعيد التى استقر ملوكها فى بلدة « نخن » وهى مدينة قامت على أطلالها بلدة الكوم الأحمر الحالية شمالى إدفو ، وجعلوا ربوبيتها للمعبود حور الصعيدى ورمزوا اليه بالصقر أيضا • وتتوج ملوك هذه المملكة بتاج أبيض طويل ، واتخذوا نباتا

يسمى « سـوت » رمزا لهم ، قد يكون من البوص أو الأسـل أو الخيزران ، وانتسبوا اليه فأصبحوا يلقبون بين قومهـم بلقب « سوتى » ، ولقب « نيسو » • أما مملكتهم نفسها فاتخـذت زهرة اللوتس أو الزنبق شـعارا لها • وجاورت العاصمة نخن ضاحية دينية سميت « نخاب » قامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة الكاب الحالية ، وعبدت ربـة رمز اليها بأنثى العقاب ، فاعتبرها الملوك راعيتهم وحاميتهم ووضعوا رمزها على جباههم فى مقـابل ربة الشمال ورمزها •

ومن هذه المملكة الصعيدية خرج أهم وآخر دعاة الوحـدة التاريخيـة الفعلية وزعمائها ، وهما الملكان العقرب ، ونعرمر • وان كان يبدو أن عاصمتها انتقلت حينذاك من نخن فى أقصى الصعيد الى بلدة « ثنى » فى أواسطه قرب جرجا الحالية •

تاسـعا ــ بدأت المرحـلة التطورية الأخيرة كما ذكرنا حين تزعم الصعيد ودعوة الوحدة الملك الملقب بالعقرب • وقد وجـدت له عدة آثار صغيرة أهمها رأس مقمعة قتال نقشت عليها هيئته بتاج الصعيد فى وضـع مهيب يعتبر النموذج المبكر لصور ملوك العصور التاريخية • وصور يرأس حفلا تقليديا باعتباره ملكا يولى مشروعات الرى والزراعة حقهـا كما يولى مشروعات الحرب حقها • وقد مهد بأعماله هذه لأعمال خلفـه الأكثر شـهرة منه وهو الملك نعرمر أو الملك منى •

صورت آثار الملك نعرمر مرحلتين متمايزتين فى عهده ، مرحلة واصل خلالها كفـاح أسلافه لضـم الدلتـا الى الصعيد فى دولة واحدة ، وأخرى استمتع فيها بنتائج جهوده وجهود سلفه بعد أن حقق وحدة البلاد كاملة فعلا تحت حكمه •

وسجلت صلاية الملك نعرمر آخر مراحل كفاحه ونتائجها . وقد وجدت فى معبد نخن ، ونقلت الى متحف القـاهرة ، واشتركت نقوش وجهها وظهرها فى مناظر معينة واختلفت فى مناظر أخرى . فظهر على الجزء العلوى لكل منهما اسم « نعرمر » داخل اطار يرمز الى واجهة قصره . وظهر على جانبى هـذا الاسـم (على الوجهين) رأسان للمعبودة « حتحور » ممثلاها بوجه سيدة مليحة وقرنى بقرة وأذنيها ، وكانت من المرات الأولى التى صور المصريون فيها رباتهم بصـورة تجمع بين البشرية والحيوانية .

واختلف وجه هذه الصلاية وظهرها فى بقية المناظر ، ولكن مهد أولهما للآخر . فتصـدرت نقوش الوجه صورة الملك نعرمر فى قوام فارع وحجم كبير يزيد على أحجام بقية المصورين حوله ، تأكيدا لجلاله وعظم قدره . وأظهرته بتاج الصعيد ، يأخذ بناصية زعيم خصـومه ، ويهم بضربه بمقمعته . وواجه الملك صقر عظيم يرمز الى المعبود حور آخذا فى كفه البشرية اليمنى بخطام رأس بشرى كبير يخرج من أرض تنمو فيها سيقان البردى وترمز الى أرض الوجه البحرى ، كأنه يسلس قيادها له ويتم بها وحدة ملكه . وظهر أسفل الملك قتيلان سجل الفنان مع كل منهما اسم مدينته ، وسار خلف الملك رجل من حاشيته بقلادة عريضـة يحمل له نعليه وقدرا تحوى ماء طهورا .

واكملت نقوش ظهر الصلاية قصة الملك نعرمر مع الوجـه البحرى بعد أن دان له . فصـورته متوجا بتاج الدلتا ، يسـير فى موكبه بمقمعته ومذبته اشارة الى اجتمـاع روح الحرب وروح السلام فيه ، يتقدمه أحد عظماء بلاطه . كما سار أمامه أربعـة من حملة الألوية فى جيشه . وسـار فى معيته ومن خلفـه حامل نعليه بقدره .

وقد خرج الملك هنا حافيا على الرغم من تاجه وصولجانه اشارة الى قداسة الحفل الذى يقصده · ولكن ظهرت أمامه صور غريبة أخرى تمثل عشرة أشخاص موثقين بالحبال قطعت رؤوسهم ووضع رأس كل منهم بين رجليه ، ويبدو أنه رمز بها الى مناسبة الزيارة ، وهى الاحتفال بذكرى نصر قديم انتصر فيه الملك أو أحد أسلافه على عشرة زعماء أو أحلاف من مناهضيه ·

واستغل الفنان المصرى وسط الصلاية لتصوير حيوانين خرافيين يتعانق عنقاهما حول بؤرة الصلاية المستديرة ويتلاقى رأساهما فوقها ·· وأظهر كلا منهما بجسم أسد ورقبة تشبه الثعبان ورأس فهد ، وأظهرهما ممتلئين قويين يرفعان ذيليهما فى غضبة هائلة ، ولكنه صور رجلين على جانبى هذين الحيوانين ، يجذب كل منهما عنق حيوانه بحبل غليظ ليبعده عن مقاتلة أخيه ، وذلك مما يرمز فى الغالب الى ما كان من مصادمة جماعتين ومحاولة كبح جماحهما على أيدى أصحاب العهد الجديد ·

وفى أسفل الصلاية ، نقش الفنان هيئة فحل شديد يهدم بقرنيه سور مدينة محصنة ، ويطأ بحافره ذراع زعيمها الذى تمدد مستسلما على الأرض · وقد رمز الفحل الى الملك ، ولم يكن تصويره على هيئة الفحل غريبا ولكن الجديد فيه هو تقليل وحشيته فى الفتك بعدوه وتصويره على شىء من الهدوء · وكأنه يبتغى السيطرة على أهل المدينة التى فتحها دون الفتك بهم · وكان ذلك آخر أدوار الكفاح المسلح من أجل تحقيق الوحدة السياسية المستقرة لمصر كلها ·



بداية العصور التاريخيـة (أو عصر بداية الأسرات والعصر العتيق ـ فى أوائل القرن الـ ٣٢ ق٠م) :

يبدأ احتساب العصور التاريخيـة لكل شعب قديم ببدايـة اهتدائه الى استخدام أشكال وعلامات كتابيـة محددة فى تسجيل شـئون تاريخـه (أهم أحداثه وأعماله ومعارفه وعلومه وعقـائده وآدابه ومعاملاته) ٠

وقد تقترن هـذه البداية الكتابيـة بأحد اعتبـارين آخرين أو كليهما ، وهما اصطبـاغ حضـارة هذا الشعب بصبغة قوميـة متجانسة ، وائتلاف وطنه فى تنظيم سياسى مستقر يناسبه ٠ وهكذا أصبحت بداية العصـور التاريخية لكل شعب قديم بداية اعتبارية تخصه بذاته ، وقد يختلف توقيتها فى قليـل أو كثير عن توقيت أمثالها لدى سواه من الشعوب ٠

وتوافرت الاعتبارات الثلاثة لمصر القديمـة فعلا منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وعن طريقها سبق تاريخها تواريخ كل من عاصرها من الشعوب ٠

ولم يكن من الطبيعى أن تشيع الكتابة المصرية القديمة وتكتمل عناصرها فجـأة أو فى وقت قصير ٠ وانما المتوقع أن تكون قد

تعددت تجاربها ومراحلها حتى استقرت قواعدها على أساس سليم • وتقديرا لهذا الأمر الواقع تحاشينا تحديد معرفة هذه الكتابة المصرية بسنة معينة • (كما حددتها بعض المراجع التاريخية الحديثة بسنة ٣٢٠٠ او ٣١٠٠ مثلا بغير دليل صريح) • وآثرنا اطلاق توقيت بدايتها بأواخر الألف الرابعة قبل الميلاد أو على أحسن تقدير بأوائل القرن ال ٣٢ ق٠م • وظهرت أولا طريقتين ، طريقة تخطيطية لم يقدر لها الشيوع وبقيت محددة بمناسبات وظروف خاصة ، ثم طريقة أخرى تصويرية أو تصورية تطورت فى مراحل متوالية يمكن القول عنها فى ايجاز شديد انها بدأت بصور مادية ، ثم أضيفت اليها أشكال مادية أيضا لمقاطع صوتية ومخصصات تفيد فى تحديد معاني الكلمات • وأخيرا بلغت غاية تطورها بابتداع أشكال أخرى متنوعة يعبر كل شكل منها عن حرف واحد من أربعة وعشرين حرفا هجائيا ، وهى أشكال حروف لم تعرف بقية الكتابات القديمة التالية أمثالها الا بعد قرون طويلة •

وسجلت الكتابة المصرية حين اكتمالها مع بداية عصورها التاريخية بخطين جمعا بين الصور المادية والمقاطع الصوتية والمخصصات والحروف الهجائية معا ، بناء على اكمال كل منها للآخر ، أو بناء على روح المحافظة التى اشتهرت مصر القديمة بها والتى دعت الى الاحتفاظ بالقديم الى جانب الجديد ، فى كل وجه من وجوه حضارتها •

وظل أول الخطين يتميز بالتصوير المتقن وطابع الزخرف وتنقش به النصوص التقليدية على الأحجار والأخشاب والمعادن ، بينما اتجه الخط الثانى الى اختصار الصور فى أشكال سريعة الأداء ، وسجلت بها بقية الشئون اليومية والمدنية على صفحات البردى والجلود وقطع الفخار ولخاف الأحجار •

ويمكن تقريب الفارق بين هذين الخطين تجاوزا الى الفارق الحالى بين خطوط اللافتات والكتب المطبوعة وخط الرقعة اليدوى السريع .. وأطلق المؤرخون الاغريق فيما بعد ذلك بقرون طويلة اسم الخط الهيروغليفى أى الخط المقدس على الخط الأول ، واسم الخط الهيراطى أى الكهونى على الخط الثانى . ثم جد فى العصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم خط ثالث كتب به منذ القرن الثامن ق.م ، وكان أكثر ايجازا فى تخطيطاته وصوره من سابقيه. وأطلق الاغريق عليه اسم الخط الديموطى بمعنى الخط العام أو كتابة الجمهور . كما جد بعد ذلك خط رابع مع دخول المسيحية الى مصر وهو الخط القبطى الذى استعار أغلب أشكال حروفه من أشكال الحروف اليونانية .

كتبت الكتابة المصرية القديمة ونقشت على ما ناسب خطوطها وأغراضها من سطوح الأحجار والفخار والأخشاب والمعادن والأبنوس والعاج ، بمصنوعاتها وفنونها المختلفة كما سلف القول عنها . وتميزت على كل الكتابات القديمة التى ظهرت بعدها بكتابتها بالمداد والأقلام على صفحات البردى التى انفردت مصر بتصنيعها منذ أوائل عصورها التاريخية ، وكانت ابتكارا معجزا بالنسبة لزمانها .

وواكبت معرفة الكتابة وتصنيع البردى خطوة أخرى لابتداع رموز حسابية مفردة عبرت عن العشرات ومضاعفاتها حتى المليون ، وأدى استخدامها الى سهولة تسجيل المجاميع العددية الكبيرة فى وحدات متصلة مرتبة يسيرة الأداء .

من نظم الحكم والادارة فى عصر بداية الأسرات :

سبق التنويه باعتبار هذا العصر بداية للعصور التاريخية على أساس بدء وجود المصادر الخطية بين آثاره واستقرار الوحدة

السياسية والحضارية على أسس ثابتة فى أيامه .. ثم تسميته « عصر بداية الأسرات » باعتباره أول عصر يمكن تأكيد توارث العرش فيه بين ملوك يرتبطون مع بعضهم البعض بروابط الدم والنسب .

وكذا اسم « العصر العتيق » للاشارة الى قدمه البعيد وسبقه للدولة القديمة . وربما أضيفت الى هذه التسميات أيضا تسمية « العصر الثنى » التى خصصها له المؤرخ المصرى مانيثون نسبة الى مدينة (ثنى) التى يبدو أنها كانت مسقط رأس أوائل ملوكه أو مقر دفنهم .

وتعاقب خلال هذا العصر ملوك الأسرتين الأوليين من الأسر المصرية الحاكمة . بدأت أولاهما بالملك « نعرمر » الذى يحتمل أنه تلقب بلقب « عحا » أى المحارب اعتزازا بجهوده العسكرية فى توطيد حكمه ، كما تلقب أخيرا بلقب (منى) بمعنى المثبت أو الراعى أو الخالد ، تنويها بنجاحه فى تثبيت ملكه ورعايته له وخلود اسمه فيه . ثم تتابع بعده ستة ملوك من أسرته عرفوا بأسماء : جر ، وواجى ، ووديمو ، وعجأب ، وسمرخت ، وقاى عا ، على التوالى .

وتتابع بعد هؤلاء ملوك الأسرة الثانية وكانوا ثمانية على أقل تقدير ، عرفوا على التتابع بأسماء : حوتب سخموى ، ونبى رع ، ونى نثر ، وبر ابسن ، وونج ، وسنج ، وخع سخم ، وخع سخموى .

الملك (الفرعون) :

كان الملك (الفرعون) المصرى منذ عصر بداية الأسرات هو رأس الدولة قولا وعملا . فهو رأس السلطات التشريعية والعسكرية

والتنفيذية ، كما أنه رأس الكهنوت وله حق ادعاء البنوة والوراثة الشرعية لآلهة الدولة الكبار ، وهكذا تركزت السلطات العليا للدولة فى قصره الذى يسمى « برعو » أو « بر نيسو » ٠ وعرف كل ملك بثلاثة ألقاب فى هـذا العصر وهى : اللقب الحورى الذى يؤكد صلته بالمعبود حور رب الدولة ويعتبره وريثه الذى يحكم باسـمه ويتجسد شخصيته ٠ « واللقب النبتى » الذى يؤكد صلته بالربتين الحاميتين القديمتين للدلتا والصعيد ٠ ثم « اللقب النيسوبيتى » الذى يؤكد صلته أيضا بالشعارين المقدسـين القديمين لكل من الوجهين ٠

غير أن القول بمثل هذه السلطات الرسمية شبه المطلقة لرأس الحـكم المصرى القـديم ، ليس من الحتم أن يبرر ما أصـبح تعبير « الفرعون » و « الفراعنة » يوسم به أحيانا فى بعض المراجـع القديمة والحديثة أيضا من تأله وتجبر وسـلطة غاشمة ٠ فلفظ « فرعون » لم يكن فى بدايته غير لقب اداري اصطلاحي كتب فى صورته المصرية القديمة « برعو » بمعنى البيت العالى أو القصر العظيم ، أى قصر الحكم المركزى الرئيسى فى الدولة ٠ ثم امتد مدلول لفظ « برعو » فأصبح يطلق على القصر والملك الذى يقيم به ٠٠ وذلك بما يشبه الى حد ما ما أصبح عليه الحـال خـلال العصر العثمانى بعد عشرات القرون من التعبير بلفظ « الباب العالى » عن قصر السلطنة ، وتجاوزا بالتالى عن السلطان نفسه ٠ بل ما زال هذا هو حال لغة الصحافة المعاصرة حين تتحدث مثلا عن سياسـة البيت الأبيض الأمريكى وتعنى بها سياسة رئيس الولايات المتحدة أو كبار مستشاريه ٠ ومع مر الزمن وربما منذ أواسـط الدولة الحديثة فى مصر القديمة جرى العرف على اطلاق لفظ « برعو » على كل ملك مصرى الى جانب اسمه الشخصى ، أو كناية عنه ٠٠ وذلك كما شاع فيما بعد أيضا اطلاق لقب « قيصر » على كل حاكم

أعلى للرومان والبيزنطيين . وكما شاع كذلك بين العرب من اطلاق لقب كسرى على أكثر من ملك من ملوك الفرس ، واطلاق لقب النجاشي على أكثر من ملك من ملوك الحبشة .. وحرفت النصوص العبرية لفظ « برعو » المصرى الى « فرعو » بناء على اختلاط نطق الباء بنطق الفاء فى بعض اللغات القديمة . ثم أضافت اللغة العربية اليه نونا أخيرة .

وهكذا لم يكن لفظ « فرعون » أو جمعه « فراعنة » ، يدل بالضرورة على تجبر الحاكم الأعلى المصرى أو يدل على جنس أو شعب بكل أفراده . واذا كان « الفرعون » المصرى الذى عاصر موسى عليه السلام قد وصف فى التوراة والقرآن الكريم بصفات التجبر والتأله والطغيان ، فلابد من التسليم بكل ما وصف به . ولكن دون ضرورة بطبيعة الحال الى تعميم صفاته تلك على كل « الفراعنة » أو كل الملوك المصريين ، وذلك لأن الحكام فى كل مجتمع وكل زمان ، أيا ما كانت ألقابهم ، قد يتعاقب منهم العادل والظالم ، والمؤمن والكافر ، والصالح والطالح . وهكذا كان شأن الملوك المصريين . وهكذا أيضا ما كان من المنطق اطلاق لفظ « الفراعنة » على كل المصريين ، وان كانوا جزءا منهم . فمن المسلم به أن تسمية القياصرة مثلا لم تعمم على كل الرومان أو الروم ، وأن تسمية الأكاسرة لم تعمم على كل الفرس ، وانما على ملوكهم .

كان عصر بداية الأسرات عصر تكوين بالنسبة لأوضاع الادارة التنفيذية العليا ، بمعنى أنه كان محدود المطالب بما يناسب عصره ، وبمعنى أن تنظيماته على الرغم من بساطتها أصبحت اساسا لكثير مما أتى بعدها . وكان من ذلك أن استخدم هذا العصر بيتين للمال سمى أحدهما البيت الأبيض أو بيت الفضة ،

واختص بضرائب الصعيد ودخله وخرجه ، وسمي الآخر البيت الأحمر وقد اختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه • وقد يفسر ازدواج هذين البيتين برغبة الحفاظ على كيانهما الذى كانا عليه قبل توحيد مصر مع بداية عصر الأسرة الأولى ، وبالتالى رغبة الاحتفاظ للوجه البحرى بشخصية اسمية ترضى أهله وتنسيهم أنهم ذابوا فى وحدة البلاد تحت رئاسة زعماء الصعيد • وذلك الى جانب الغرض العملى من توزيع مسئولية الاشراف على موارد ومصارف البلاد الواسعة بين ادارتين ماليتين كبيرتين •

واعتمدت موارد بيتى المال هذين على تحصيل الضرائب العينية التى كانت تدور حول نسبة العشر من كافة مصادرها ، ثم الانفاق منها على مشروعات الدولة والملك ومرتبات مختلف الموظفين ، فضلا عن المطالب العسكرية والدينية •

وتميز من اجراءات العصر الرئيسية رصد ارتفاع فيضانات النيل عاما فعاما • واجراء احصاء كبير كل عامين للسكان أو للمزروعات أو للمواشى • وكذا تنظيم الاشراف على شئون الرى والزراعة •• وتعددت لكل هذا مراتب الموظفين من كبار البلاط الملكى وحملة الأختام الرسمية وحكام الأقاليم ورجال بيتى المال وفروعهما ، ورؤساء الكتاب ومن اليهم ، فضلا عمن كانوا يعملون تحت رئاساتهم فى كل أنحاء الدولة •

أما من حيث عاصمة العصر فقد تركزت السلطات العليا فى مدينة « انب حج » أى مدينة الجدار الأبيض أو السور الأبيض وهى التى اشتهرت فيما بعد باسم « منف » تيمنا باسم هرم الملك ببى الأول أكبر ملوك عصر الأسرة السادسة • وكانت تقع غرب النيل حيث تقوم بلدة ميت رهينة الحالية وما حولها فى محافظة الجيزة

الى الجنوبى الغربى من مدينة القاهرة • وكان العامل الرئيسى فى اختيار موقعها هو توسطه النسبى بين نهاية الوجه القبلى وبداية الوجه البحرى • وكان المؤرخ هيرودوت قد رد انشاءها الى الملك منى ونسب اليه أنه عمل فى سبيل انشائها على تحويل مجرى النيل عنها • وذاك أمر يصعب تصور تنفيذه بالنسبة لامكانيات عصره ، وأقرب منه الى الواقع ما افترضـــه الباحث كورت زيته من أن أحد فروع النيل كان يطغى على منطقتها ويجعل أرضها أشـــبة بالجزيرة الطافية أو الأرض الناهضـــة • ولهذا عمل مهندسو عهد الملك منى على تحويل فرع النيل هـــذا (وليس النيل نفسه) الى غربها ، ثم شقوا قناة جديدة فى شمالها ، وبذلك جف ما حولها وأصبح النيل يحميها من الشرق وفرعه يحميها من الغرب والقنـــاة الجديدة تحميها من الشمال • ولم يكتفوا لها بهذه الحماية المـــائية الطبيعية الناجعة ، وانما سوروها كذلك بســـور أو أسوار من كل جوانبها ما خلا ناحية الجنوب التى واجهت الصعيد •

ونسب كهنة منف الألوهية الكبرى الى معبودهم « بتاح » الذى قد يعنى اسمه معنى الخـــالق أو الصانع أو الفتاح • وكان من أوائل المعبودات المصرية التى صورت بصورة بشرية كاملة منذ ما قبل الأسرات •• وشاركه بعض الأهميـــة فى منطقته المعبود « سكر » الذى اعتبر من رعاة الحرث والزراعة ورعاة الموتى ، وكان فى جبانة منف التى نسبت اليه فى اسمها الشائع وهو ســـقارة •

وتعمد كبار كهنة منف أن يكفلوا لعاصمتهم زعامة الفـــكر والعقيدة الى جانب ما توافر لها من زعامة السياســـة والادارة ، وعملوا على اقناع الناس بأنه كان لاله مدينتهم « بتاح » الأثر الأصيل الأول فى خلق الوجود والموجودات ، بما يسبق أثر الالـــه آتوم رب عين شمس وبقية تاسوعه المقدس • وهكذا خرج فقهـــاء

انب حج أو منف بمذهب خاص بقيت له نسخة متأخرة الزمن سجلت على لوحة حجرية فى عهد الملك شاباكا فى نهاية القرن الثامن ق·م ، تجديدا لنص قديم كان قد كتب على الجلد أو البردى وأوشكت الأرضة أن تقضى عليه · واشتهر هذا المذهب باسم مذهب « منف » واصطبغ بالمعنوية أكثر من المادية ، فرد خلق الوجود وما احتواه الى قدرة عاقلة مدبرة آمرة تمثلت فى المعبود الأكبر بتاح الذى أوجد نفسه بنفسه وأبدع الوجود ومعبوداته وناسه وحيواناته وديدانه عن قصد منه ورغبة · وكان سبيله الى الخلق كله هو سبيل القلب واللسان · أى الفكر والكلمة ، فكرة تدبرها قلبه أو عقله وأصدرها لسانه فكان من أمر الخلق ما كان · وكان لفظ القلب يعنى فى اللغة المصرية القديمة ما يدل عليه مثله فى اللغة العربية من معانى العقل والقلب والفكر والارادة والضمير ، فى حين يعنى لفظ اللسان أداة النطق والأمر والكلام · وعن سبيل القلب واللسان ، أو الفكر والكلمة ، بدأ سعى الأرجل وحركات الأذرع وخلجات الأعضاء ، وصدرت الشرائع وتهيأت الموارد ، وتعينت العبادات ، وحق الأمان لأهل السلام وحق العقاب على أهل الآثام · وهكذا اتجه فقهاء انب حج أو منف بفكرة الخلق والخالق فى مذهبهم هذا الى التجريد والمعنوية ، وعدلوا بها عن مادية التجسيد فى مثل مذهب عين شمس ، وأوشكوا بهذا أن يرهصوا ببعض ما أكدته الكتب السماوية نفسها ، حين ردوا الخلق الى القلب واللسان بمعنى الارادة والأمر ، واقتربوا بذلك الى حد ما من قول التنزيل الحكيم (**اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون**) · ولم يعتبروا ربهم خالقا فحسب وانما اعتبروه مشرعا وعادلا أيضا · ولم يفسد عليهم سمو تفكيرهم الا أنهم اعترفوا بوجود أرباب كثيرين الى جانبه ، وبرروا ذلك

بأنه خلقهم من نفسه وتعهدهم وأمر بعبادتهم والاهتمام بمعابدهم باعتبارهم صورا منه ٠

امتازت أهم مقابر سقارة (فى عصر بداية الأسرات) بضخامتها النسبية وبقاء أغلب أجزائهـا اللبنية العلوية ، وتضمنت حجرات قليلة منحوتة فى الصخر حول حجرة الدفن تحت سـطح الأرض وحجرات أخرى كثيرة داخل بناء المصطبـة فوق سطح الأرض ٠ وتعاقبت فى واجهاتها الأربع دخـلات أو مشكاوات رأسية تفاوتت فى اتساعها وفى مدى اتقان بنائها من مصطبة الى أخرى ٠

وكان يحيط بكل واحدة منها سـوران ، ويستخدم ما بين السورين لأداء الشعائر وتقديم القرابين واجتماع الأهل فى المواسم الدينيـة والتقليديـة ٠ وظهر تجديد مهم فى مصطبـة رجل يدعى « نبت كا » حيث بنى جزؤها العلوى على هيئة مسطح أفقى متسع تؤدى اليه درجات متعاقبة طويلة ضيقة من جهاته الأربع مما جعل المقبرة على هيئة المصطبة المدرجة ٠ ثم ظهر تجديدان آخران فى بناء المصطبة لتدعيم جوانبها وحماية المدخل المؤدى الى جزئها الأسفل حيث توجد حجرة الدفن ٠ ونفذ ذلك ببناء اضافة لبنية أحاطت بالمصطبة من كل جهاتها الأربع ولكنهـا قلت ارتفاعا عنها وأزادت سمك أسافل جدرانها ٠ ثم ببناء اضافة جديدة تعتمد على الاضافة الأولى من كل جوانبها وتقل ارتفاعا عنها ٠ ولـما أدت الاضافتان غرضهما العملى ، اتضح لهما غرض آخر فنى ، وهو اظهار المصطبة ذات المسطح الواحد بمظهر المصطبة المدرجة ذات السطوح الثلاثة أو ذات الدرجات الثلاث وذلك مما أصبح أساسا فيما بعد لفكرة الهرم المدرج ، ودليلا آخر على اتصال حلقات الحضارة والتطور من عصر الى عصر ٠

عصــور الدولة القديمــة
من عصر الأسرة الثالثة الى نهاية عصر الأسرة السادســة

نمت الحضارة المصرية فى الدولة القديمة نموا داخليا قوميا بلغ ذرى عالية من التنوع والضخامة لا سيما فى شئون العمــارة الدينية والفنون ، وشئون السياسة الداخلية والعقائد ٠

أولا ـ عصر الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ ـ ٢٦٨٠ ق٠م)

بدأت الدولة القديمــة بعصر الأسرة الثالثــة ، وبدأ هــذا العصر بتولى الملك (نثرخت) الذى اشــتهر فيمــا بعد باســم (زوسر) ، عرش مصر لنحو ١٩ عاما ٠

وسجلت بردية تورين التاريخيــة اســم هــذا الملك بالمداد الأحمر تأكيدا لتميزه وأهمية عهده ، كما اعتبره المؤرخ مانيثون بداية لملوك منف (وان كان الأصح أنه أكثر من أسلافه استقرارا فيهــا) ٠

ارتبطت بعهد زوسر معالم حضارية كثيرة ، أهمها مجموعته المعمارية الرائعة فى منطقة سقارة ، ومدلولات قصة المجاعة ، وابتداع التقويم المدنى (النجمى والشمسى) فى عهده • ولم يكن الفضل فى كل ذلك للملك بقدر ما كان للرجل الأول فى دولته وهو « امحوتب » •

سجلت ألقاب أمحوتب هذا فى عهد زوسر باعتباره تاليا له ، ومهندسا ، ومسجلا للحوليات ، وأمينا لأختام الوجه البحرى ، وناظرا للقصر العالى ، وكبيرا للرائين بصفته رئيسا لكهنة مدينة عين شمس ذات الشهرة الفكرية والفلكية القديمة • ويدل تنوع هذه الألقاب على أن الشخصية المثالية فى عصره كانت هى شخصية من يجمع من كل ثقافة بنصيب ولا يقصر علمه على معرفة واحدة ضيقة •

وشاعت شهرة أمحوتب حتى بعد وفاته لقرون طويلة • وجعله مثقفو الدولة الحديثة على رأس الحكماء والمعلمين • واعتاد بعض الكتبة على أن يسكبوا قطرات من الماء مع التمتمة باسمه تبركا به كلما هموا بكتابة أمر خطير •

وزاد كتبة العصور المتأخرة فقدسوه باعتباره ولدا للمعبود بتاح رب الفن والصناعة • ثم رفع أخيرا لمرتبة الربوبية واعتبر ربا للشفاء ، وذكره الاغريق المتمصرون باسم « اموتس » وشبهوه بالمعبود الاغريقى « أسخليبيوس » راعى الطب والحكمة • ومجد كما روى المؤرخ مانيتون لمهارته الطبية • وفى كل هذا ما يعنى أن مجد الشهرة فى مصر القديمة لم يكن يقتصر على الملوك الفراعنة وحدهم ، وانما كان لأفذاذ العلماء المصريين نصيب منه قد يفوق نصيب ملوكهم أحيانا •

أشرف امحوتب على بناء قبر ملكه زوسر وتوابعه فى منطقة سقارة المجاورة لعاصمته • وأجرى فيه ثلاثة تجديدات رئيسية ، هى : استخدام الحجر على نطاق واسع لأول مرة فى الجزء العلوى من القبر وتوابعه •• ، والانتقال بهيئة هذا الجزء العلوى من شكل المصطبة المستطيلة الى هيئة الهرم المدرج ، ثم تقليد وتخليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التى كانت شائعة قبل عهده ، فى تزيين عمارته الحجرية الجديدة ، وبدأ امحوتب بمراحل البناء الثلاث التى عرفها أسلافه فى بناء المقابر الكبرى وهى مصطبة واضافتان • ولكنه عمل على بنائها بالحجر وليس من اللبن • وشجعته صلابة الحجر على تنفيذ مشروع كبير يتفق مع جلال ملكه ورخاء عهده ، فعمل على أن يضيف الى جوانب المصطبة الحجرية الكبيرة اضافات جانبية مائلة ، تعتمد كل اضافة جديدة منها على الأخرى ، وتعتمد كلها على المبنى الأصيل للمصطبة الذى كان يزداد ارتفاعه قبل كل اضافة • وتم ذلك فى ثلاث مراحل أخرى ، حتى تحولت هيئة المصطبة المدرجة الى هرم مدرج ظهر فى هيئته الأخيرة كما لو كان ذا ست درجات ، بلغ ارتفاعه بها نحو ستين مترا ، وبلغ طولها من أسفل نحو ١٣٠ مترا ، وعرضها نحو مائة متر وعشرة •

توسط هرم زوسر فى سقارة مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به وشغلت معه مساحة تزيد على ٢٥١ ألف متر مربع ، وأحاط به معها سور ضخم كبير بلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، بالحجر الجيرى الأبيض الأملس ، وشيدت فيه نفس المدخلات الرأسية المتعاقبة التى ظهرت قبل عهده فى عمارة اللبن مع زيادتها عمقا وسعة بما يتناسب مع ضخامة بنائها ومادة بنائها •

وتضمنت مجموعة زوسر هذه ست عمائر دنيوية ودينية بخلاف الهرم والسور ، قلدت فيها بعض مظاهر العمارة النباتية واللبنية

القديمة • فأقيمت فيها أساطين ذات أضلاع محدبة متجاورة تقلد هيئة سيقان الغاب المحزومة ، وأساطين ذات أضلاع مقعرة متجاورة تقلد أساطين شجرية مشذبة ، وأساطين ثلاثية المقطع تقلد هيئة سيقان البردى بتيجانها وأوراقها • وأساطين أخرى نصف دائرية المقطع تقلد نباتا كان رمزا للصعيد • كما نحتت أبواب من الحجر على هيئة الدلف الخشبية المفتوحة • وشكلت السطوح الداخلية لبعض السقوف على هيئة فلوق النخيل نصف الدائرية •

وبنيت حجرة دفن الملك زوسر أسفل الهرم من احجار جرانيتية ضخمة على عمق ثمانية وعشرين مترا • وكان فى قطع ونقل هذه الأحجار الجرانيتية الضخمة من محاجر أسوان أو من مرتفعات البحر الأحمر ما يدل على مجهود كبير بالنسبة لعصره • وقطع الصناع فيما يجاور سطح حجرة الدفن هذه سراديب وغرفا كثيرة كسيت بعض جدرانها بقراميد صغيرة محدبة من القاشانى الأزرق تقلد هيئة الحصير الفاخر • وتضمنت سراديب الهرم وحجراته ما يزيد على ٤٠ ألفا من أوانى الفخار والألباستر والشست والبرشيا الفاخرة التى بلغت بعض جدرانها حدا من الرقة جعل سطوحها الخارجية تكاد تكشف عن سطوحها الداخلية • وكان بعضها متاعا وميراثا لصاحب الهرم وأسرته ، وبعضها الآخر هدايا اليه من أقاليم دولته •

التقويم المدنى :

زاد الاهتمام فى عهد زوسر بمدينة « أونو » أو عين شمس مقر عبادة اله الشمس • وتلقب كبير مهندسيه امحوتب بلقب كبير المتطلعين (الى السماء) لرصد الكواكب والنجوم فيها •• باعتباره رئيس الفلكيين فى مدينته • وارتبطت أهمية المدينة بخطوة حضاريا جديدة اهتدى فيها علماؤها الى ابتداع تقويم مدنى يجمع بين

خصائص التقويم الشمسى والتقويم النجمى منذ عام ٢٧٧٣ ق٠م ٠ واحتسبوا أيام السنة على أساسه ٣٦٥ يوما وقسموها اثنى عشر شهرا ، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يوما ، ثم اعتبروا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد يحتفل فيها بذكريات الأرباب أوزير ، وايسة ، وست ، ونبت حت ، وحور (أى أوزيريس وايزيس وست ونفتيس وحورس) ، وهى أيام النسىء الخمسة التى تحتفظ السنة الزراعية المصرية بمثلها حتى الآن ٠

ومن المرجح أن المصريين كانوا يؤرخون قبل عهد زوسر بالشهور القمرية شأنهم شأن بقية الشعوب القديمة ، ويأخذون بالتقويم النيلى الذى يبدأ ببداية وصول فيضان النيل الى منطقة « برجعبى » الواقعة بين عين شمس ومنف قرب جزيرة الروضة الحالية ٠ وشيئا فشيئا لحظ بعض كبار المصريين المحتفلين بعيد وفاء النيل أن فجر وصول فيضانه الى ما يجاوز هذه المنطقة يقترن بظاهرة سماوية لافتة للنظر ، وهى أنه بعد اختفاء نجم الشعرى ذى الضوء الساطع ، الذى اعتبروه أنثى وسموه سويدة ، عن مجال الرؤية نحو سبعين يوما ، يعود فيتألق فى أفق السماء ويبقى حتى مطلع الشمس المبكر كأنما يبشر ببداية الفيضان الجديد ٠ ومع مر الزمن أصبحوا يترقبون اجتماع هذه الظواهر الطبيعية عن قصد ، وأطلقوا على نجم الشعرى لقب جالبة الفيضان ، واعتبروا بداية ظهورها فى الأفق الشرقى عند الفجر (حوالى ١٧ يوليو من التقويم اليونانى) أول يوم فى أول شهر فى أول فصل ، وهو فصل الفيضان ٠ ثم حسبوا ما بين كل ظهور صادق وظهور صادق آخر للشعرى مع مطلع الشمس فوجدوه ٣٦٥ يوما ، ووجدوه يتضمن اثنى عشر شهرا قمريا وكسورا لا تصل الى نصف الشهر ، فأكملوا عدة كل شهر ثلاثين يوما وتبقت خمسة أيام احتسبوها نسيئا وأعيادا ، ثم اعتبروا السنة ثلاثة فصول ٠ فصل الفيضان

« آخــة » ، وفصل خروج النبت من الأرض « برة » وهو يوازى فصل الشتاء ، ثم فصــل التحاريق « شمو » ٠ وهو تقسيم قد يناسب المناخ المصرى اكثر من تقسيم الأربعة الفصول الحالى ٠

غير أن الابتداع الرائع لفكرة التقويم المدنى الثابت الذى ربط المصريون بينه وبين دورة الشعرى ، كما ربطوا بينه وبين الانقلاب الشمسى ، وقسموا الشهور على أساســه اثنى عشر شهرا ، وسبقوا به كل شعوب العــالم القديم التى ظلت تؤرخ بالتقويم القمرى وحده ، لم يكن بغير نقيصة تؤخذ عليه ، فهم قد احتسبوا الســنة ٣٦٥ يوما وليس ٣٦٥ يوما وربع يوم ٠ وكان من شأن فارق ربع اليوم أن يصبح يوما كل أربع سنوات ويصبح شهرا كل ١٢١ عاما وربع عام تقريبا ٠ وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة المدنيــة الحسابية الفلكية (الشمسية النجمية) أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهرا بعد كل ١٢١ عاما وربع عام ٠٠ ثم لا تعود لتتفق معها الا بعد أن يبــلغ الفــارق بينهمــا حولا كامــلا ٠٠ بعد كل ١٤٥٦ عاما ٠

وأدرك المصريون هذا الفارق وتندر أدباؤهم به ولكنهم استمرو عليه بحكم العادة ، ولم يعملوا على تلافيه الى أن أشــار قرار كانوب (أبو قــير) الذى اصـــدره مجمـــع الكهنـــة المصريي عام ٢٣٧ ق٠م الى اتجاه النية حينذاك الى اضافة يوم على أيا النسىء الخمس ، لولا أن هــذا التعديل لم يطبق بصورة دائمـا الا منذ عهد أوجسطوس فى عام ٣٠ ق٠م حين انتفع تقويمه اليوليانى بفكرة التقويم المصرى وثبت العام بمقتضاه ٣٦٥ يوما وربع يوم ٠

وظل المصريون القدماء يميزون الشهور بأرقامها ، الى أ ربطوا بينها وبين أسماء ومناسبات مقدسة خلال الدولة الحديثــة

ثم استقرت هذه الأسماء ، منذ القرن السادس ق٠م وبقيت حتى الآن مع قليل من التحريف اللفظى فى مثل شهر توت وكان يوافق عيد الاله تحوتى ، وشهر هاتور وكان يوافق عيد الربة حتحور وهلم جرا ٠ ومازال هـذا التقويم بأسماء شهوره القديمة منبعا فى أساسه فى الريف المصرى بالنسبة للسنة الزراعية ٠٠ أو ما يعرف تجاوزا بالسنة القبطية ، ويفضله المزارعون عادة عن التقويم الميلادى أو التقويم الهجرى ، ويرونه أنسب لتعيين مواقيت الحرث والبذر والرى والحصاد على الرغم من نقص ربع اليوم الفلكى فيه ومازال بعض المزارعين يحتفظون بذكريات أجدادهم فى تسمية ليلة الفيضان « ليلة النقطة » أو « ليلة سقوط الدمعة » فى ١٢ بؤونة ، أى الليلة التى دمعت فيها الربة ايسة (ايزيس) المرموز اليها بنجم الشعرى على زوجها أوزير فجرى الفيضان من دمعتها ٠

تعاقب بعد عهد الملك زوسر عدد من ملوك أسرته اعتبرتهم القوائم الملكية بين الأربعة والستة ، وجعلهم المؤرخ ما نيتون ثمانية ، واحتفظت الآثار القائمة بأسماء ما بين الثلاثة والخمسة منهم ٠ وانتهت أيام الأسرة الثالثة بالملك حونى ، الذى حكم أربعة وعشرين عاما ، وشيد له هرم ضخم فى منطقة ميدوم تغير تصميمه أكثر من مرة ، وظهر أخيرا على هيئة هرم مدرج ذى ثمانى درجات ، وبدأ كساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء ، ولكن الملك مات قبل اتمامه ، وتم ذلك فى عهد ولده سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة ، مع ملء الفراغات بين درجاته بالأحجار ليكون مستوى الجوانب أو ليتخذ هيئة الهرم الكامل ٠ وتهدمت أغلب أجزاء هذا الهرم ولم يبق منه حتى الآن غير ثلث ارتفاعه الأصيل ٠



ثانيا ـ عصر الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ ـ ٢٥٦٩ ق٠م)

عهـد سـنفرو :

بدأ عصر الأسرة الرابعة بعهد الملك سنفرو الذى حكم أربعة وعشرين عاما وتلقب بلقب معبر وهو « نب ماعت » أى رب العدالة ، واحتفظ له الأدب المصرى بذكرى عطرة قلما احتفظ بها لملك مصرى سواه ٠ فوصفه بأنه « ملك فاضل » ، وصوره متواضعا يميل الى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع ، ويكتب بنفسه ولا يأبى أن يسأل حكماء قومه عما لا يعرفه ٠ كما صـوره فى الوقت نفسـه ميالا الى المرح وحب الاستمتاع ٠

وامتازت الأوضاع السياسية فى عهد سنفرو بانشاء منصب الوزارة فيه رسميا لأول مرة فى التاريخ القديم ، وان ظل من نصيب كبار الأمراء وحدهم ، حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة ٠

وكان عهد سنفرو ذا اهتمـام خاص بالملاحـة بحيث ذكرت حولياته مشروعا لصناعة ستين سفينة لكل واحدة منها ستة عشر مجدافا ، كما ذكرت ورود أربعين سفينة من فينيقيا محملة بأخشاب (عش) من فصيلة الصنوبر ، فى أعوام حكمه ٠ واستخدمت بعض هذه الأخشاب فى صناعة سفن كبيرة بلغ طول الواحدة منها مائة دراع ملكى ، أى نحو ٥٢ مترا ٠ كما استخدم بعضها الآخر فى

صناعة أبواب القصــور الملكيــة وفى بعض الأجزاء الداخليــة من هرم سنفرو ٠

ومع هــذا الطــابع المدنى ، سجلت حوليات سنفرو أخبــار تجريدات عسكرية واسعة وجهها لتأمين الحدود الشمالية الشرقيــة والجنوبية والغربية ، والزام قبائلها البدوية النظام والطاعة ٠٠ وظلت ذكرى سنفرو ماثلة فى شبه جزيرة سيناء أجيــالا طويلة واعتبره خلفاؤه من حماتها وقدسوه فيها وضموه الى رعاتهــا من المعبودات ٠ كما ظلت بعض نقط الحراســة على حدودها الشمالية تعرف باسمه حتى الدولة الوسطى ٠

وسمح رخاء عهد سنفرو بتشييد هرمين له فى منطقة دهشور واكمال هرم أبيــه حونى فى ميدوم ٠ ومثلت هذه الأهرام والمعابد الملحقة بها مرحلة جديدة من مراحل العمارة المصرية القديمة ٠ فقد شيد له هرم فى دهشور ليكون هرما كاملا منذ بدايتــه ، وبدأه المعماريون بزاوية ميل قدرها ١٤ر٥٤ درجة ، ولكنهم بعد أن وصلوا بهذا الميل الى ما يزيد ارتفاعه على تسعة وأربعــين مترا ، أدركوا أنهم لو واصلوا البناء على اساسه فسوف يرتفع الهرم الى أكثر مما قدروه له أو أكثر مما تحتمل قاعدته ٠ وبدأت بعض الجدران الداخلية فيه تتشقق بالفعل ، فغيروا زاوية الميل الى ٢١٠ر٥٣ ، وأكملوا بنــاء الهرم حتى بلغ ارتفاعه ١٥ر١٠١ من الأمتــار ، ولكنه ظهر فى صورته الأخيرة كأنه منكسر الزاوية فى منتصفه ٠ ولهذا استغلوا أمكانيــات عهدهم فى تشييد هرم ملكى آخر شمالى الهرم الأول ، وبدأوه بزاوية ميل مناسبة تبلغ ٤٠ر٤٣ درجــة ٠ وعندما تم أصبح أول هرم كامل صحيح النسب حاد الزوايا مستوى الجوانب ، بلغ ارتفاعه نحو ٩٩ مترا ٠ وكسى هو والهرم الأول بأحجار جيرية بيضاء ملساء ٠ واطلق على كل منهما اسم « خــع

سنفرو » بمعنى شع سنفرو ، أو تجلى سنفرو • وكان بين هـذا الاسـم وكسـاء الهرمين وصـاحب الهرمين نوع من الارتبـاط المقصود ، فقد كان من شأن الكسـاء الأبيض الناصع لكل هرم أن يستقبل أشعة الشمس القوية ويعكس نورها على ما حوله ، فيبدو فى أسفل الوادى كأنما يصـدر عن الهرم نفسه ، أو بمعنى آخر كأنما يشع عن صاحبه الثاوى فيه •

عهـد خوفـو :

خلف سنفرو ولده « خوفو » ، أو « خنوم خوفوى » كمـا ورد اسمه الكامل ، وهو اسم يعنى الاله « خنوم يحمينى » ، ويدل بهذا على الايمان بحاجة خوفو الى معبود أكثر قدرة منه يرعاه ويحميه • وصور أديب مصرى الجانب الانسانى من شخصية خوفو فى قصة تخيله فيها يسامر أولاده ويستمع الى رواياتهم عن حكماء العصور السالفة ، كما يستمع الى كاهن مرتل من عهده ، ويكاد يجهل بعض ما يعرفه • وفى هـذا وفيما سبق ذكره عن أبيه سنفرو ما يعنى أن وصف ملوك مصر القديمـة بأوصـاف الربوبيـة فى نقوشهم كان شيئا ، وأن واقع الحياة بالنسبة لهم ولحكمائهم كان شيئا آخر •

وعلى الرغم من شهرة خوفو الواسعة كصاحب الهرم الأكبر ، لم يبق من تماثيله وصوره شىء ذو بال • ومنه تمثال صغير لا يزيد ارتفاعه على تسعة سنتيمترات وجد فى معبد أبيدوس ، ثم عدد من أجزاء تماثيل مهشمة عثر عليها قرب هرمه وليس فيها ما يحمـل رأسـه •

ولا جدال فى أن هرم خوفو فوق هضبة الجيزة هو الدليل الصريح على عظمـة عهـده ، ولاشـك كذلك فى أن مهندسـه

(أو مهندسيه) قد استفاد من التجارب التى سبقت عهده والتى ادت الى تنفيذ هيئة الهرم الكامل فى دهشور • ولكنه تفوق عليهم جميعا بضخامة هرمه الهائلة والدقة البالغة التى تم بها بنيانه • فقد شـغل هرم خوفو (وملحقاته القريبـة منه) ما يقرب من ١٣ فدانا ، وكان ارتفاعه ١٤٦ مترا أنقصتها العوامل الطبيعية الى ١٣٩ مترا • وقيل انه استخدم فى بنائه نحو مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية تراوحت زنة الواحدة منها بين الطنين والنصف والثلاثة الأطنان • وقد قطعت من محـاجر هضبة الجيزة التى شيد الهرم فوقها عدا الكسـاء الخـارجى للهرم الذى قطعت لوحاته السميكة الضخمة من محاجر طرة التى امتازت بأحجارها الجيرية الناصعـة البيـاض •

بنى الهرم أساسا ليكون ملجـأ أمينا لجثـة الملك ومقتنياته الخاصة عند وفاته ، وليكون شاهدا على ثرائه وسعة سلطانه ، ووسيلة لخلود ذكره وذيوع شهرته ، ودليلا على رفعة شـأنه فى الدنيا والآخرة وصـورة من صور رقى العمارة فى عهده • أى أنه لم يكن مجرد مقبرة فى جبانة وانما كان ولا يزال عملا فنيا رائعـا فى داخله وخارجه • وقد أطلق عليه اسم « آخت خوفو » بمعنى مشرق خوفو أو أفق خوفو • وتضمن ثلاث حجرات كبيرة للدفن ، حجرة أسفله فى باطن الصخر هجرت قبل أن ينتهى العمل فيها ، وأخرى فى باطنه تسمى خطأ باسم غرفة الملكة وهجرت هى الأخرى بعد أن أوشك العمل فيها على الانتهاء ، وحجرة ثالثة فى نصفـه العلوى دفن الملك فيهـا • وأدى تعدد هـذه الحجرات الى رأى مقبول ، مؤداه أن الهرم بنى على ثلاث مراحل انتقل المهندس فيها من مرحلة منها الى الأخرى نتيجة لازدياد خبراته وازدياد امكانيات عهده ، ونتيجة لامتداد أجل ملكه • وشيدت حجرة الدفن العلوية

الرئيسية فى الهرم من أحجار جرانيتية هائلة وأقيمت فوقهـا خمسة سقوف يتعاقب كل منها فوق الآخر بعد ارتفاع قليل ، رغبة فى تخفيف الضغط عن سقفها الأول الذى تألف من تسعة ألواح تزن فى مجموعها نحو ٤٠٠ طن . وجعلت أربعـة من هـذه السـقوف مسطحة ، وبنى خامسها (وهو العلوى) مثلثا على هيئة الجمالون لتوزيع ضغط البنيان العلوى من الهرم على جوانب الحجرة وسقوفها دون أن يتركز على وسطها . وكانت كلها اجراءات بارعة بالنسبة لعصرها . ويصـل بين غرفة الدفن الوسطى وغرفة الدفن العليـا فى باطن الهرم دهليز صاعد يعتبر من آيات الفن المعمارى لعصره ، كسيت الأجزاء السفلى من جانبيه بأحجار مصقولة ضخمـة ، وبرز كل مدماك من مداميكه العليا ، وعددها سبعة فى الجانبين ، عن المدماك الذى يرتكز عليـه بمقدار ثلاث بوصـات ، والتصق كل مدماك منها بالآخر وكل حجر منها بالآخر فى اتقان شـديد دفع بعض الباحثين الى المبالغة فى تقديره بقولهم ان ما بين كل حجر وآخر لا يكاد يسمح للشفرة بالنفاذ منه . ومن الأوصـاف الممتعة فى تصـوير مدى الدقة فى بناء الهرم ، ما يقال من أن متوسـط الخطأ فى طول جوانبه لا يعدو ١ : ٤٠٠٠ ، وأن الخطـأ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لا يعدو كسرا عشريا يساوى دقيقـة واثنتى عشرة ثانيـة ، وأن معدل الخطـأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد على ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصـل بين أحجاره لا تزيد على نصف المليمتر . وعلى أية حال فما ينبغى أن يقصر الاهتمـام على الهرم وصاحبه ومهندسـه مجهول الاسم فقط ، وانما يجب التفكير كذلك فى شأن بقية الطوائف المصرية التى شـاركت فى بنائه والظروف التى أحاطت ببنائه . ذلك أنه يتضح للضخامة الفريدة مع البراعة الفائقة التى امتاز الهرم الأكبر بهـا أكثر من دلالة .

فهى من الناحية السياسية تنم عن نظام سياسى وادارى كان يسمح للملك صاحب الهرم بتصرف واسـع فى امكانيات البلاد المـادية والبشرية • وهى من الناحيـة المعماريـة تشهد لمهنـدس الهرم أو لمهندسيه بدراية واسعة بمبادىء الهندسة وفن العمارة • وهى من الناحية العملية تشهد للصناع الفنيين بمهارة كبيرة فى نحت الأحجار الضخمة وتسويتها وتثبيتها ، ومهـارة مماثلة فى تنفيذ ما خططه المهندسون بنجـاح كبير • وهى من الناحيـة البشرية تشهد لآلاف العمال العاديين الذين اشتركوا فى بناء الهرم بجلد شديد فى قطع أحجاره الضخمـة من محاجر الجيزة ونقلها ثم رفعها الى مواضعها من بنائه • ثم هى من الناحيـة الادارية تشـهد لرجال الادارة المشرفين على نظام العمل بالكفاية فى رسم الخطط لتجميع آلاف العمـال وتموينهم وحسـن الاستفادة بهم وضـمان استمرار قوتهم البدنية على مواصلة العمل . مع تنظيمهم وتقسيمهم فرقا مازالت بعض أسـمائها مسجلة على أحجار متفرقة من جوانب الهـرم •

اتصلت بهرم خوفو مجموعة دينية ومعمارية واسعة تألفت من معبد شعائره الذى لم تبق منه غير أرضية ، ومعبد الوادى وما زالت بقاياه مختفية تحت قرية نزلة السمان الحالية ، والطريق الواصل بينهما • وقد أشـاد به المؤرخ هيرودوت اشادة كبيرة ، ثم خمسة مواضع لمراكب كبيرة ، ثلاثة منها تقع شرق الهرم وقد وجـدت خالية ، واثنان منها فى جنوبه وقد كشف عن أحدهما بينما بقيت الآخر مغلقا حتى الآن •

ووجدت فى الموضع المكتشف الواح كثيرة من أخشاب الأرز ، فصيلة الصنوبر لمركبة خشبية يبلغ امتدادها ٤٣ر٢٠ من الأمتار يبلغ أكبر عرض لها ستة أمتار • وقد فككت أجزاؤها ورتبت الى

حد ما بحيث تسهل اعادة تجميعها • ووضعت معها مجاديفها وحبالها وجوانب كبائنها وأساطينها الخشبية ، وغطيت حفرتها الصخرية بألواح حجرية ضخمة سميكة رتبت فى عناية شديدة واحكام كبير • ودلت براعة صناعة هذه المركبة بعد اعادة تركيبها على أن روح الاتقان والاجادة فى عهد خوفو لم تقتصر على ما يتصل بهندسة بناء هرمه وانما امتدت كذلك الى ما يتصل ببقية الفنون والصناعات فى عهده • ونمت التجارب الأولية لاستطلاع داخل حفرة المركبة الثانية على أنها لا تزال تحتفظ بمركبها ، واذا صح أن المواضع الأخرى التى وجدت خالية كانت كلها تتضمن مراكب فعلية مثل المركب المكتشفة ، فثمة عدة احتمالات للأغراض التى كانت تخدمها • وهى أن واحدة منها استخدمت فى نقل جثة خوفو بعد وفاته من قصره الى قرب هرمه • واستخدمت الباقيات أو بعضها خلال حياته فى مناسبات دينية ورسمية ، مثل جولاته الادارية بين مراكز الوادى ، وحفل تتويجه ، وزياراته للمعابد الكبرى ولمدن الحج المقدسة •• فضلا عن تخصيص واحدة منها أو أكثر لجولاته الروحية فى العالم الآخر •

وشاد عظماء عهد خوفو مقابرهم من الحجر لأول مرة بعد أن كانت أمثالها تبنى من اللبن ، وذلك مما يعنى تشجيعه لهم وامتداد الرخاء الذى سمح ببناء هرمه وتوابعه الفخمة الى من شملهم برعايته من شعبه •

وشيدت هذه المقابر على نسق متشابه ورتبت فى صفوف مستقيمة وتجمعت على جانبى الهرم وأسفله كأنه يشرف عليها من عل كما كان صاحبه يشرف على أصحابها فى دنياه •

وتباينت الآراء قديما وحديثا فى شأن تحديد عوامل الرضا أو عوامل التسخير التى أحاطت انشاء هرم خوفو وملحقاته ، هو

وما يماثله من أهرام وآثار كبيرة . ويحسن أن نتصور لهذه القضية كل أطرافها المحتملة فى ضوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية التى عاش فى ظلها الملك خوفو وطوائف المشتركين فى بناء هرمه . وليس ذلك لمجرد الاستشهاد بأكثر ما يمكن من الآراء ، لكن اعترافا بما فى الحياة من أوجه متعددة يعايش بعضها بعضا ، وقد يتآلف بعضها مع بعض كما قد يتعارض بعضها مع بعض .. ، واعترافا كذلك بوجوب تقدير أن لكل عصر منطقه ، وأن ما قد يقبله عصر ليس من الضرورى أن يجيزه عصر آخر .

ففى الحياة الاقتصادية اعتمدت مصر القديمة فى أغلب حياتها الزراعية على دورة سنوية رئيسية واحدة كان من شأنها أن تؤدى الى تعطل صغار المزارعين والأجراء عدة شهور من كل عام ومنها شهور الفيضان . وفى هذه الشهور أو فى بعضها كانت الحكومات المصرية القديمة تعمل على تجميع أعداد غفيرة من عمال الأرض واجرائها ليخدموا مشاريعها العامة والمنشآت الملكية أساسا ، ثم ليتكسبوا ضمنا من العمل فى هذه المشروعات والمنشآت مورد رزق مناسب يقوم بأودهم وأود أسرهم فى مواسم تعطلهم عن العمل . وذلك الى جانب الصناع الفنيين الذين كانوا يعملون طوال غالبية شهور السنة .

وأشار هيرودوت الى مثل هذا الوضع فذكر أنه سمع أن العمل فى الهرم كان يجرى (وعلى الأصح كان يشتد ويتضاعف) فى مواسم الفيضان والتعطل عن الزراعة من كل عام . وترتب على ذلك أن بناء الهرم الأكبر وملحقاته استنفد عشرين عاما كاملة .

ومن حيث السلطة التنفيذية سلف القول بما توافر للملوك المصريين وحكوماتهم من نفوذ ادارى واسع جعل لهم الحق فى

تكليف من شاءوا من الأيدى العاملة بالعمل فى منشآتهم الدنيوية والدينية • وقد يكون فى هذا نوع من التسخير من وجهـة نظر العصر على أقل تقدير ، ولكنه كان تسخيرا مألوفا فى كل الشعوب والعصور القديمة • ولم يصل فى مصر القديمة الى حد التسخير العشوائى والا كانت حكومة خوفو قد أنهت بناء هرم ملكها فى وقت قصير دون استمرار العمـل فيه عشرين عاما اذا صحت روايـة هيرودوت عنه • والطريف أن أضاف هيرودوت نفسه أنه رأى فى منطقة الهرم لوحات صـورت عليها مقادير هائلة من المـأكولات ظن أنها خصصت لتوزيعها على العاملين فيه ، بما يعنى أنهم كانـوا يؤجرون على عملهم فيه • وان كان الواقع أن هذه اللوحات صورت القرابين التى كان يرجى أن تقدم لأصحاب المقابر حول الهرم وليس بالضرورة للعاملين فى بناء الهرم •

أما من الناحيـة الروحية ، فالى جانب السيطرة السياسية والادارية التى توافرت للملوك المصريين وحكوماتهم ، أكد هؤلاء الملوك لأنفسهم قدرا كبيرا من القداسـة الروحية والسيادة الدينية، وادعوا أنهم ورثة الأرباب ومن نسلهم (وان لم يبلغوا بهـذا الادعاء الى حد التأله الصريح) • واستغلوا هذه القداسة الدينية والروحية أوسع استغلال • وليس من المستبعد أن الوعـاظ والكهـان من أعوانهم كانوا يتعمدون فى مواعظهم أن ييسروا على الكادحـين فى سبيل الرزق شقاءهم ويخففوا عنهم متاعبهم بالأمل فيما ينتظرهم فى الآخرة من الشفاعة وحسن الجزاء من ملوكهم الذين أوهموهم أنهم سـوف يتحكمون فى شئون الحياة الثانيـة كما تحكموا فى شئون الحياة الدنيا سواء بسواء •

أما من حيث المعاملة الفعلية فى المجالات العملية ، فيلاحظ أنه ان لم تتبق نصـوص صريحـة تنم عن طريقـة معاملة رجال خوفو

لعمال هرمه ، فانه يمكن الاستشهاد من جانب آخر بنصـوص الأثرياء عصر الأسرة الرابعة وما بعدها تدل على وجود وازع دينى كان يدعو المقتدرين الى حسن معاملة الأتباع والأجراء ٠

ومن هذا القبيل أن قال أحدهم « كل صانع عمل فى مقبرتى أرضيته » ٠

وقال آخر « أرضيت كل الصناع الذين أتموا لى عمـلا فى هذا القبر بالطعام والشراب وكل شىء طيب » ٠ وقـال غيره « أنفقت على قبرى هـذا من متاعى الحلال ولم يحدث اطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما » ٠ وليس من المستبعد أن مثل هـذه الروح الانسانيـة الخيرة تحكمت فيما بين خوفو ورجـاله وأتباعه وأجرائـه ٠



انعقدت ولاية عهد خوفو لولده الأكبر « كاوعب » ٠ وكان أول أمير مصرى مثل فى تماثيله على هيئة الكاتب تنويها بثقافته ، لولا انه توفى مبكرا ٠ وخلف خوفو ولد آخر وهو « جد فرع » الذى سجل اسمه عدة مرات على بعض الأحجـار التى غطت على موضع مركبته المكتشفة تدليلا على قيامه بالاشراف على دفنه ، ثم خلافته على عرشـه ٠

وقد مثل بعض أولاده فى تماثيلهم على هيئة الكتاب والقراء مما يعنى أنه استحب لهم حياة الثقافة مثل عمهم ، لولا أن العلاقات بينه وبين بعض كبار أسرته واخوته لم تكن طيبة ٠ والأمر ما ابتعد بقبره عن منطقـة الجيزة وشيده فى أبو رواش ، ولم يظل عهده أكثر من ثماني سنوات ثم خلفه أخوه غير الشقيق « خفرع » ٠

عهد خفرع :

أعاد خفرع الوئام بين أفراد أسرته الحاكمة ، وطال عهده خمسة وعشرين عاما أو تزيد .. وأضاف الى ديباجة ألقابه الملكية لقبا جديدا وهو « سارع » أى ابن الشمس ، أو ابن اله الشمس رع ، مسايرة منه لانتشار مذهبه من ناحية ، وتدليلا على أنه يعتلى العرش بناء على بنوته له ، ورغبة فى أن يقدر له دوام مثل دوام كوكبه فى الدنيا وفى الآخرة .

تألفت أهم آثار العمارة والفن الباقية من عهد خفرع ، من هرمه ومعبديه ، والطريق الواصل بينهما على هضبة الجيزة ، ثم عدد من تماثيله الملكية ، وتمثال أبو الهول . ويقل هرمه قليلا عن هرم أبيه ضخامة وارتفاعا ، ولكن مهندسه شاده على جانب من الهضبة أكثر ارتفاعا بقليل من الجانب الذى بنى عليه هرم أبيه فعوضه بعض الشيء عن قلة ارتفاعه عنه . ويمتاز فى حالته الراهنة باحتفاظ قاعدته بكساء من حجر الجرانيت ، واحتفاظ قمته بأجزاء ألواح الحجر الجيرى الأبيض التى كانت تكسوه .

تبدأ ملحقات هذا الهرم بمعبد الوادى ، وهو معبد ضخم يعتبر أكمل معبد من عصره وجد حتى الآن . وقد شيد من أحجار هضبة الجيزة وارتفعت واجهته نحو ثلاثة عشر مترا ، وكسيت بألواح ضخمة سميكة من الجرانيت ، وهى ظاهرة لا تقتصر أهميتها على الدلالة على ما كان يكسو المعبد من جلال وروعة فى عهد صاحبه . وانما تمتد كذلك الى اكبار من قطعوا ونقلوا كل هذه الألواح الضخمة من محاجرها فى أسوان حتى الجيزة على الرغم من بساطة الامكانات المتيسرة فى عصرهم البعيد . وتستقبل واجهة المعبد ناحية الشرق بمدخلين يرمزان الى الوجهين ، الوجه القبلي والوجه

البحرى ، كما تطل على مرساة لقناة تربط بين المعبد ونهر النيل .

أدى معبد الوادى للهرم الثانى ، وما يشبهه من معابد الوادى الأخرى ، ثلاثة أغراض رئيسية ، وهى أن جانبا منه اعتبر استراحة مؤقتة للملك فى حياته كلما زار منطقة الجيزة ليشرف على بناء هرمه فيها . وأن جانبا منه جرت فيه طقوس تحنيط جثة الملك بعد وفاته . وأنه أصبح يستخدم بعد دفن الملك لاجتماع وفود الكهان وكبار الزائرين خلال المواسم والأعياد الدينية . وكانوا يجتمعون فى بهو داخلى فخم يتوسط المعبد ، وهو بهو كسيت أرضيته بالألباستر الأبيض وكسيت جدرانه بالجرانيت الوردى ، ورفع سقفه ستة عشر عمودا ضخما من الجرانيت ، وكان يستقر على جوانبه ثلاثة وعشرون تمثالا لخفرع مثلته جالسا فى مهابة يضم يمناه الى صدره ويرسل يسراه على فخذه . وقد نحت بعضها من الألباستر الأبيض ، ونحت بعضها من الديوريت الأزرق ، ونحت بعضها الآخر من الشست الأخضر . وكانت ألوانها مع ألوان الجدران والأرضية والأعمدة تتوهج تحت أشعة الشمس الذهبية التى تندفع اليها من فتحات السقف الحجرى ثم تنعكس عليها من الأرضية البيضاء الناصعة ، لتضفى على بهو المعبد جلالا وبهاء ما بعدهما من جلال وبهاء . وتهشم أغلب هذه التماثيل وبقى أقلها سليما . ومن هذا القليل تمثال من الديوريت (نقل الى المتحف المصرى) خلع الفنان على ملامح وجهه مهابة وقداسة تليقان بصاحبه ، وظلل مؤخرة رأسه صقر شامخ يرمز الى المعبود حور ويفرد جناحيه حول رأس الفرعون كأنه يظله ويحميه . واستطاع الفنان أن يذلل صخر الديوريت بسهولة فى تمثاله ، وهو من أشد الصخور قسوة ، فأظهر تقاطيع خفرع فيه دقيقة ناطقة ، وأظهر عضلات بدنه مشدودة قوية واضحة .

وبعد أداء مراسم دينية معينة كانت وفود كبار الزائرين تخرج من الباب الخلفى للمعبد بين تراتيل الكهنة وأنغام الموسيقى ليبدأوا مسيرتهم على طريق صاعد مسور يمتد نحو ٤٩٤ر٦٠ من الأمتار ويؤدى الى مدخل معبد شعائر الملك المتوفى • وهو معبد يجاور الهرم من ناحيته الشرقية ولم يكن يقل فى ضخامته وجلاله عن ضخامة وجلال معبد الوادى لولا أن تهدم أغلبه • وكان يتألف حين اكتماله من عناصر كثيرة تتوزع فى قسمين ، قسم أكبر يغلب عليه طابع العمومية ، وقسم أصغر تغلب عليه صفة الخصوصية •

أبو الهول :

طغت شهرة أبو الهول من عهد خفرع على شهرة هرمه ومعبديه • وله جسم أسد رابض ورأس انسان ناهض كما هو معروف ، جمع الفنان بينهما فى انسجام عجيب لا يكاد الرائى يشعر معه أنه أمام كائن مفتعل غريب • ونحت الفنان الرأس فيما يرجح على هيئة رأس الملك خفرع تزينه شارات الملك ، وهى عصابة رأس مخططة عريضة تصنع من قماش مقوى لتغطى الرأس ومؤخرته ، وحية حارسة تنهض على جبين الملك ولحية مستعارة ترمز الى التحاء أوائل الملوك الأقدمين (وقد سقطت الحية واللحية من موضعيهما لتطرفهما) • وعبر الفنان فى تكوين التمثال عن مثالية الملك الذى كان من المفروض أن يجمع فيها بين سمو التفكير البشرى وبأس الأسود •

ينهض تمثال أبو الهول فوق قاعدة مرتفعة نحت معها فى الصخر الطبيعى لهضبة الجيزة ، ولكنها كسيت بأحجار جيريا ملساء ، وبلغ ارتفاعه معها نحو اثنين وعشرين مترا • وقام فى مواجهته معبد كبير ، لعله أعد لتقديم القرابين والدعوات باسم

التمثال نفسه على أساس أنه بعد أن كان يرمز الى خفرع أصبح يعتبر حارسا لمدينة الموتى فى منطقة الجيزة ويستحق التقديس تبعا لذلك • ونسى بعض المصريين القدامى أصل تمثال أبو الهول ، أكثر فأكثر ، واعتبره أهل الدولة الحديثة صورة من صور اله الشمس وقدسوه على هـذا الاعتبار ، وأقاموا النصب باسـمه بين يديه وفى معبده • واستوى فى ذلك الملوك ورعاياهم • وأضاف أحد الباحثين رأيا عن تمثال أبو الهول ، مؤداه أنه رمز منذ بدايته الى « ماعت » وهى العدالة المستقرة أو النظـام المستقر ، وذلك فى مقابل دلالة الهرم على النظام الهرمى الذى كان الفرعون يحتل أرفع مكانة فيه •

أما عن اسم أبو الهول فمن الآراء فى تعليله أنه عاش فى منطقة الجيزة بعض الكنعانيين خلال الدولة الحديثة فتعبدوا تمثاله باعتباره صورة من معبودهم القومى « حورون » وأطلقوا اسـمه عليـه • وربما أجـاز المصريون ما أتى الكنعـانيون به ، ثم حرف الاسـم الكنعانى الى حورنا وأخيرا الى « حول » • وقرب رأى آخر بين اسـم التمثال ولفظ ورد فى النصـوص المصريـة المتأخرة بمعنى الأسد • وانتهت أسماء التمثال الى اسمه الحـالى أبو الهول ، وهو اسم يعبر فى اللغة العربية عن طابع الرهبة أو طابع الهول الذى اكتسى التمثال به وظنه الناس فيه ، ولكنه لا يخلو فى الوقت نفسه من صلة تربطه بالاسم القديم « حورون » أو « حول » •

ثالثا ـ النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة

عهد منكاورع :

أعقب خفرع على عرش مصر ولده منكاورع ٠ وبدأت بعد سنوات قليلة من حكمه فترة جديدة فى تاريخ أسرته ، اختلفت فى امكاناتها وأحجام عمائرها وعلاقات حكامها بمحكوميها عن الفترة التى سبقتها والتى انتهت بحكم خفرع وامتدت الى سنوات قليلة من عهد منكاورع ٠

ويتضح مدى اختلاف الامكانات واختلاف الأوضاع بين الفترتين بمقارنة عمائر منكاورع وخلفائه بعمائر أسلافهم ٠٠ فأهم الآثار الباقية من عهده هو هرمه ومعبد شعائره ٠ ويبلغ الارتفاع الحالى لهرمه نحو ٦٢ مترا ولم يزد ارتفاعه الأصلى على ٦٦ مترا ، أى أقل من نصف ارتفاع هرم أبيه خفرع وأقل من نصف هرم جده خوفو ، وان امتاز فى حالته الراهنة بأن ستة عشر مدماكا من مداميكه السفلى كسيت بأحجار جرانيتية ضخمة ٠٠٠ وللهرم معبدان وطريق صاعد شأنه شأن بقية أهرام الأسرة الرابعة : معبد شعائر كبير ضخم معقد التركيب ، بدأ بناؤه بأحجار ضخمة هائلة وأنفق فيه جهد كبير ، ولكنه لم يتم فى عهد صاحبه ، على الرغم من أنه حكم أكثر من واحد وعشرين عاما ، وترك الى عهد ولده « شبسسكاف » حيث استكملت بعض أجزائه بقوالب اللبن دون

الحجر • وطريق صاعد كان شأنه شأن معبد الشعائر ، رصف رجال منكاورع جزءا من أرضيته بالحجر ثم أتمه رجال ولده شبسسكاف فبنوا بقية أرضيته وجدرانه من قوالب اللبن • ثم معبد الوادى ، ولم يكن منكاورع قد أنشأ منه شيئا ذا بال حتى وفاته ، فأمر شبسسكاف بتشييده باللبن أيضا ما خلا أعمدته وأعتاب أبوابه التى كان لابد من أن تبنى بالحجر • وفى ذلك كله ما يباعد بين آثار منكاورع (وآثار خلفيه أيضا شبسسكاف وخنتكاوس) وفخامة آثار أسلافه سنفرو وخوفو وخفرع •

ومع ذلك لم تخل أيام منكاورع من ميزات فنية وأخرى سياسية واجتماعية تحتسب له ولرجاله •

فقد نحتت للملك عدة تماثيل رائعة ، مثله بعضها وحده ، ومثله بعضها مع زوجته ، ومثلته ستة تماثيل صغيرة منها يقف مشدود القامة بين معبودين ، المعبودة حتحور على جانب ومعبود آخر يرمز الى اقليم من الأقاليم المصرية الكبيرة على جانب آخر • وكانت لحتحور منزلة خاصة فى عهده ووصف بأنه حبيبها ، وظهرت فى بعض تماثيلها الرائعة معه تحيط خصره بذراعها وتلمس ذراعه بكفها •

وتهيأ لكبار الأفراد فى عهد منكاورع من الثراء وحرية التصرف فى مقابرهم أكثر مما تهيأ لهم ولأسلافهم فى عهد أبيه وعهد جده ، فكثرت تماثيلهم فى مقابرهم وزادت نقوشهم ومناظرهم على جدرانها ، ونحتوا بعض هذه المقابر داخل الجدار الصخرى لهضبة الجيزة ، ومارسوا شعائرهم فيها بحرية أوسع من الحرية التى سمح لهم بها أبوه وجده ••

وبدأ منكاورع سنة سياسية جديدة ، ففتح قصره لأبناء المقربين اليه من كبار موظفيه ، وعهد بتربيتهم الى كبار رجال

القصر مع أبنائه ، ليشبوا أوفياء له مخلصين لبلاطه • وكان منهم شاب يدعى شبسسبتاح • صور صلات منكاورع بكبار رجاله واهتمامه بكسب ولائهم عن طريق السماحة ، نص سجله رجل يدعى « دبحن » ، ويفهم منه أنه واجه موكب الملك وهو يتفقد أعمال البناء فى هرمه ورجاه أن يأذن له بتشييد مقبرته قرب هرمه ، فقبل منكاورع رجاءه ، وأذن له بتشييد مصطبة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ، وعهد اليه بخمسين عاملا ، وأذن باعفائهم من كافة الأعباء خلا أعباء بناء المصطبة وتمهيد الأرض حولها • وأمر بأن يشرف على تشييدها مهندسه الخاص واثنان من كبار الفنانين فى قصره • وسمح له بأن يستورد من أحجار طرة ما يكفى لكسائها وبناء مقصورتها وصناعة بابين وهميين فيها ، ونحت تمثال يمثله بحجم أكبر من حجمه الطبيعى ، فضلا عن نحت تمثالين لمساعديه•• وكانت أمثال هذه اللفتات من منكاورع لكبار رجال رعيته وتساهله فى الاذن لهم باقامة التماثيل فى مقابرهم وممارسة الشعائر فيها فى حرية مطلقة أصلا فيما يبدو لما سمعه المؤرخ هيرودوت فى العصور المتأخرة من أن المصريين أحبوا منكاورع أكثر مما أحبوا أباه وجده •

وأشادت نصوص ما بعد منكاورع باسم ولده الملك شبسسكاف • وقد شيد قبره فى جنوب سقارة ، ويسمى الآن باسم مصطبة فرعون ، ولم يبن على طراز الهرم الكامل ، وانما على هيئة تابوت ضخم مستطيل مائل الجوانب ترتفع جوانبه فوق مستوى سقفه • وأقيم فوق قاعدة منخفضة وكسى بأحجار بيضاء وأحيطت قاعدته بازار من الجرانيت وأقيم له معبدان صغيران •

وواصل شبسسكاف سياسة أبيه فى ضمان ولاء كبار قومه عن طريق رعاية أبنائهم فى قصره • ويذكر له أنه زوج ابنته الكبرى

لابن أحد عظماء الصعيد ، وهو شبسسبتاح الذى كان الملك منكاورع قد رباه فى قصره وواصل رعايته • وكانت هذه هى المرة الأولى التى قبل فيها ملك أن يزوج ابنته من أحد أفراد رعيته ، ليس فى مصر وحدها وانما فى العالم القديم كله •

وسلك شبسسكاف سياسة مماثلة فى ضمان ود كبار كهنة المعابد باعفائهم أو اعفاء معابدهم من بعض التكاليف المفروضة عليهم ، وبدأ ذلك بمجموعة هرم أبيه منكاورع •

ولم يطل عهد شبسسكاف أكثر من أربع سنوات ، ثم انتهت وراثة العرش فى الأسرة الرابعة الى الأميرة خنتكاوس • وقد طال نقاش الباحثين فى نسبها ، ويتجه بعض الرأى الى اعتبارها أختا غير شقيقة لشبسسكاف من أبيه منكاورع وزوجته مرس عنخ الثالثة التى كانت من سلالة الملك جد فرع • وقد شيدت مقبرتها بالجيزة قريبة الشبه بمقبرة أخيها ، على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة صخرية طبيعية عالية ، وجوف معبد شعائرها فى صلبها بينما بنى معبد الوادى التابع لها قريبا من معبد وادى هرم أبيها منكاورع •• ولقبت خنتكاوس فى نصوص مقبرتها بلقب تحتمل قراءته « ملكة الوجهين أم ملك الوجهين بنت الرب » • وقد يعنى هذا أن انحصار وراثة العرش فيها سمح لها بأن تتلقب بلقب الملكة ، ثم الملكة الوالدة فى عهد ولدها الذى سوف يؤسس الأسرة الخامسة بعدها •

لاشك اذن فى أن ظروف وامكانات النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة قد اختلفت عن مثيلاتها فى نصفه الأول اختلافا كبيرا ، بالنسبة لآثار الملوك على أقل تقدير ، وان اتصفت سياسة ملوك هذا النصف الثانى بظاهرة مستحبة وهى عملهم على تقريب كبار موظفيهم وكهنتهم اليهم وضمان ولائهم •

ويمكن ايجاز الاختلاف بين ظروف كل من الفترتين فى عدة عوامل وهى :

أولا ــ أن الأسرة وان بدأت عصرها برخاء عظيم وجهد كبير فى تنمية موارد البـلاد عن طريق تنشيط الاستثمار الداخلى وتوسيع التجارة الخارجيـة ، فان الأهرام الضخمـة ومعـابدها وتماثيلها التى أسرف سنفرو وخوفو وخفرع فى انشائها لأنفسهم ، وألحقوا بخدمتها الأعداد الغفيرة من الكهنة ، ووقفوا عليها الأوقاف الواسعة ، وزادوا عليها انشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمـة لأبنائهم مع متطلباتهـا من النفقات الجارية ، قد استنفدت نصيبا كبيرا من امكانات البـلاد المـادية ، واستنزفت جانبا كبيرا من موارد الخزائن الملكية ذاتها ٠

ثانيـا ــ ما يحتمل من أن فترات التنـافس الداخلى على العرش ، التى بدأت عقب وفـاة خوفو ، وربما كذلك عقب وفـاة منكاورع ، وعقب وفاة شبسسكاف ، قللت بعض الشىء من هيلمان الملوك المصريين ، وأشعرتهم بأهميـة تأييد كبار رعاياهم وضرورة كسب ودهم ولو على حساب خزائنهم أو خزائن حكومتهم ٠

ثالثـا ــ أن ملوك الأسرة سـايروا ديانة الـه الشمس رع وشجعوها ٠ ولم تكن ديانة الشمس فى حد ذاتها جديدة فى مصر ، وانما كان الجديد فيها هو اعتراف الدولة بها على نطاق واسع ٠ بل ان اعتراف الدولة بها لم يكن فى حد ذاته ذا خطر ، ولكن الخطر كان فى أن يعقبه أمران ، وهما : أن ينصرف جانب من ولاء الرعايا الى عبادة الاله رع رب الشمس وهو المعبود الظـاهر لكل الناس ، على حساب ولائهم للملوك وربهم الخفى حور ، وأن ينصرف جانب من الموارد المـالية الى الديانة الجديدة ، ديانة الشـمس ، على هيئة أوقاف وهبات واعفاءات لمعابدها ومرتبـات لكهنتها الذين

اخــذت أعدادهم تتزايد باســتمرار على حســاب موارد الدولة وخزائنها ، وبمعنى آخر على حساب موارد الملكية وخزائنها ·

وكان أكثر المستفيدين من هذه الظروف هم كبار أنصــار ديانة الشمس بالذات الذين أخذوا يتطلعون الى مزيد من الدالة على حكومتهم ، وعلى العرش صاحبه · وتهيأت لهم فرص هــذه الدالة وهــذا التــأثير منذ انتهت وراثــة عرش الأسرة الرابعــة الى الأميرة خنتكاوس بعد وفــاة أخيهــا ، فشجعوا أحد خاصــة المناصرين لهم على الزواج منها وهو « وسركاف » ، وكان فيمــا يعتقد حفيدا للملك جد فرع ، ورث الامارة عن أمه نفر حوتبس ، بنت جد فرع ، ولم يرثها عن أبيــه الذى يحتمل أنه كان من أنصار الشمس وكبار كهنتها · وعندما تزوجهــا نقلت اليه شرعية الحكم التى ورثتها عن أبيها وأخيها ، واشتركت معه فى تأسيس أسرة حاكمة جديدة ، وهى الأسرة الخامسة ·

رابعا ــ عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ــ ٢٤٢٠ ق٠م)

كان عصر الأسرة الخامسة عصرا زاهرا بالنسبة لديانة الشمس والتطور الطبقي ، وفنون العمارة والنحت والنقش ، والصلات الخارجية ٠

وضمت هذه الأسرة في بدايتها بين ممثلي فرعي الأسرة الرابعة الكبيرين المتنافسين : فرع خفرع الذي مثلته خنتكاوس ، وفرع جد فرع الذي مثله وسركاف ، ولكن أوائل ملوكها لم يكتفوا بحق الملك عن طريق زواج أبيهم بوريثة عرش الأسرة الرابعة ٠٠ بل تعمدوا أن يردوا شرعية حكمهم الى أصل مقدس وارادة ربانية ٠ ولهذا خرجت أبواق الدعاية لهم بأسطورة نسبتهم الى روح الاله رع رب الشمس ، وان أنجبهم رجل مبارك من نسل كهنته ٠ وكان في ذلك ما يعني رغبتهم في تأكيد قداستهم من ناحية ، ثم حرصهم على اكتساب سند ديني يزكيهم من ناحية أخرى ٠ وبقيت لهذه الأسطورة نسخة كتبها أديب مصري من الدولة الوسطى على بردية عرفت اصطلاحا باسم بردية وستكار ، وهو اسم من آلت الى حوزته في العصر الحديث ٠

وتلقب وسركاف أول ملوك الأسرة بلقب يناسب وضعه كمؤسس لأسرة حاكمة جديدة ، وهو « ارماعت » ، أي واضع

النظام أو محق الحق . وتعاقب بعده ثمانيـة ملوك تداخل اسـم المعبود رع فى الأسماء الشخصية لستة منهم ، هم : ساحورع ، ونفر اركاع ، وشبسسكارع ، ونفر فرع ، ونى وسررع ، ومن كاوحور ، وجد كارع ، وونيس . وظلوا أوفيـاء لرب الشـمس صاحب الفضل فى ارتقاء أسرتهم للعرش . واهتم أغلبهم بمعبده فى المركز الرئيسى لعبادته فى عين شمس وهى أونو القديمة . ثم أقاموا ستة معابد على مثاله ، أقيم أولها فى عهد وسركاف فى منطقة أبو غراب جنوب الجيزة وقرب هرمه ومعبديه فى سقارة . وقد تهدم الهرم ومعبداه وان بقى من صـور الطيور والزهور على جـدران معبد شعائره ما يدل على يد فنية متثبتة واحسـاس مرهف بجمـال الطبيعـة وكائناتها ، كما بقى رأس تمثـال ضخم من الجرانيت للملك نفسه ، بلغ حد الروعة فى نحته وجلاله .

وأقيمت بقيـة أهرام ملوك الأسرة ومعـابدها فى منطقـة ابو صير وفى منطقة سقارة .

ويعتبر معبد الشمس من عهد الملك « نى وسررع » سادس ملوك الأسرة ، أكثر معابد الشمس بقاء حتى الآن . وهو معبد ضخم شيد من الحجر فى أبو صير ، وتكون من ثلاث وحـدات متمايزة ، وهى مبنى ضخم على حافـة الهضبة ويعتبر مدخلا الى منطقـة المعبد ، ويليه طريق صاعد مكشـوف لأشعة الشمس ، ثم معبد الشمس الرئيسى وهو ضخم ولكنـه بسيط التكوين تألف من فناء متسع مرصوف يتضمن رموز معبوده .. وأهمها (بقايا) مسـلة حجرية ضخمة كان ارتفاعها بقاعدتها فيما يحتمل نحو ٣٦ مترا ، وكانت قمتها هرمية الشكل مكسوة بصفائح النحـاس أو مموهة بالذهب ليتألق نورها ويتوهج حين تنعكس عليها أشـعة ربها . ويرى بعض الباحثين أن هذه القمـة كانت ترمز الى ما رمزت اليه

قمم الأهرام من حيث اعتبارها رمزا للنظـام العالمى الذى يحتل الرب أو الملك قمته وأعلى مكان فيه ٠

وكان يتقدم المسلة فى ناحيتها الشرقية مائدة قرابين مرمرية كبيرة ٠ وجاورت الجـانب الجنوبى للمعبد مركب شمسية يبلغ طولها نحو ثلاثين مترا ، ويحتمل أنها كانت تقابلها مركب أخرى بحيث ترمز احداهما لمركب النهار (معنجة) التى يعبر بها رب الشمس سماء الدنيا ، وترمز الثانيـة الى مركب الليل (مسكتة) التى يعبر بها سماء العالم السفلى ٠

ومن أهم خصائص معابد الشمس أنهـا لم تتضمن فى أغلب عصورها القديمة تماثيل لربها أو محـاريب مغلقـة يعبد فيها ٠ واكتفت بتوجيه الدعوات الى كوكبه فى سمائه ، وتقديم القرابين اليه الى الشرق من مسلته ٠ وصورت آلاء رب الشمس على بعض قاعات المعبد الداخلية بمناظر منقوشـة ملونة زاهية لأعمال الزراعة والصناعات الزراعية وحياة الطيور والحيوانات الصغيرة ، فضلا عن بعض أنشطة الملوك الدينية والسياسية ٠

واختلفت أهرام ملوك الأسرة الخامسة عن أهرام ملوك الأسرة الرابعة بقلة ضخامتها الظاهرية وقلة احتمالها ، وان عوضها عن ذلك وضوح عنصر الزخرفة فى المعابد الملحقة بها ، بحيث قدر بعض الباحثين مساحة الجدران المنقوشـة فى مجموعة هرم الملك ساحورع بنحو عشرة آلاف متر مربع لم يتبق منهـا للأسـف حتى الآن غير مائة وخمسين مترا مربعا ٠ وهى مناظر صـورت انتصارات الملك وأهم أعياده وصـلاته بمعبوداته ، وبعض أنشطة الملاحـة والتجارة والعلاقات الخارجية فى أيامه ٠

وتميز آخر أهرام ملوك الأسرة زمنا وهو هرم ونيس (وليس أوناس) فى سـقارة بأن حفلت جدران حجرة الدفن فيه والقاعـة

المؤدية اليها بنصوص دينيــة واسطورية عرفت اصطلاحا باســم « متون الأهرام » •

وهى من الناحيــة الفنية قد سجلت بالنصوص الهيروغليفية التصويرية ، وخرجت معجزة فى اتقان نقشها ورقة أشكالها ودقــة تفاصيلها • ولونت بألوان مختلفة ما زالت تحتفظ بجانب كبير من رونقها ، مما يشهد ببراعة تركيبها الكيميائى والزخرفى على الرغم من مرور نحو أربعة وأربعين قرنا عليها •• وزخرف سقف حجرة دفن الملك بأشكال النجوم ليكون كالسماء التى تحتويه •

وكانت متون الأهرام من حيث المضمون حصيلة لعقائد وأفكار ودعوات شتى نشأت فى عصــور متعددة ، وبقيت متفرقــة حتى سجلت فى عهد ونيس فى باطن هرمه تأكيدا لاستفادته الأخروية منها وتعويضــا لفخامة هرمه عن صغر حجمه • وتضمنت صيغا كثيرة تتلى حين تقديم القرابين والدعــاء للملك ، وأخيلة كثيرة تصــور بعثه وخلوده واتســاع نفوذه فى الحياة الأولى والحياة الثانية •• كما عددت الصفات القدســية المنسوبة اليه ، وأسماء المعبودات التى تظله برعايتها • وتضمنت بعض تصــورات كبار المفكرين والكهان عن الخلق الأول ونشأة الوجود ، وبعض القصص المقدســة عن علاقات كبار المعبودات بعضهم ببعض ، وعددا من القصص الرمزية للأحداث القومية القديمة •

التطور السياسى والاجتماعى :

قطعت الأوضــاع السياسية والاجتماعية خطى واســعة من التطور خــلال عصر الأسرة الخامسة • وزاد ملوكهــا من الانعامات المــادية والأدبية لكبار كهنة الشمس ومعابدها حتى يضمنوا ولاءهم واستمرارهم على التسبيح بفضلهم والدعاية لهم • وأعفوا بعض

المعابد الأخرى من جزء من التكاليف المفروضة عليها • وزادوا الانعامات المادية والأدبية كذلك لكبار الموظفين ، وسمحوا لعظمائهم أن يبلغوا منصب الوزارة ، أكبر مناصب الدولة بعد الملك ، بعد أن كان مقصورا منذ انشائه فى عهد سنفرو على كبار الأمراء وحدهم • وتصاهروا معهم وزوجوا بعضهم بأميرات من أسرتهم الحاكمة ، ومضوا على تربية أبنائهم فى قصورهم ، وسمحوا لعدد منهم أن يرثوا مناصب آبائهم ما داموا أهلا لها ، وما دامت تتوافر لديهم الكفاية لشغلها • وظهر من ملوك الأسرة ملوك متعلمون ، كانوا يتفقدون دور الكتب ودور المحفوظات بأنفسهم ، ويراسلون وزراءهم بعبارات المودة ويردون على رسائلهم اليهم بخطهم •

وكان من هؤلاء الملوك من لم يأب أن يرضى كبار رجاله عما أصابهم منه أو من جرائه عن قصد ، أو غير قصد • وحكى رجلان من عهد نفر اركارع ثالث ملوك الأسرة شيئا من ذلك • فقص « رع ور » أحد من عملوا فى خدمة القصر وفى سلك الكهنوت أن ملكه وكز ساقه بمنسأته (عن غير قصد) خلال حفل كبير ، ثم طمأنه على سلامة العقبى وسمح له بأن ينقش ذلك فى مقبرته • وقص آخر أن أباه الوزير وامشبتاح دهمته اغماءة الموت فجأة وهو يرافق الملك نفسه فى حفل افتتاح احدى المنشآت الملكية ، وأن الملك حاول اسعافه واستعان فى ذلك بمخطوطاته الطبية الخاصة أو عقاقيره الخاصة ، ولكنه فشل وعاد الى مقصورته ودعا الأرباب من أجله ، أى ترحم عليه ، وسمح لولده بأن يسجل ذلك كله نقشا فى مقبرته ، مع ما فيه من دلالة على عطفه وانسانيته وعلمه بالطب والدين •

واتسعت تنظيمات الادارة خلال عصر الأسرة الخامسة وترأس الوزير جهاز الحكومة المركزية بعد الملك • وما لبث الوزراء حتى

أصبحوا فى نظر جمهرة الناس شيئا كبيرا بعد أن لجأ الملوك إزاء اتساع شئون دولتهم أو ازاء التطور الطبقى فى دولتهم ، الى أن ينقلوا بعض سلطاتهم الفعلية الى وزرائهم ، وترتب على ذلك أن انتقل اليهم أيضا نصيب من مهابتهم • وعندما اكتملت للوزير اختصاصاته أصبحت تعرض عليه أمور الدولة المهمة ، ثم يتولى هو عرضها على الملك • وأصبح يعتبر محافظا للعاصمة ورئيسا للبلاط وللديوان الملكى ، ويتولى الاشراف الأعلى على الخزائن وشئون الغلال والمنشآت العامة والأشغال المعمارية الكبيرة ، لا سيما الملكية منها • ويتولى الاشراف على دور القضاء ودور المحفوظات ودور السلاح • وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة بلقب كبير خمسة دار تحوتى ، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الى المعبود تحوتى رب العدالة والكتابة والحساب • ثم تلقب فى عصر الأسرة الخامسة بلقب « حم ماعت » بمعنى خادم العدالة أو كاهن ربتها ماعت ، ولقب رئيس الدواوين الست الكبيرة التى مثلت دور القضاء العليا فى العواصم المصرية الكبيرة أو مجالس القضاء العليا فى الدولة • وسرى شيء من ارتفاع شأن الوزارة الى بعض الوظائف المندرجة تحتها •• وترتب على ذلك ما أسلفناه من أنه توافر لأهل الطبقة العليا وكبار أهل الطبقة الوسطى فى عصر الأسرة الخامسة من الامكانات المادية والقيم الاعتبارية أكثر مما توافر لأسلافهم • ومن أمتع ما يستشهد به من مقابرهم فى سقارة من حيث أسلوبها المعمارى وأسلوبها الفنى ، ومن حيث تنوع مناظرها التى تصور الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها ، مقبرة « تى » أحد رؤساء دواوين الكتاب فى عصره • وأخرى للوزير « بتاح حوتب » الذى عاصر الملك أسسى • توافرت لهذا الوزير « بتاح حوتب » شهرة واسعة وخلد اسمه فى عالم الأدب المصرى

القديم قرونا طويلة نتيجة لما ألفه من تعاليم راقية فى آداب المعاملة والسلوك التى نصح ولده بها لينظم علاقته بقرارة نفسه وأسرته وعمله ومجتمعه ، وليجعله على تقى من ربه • وقد دعاه فيما دعاه الى أن يراعى التوسط فى اختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه ، وفى معاملته لنفسه ومطالب بدنه ، وفى تعامله مع رئيسه ومرءوسه •

واستمرت الجهود الاقتصادية والعسكرية لاستغلال مناطق الحدود الصحراوية وتأمين مناجمها ومحاجرها ومتاجرها من شغب البدو • ووصلت المتاجر المصرية جنوبا حتى منطقة بوهن النوبية وصحبها نوع من الاشراف السياسى • وقام نشاط خاص ازاء بعض عصاة قبائل الصحراء الغربية الذين صور بعضهم وزوجاتهم وأولادهم على أحد جدران معبد الملك ساحورع فى هيئة الخاشعين له هم وآلاف الأنعام التى قد تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت لا تزال وفيرة العشب والمراعى •

وذكرت مصادر الملك نفسه تبادل الاتصالات عن طريق البحر الأحمر مع بلاد بويتة (أوبونت) قرب الصومال واريتريا ، لاستيراد منتجاتها من البخور والصموغ لطقوس المعابد والتحنيط ، والمعادن شبه الكريمة والأخشاب الثمينة ، وجلود الفهود وما اليها • واتسعت الاتصالات التجارية المصرية أيضا مع فلسطين ومع فينيقيا برا وبحرا • ويحتمل زواج الملك ساحورع من أميرة فينيقية أو سورية أتت بها احدى سفنه ، تدعيما لأواصر الود مع بلدها •

خامساً ـ عصر الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ ـ ٢٢٣٠ ق٠م)

بدأت الأسرة السادسة بعهد الملك تتى الذى شيد هرمه فى سقارة ، وقامت مقابر حاشيته حوله • واحتفظت بردية طبية مصرية بتفاصيل عقاقير لتقوية بصيلات الشعر صنعت أحدها أمه شيشى (أو صنع من أجلها) ، وألف بقيتها كبير أطبائه خوى • ودل على التخصص فى العلاج الطبى حينذاك أن ظهر من أطباء العصر من اشتهر بطب العيون • وكان لأطباء القصر الملكى رئيس بما يدل على تعددهم •

وشهدت مصر بعد عهد تتى تطورات متصلة فى حياتها السياسية والاجتماعية ، وفى علاقاتها بفلسطين والنوبة وما وراءهما•

ففى سياسة الحكم زاد التقارب بين القصور الملكية وكبار الشخصيات • وزادت المصاهرات بينهما ، كما زادت مراسم الاعفاء التى كان الملوك يحررون المعابد بها أحيانا من بعض التكاليف المفروضة عليها ، ويكتسبون ولاء الكهنة وحسن السمعة عن طريقها ، وان خسروا بها جانبا غير قليل من موارد خزائنهم •

وتضخمت مكانة كبار الموظفين فى هذا العصر خلال توليهم منصب الوزارة ومناصب حكم الأقاليم الكبيرة ، ومنصب والى

الصعيد • واختلف نفوذهم تبعا لشخصياتهم وشخصيات الملوك الذين عاصروهم ، فاستمر أغلبهم يرد وجود نشاطه الى أمر الفرعون وتوجيهه وفضله ، بينما حرص عدد آخر قليل على أن يؤكدوا مجهوداتهم الشخصية ومآثرهم الفردية فى رعاية الأمن والانتاج بأقاليمهم ، وقيامهم بالعدل بين أهلها ، وان أوفوا التقاليد الشكلية حقها ، فسجلوا الى جانب مآثرهم الشخصية طاعتهم لملكهم وحرصهم على التقرب منه وارضائه • ومن خيرة هؤلاء الحكام حاكم يدعى ((هنقو)) ، ترأس منطقة فى اقليم أسيوط تدعى جوفه ، وافتخر فى نقوش مقبرته بأنه أغدق الطعام والشراب والكساء على فقراء اقليمه • وبلغ من كرمه أنه أشبع ذئاب الصحارى وعقبان السماء بلحوم الماعز التى كان يضحى بها • وافتخر برعايته لاقتصاديات بلده وأنه شجع هجرة أهل الأقاليم الأخرى اليه لتعمير القرى المهجورة فيه ، ثم جعل مزارعيه ملاكا ، كما زاد أعداد الماشية على شواطئه وأعداد الماعز على مراعيه (بما قد ينحو منحى الاصلاح الزراعى وتنمية الثروة الحيوانية على نطاق ضيق) • وبلغ من طيب سمعة بعض حكام الأقاليم الأخرى حينذاك أن رفعهم رعاياهم الى مصاف الأولياء وقدسوهم •

ورضى الملوك بنشاط أصحاب الشخصيات القوية من حكام الأقاليم ولكنهم تخوفوا أن يؤدى هذا النشاط الى انفلات السلطان من أيديهم ، أو يؤدى الى تهاون أولئك الحكام فى أداء التبعات والضرائب المفروضة عليهم •• أو يشجع البعض منهم على الاستقلال بحكم أقاليمهم فعملوا على مواجهة هذه التوقعات عن طريق التوسع فى استخدام وسيلتين قديمتين وهما :

التوسع فى تربية أبناء كبار الحكام فى قصورهم أملا فى أن يشبوا أوفياء ، ويخلصوا لطاعتهم اذا تولوا حكم أقاليمهم ،

ثم اعادة منصب والى الصعيد الذى استحدثته الأسرة الخامسة وعهد الى واليه برقابة ضرائب الصعيد وشئون حكامه باسم الملك . وكان قد ألغى فى عهد تتى أول ملوك الأسرة السادسة ثم أعيد فى عهد مر نرع رابع ملوكها .

وصور بعض مشاكل القصر الملكى حينذاك مواطن كفء يدعى « ونى » ، بدأ حياته الوظيفية فى عهد تتى وارتقى الى عمل المحقق وساعد الوزير فى بعض القضايا الخاصة ، وفى دور القضاء الستة الكبيرة فى عهد الملك ببى الأول .. ثم كلفه هذا الملك بالتحقيق مع زوجته الملكة امتس فى أمر نسب اليها والى وزيره ، وقد يكون خيانة زوجية أو تآمرا على احدى ضرائرها أو ولدها ، او تآمرا على الفرعون نفسه .. وقام « ونى » بمهمته الصعبة منفردا ورفع تقريره عنها الى الملك .. ولم يعرف نص هذا التقرير ولا قرار الملك فيه ، ولكن قد ينم عن فحواه أن الملك تزوج بعدها بابنة أحد عظماء جرجا فى عهده وأنجب منها ولده « مرنرع »، ثم تزوج أختها (بعد وفاتها) وأنجب منها ولده الآخر ببى (الثانى) . وكانت هى المرة الأولى التى تزوج ملك فيها واحدة من غير الأميرات ثم اعترف بولدها وليا شرعيا لعهده .

وكان ونى من الشخصيات ذات الثقافة المتنوعة ، وجمع الى كفاءته الوظيفية والقضائية كفاءة أخرى عسكرية . وكانت قد اندفعت الى جنوب فلسطين والحدود المصرية الشمالية الشرقية هجرات بدوية متقطعة ذكرها المصريون باسم « عامو حر يوشع » بمعنى القبليين بدو الرمال ، وكانت فرعا من الهجرات الأمورية التى تسربت الى أطراف الهلال الخصيب فى مصر والشام والعراق وهددت سبل التجارة بينها منذ أواسط الألف الثالثة ق.م .

وعهد الملك ببى الى ونى بدوء شرها عن مصر ، فخرج فى خمس حملات ، أربع عن طريق البر وخامسة عن طريق البر والبحر. وذكر فى تقاريره عنها أنها تكللت بالنجاح على حد قوله . وورد من نصوصه عنها ما يكشف عن سياسة الحرب وتجييش الجيوش فى أيامه .. فذكر أن ملكه أمر بأن يجند تحت امرته عشرات الآلاف من حاميات المدن وأهل الأقاليم ، فضلا عن بعض قبائل النوبة والصحراء الغربية الموالين لمصر .. وأوفد معه طائفة من المترجمين والموظفين والكهنة .

وعقب ونى بأنه ترتب على حكمته فى قيادته ورسم خطته أنه لم يحدث أن تنازع جندى مع زميله أو اغتصب كسرة خبز من عابر سبيل أو اغتصب نعله .. ولم يحدث أن نهب أحد جنوده خرقة من قرية ، أو سلب عنزة من عشيرة ، حتى جاوز الجيش مناطق الحدود الشمالية الشرقية . ولما تكللت مساعيه بالنصر على الأعداء ، رفع الى ملكه تقرير الحرب ، وعقب عليه بسبعة أبيات من الشعر أكد خلالها سلامة جيشه سبع مرات بمثل قوله :

عاد الجيش سالما بعد أن دمر أرض أهل الرمال .. ، عاد سالما بعد أن أسقط حصونهم ، عاد سالما بعد أن خرب مزارع التين واقتلع الكروم .

لم يبرأ تقرير ونى من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه وحين ادعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب ، فى أى كبيرة أو صغيرة ، غير أن روايته على الرغم من مبالغتها ، لا تخلو مما ينم عن أن حكام عصره تعودوا على أن يجندوا قطاعا واسعا من امكانات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم كلما آن أوانها ، دون الالتزام بالجيش الدائم ، وأنهم اطمأنوا الى اخلاص بعض النوبيين وبعض

بدو الواحات المسالمين ، واستعانوا بهم فى جيوشهم كفرق مساعدة ، وأن الكهان كان لهم دور فى الجيش يستثيرون به حماسة الجنود ويذكرونهم بآلاء الأرباب والدين والملوك ، وأن التراجمة كانوا يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المناطق المفتوحة ، وتم وصف ونى لمسلك جنوده الحميد داخل مناطق الحدود المصرية عن مسئوليات القادة فى العمل على تغليب روح الطاعة فى الجيش وتقليل دواعى الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بمئونة مناسبة تصرف رجاله عن محاولات النهب والعدوان ، كما تم وصفه لمنطقة حروبه ، وذكره مزارع التين والكروم فيها عن أنه توغل بجيشه الى جنوب فلسطين ، ويبدو أن سلامة الجيش التى رددها فى نهاية تقريره المنظوم لم تكن من مستلزمات النظم وحده ، وانما يحتمل أنها تضمنت خبرا مرويا عما حدث فعلا ، أو هى على الأقل عبرت عن أمل كان المقيمون يرجونه لجيشهم فعلا .

رحلات الكشف فى الجنوب :-

عبرت نصوص الدولة القديمة عن أهل النوبة باسم عام وهو « نحسيو » ، كما عبرت عن أكبر مناطقهم باسم واوات ، مع اسماء محلية أخرى مثل أيام وارثة وكاو .. الخ . واهتمت مصر بالنوبة بناء على اعتبار أجزائها السفلى متممة لحدود أسوان ، وللرغبة فى استغلال محاجر الديوريت بها ومناجم الذهب فى صحرائها الشرقية ، ثم الرغبة فى فتح أسواق للتجارة فى مناطقها المسكونة ، واتخاذها سبيلا للاتصال بما وراءها من أراضى السودان، مع الاهتمام بتأمين طرق التجارة من شغب قبائلها التى كثيرا ما كان الفقر يدعوها الى تهديدها .. وكانت قوافل التجارة تصدر اليها ما يروج فيها من المنسوجات والزيوت

والصناعات والفنون الصغرى والقاشانى ، وتستورد منهـا وعن طريقها المـاشية والعاج والأبنوس وريش النعام وجلود الضباع والفهود ٠

وقام بأعمال الكشف والأمن وترويج التجارة فى الجنوب خلال عصر الأسرة السادسة عدد من كبار شخصيات أسـوان لمعرفتهم باللهجات النوبيـة والسودانية وقربهم من أهلها ٠

وكان أشهرهم حرخوف ، ومخو ، وسابنى ، وببى نخت ٠٠ وقام حرخوف بأربع رحـلات الى الجنوب فى عهدى الملكين مرنرع وببى الثانى ، وبلغ فى أولاها منطقة ايام قرب الشـلال الثانى ، وقضى فيها سبعة شـهور ٠ وذكر فى نصـه عنهـا أنه أراد أن « يكتشف بها طريقا الى تلك الفيافى » ، وذلك مما ينم عن وضوح رغبة الكشف عنده ، وهو وان كان كشفا تجاريا واداريا قبل كل شىء ، فان ذلك لا يعيبه كثيرا اذا قدرنا أن الاكتشافات الأوروبية نفسها ظلت حتى العصر الحديث تستهدف التجارة والاستغلال بل الاستعمار أيضـا ، الى جانب الكشـف العلمى ٠ وبدأ حرخوف برحلته الثانية من أبيدوس ، وسلك فيها طريق العاج حتى بلغ دنقلة الأوردى قرب الشـلال الثالث ، وقضى فيها ثمانية شـهور قطع فيها مع قافلته نحو ١٧٢٥ كيلو مترا باستخدام الحمير ٠٠ وبدأ رحلته الثالثة من أبيدوس أيضا ، ولكنه سلك فيها طريق الواحة ، ولعله هو طريق درب الأربعين الحـالى الواصل بين الواحة الخارجة ودارفور ٠ وروى أنه صـادف خلالهـا نزاعا بين قبـائل ايـام وقبائل التمحو فأصلح بينهما لاظهار مسعاه الحميد ، ولتأمين طريق التجارة ٠ وأتم رحلته الأخيرة فى عهد الملك ببى الثانى الذى ولى العرش طفلا ٠ وعاد حرخوف مع خيراتها وبضائعها بقزم كتب بخبره الى البلاط الملكى ، فاهتم الملك الصغير بخبره أكثر مما اهتم بنتائج

الرحلة ذاتها • وأمر بأن تكتب الى حرخوف رسالة يوصيه فيها بسرعة العودة بالقزم والحرص على سلامته وتأكيد حراسته وما الى ذلك من تعبيرات طفولية ساذجة دلت على احدى سوآت النظام الوراثي المطلق الذى لا يأبى أن يضع مقاليد دولة كبيرة فى يد طفل صغير •

وأكمل والى أسوان ببى نخت مجهودات حرخوف فى أعمال الكشف وتأمين سبل التجارة فى الأقطار الجنوبية وان كان قد لجأ الى الشدة فى مقاومة عوامل الشغب فيها •



شيدت أغلب أهرام ملوك عصر الأسرة السادسة فى سقارة • وماثلت أهرام الأسرة الخامسة فى صغر أحجامها واحتوائها على نصوص الأهرام التى ما لبثت حتى سجلت أيضا فى أهرام بعض الملكات الكبريات بناء على ازدياد مكانتهن •

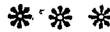
ولم يتبق من تماثيل ملوك الأسرة غير القليل •• ومن أروعها بمتحف القاهرة تمثال مزدوج من النحاس المطروق للملك ببى الأول يعتمد على عصاه ، ويجاوره ولى عهده مرنرع عاريا فى سن الطفولة •

وانعكس ثراء كبار الشخصيات على آثارهم ، وفاقت مقابرهم مقابر أمثالهم السابقين من حيث السعة والفخامة وتعدد النقوش وموضوعات المناظر • وتفرقت هذه المقابر بين جبانة العاصمة فى سقارة وما حولها ، وجبانات حواضر الأقاليم الرئيسية • ومن أهم ما يستشهد به منها مقبرة مرروكا ومقبرة كايجمنى • وتضمنت

اولاهما ٣٣ حجرة امتلأت أغلب جدرانها بمنـاظر منقوشة ملونـة استحبت طابع الامتلاء وعبرت عن روح الاستمتاع والتخفف قليلا من قيود التقاليد فى عصرها ٠



واستمرت اتصالات مصر التجـارية القديمـة ببلاد بوينة ، وفلسطين وسواحل فينيقيا ، وربما ببلاد العراق وجزر بحر ايجة أيضا ٠ وبلغ من سعة نشاطها أن سجل ملاح مصرى يدعى خنوم حوتب أنه تردد بسفينته مع رئيسيه ثنى وخوى على مينـاء حبيل من ناحية ، وعلى ساحل بوينة من ناحية أخرى ، احدى عشرة مرة ، واستمتع كثيرا بما شاهده هنا وهناك ٠



البـــاب الثـــانى

العصر المتوسط الأول (الأسر ٧ ـ ١٠)

٢٢٠٠ ق٠م ـ ٢٠٤٠ ق٠م (تقريبا)

للدكتور محمد جمال الدين مختار

تمهيـد

انهار النظام الملكى المركزى بمصر وانتشرت الفوضى الاقطاعية بالبلاد خلال حكم الملك « بيبى الثانى » الذى استمر قرابة التسعين عاما ثم فى عهـد آخر ملكين من ملوك الاسرة السادسـة اتصف حكمها القصير بالتدهور والضعف ، مما أتاح لحكام الأقاليم ، وخاصة فى مصر العليا فرصة الاستقلال اداريا فى أقاليمهم والانفصال تدريجا عن السلطة الملكيـة • وقد أدى ذلك الى انهيار الأسرة السادسة وانتهاء ذلك الحقب من الزمن الذى نطلق عليه حاليـا اسم « عصر الدولة القديمة » • ومن ثم فقد بدأ فى مصر عصر جديد يعد من أسوأ عصور التاريخ الفرعونى نسميه الآن العصر المتوسط الأول(١) وهو عصر ضعفت فيه وحدة البلاد وانفلت زمام الحكم من الملك ، وشبت نيران الحرب الأهلية ، وساد الاضطراب واستشرى الانحلال والتفكك الاجتماعى •

ويمكن تقسيم هذا العصر الى فترتين متتابعتين ، ميز بينهما مانتيـون فى تاريخـه • ومن ثم يمكن تحديد الفترة الأولى بالأسرتين السابعة والثامنة اللتين اتخذتا من منف مقر الحكم بينما تضم الفترة الثانية الأسرتين التاسـعة والعاشرة ، اللتين حكمتـا من اهناسية المدينة فى مصر الوسطى •

أولا ــ عصر الأسرتين السابعة والثامنة المنفيتين (٢٢٠٠ ــ ٢١٦٠ ق٠م)(٢) :

يعتبر عصر هاتين الأسرتين من أشد عصور مصر القديمة اظلاما ومن أكثرها غموضا وأسوئها حالا ، فقد ساد خلال تلك الأيام الفقر والبؤس وتتابعت المحن والكوارث واختل الأمن فنهبت الأهرامات وسرقت القبور وحطمت المبانى الدينية وشوهت الأماكن التراثية • وقد أنقسمت البلاد الى أقاليم اقطاعية يخضع كل منها لسلطة حاكم طامع فى توسيع مدى ما يحكم على حساب الآخرين، لقد أصبح من العسير علينا التفريق بين الملك وأى حاكم من حكام الأقاليم ، كما أتاحت هذه الأحوال الفرص لاغارة بدو الصحراء الشرقية وسيناء على الدلتا ، حيث عاثوا فيها فسادا وتخريبا • بل ان البعض لا يستبعد اتخاذ الهكسوس لهذا الغزو ، فيما بعد ، مثلا وسبيلا(٣) •

وقد أشار مانتيون الى هذه الفوضى حين ذكر أن سبعين ملكا قد حكموا أيام الأسرة السابعة فى مدى سبعين يوما • ورغم ما فى هذا القول من مبالغة واضحة غير قابلة للتصديق فان الدليل قوى على مدى ما ساد البلاد حينذاك من اضطراب وتفكك ، وما أحاط بتلك الأسرة من غموض وابهام • والواقع انه ليس لدينا من المصادر الأثرية والوثائق التاريخية ما يمكن الاعتماد عليه فى دراسة هذه الأسرة ، مما دفع بعض المؤرخين الى انكار قيامها •

كذلك أشار مانتيون الى تتابع ثمانية عشر ملكا حكموا أيام الأسرة الثامنة لمدة ١٤٦ عاما ، دون أن يذكر أسماءهم ، كما ذكر أن الأسرتين السابعة والثامنة قد حكمتا من العاصمة القديمة منف • وقد أوردت بردية تورين أسماء سبعة ملوك بعد عهد الملكة « نيوتوكريس » آخر ملوك الأسرة السادسة ، كما ورد بقائمة

ابيدوس أسماء سبعة عشر ملكا تتشابه معظم أسمائهم مع أسماء ملوك الأسرة السادسة • أما قائمة سقارة فقد تجاهلت الملوك الذين حكموا بعد بيبى الثانى حتى بدء أيام الأسرة الحادية عشرة • وعلى كل حال يبدو أن الضرورة قد اقتضت وجود نظام حكم فى العاصمة منف يخلف النظام الملكى المركزى الذى ضعف فى أواخر أيام الأسرة السادسة ، ويمثل فترة انتقالية ما بين الحكم الشمولى لمصر الموحدة والحكم الاقطاعى لمصر الممزقة المنقسمة على نفسها • ولعل ذلك كان نوعا من المحاولة لايجاد قدر من التوازن بين سلطات الملك المتداعية وسلطات حكام الأقاليم وطموحاتهم المتزايدة(٤) •

كما يبدو أن حكام قفط قد نجحوا خلال تلك الفترة فى تكوين أسرة مستقلة فى اقليمهم بالاضافة الى بعض الأقاليم من حوله ، اطلق عليها بعض المؤرخين اسم الأسرة الثامنة القفطية ، التى حكمت مدة قصيرة تراوحت وفقا لتقديراتهم المتباينة ما بين عشرة وأربعين عاما • ومن أهم ما خلفه هؤلاء الحكام تلك المراسيم التى سجلت على لوحات جدارية بمعبد الاله معين بالمدينة ، وتناولت شئونا ادارية ومالية ودينية محلية مثل تحديد أوقاف معبد أو تحذير من العبث بالمخلفات الدينية • وبالرغم من أن مراسيم قفط توضح ما كان عليه هؤلاء الحكام من سلطات محدودة وقدرات ضعيفة ، فانها تمثل نوعا من استمرارية نظام شبه ملكى ضيق النطاق •

المظاهر العامة لتلك الفترة :

لعل أهم مظهر تميزت به تلك الفترة هو ضعف الملكية ضعفا مهد لانهيارها وأدى الى ضآلة مقدار الضرائب التى كانت تصل الى الخزانة الملكية ، ومن ثم توقفت البعثات الى مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء وعجزت الحكومة عن اقامة المنشآت

الدينية والجنائزية • ومن ناحية أخرى فقد نهبت المقـابر واعتدى على المعابد نتيجة لاختـلال الأمن كما انقطعت العلاقـات مع جيران مصر • وقد قويت شـوكة حكام الأقاليم فى نفس الوقت فاستقلوا بأقاليمهم التى حاولوا النهوض بها بقدر طاقتهم • ولكن رغم ما كان لهؤلاء الحكام من قوة نسبية وما تمتعوا به من سـلطات واسعة فانهم لم يتمكنوا من الابقاء على المستوى الفنى والمعمـارى الذى بلغته الصناعات والفنون والعمـائر أيام الدولة القديمـة ، بل على العكس فقد انخفضت القدرات الفنية والانتاجية فى كافة الأقـاليم وانحدرت انحدارا ملموسا(٥) •

وقد اختفت ظاهرة بناء الأهرامات الملكية فى تلك الفترة ، عـدا هرمـا متواضعـا بسـقارة لملك يدعى « ايبى » من الأسرة الثامنة ، حكم مدة تتراوح بين سنتين وأربع سـنوات(٦) • وقد زينت بعض جدران ذلك الهرم بنصوص الأهرام فيما يبدو كمحاولة للحفاظ على بعض التقاليد الموروثة التى اندثر الكثير منها فى ذلك العصر المضطرب • والواقع أن تشييد المقابر الملكية فى مصر القديمة كان الى حد كبير بمثابة مقيـاس لقوة الدولة وسـلطة الملك ، فعندما تكون ضخمة أو متميزة فانهـا تدل على قدرات وأهميـة صاحبها ، أما اذا صغرت أو تضاءلت قيمتها المعمارية والفنية فانها تشير الى تضاؤل شأن صاحبها وتقلص قدراته •

ومن أسوأ أحداث تلك الفترة تلك الاغارات التى قـام بهـا البدو الآسيويون على شرق الدلتا بوجه خـاص ، والتى عجز الملك وحكام الأقاليم عن صـدها أو الحد منها • ومن الواضح أن هؤلاء البدو لم يحـاولوا غزو مصر عسكريا أو احتلالها ، بل هدفوا الى التسلل والتسرب عبر حدود مصر الشرقية بغية النهب والسلب ، ثم السعى الى الاستقرار فى ربوع الدلتا • وليس هنـاك من شك

فى أن سوء الأحوال السائدة فى مصر وانقسامها وضعف قدراتها الدفاعية قد شجع هؤلاء البدو على الاغارة بعد أن تعرض الكثيرون منهم الى ضغط شعوب آسيوية أخرى عليهم فى فلسطين وما جاورها ٠

كذلك بدأت مصر تفقد سيطرتها على حدودها الجنوبية فقامت فى هذه الفترة حضارة جديدة فى بلاد النوبة مستقلة عن حضارة مصر ومختلفة عن حضارات النوبة السابقة لها الى حد كبير ٠ وتعرف هذه الحضارة باسم حضارة المجموعة « ج » وكان أصحابها رعاة ، يزاولون تربية الماشية وينتمون حضاريا الى العصر الحجرى النحاسي ٠ وقد سيطرت هذه الحضارة على النوبة السفلى (النوبة المصرية) بوجه خاص كما انتشرت فى بعض المواقع بالنوبة العليا (السودانية) ٠ وقد تضاربت آراء المختصين فى أصل ونشأة هذه الحضارة فاعتبرها البعض محلية الأصل بينما رأى البعض انها حضارة وافدة من الشرق أو الغرب ٠ ورغم وجود نوع من الاتصال بين مصر وأصحاب تلك الحضارة فانهم ظلوا بمنأى عن اتجاهات مصر الحضارية ومعتقداتها الدينية حينذاك ، حتى جاء ملوك الأسرة الـ ١٢ ، الذين اهتموا بالنوبة السفلى عسكريا وحضاريا ونجحوا الى حد كبير فى تمصيرها ٠

ولكن رب ضارة نافعة ، فقد نتج عن سوء أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية ظهور اتجاهات صورها البعض على أنها أول ثورة اجتماعية وفكرية بمصر ، وان اعترض الكثيرون على هذا التعبير نظرا لبعد اتجاهات الأحداث وأهدافها عن مدلول الكلمة كما أنها لم تسفر عن أية تغييرات سياسية ملموسة كتغيير نظام الحكم أو ما شابه ذلك ٠ وعلى كل حال فقد أدت الأحداث الى خلق نوع من الوعى بحقوق الانسان

وقوت من اعتزازه بكرامته ، كما حطمت جانبا من تلك الهالة المقدسة التى أحاطت بالملكية منذ أيام الدولة القديمة بوجه خاص وجعلت الشعب يذوب فى شخصية مليكه ، فلقد كان المجد والسؤدد فى الدنيا والآخرة مقصورا فيما سبق على أفراد العائلة المالكة والملتفين حول الملك ممن يسخرهم لخدمته أو الحائزين لرضاه • أما بعد تلك الفترة الانتقالية فقد أضحى المجد فى الآخرة بوجه الخصوص متوقفا أساسا على استقامة الفرد وتقواه وحسن سلوكه ، بصرف النظر عن مركزه الاجتماعى أو رضاء الملك عنه •

والواقع ان هذه الانتفاضة الاجتماعية — اذا صح التعبير — لم تدمر أهرامات الملوك وزوجاتهم ومقابر النبلاء والأمراء فحسب ، بل حطمت أيضا الكثير من الآراء والمعتقدات ، فألغت العديد من الامتيازات الدنيوية والدينية التى كانت حكرا على أبناء الطبقة العليا والمحيطين بالملك • لقد أصبح المصريون منذ ذلك الحين يؤمنون بالمساواة بين كل الناس أمام الحكام من ناحية وأمام الآلهة من ناحية أخرى • ومن ثم فقد سمح لأفراد الشعب باستخدام بعض الطقوس والنصوص الجنائزية التى كان استخدامها مقصورا على الملك وعلية القوم ، فى اطار محاولة لارساء الديموقراطية فى العالم الآخر ،مما يعد انعكاسا للمبادىء السابق ارساؤها فى عالم الأحياء • كما نجح المصريون حينذاك فى تطوير مجموعة من القيم دعمت حقوق الفرد الدينية وطورت العقيدة الدينية فيما يتصل بالمعبود « أوزوريس » بوجه خاص • وتؤكد متون التوابيت (نصوص الأكفان) التى نقشت على توابيت أصحابها من كافة الطبقات ذلك الاتجاه فقد حلت الى حد كبير محل نصوص الأهرامات ، التى اقتصرت فقط على أهرامات الملوك فى أواخر أيام الدولة القديمة •

ازدهـار الأدب :

تميز الأدب فى ذلك العصر بواقعيته واتجاهه للتصـدى لمظاهر الفساد والانحراف الذى استشرى فى كافة الأنحاء ، كما يعد أهم وأصدق مصادرنا التاريخية عن ذلك العصر الغامض ٠

وتعد المقطوعة الأدبية للحكيم ايب أور (أى ايب العجوز) بمثابة تسجيل صادق لأحوال مصر فى أواخر ايام الدولة القديمـة وفى مستهل العصر المتوسط الأول ٠ وقد حفظتها لنا بردية نسخت أيام الدولة الحديثـة يحتفظ بها الآن متحف (ليدن) بهولنـدة وتمتاز كتابة « ايب أور » ــ رغم طابعها السـياسى ــ بالواقعيـة والرغبة الشديدة فى الاصـلاح والتوصل الى حكم أفضل ينقذ البلاد من الأخـطار التى أحدقت بهـا والتى وصفهـا ايب أور برؤيـة سليمة وادراك واع ٠ لقد تحدث عن تغير صـورة البلاد وتبدل أحوالها وتردى أمورها ، وأشـار الى الانحـلال والفسـاد الذى انتشر فى البـلاد ، وندد بالجريمة التى سادت كل مكان والتعدى الذى يحدث فى كل البقاع ونعى هيبة القانون التى ضاعت والخبز الذى قل والود الذى اختفى ، وتعجب من تحول الأغنياء إلى فقراء والفقراء الى أغنياء كما حذر من البدو الذين تسللوا الى البلاد ٠ ونراه يخاطب الملك مرددا ان البلاد قد أصبحت تغلى كالمرجل دون أن يرى شـيئا أو يفعل أمرا ، وما ذلك الا لأن البطانة تحجب عنه حقيقة الأمور ٠ وذكره بان الناس يستغيثون ولا مغيث ويستنجدون ولا منجد حتى ليقول الصغير ليت أمى لم تلدنى ويقول الكبير ليتنى مت قبل هـذا ٠

وهناك بردية أخرى سميت حديثا الرجل الذى يناجى روحه (أو الرجل اليائس من الحياة) ويحتفظ بها متحف برلين وترجع الأسرة الـ ٧ ٠ وهى تروى نقاشـا يدور بين رجـل سئم الحيـاة

ويئس من معيشته فقرر الفرار من عالمه الحاضر عن طريق الانتحار، وروحه التى حاولت رده عن عزمه ومنعه من تنفيذ قراره . ويبدو بوضوح من خلال تلك المناقشة مدى تشاؤم هذا الرجل حين يقول مثلا :

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد أصبح الاخوة وضعاء والأصدقاء كارهين .

لن اشتكى البوم ؟ لقد أصبحت القلوب حاقدة وأصبح الرجل يسرق زميله .

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد اختفت الرحمة وساد السوء فى كل مكان .

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد أصبح الناس يعشقون الشر وأضحى الخير يداس تحت الأقدام .

ويتحدث أيضا عن تفضيله الموت هربا من حاضر معتم ومستقبل أشد عتامة فهو يقول :

لقد أصبح الموت فى ناظرى كشفاء المريض بعد مرض عضال . وكرجوع الرجل الى بيته بعد حرب ضروس وكخروج السجين الى الحرية بعد حبس طويل وكالعودة الى الوطن بعد أسر طويل .

وينتهى النقاش بعدول الرجل عن تنفيذ عزمه بعد أن هددته روحه بهجرانه فى الدنيا والآخرة . وهكذا تصور لنا هذه البردية وجهة نظر البائسين والمتشائمين بعكس بردية « ايب أور » التى تعرض لنا وجهة نظر متفاقلة الى حد ما .

وأخيرا لدينا أغنية العازف على الجنك (آلة وترية) التى ترجع الى ذلك العصر أيضا ، والتى تدعو الى التمتع بالحياة

الدنيا وتشكك الناس فى عقائدهم الدينية حين تقول : « لقد سمعتهم حكم ايمحتب ودرف رع ، التى يرددها الناس فى كل مكان • فأين أمكنتهم الآن ؟ لقد تهدمت مبانيهم وحطمت جدرانها وأضحت كأن لم تكن ! ولم يحضر أحد من هناك فيحدثنا عما أضحوا عليه أو يخبرنا بمصيرهم • فتمتع ودع قلبك ينسى اليوم الذى ستدفن فيه ، وضع كل الأشجان وراء ظهرك وامض فى سرور حتى يأتى يوم وفاتك ، وسر وراء رغبات قلبك ما دمت حيا » •

ثانيا ــ العصر الأهناسي (الأسرتان الـ ٩ والـ ١٠)

٢١٦٠ ق٠م ــ ٢٠٤٠ ق٠م

فى خلال تلك الفوضى التى سادت البلاد أيام الأسرتين السابعة والثامنة ظهرت فى بلدة « اهناسية المدينة » بمحافظة بنى سويف الحالية أسرة قوية بزعامة أمير يدعى « خيتى » تلاه عدد من خلفائه بلغوا حوالى الثمانية عشر ، اعتبروا أنفسهم ملوكا على مصر وأسمتهم النصوص المعاصرة باسم « بيت خيتى » نسبة الى أول ذلك الخط العائلى وسجلهم مانثيون تحت اسم الأسرتين التاسعة والعاشرة(٨) ، اللتين حكمتا جانبا كبيرا من أرض مصر مدة تزيد على مائة عام واتخذوا اهناسية عاصمة للبلاد ومقرا للحكم(٩) •

وقد حاول ملوك هاتين الأسرتين نشر سلطانهم على كافة انحاء مصر ، ونجحوا الى حد كبير فى طرد بدو الصحراء من شرق الدلتا ، واعتبروا أنفسهم خلفاء مباشرين وشرعيين لملوك منف • ويمثل عهدهم بوجه عام دور انتقال من حكم الدولة الوسطى الطيبية (نسبة الى مدينة طيبة) التى التقى رؤساء أقاليم مصر العليا حول حكامها •

ومع أن هؤلاء الأهناسيين لم يتركوا لنا آثارا جديرة بالذكر ، كما اننا لم نعثر بعد على قبورهم ، ما عدا هرم الملك « مريكا رع » أحد ملوك الأسرة العاشرة بجبانة سقارة ، فان المؤرخين قد توصلو الى بعض الحقائق التاريخية عن ذلك العصر معتمدين على مصدرين مهمين .. أولهما : التعاليم التى تركهـا الملك « خيتى الثالث » لابنه وولى عهده مريكارع وهى خلاصـة تجارب ذلك الملك الشيخ طوال حياتـه الطويلة التى امتلأت بألوان من الحروب والكفـاح وخاصة تلك الحرب الضروس للسيطرة على « أبيدوس » أما ثانى تلك المصـادر فهو النصـوص التى دونها حكام أقليم أسـيوط المعاصرون والمتحالفون مع اهناسية على جدران قبورهم المحليـة ولعل أهم هذه القبور هو قبر الأمير « خيتى » الذى ذكر انه تربى وهو صغير فى البلاط الملكى مع أبنـاء الملك ، ثم تحدث عما قـام به من أعمال لاسعاد قومه ، كما روى الكثير عن شجاعته فى قتاله مع الأعداء الطيبيين كذلك سجل خليفته « تف ايب » على جدران قبر أخبار حروبه خاصـة فى منطقة « أبيدوس » .

ملوك أهناسـية :

أسس خيتى مرى ايب رع (الأول) الأسرة التاسـعة وقد تلاه ملوك آخرون يكتنف الغموض تاريخهم . وقـد ذكر مانثيو هذا الفرعون باسم « اخيتوس » ووصفه بانه كان ظالمـا متعسفا سام شعبه العذاب وانه فقد قواه العقليـة فى أواخر أيام حكمه وأن حياته انتهت بعد أن التهمه تمسـاح . ولكننا فى الواقع لم نعثر على أية وثيقة تاريخيـة تؤكد أو تنفى مزاعم مانثيون ، كما انه ليس بمستغرب اتصاف خيتى بالشـدة والصرامة اذ كانت البلاد فى ذلك الوقت فى حاجة الى رجل قوى حازم يقضى على الفوضى الشاملة ويوفق فى نضـاله مع أمراء الأقاليم الذين بلاشك قد قاوموا محاولة

لاعادة الوحدة الى البلاد(١٠) .. وقد عثرنا على اسـم هذا الملك على صخرة عند الجندل الأول ، وعلى اناء من البرونز وجد فى أسيوط وهو الآن بمتحف اللوفر بباريس وكذا على عصـا من الأبنوس مدون عليها اسمه عثر عليها فى مير بمحافظة أسيوط ، وعلى جزء من صندوق عاجى عثر عليه فى اللشت .

وهناك فرعون آخر مهم من بيت اهناسية عاش فى أيام الأسرة العاشرة هو خيتى واح كارع (خيتى الثالث) وقد حكم مدة طويلة ، حاول خلالها طرد البدو من شرق الدلتا كمـا قضى معظم أيامه فى قتال شرس مع أمراء طيبة الذين كانوا قد اسـتولوا على منطقة أبيدوس وتقدموا شـمالا حتى أسيوط ، فكان بذلك آخر ملك عظيم حكم فى أهناسـية .

والواقع أن علاقة اهناسية بطيبة كانت سليمة فى بادىء الأمر الى أن نشبت الحرب بين البيتين الحـاكمين بهما عندما قويت شوكة طيبة ، فانقسمت مصر بذلك الى مملكتين متصـارعتين . ويغشى هـذا النزال الطويل المدى ، الذى امتد قرابة مائة عـام بكثير من الغموض والابهام ، وتخللته انتصـارات وهزائم وقطعته فترات هدنة وسلام . وقد رجحت كفة ملوك أهناسية وحلفائهم أمراء أسيوط فى بادىء الأمر ثم أضحت الحرب سجالا بين الفريقين ، ثم ما لبثت أن انقلبت كفة ميزان الحرب فى صالح طيبة ، فتقدم الطيبيون فى عهد خيتى الثالث الى قلب مصر الوسطى ، مما أحزنه ودفعه الى كتابة وصيته لابنه مريكا رع الذى تولى بعده ، كما يبدو أن الطيبيين قد وصلوا فى أيامه الى مشارف الأشمونين .

وقد انتهت تلك الحرب الشرسة بانتصار الطيبيين انتصارا تاما حين تمكن منتوحتب الثالث أحد ملوك البيت الطيبى أيام الأسرة

ال ١١ (وفقا لتقسيم مانثيون) من اسقاط عرش أهناسية وجلوسه على عرش مصر المتحدة(١١) مما كان بشيرا ببدء عهد جديد يعرف باسم الدولة الوسطى ٠

ازدهار الأدب فى العصر الأهناسى :

ظل الأدب مزدهرا فى العصر الأهناسى مما يعد استمرارا لازدهاره فى الفترة الأولى من العصر المتوسط الأول ، وان اختلف فى بعض أهدافه ومراميه ٠ وسأكتفى بتقديم مثالين متميزين منه هما : « تعاليم مريكارع » وقصة « الفلاح الفصيح » اللتين دونتا بأسلوب لغوى بليغ تميز بالتشبيهات والتوريات والكنايات اللطيفة(١٢) ٠

أما تعاليم مريكارع فهى عبارة عن وصايا موجهه للملك « مريكارع » من أبيه خيتى ، تضمنت توجيهات سياسية الى جانب نصائح اجتماعية ومواعظ دينية ٠ وقد دونت على ثلاث برديات محفوظة الآن بمتاحف لننجراد وموسكو وكوبنهاجن وترجع الى أيام الدولة الحديثة ٠ ويفهم منها ان خيتى قد نجح فى طرد البدو من الدلتا واستأنف التجارة كما استمر فى كفاح الطيبيين وقام بتطهير الترع ولكنه فى نفس الوقت اهاب بابنه أن يسالم أهل الجنوب ويقوى جيشه ويحسن معاملة موظفيه وحثه على التمسك بالفضائل ولا يظلم امرأة أو يحرم انسانا من ثروة أبيه وان يطيب خاطر الشاكى وان يتبع العدل دائما ٠ ولهذه النصائح دلالة دينية اذ تدل على أن الملك قد فقد جانبا كبيرا من الوحشة المقدسة ، فنراه أحيانا يحدثنا عن أخطائه مرددا عبارات الندم ، كما يذكر ان السعادة فى الآخرة لا تنال وفقا لمركز الفرد وجاهه وانما تنال منحة لأعماله الطيبة وسلوكياته الخيرة فالله يقبل القليل من الشخص المستقيم ولا يقبل الكثير الذى يقدمه الرجل الشرير ٠

وتعد قصة الفلاح الفصيح من أفضل ما قدمه الأدب المصرى القديم ، وقد حدثت أحداثها فى عهد الملك خيتى نب كاورع(١٣) من الأسرة العاشرة • ويرجع تدوين النسخ الأربع التى وصلتنا الى أيام الأسرة الثانية عشر غالبا • وتتميز هذه القصة بسلاسة الأسلوب وجمال التعبير كما توضح ما كان يختلج فى قلوب الناس من رفض للتسيب وضيق بالظلم وتبرز فى نفس الوقت ما رسخ فى قلوب الناس وقتئذ من قيم مما شجعهم على المطالبة بالحق وبعدم الخنوع للطغاة مما دفعهم الى الاصرار على رفع الظلم ورد الحق لأصحابه •

وتتضمن القصة شكوى فلاح فقير من وادى النطرون حمل حميره منتجات اقليمه ليقايض بها فى العاصمة « أهناسية » وبينما كان فى طريقه طمع موظف مسئول يعمل فى ضيعة يمتلكها أحد علية القوم فيما يمتلكه الفلاح • ومن ثم فقد خدعه بان مد قطعة من قماش اعترضت الطريق ، مما اضطر الفلاح الى تفادى المرور عليها والنزول بحميره الى طرف الضيعة الملاصقة للطريق • وسرعان ما عاقبه الموظف بالاستيلاء على حميره وما تحمله جزاء انتهاكه لأرض ملك غيره • ولما اعترض الفلاح أوسعه ضربا وطرده شر طردة • فبادر الفلاح الى تقديم شكوى الى كبير أمناء القصر بالعاصمة ، الذى أدهشته بلاغتها وقوة تعبيرها فابلغها بدوره الى الملك الذى أشار عليه ألا يبت فيها حتى يضطر الفلاح الى تقديم المزيد من تلك الشكاوى الفصيحة • وأخيرا ، أمر الملك بعد تقديم الفلاح للشكوى التاسعة بان ترد كافة مستحقاته اليه وان يعاقب المعتدى عقابا رادعا • وهكذا انتصر العدل أخيرا وعاد الحق الى أصحابه •

وقد صاحب هـذا الازدهـار الأدبى ازدهار الفن الاقليمى التشكيلى الذى استخدم الخشب بوجه خاص نظرا لتوقف البعثات الى المحاجر والمناجم • وقد ازدهر نحت نماذج للأفراد والمجموعات المهنية بوجه خاص ، وعثر عليهـا فى مقابر مصر الوسطى وخاصـة أسيوط ، التى ترجع الى العصر المتوسط الأول •

الدولة الوسطى (الأسرتان الـ ١١ والـ ١٢)(١٤)

٢٠٤٠ ق•م ـ ١٧٨٥ ق•م (تقريبا)

تضم الدولة الوسـطى مجموعتين من الملوك : أولهما ملوك الأسرة الحادية عشرة بعد نجـاح منتوحتب حبت رع (الثـالث) فى القضـاء على ملك أهناسية وحكم مصر الموحدة للمرة الثانيـة فى تاريخها القديم • أما المجموعة الثانيـة فهم ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذين اهتموا برخاء البلاد والنهوض بها اقتصـاديا فوصلت فى عهدهم الى درجة كبيرة من القوة والازدهار •

وقـد ارتبطت أيام الدولة الوسـطى بتحقيـق ذلك الاتحـاد واسـتمراره الذى أنهى تفرق البـلاد وتنابذهـا فحـل السـلام محـل الحـرب وعم الازدهـار كافـة النواحى واستعادت مصر مكانتها التى وصلت اليها أيام الدولة القديمة •

الأسرة الحادية عشرة الطيبية :

ضمت الأسرة الحادية عشرة ، وفقا لتقسيم مانثيون ، سـبعة ملوك حكموا ١٤٣ سنة ، وهو تقدير زمنى قريب من تقدير المؤرخين المعاصرين • ويمكن تقسيمهم فى الواقع الى مجموعتين وفقـا لمـا اتخذوه من أسماء : المجموعة الأولى وقد اتخذوا اسم انتف وهم

الذين تحملوا عبء القتال مع الأهناسيين وعاصرت أيامهم العصر المتوسط الأول ، أما المجموعة الثانية فقد غلب عليهم اسم منتوحتب وتمكن أحدهم وهو منتحتب الثالث من تحقيق وحدة البلاد التى تفككت فى العصر المتوسط الأول بادئا بذلك أيام الدولة الوسطى(١٥) ٠

والواقع أن مصر كانت منقسمة عند بدء هذه الأسرة وفى فترة حكم المجموعة الأولى منها (الأناتفة) الى الأقسام التالية :

١ ـ الدلتا : ويحكمها بعض الحكام المحليين الذين ارتبطوا الى حد ما بملوك أهناسية ٠ ولا يستبعد تواجد عناصر محدودة من البدو فى شرقها ، هم فلول أجدادهم الذين تسربوا اليها فى أعقاب الأسرة السادسة ، وعمل الأهناسيون على تطهير الدلتا منهم ٠

٢ ـ مصر الوسطى التى امتدت من منف حتى أسيوط ويسيطر عليها ملوك أهناسية المتحالفون مع أمراء أسيوط الأقوياء ٠

٣ ـ منطقة تضم على وجه التقريب محافظة سوهاج الحالية وكانت ميدانا للنضال بين ملوك الأسرة العاشرة الأهناسيين والملوك الأوائل من الأسرة الحادية عشرة الطيبية ٠

٤ ـ مصر العليا التى تضم تقريبا محافظتى قنا وأسوان لحاليتين ، وكانت تحت نفوذ أمراء طيبة بعد أن سيطروا على أقليم لكاب ونجحوا بذلك فى الربط بين أقاليم المنطقة الخمسة القديمة ٠ مما هو جدير بالذكر أن اسم طيبة قد لمع منذ ذلك الوقت حتى نهاية التاريخ الفرعونى ٠

٥ ـ النوبة السفلى التى نجحت فى الاستقلال عن مصر منذ أيام الأسرة السادسة وسيطرت عليها حضارة المجموعة (ج) ٠

وقد نشأت الأسرة الحادية عشرة فى طيبة ، التى لم تكن أيام الدولة القديمة الا بلدة محدودة الأهميــة بين مدن الاقليم الرابع القديم الذى ضـم بلدتى طود وأرمنت فى الجنـوب ومداموود فى الشمال • ومما لا شـك فيه أيضا ان بيتا حاكما قد سيطر على حكم طيبة والأرض المحيطـة بها فى أواخر أيام الأسرة السادسـة ، كما حدث فى بقية جهات مصر • ولا نعرف تماما كيف حلت طيبـة محل أرمنت كعاصمــة للاقليم ولا كيف ذاعت شهرة الهها « آمون » الوافد من الأشـمونين ، بجـانب معبودها القـديم « منتو » اله الحرب والنزال •

ولا يزال عدد ملوك الأسرة الحـادية عشرة وتتابعهم وعدد سنى حكمهم وتسلسلهم الأسرى مجـالا للدراسة والبحث وان اتفق الجميع على وصفهم بالصـلابة والشدة والقدرة على القتـال وكذا عن أهمية الدور الذى لعبوه طوال مائة وخمسين سنة تقريبـا فى سبيل توحيد البلاد والنهوض من جديد •

أولا ــ ملوك الفترة الأولى من الأسرة الحادية عشرة :

(٢١٦٠ ق•م ــ ٢٠٤٠ ق•م)

وهم الحكام الذين عاصروا العصر الأهناسى ويدخل عهدهم فى نطاق العصر المتوسط الأول •

١ ــ يعد انتف سهرتاوى الأول(١٦) وفقا لبردية تورين أول من ادعى الملك بعد انتف العظيم الذى سبقه فى وضـع الأسـاس لخلفائه دون أن يدعى الملك(١٧) ويبدو أن طيبة فى عهده قد نجحت فى الامساك بزمام القيادة فى الجنوب • ورغم ضـآلة معلوماتنـا عن

ايامه التى تقدر بعشر سنوات فان تقدير الطيبيين الذين عاشــوا فى عصور تالية له لدليل على دوره المهم ســواء كان ذلك لنضــاله مع الأهناسيين أو لتصــديه « لعنخ تفى » حاكم قفط أو غير ذلك من الانجازات ٠

وقد ذكره منتوحتب الثانى بالخير وأقام له سنوسرت الأول تمثالا ، كما ورد اسمه فى بعض قوائم الملوك ٠ وقد تم دفنه فى منطقة الطارف بغرب طيبة ٠

٢ ــ أما انتف واح عنخ (الثانى) فيبدو انه كان ابنا أو أخا لانتف الأول واتصف هو الآخر بالقوة فسيطر تماما على الأقــاليم الخمسة الجنوبية لمصر ويغلب على الظن انه ســيطر على اقليم « أبيدوس » بعد حرب ضروس ٠ وقد عثر العالم الفرنسى أوجست مارييت سنة ١٨٦٠ على لوحة أمام قبره بالطارف ، نقلت فيما بعد الى المتحف المصرى ، تعرف بلوحة الكلاب اذ صور عليها ومعه خمسة كلاب مما يدلنا على حبه للصيد ، وقد جاء بها أنه أقامالمقاصير ورمم المعابد وقدم القرابين الى الاله آمون(١٨) ٠ وقد ورد ذكر قبره بالطارف فى بردية أبوت التى تحدثت عن سرقة المقابر الملكية فى عهد الأسرة العشرين ، اذ جاء فى تقرير لجنة التفتيش انها قد وجدت مقبرته سليمة ومحتوياتها كاملة عدا الهرم الذى كان مقاما فوقها فقد سقط ٠

٣ ــ وقد تولى بعده انتف نخت نب تب نفر (الثالث) الذى حكم مدة قصيرة ، لا تتجاوز الخمس السنوات التى أعطتها برديــة تورين لمدة حكمه ٠ ويبدو انه كان متقدما فى السن عند وفــاة سلفه الذى حكم البلاد لمدة تقارب الخمسين عاما ٠ وقد ظلت « أبيدوس » خاضعة لسلطانه اذ ذكر حاكمها وقتئذاك انهــا تعرضت لمجاعــة فانقذها الملك منها وقد دفن أيضا بالطارف ٠

٤ ـ ثم تلاه منتوحتب سغنخ ايب تاوى (الثانى) التى كانت أيامه كعهد من سبقوه أيام كفاح وقتال ٠ ويغلب على الظن انه قد عاصر أيام خيتى الثالث وابنه مريكارع اللذين قاوما تغلغل الطيبيين قبل أن ينجح خليفته منتوحتب الثالث فى توحيد البلاد ٠ وقد بدأ فى أعداد مقبرته بالطارف التى زاد حجمها على مقابر من سبقه من ملوك تلك الأسرة ، ولكنه توفى قبل أن يتمها وبعد حكم دام قرابة العشرين عاما ٠

ملوك الفترة الثانية من الأسرة الحادية عشرة (عصر الدولة الوسطى) ٢٠٤٠ ق٠م ـ ١٩٩١ ق٠م :

١ ـ منتوحتب نب حبت رع (الثالث) (١٩) :

هو أهم ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ومؤسس ما اصطلح على تسميته بالدولة الوسطى ، وأول من اتخذ طيبة عاصمة لمصر الموحدة ، وقد عده المصريون القدماء أنفسهم بادىء عهد جديد من عهود الوحدة التاريخية اذ حمل الكهنة فى حفلات تتويج الفراعنة فى الأسرة التاسعة عشرة تماثيل كل من مينا الموحد الأول لمصر ثم تمثال منتوحتب نب حبت رع ثم تمثال أحمس نب بحتى رع بطل تحرير مصر من نير الهكسوس وبادىء أيام الدولة الحديثة ٠

ورغم أن معلوماتنا عن الحروب الطويلة بين اهناسية وطيبة محدودة ومتفرقة ، ولا تزيد على بعض تلميحات واشارات ، يبدو أن اهناسية قد سقطت فى قبضته فى السنة التاسعة من حكمه الذى استمر قرابة الأربعين عاما ٠ وقد أضحى منتوحتب بزوال حكم الاهناسيين ملكا على الوجهين القبلى والبحرى ٠

ومن ثم فقد بدأ فى العمل على تأمين حدود مصر واستقرار أمنها فحارب قبيلتى « التحنو والتمحو » الليبيتين فى غرب الدلتا

وشتت فلول بدو « المنتو » فى سيناء وسجل ذلك على جدران مقصورة أقامها فى جبلين جنوب طيبة(٢٠) . وقد حاول أيضا اعادة نفوذ مصر فى بلاد النوبة ، ويبدو رغم شك بعض العلماء فى ذلك أنه قد أمن على الأقل سبل التجارة فى بلاد النوبة السفلى ، مسجلا انتصاراته فى نص من دير البلاص ذكر فيه أنه ألحق الهزيمة بسكان وأوات(٢١) . ويستدل كذلك من نصوص عثر عليها فى أبسكو (جنوب أسوان بحوالى عشرين كيلو مترا) انه قد أرسل حملة وصلت حتى بوهن فى منطقة وادى حلفا(٢٢) .

أما فيما يتعلق بالشؤون الداخلية فقد أعاد منصب الوزير لمساعدته اداريا ونحن نعرف أسماء ثلاثة من وزرائه هم داجى ويبى وايبى . كما نجح فى الحد من سلطات حكام الأقاليم والقضاء على نزعتهم الاستقلالية الى حد ما ، كذلك شرع فى ارسال البعثات الى محاجر الصحراء الشرقية مما يسر له اقامة وترميم المعابد . ورغم العثور على آثاره المعمارية فى عديد من المواقع فى مصر العليا كالكاب وأرمنت والطود وجبلين ودير البلاص ودندرة وأبيدوس وسقارة وفى وادى الحمامات فانه لم يعثر له حتى الآن على آثار فى الدلتا ، وتشير وفرة الآثار التى تنسب اليه الى قوته السياسية ونجاحه فى توفير الخامات والأحجار اللازمة لعمائره رغم مشاغله الأمنية وأعماله العسكرية .

وقد ابتكر مهندسو منتوحتب طرازا معماريا يعد تطويرا جديدا وفريدا فىالأسلوب المعمارى وخطوة جريئة فى العمارة الجنائزية بمصر القديمة حين اختاروا لمعبده الجنائزى مكانا فى حضن الجبل بمنطقة الدير البحرى بغرب طيبة . وقد صمم على شكل طابقين يوصل بينهما طريق صاعد . وكان كل طابق يضم صالة أعمدة كبيرة كما يسود اعتقاد بأن الطابق الثانى كان يحمل

هرما من الحجر الجيرى كقبر لمنتوحتب نفسه(٢٣) • ولكنه تهدم تماما كما تهدم المعبد نفسه وسقطت أعمدته واختفت معظم احجاره(٢٤) •

وقد عثر فى أرضية المعبد على ست مقابر لسيدات الأسرة المالكة ، تتكون كل منها من حجرة واحدة بها تابوت ضخم ، ويعد تابوتا الأميرتين « عاشييت » و « كاويت » المعروضان بمتحف القاهرة بالاضافة الى تمثال منتوحتب الضخم بذلك المتحف من روائع فن تلك الأسرة كما أن معبده كان بلا شك أقدم معابد الدولة الوسطى(٢٥) ، كما وجدت بعثة متحف متربوليتان بنيويورك جثث ما يقرب من أربعين جنديا فى منطقة ذلك المعبد ، وربما سقطوا عند مهاجمة منتوحتب لاهناسية ، ثم دفنت أجسادهم بالقرب من قبر مليكهم • وقد شيد بعض النبلاء مقابرهم بالقرب من قبره ، ومنهم الوزير « ايبى » الذى عثر فى مقبرته على مجموعة من الرسائل ، كتبها « حقا نخت » ، أحد المسئولين عن قبر الوزير ووجهها الى ابنه • وتكشف هذه الرسائل العائلية عن اخلاقيات كاتبها وملامح شخصيته ، كما تزيل النقاب عما كانت عليه حياة أسرة من الطبقة المتوسطة فى ذلك الوقت ، وما كانت تجريه من معاملات كما توضح الأساليب التى أتبعت حينذاك لتوطيد الأمن وتهدئه الأحوال فى كافة أنحاء مصر(٢٦) •

٢ ـ منتوحتب سعنخ كارع (الرابع) :

ترك أبوه له دولة منظمة • ساعية للتقدم والفلاح ، ورغم أننا لا نعرف الكثير عنه فيبدو أنه أتبع سياسة أبيه • وقد قدرت بردية تورين مدة حكمه باثنتى عشرة سنة ولكنها تركت بعد مدة حكمه فراغا امتد لمدة سبع سنوات قبل بدء الأسرة الثانية عشرة

مما يسمح باضافة ملك آخر من تلك الأسرة قبل انتهاء أيامها ، وقد بدأ مشروعا لبناء مقبرته ومعبده الجنائزى بجوار معبد أبيه بمنطقة الدير البحرى • ولكنه توفى قبل تنفيذ مشروعه • وقد عثر على نص منقوش على الصخر بوادى الحمامات يرجع الى السنة الثامنة من حكمه يفيد أنه قد أرسل حملة شبه عسكرية تضم ثلاثة آلاف رجل بقيادة « حننو » لاحضار الأحجار اللازمة لعمائره وقد طاردت الحملة البدو وأمنت الطريق الى المحاجر ثم استمرت الحملة فى طريقها عبر الصحراء الشرقية حتى وصلت الى سواحل البحر الأحمر ، حيث رأس « حننو » بعثة الى بلاد بنت أتت محملة بمنتجات تلك البلاد من بخور وعطور وغيرها •

وقد عثرنا على بعض مقابر النبلاء من عهده فى نفس المنطقة نذكر منها مقبرة مكترع التى ترجع شهرتها الى المجموعة الكبيرة من النماذج الخشبية الملونة التى وجدت بها والتى تمثل مظاهر الحياة اليومية سواء داخل المنزل أو خارجه ، والتى يعرضها الآن متحف القاهرة •

٣ ـ منتوحتب نب تاوى رع (الخامس) :

يعد آخر ملوك هذه الأسرة ، ويبدو أنه قد حكم مدة قصيرة للغاية ، ولم تذكره أى من القوائم الملكية ، كما لم تعترف به بردية تورين التى لم تذكر ملكا معينا فى مدة السبع السنوات التى حددتها ما بين وفاة « منتوحتب سعنخ كارع » وتولى أول ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم • كذلك لم تتضح لنا صلته بسلفه ويبدو أن الفوضى قد سادت فى أيامه ، وأن البدو الليبيين قد اعتدوا على حدود البلاد ، وأن مجاعة قد حلت بمصر • ولعل العمل الوحيد الذى ذكر له هو ارساله البعثات الى المحاجر والمناجم فى صحراء النوبة وفى منطقة وادى الحمامات بالصحراء الشرقية ، حيث

قاد وزيره « أمنمحات » حملة من عشرة آلاف رجل ، تركت نقوشا تقص علينا ما حدث من معجزات فى أيام تلك البعثة كقصة غزالة برية اختارت بقعة لتضع وليدها فوقها واتضح بعد ذلك أنها خير مكان لجلب الأحجار اللازمة للتابوت الملكى ، وكقصة تحدثت عن عاصفة هبت فجأة وأسقطت مطرا غزيرا كشف عن بئر كون بحيرة من الماء العذب الذى أسعف تلك البعثة الضخمة وأنقذتها من العطش فى جوف الصحراء(٢٧) ٠

فيبدو بجلاء أن الوزير أمنمحات الذى تدرج فى المناصب المختلفة وحصل على العديد من الوظائف والألقاب الشرفية والفعلية ، والذى ذكرته بعض النصوص من ذلك العهد ، هو نفس الشخص الذى أسس فيما بعد الأسرة الثانية عشرة ، ومن الجائز أنه قد دبر مؤامرة ضد فرعون مكنته من انتزاع العرش بالقوة ، والواقع ان نهاية الأسرة الحادية عشرة لايزال غامضا بحيث لا يمكننا الجزم الآن بسير الأحداث التى أنهت حكم آخر ملوك تلك الأسرة وهل قتل ذلك الملك أو عزل أو توفى وفاة طبيعية ولكن دون وريث يخلفه على العرش ٠ وعلى كل حال فمن الواضح عندما نستعرض الأحداث التى عاصرت تلك الأسرة وعندما نتتبع انجازاتها سواء أثناء النضال الذى خاضته مع اهناسية أو توحيدها لمصر فان هذه الأسرة رغم ما أصابها من انهاك قرابة مائة عام قد نجحت فى ممارسة السياسة التقليدية لملوك مصر فحافظت على وحدة البلاد ، واهتمت بتوطيد نفوذ مصر فى بلاد النوبة ، وحاربت الاقطاع ، ودعمت سلطة فرعون المركزية ، وأرسلت البعثات الى المحاجز والمناجم ، واستأنفت الملاحة فى البحر الأحمر ، وسارعت الى ترميم واصلاح المعابد والأبنية الدينية وبناء الجديد منها ٠ كذلك اهتمت هذه الأسرة اهتماما خاصا بمدينة طيبة بجانب اهتمامها الشديد بمدينة أبيدوس المقدسة ويلاحظ أن الفن بدأ فى النهوض ، وكان فنا

اقليميا آخذا فى التطور والنضـوج فتقدم فن النقش تقدما ملحوظا كما يتمثل فى التوابيت الحجرية للأميرتين « عشاييت » و « كاويت » بينما نم فنا النحت والتصـوير عن نقص فى التجربة والخبرة أما العمارة الدينية والجنائزية فيكفى للدلالة على روعتهـا ذلك المعبد الجنائزى الذى خلفه لنا « منتوحتب » الثالث بمنطقة الدير البحـرى ٠

ولعل خير مثال لفن تلك الأسرة هو ما خلفته تلك النمـاذج الخشبية ، التى أبدع الفنـانون عن طريقهـا فى تجسـيم منـاظر الحياة اليومية بأدق تفاصيلها ، فمنها ما يمثل المنازل بحدائقهـا أو تلك البيوت المصغرة التى تعرف ببيوت الروح ثم ما مثل شون الغلال وحظـائر المواشى وورش النجارة ومصانع الغزل والنسيج ومراكب الصيد والنقل والاتجار والنزهة التى زودت بالمجـاديف اذا ما كانت متجهة مع التيار شمالا أو بالشراع التى تدفعها الرياح فى طريقها جنوبا ٠ وقد أوضحت تلك النماذج عمليات عجن الخبز وتخمير البيرة وذبح المـاشية واستعراض القطعان وتقديم القرابين وسـير الجنود ٠

الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ــ ١٧٨٥ ق٠م)

يعتبر عصر هذه الأسرة من أزهى عصور مصر القديمة وفيه ارتقت الآداب وازدهرت الفنون ، وتقدمت الزراعة وتطورت الصناعة ونشطت التجـارة ، ونهضت البلاد نهضـة لم ترتكز على الملك ، وتتبلور فى قصره أو من خلال بلاطه ، كما كان الحال أيام الدولة القديمة ، وانما تغلغلت وتبلورت فى الشعب نفسه وشـملت وسادت فى مصر كلها ٠

وقد أسس هـذه الأسرة الملك « أمنحات الأول » حـوالى عام ١٩٩١ ق٠م ، ودام حكمهـا ما يقرب من القرنين والربع من

الزمان ، وقد وصل الى أيدينا من المصادر والوثائق التاريخية التى ترجع الى أيامها ، ما يكفى لاستخلاص العناصر الأساسية لسياسة الأسرة داخليا وخارجيا ولتتبع تألقها بالداخل ونشاطها فى الخارج • كذلك تعتبر الأسرة الثانية عشرة الأولى بين أسرات التاريخ الفرعونى التى توصلنا الى تحديد توقيت لملوكها على جانب كبير من الدقة نتيجة لعثورنا على نص يخبرنا بظهور نجم الشعرى اليمانية فى السنة السابعة من حكم الملك « سنوسرت الثالث » مما أتاح لعلماء الفلك المحدثين تحديد وقت ابتداء هذه الأسرة وفقا لتقويمنا الميلادى الحديث • هذا بالاضافة الى أن بردية تورين قد ذكرت سنى حكم كل ملك من هذه الأسرة •

وفيما يلى أسماء ملوك هذه الأسرة ومدة حكمهم على وجه التقريب وفقا لتتابعهم :

١ ــ أمنمحات الأول ــ سحتب آيب رع ــ ٢٩ سنة تقريبا •
٢ ــ سنوسرت الأول ــ خبر كارع ــ ٢٤ سنة تقريبا •
٣ ــ أمنحمات الثانى ــ نوب كاورع ــ ٣٣ سنة تقريبا •
٤ ــ سنوسرت الثانى ــ خع خبر رع ــ ١٧ سنة تقريبا •
٥ ــ سنوسرت الثالث ــ خع كاورع ــ ٣٥ سنة تقريبا •
٦ ــ أمنمحات الثالث ــ نى ماعت رع ــ ٤٥ سنة تقريبا •
٧ ــ أمنمحات الرابع ــ ماعت خرو رع ــ ٧ سنوات •
٨ ــ سبك نفرو (رع) ــ ٥ سنوات تقريبا •

أمنمحات الأول :

نجح الوزير أمنمحات (آمون فى المقدمة) فى الاستيلاء على الحكم ، بادئا سلسلة من الحكام الأقوياء الذين تولوا بعده فساروا

على نهجه ويجمع المؤرخون على أن أمنمحات هو صاحب الفضل الأكبر فى بناء نهضة البلاد الجديدة • وهناك بردية كتبت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة محفوظة الآن بمتحف بطرسجراد (لننجراد) ، تعرف ببردية نفرتى ، وترجع بلا شك الى أصل كتب فى أيام الدولة الوسطى كانت بمثابة دعاية سياسية لهذا الملك ، اذ حاول كاتبها أن يصور للناس نبوءة حدثت فى عهد الملك « سنفرو » الذى طلب من نفروهو (نفرى) كبير كهنة « باستت » أن يحيطه علما بما سيحدث للبلاد فى المستقبل ، فتحدث الكاهن عن ثورة ستقوم فى مصر ، وعن الخراب الذى سيحل بالبلاد ، وعن الفوضى التى سوف تعم كافة الأنحاء ، حتى يأتى الانقاذ على يد ملك يولد فى الصعيد من أم نوبية يدعى امنى (هو غالبا اختصار لاسم أمنمحات) الذى سوف يخرس العصاة بوقف الفتنة ، ويقضى على المحنة ، فتعيش البلاد بعد ذلك فى سلام(٢٨) •

وقد اتخذ أمنمحات الأول عدة اجراءات مهمة ، حرص خلفاؤه على اتباعها وتنفيذها • فقد اقتضت الضرورة السياسية نقل العاصمة من طيبة ، التى تبعد أكثر من سبعمائة كيلو متر عن الدلتا الى مكان جديد متوسط بين شطرى الوادى ، يقع عند بلدةاللشت الحالية بمحافظة بنى سويف ، وتبعد خمسين كيلو متر جنوبا من العاصمة القديمة منف ، وقد أطلق على العاصمة الجديدة اسم « ايثت تاوى » ومعناها « القابضة » على الأرضين (أى أراضى الشمال والجنوب) •

كذلك استن أمنمحات الأول سنة جديدة ، ما لبث خلفاؤه ان حذوا حذوها ، من أجل تثبيت حكمهم على البلاد ، وذلك عندما أشرك سنوسرت ابنه معه فى الحكم • ويبدو أن الأزمات التى كانت تعترض تعيينه خليفة للملك عند موته ، كانت الدافع لابتداع هذه السنة الجديدة •

وقد كانت الحملات الحربية التى قام بها ملوك الأسرة الحادية عشرة محدودة ، اذ وجه هؤلاء الملوك جهدهم نحو تثبيت أقدامهم فى حكم البلاد عن طريق تحجيم نفوذ حكام الأقاليم وسحب الكثير من السلطات التى حصلوا عليها ابان الحكم الذاتى فيما سبق • ومن ثم فقد عمل أمنمحات الأول على اخضاع حكام الأقاليم خاصة الذين كانوا لا يزالون على جانب كبير من القوة والسلطة المركزية كما تدل عليه مقابرهم المنحوتة فى الصخر فى بيتى حسن والبرشا وأسيوط • وقد استخدم امنمحات القوة تارة والمسايرة تارة أخرى وذلك عن طريق السماح لهم ببعض الحقوق مقابل تعضيدهم له • وقد أشار « حتوم حتب الأول » حاكم بنى حسن فى أيام أمنمحات الأول على جدران قبره الى انه قد صحب الفرعون فى أسطول من عشرين سفينة لضرب الخوارج من حكام الأقاليم ، كما تباهى أمنمحات بسيطرته على حكم الأقاليم بقوله « لقد خضعت لى الفنتين ثم تقدمت شمالا حتى توغلت فى الدلتا ، ومن ثم وصلت الى حدود البلاد ، ومكثت هناك اتفقد معالمها : لقد اعتمدت على قوتى ومددت نفوذى فى كل مكان وأصبحت كلمتى تطاع على الفور »(٢٩) •

وقد اهتم أمنمحات بتحديده حدود الأقاليم لتجنب المنافسة بين حكامها ، مما ساعد على توزيع المياه بالعدل بينها ، والعناية بالترع وتحسين استغلال الأرض الزراعية مما حقق بذلك الرخاء للبلاد • كذلك استمر فى ارسال البعثات الى المحاجر والمناجم مما سمح له بنشاط معمارى ملحوظ وساعد على تشييد المبانى الدينية فى شتى أنحاء البلاد •

وقد بذل أمنمحات جهدا كبيرا فى سبيل تامين حدود مصر الشرقية فقوى الحصون القديمة وأقام عددا من الحصون الجديدة

أطلق عليها اسم « حانط » الحاكم أو الأمير ، وذلك لمنع تسرب البدو الذين طاردهم وأوقف هجماتهم تقريبا . كما يبدو أن هجمات الليبيين كانت تهدد الدلتا كما تشير الى ذلك تنبؤات « نفرتى » الذى أكد أن امنى سوف ينقذ البلاد من الليبيين . ومن ثم فقد شيد بعض الحصون ، لا يزال بقايا بعضها فى اقليم وادى النطرون، كما طارد الليبيين وأرسل جيشا بقيادة ولى عهده « سنوسرت » لصدهم ، نجح فى أسر عدد كبير منهم وفى الحصول على قطعان من الماشية « تفوق الحصر » كغنيمة .

كذلك أفادتنا نصوص من عصره انه خطط لاخضاع بلاد « واوات » النوبة السفلى لتأمين سلامة جنوب مصر وضمان مرور تجارة العاج وريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس وغيرها من منتجات الجنوب وكذلك الحصول على الذهب والأحجار وخاصة الجرانيت والديوريت بالاضافة الى تجنيد رجال « الماجاى » (قبائل البجاه الحالية فى صحراء النوبة الشرقية) ذوى القدرات والمهارات العسكرية المتميزة .

ورغم سيرته المجيدة وما حققه خلال حكمه من منجزات ، فانه يبدو أن نهايته كانت مفجعة ، اذ دبرت احدى زوجاته مؤامرة ضده ، هادفة الى اقصاء ابنه « سنوسرت » عن العرش وتولية ابنها مكانه ، فاقتحم المتآمرون مخدعه فى محاولة لقتله ، وليس لدينا حتى الآن من الوثائق ولا نملك من القرائن ما يسمح لنا بالقول بفشل المؤامرة أو بنجاحها اذ ربما كانت الحكمة وقتذاك قد اقتضت استثناء القضية من اجراءات القضاء العادية محافظة على سريتها(٣٠) .

وترتبط قصة « سنوهى » وهى من القصص الواقعى الذى يلقى ضوءا على الأحداث التى جرت فى ذلك الوقت ، وتعد مرآة

صافية لوجه الحياة فى فلسطين حينذاك ، كما تشير بطريق غير مباشر الى الأزمات المتعلقة بوراثة عرش البلاد · ذكر سنوهى أنه قرر الفرار من مصر بمجرد سماعه بخبر وفاة الملك أمنمحات الأول وبعودة ولى عهده سنوسرت الفورية الى العاصمة للسيطرة بلاشك على الموقف ومن ثم فقد اتجه سنوهى من ميدان القتال فى الصحراء الليبية شمالا ثم سار مع اتجاه البحر المتوسط شرقا حتى وصل الى أرض فلسطين ، حيث ظل ينتقل من مكان لآخر ، حتى استقر به المقام عند أحد شيوخ البدو · وقد نجح سنوهى فى الحصول على ثقة ذلك الشيخ ، الذى اغراء بالاقامة معه وزوجه احدى بناته وأقطعه خير أراضيه · وقد عاش سنوهى هناك مكرما حتى أدركته الشيخوخة ووفق فى العود الى مصر بعد أن طلب من ملك مصر (سنوسرت الأول) العفو عنه ، ودون أن يذكر فى قصته السبب فى طلب العفو ، وقد كرمه الملك بعد عودته وسعد سنوهى بتلك العودة الى الأرض التى ولد بها ·

ويبدو من هذه القصة أن سنوهى ، كان فى أغلب الظن من الحزب المعادى لولى العهد سنوسرت فلما بلغه خبر وفاة أمنمحات وخاف اكتشاف أمره ، قرر الفرار الى فلسطين حيث مكث بها الى أن هزه الحنين فى أواخر أيامه للعودة الى مصر ، ونجح أخيرا فى تحقيق أمنيته ·

وقد كتب أمنمحات وصية لابنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به فى حكمه للبلاد فذكره فيها بالمؤامرة التى دبرت ضده والتى هاجمه فيها المتآمرون بينما كان يغط فى النوم وأنه هب لصدهم بشجاعة ولكنه على حد قوله « لو كان لدى سلاح لجعلت هؤلاء الجبناء يفرون ، ولكن أهناك شجاعة فى الظلام ؟ وهل يمكن احراز النصر دون مساعدة ؟ » ويرجح هذا القول الرأى الذى

يؤكد نجاح المؤامرة ، وأن الوصية قد كتبت لتكون بمثابة مبادرة يستند اليها سنوسرت فى حكمـه للبلاد • ولكن هناك رأيا آخر يتصور أن أمنمحات سواء أصيب أو لم يلحقه أذى كبير قد نجا من تلك المؤامرة وأنه قد كتب هذه الوصية توطئة لاشتراك سنوسرت معه فى الحكم ولتقوية موقفه عند امتلاكه للعرش •

وتوضح الوصية كيف ان أمنمحات قد امتلأت نفسه بالشـك والريبة فأخذ يحذر ابنه من الناس ، حتى من أقرب الناس اليه ، ويوصيه بعدم الثقة بأحد ذاكرا له أنه « قد أعطى السائل وأعان اليتيم وساعد المسكين وعامل الوضيع كمعاملته للكبير ، ومع ذلك فان كل من أعانه قد رد معونته بالكيد » •

وقد توفى أمنمحات الأول بعد حكم دام قرابة الثلاثين عاما وتولى من بعده سبعة حـكام ، نهضت البـلاد فى أيامهم نهضـة شاملة ، وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة فى عهد سنوسرت الثالث وخليفته أمنمحات الثالث • وقد أقام أمنمحات الأول لنفسه هرما فى اللشت من الطوب النى ، كساه بالحجر الجيرى كما بنى الى الشرق منه معبدا جنـائزيا ، كما شيد عظماء عصره ورجال بلاطه قبورهم بالقرب من هرمه •

٢ ـ سنوسرت الأول (٣٠) :

اشترك سنوسرت مع أبيه فى الحكم لمدة اختلف العلماء فى تقديرها ، كما أشرك هو بدوره ابنه أمنمحات (الثانى) معه فى الحكم • وقد نجح سنوسرت فى السيطرة على البلاد بعد وفاة والده وسلك مسلكه ، وهو مسلك كله حزم وعزم ، وواصـل خطط أبيه الخاصة بنشر الرخاء وتأمين الحدود • وقد عثر على بردية ممزقة فى معبد الرمسيوم بطيبة الغربية تشير الى حفل تتويجه(٣٢) •

وقد ارسل سنوسرت الحملات لتأديب البدو على حدود مصر الشرقية ولتأمين التجارة مع جنوب غرب آسـيا ، كما بعث بحملات تأديبية ودوريات عسكرية الى الصحراء الغربية للمحافظة على المواصلات وتأمين الاتصالات مع واحات تلك الصحراء وقد حمل أحد وزرائه « منتوحتب » لقب رئيس الصحراء الغربيـة ، كمـا تشير لوحة لذلك الوزير الى مواصلة سنوسرت لسياسـة أبيه فى النوبة اذ مثل الملك واقفا أمام الاله منتو « اله الحرب » يستعرض أسرى الأراضى الجنوبيـة ومن بينها أسرى من بلاد كوش (النوبة العليا السودانية) ٠

والواقع أن سنوسرت قد قوى قبضته على النوبة السـفلى واقام التحصينات هناك(٣٣) ٠

وقد استغل سنوسرت مناجم الذهب بالصـحراء الشرقيـة واستخرج المعادن من وادى الحمامات كما عثر على اسمه فى محاجر حاتنوب وقد يسر له ذلك اقامـة العديد من العمـائر عثر على آثارها فى الكثير من الأماكن كما بنى معبدا لاله الشمس فى هليوبولس (المطرية بالقاهرة حاليا) لم يبق منه الا مسلة ، يبلغ ارتفاعهـا حوالى عشرين مترا ، وقد ذكر الجغرافى عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أنه شاهد مسلتين عظيمتين متوجتين بقمعين من النحاس ، وكانت احداهما قائمة أما الثانيـة فملقاة على الأرض ٠

وقد شيد سنوسرت مقصورة من الحجر الجيرى الأبيض عثر على أحجارها داخل الصرح الثالث بمعبد أسوان بالكرنك ٠ وقد أعادت مصلحة الآثار اقامتها بالقرب من الصرح الأول للمعبد وتعد نقوش هـذه المقصورة البديعة من أروع ما أخرجه الفنان المصرى

خاصة تلك التى سجلت رموز أقاليم مصر فى تلك الفترة وجدير بالذكر أنه قد عثر لذلك الملك على آثار فى جبيل (ببلوس) بلبنان مما يدل على سعيه لاعادة العلاقات التجارية القديمة ٠

وقد شيد سنوسرت لنفسه هرما بجوار هرم والده الى الجنوب منه بجبانة « اللشت » وقد بناه أيضا بالطوب النى وكساه بالحجر الجيرى كعادة ملوك تلك الأسرة وترك لنا رجل يدعى « مرى » نقوشا تشير الى أنه قد أشرف على بناء ذلك الهرم وقد عثر على عشرة تماثيل من الحجر الجيرى تمثل الملك جالسا بجوار معبد هرمه وتعد هذه التماثيل التى تفوق فى حجمها حجم الملك الطبيعى والمعروضة الآن فى المتحف المصرى من أجمل آيات النحت التى ترجع الى الأسرة الثانية عشرة ٠

وقد لعب « حبى جفاى » الذى يعد من أهم رجال عصره ، دورا مهما فى السيطرة على بلاد النوبة وقد عثر له على مقبرتين ، احداهما فى كرما بالنوبة العليا والثانية فى أسيوط ، تعد من أضخم المقابر التى ترجع الى أيام الدولة الوسطى ٠

٣ ــ أمنمحات الثانى :

شارك أباه فى الحكم كما أتبع سياسته ٠ وقد تميز عصره بالهدوء والاستقرار وازدهرت فى أيامه أحوال البلاد الاقتصادية وازدادت ثروتها : وقد أعطى أهمية خاصة لاستغلال المناجم والمحاجر فى الصحراء الشرقية وسيناء والنوبة كما أرسل البعثات الى بلاد بنبت ، ويرجع البعض قصة « الملاح الغريق » الى أيامه وهى قصة تشبه قصص السندباد البحرى وروبنص كروزو وتحكى قصة بحار غرقت سفينته فى البحر الأحمر وتصور مغامراته حتى عاد الى وطنه ٠

وقد اشترك ابنه معه فى الحكم كما فعل سلفه • ويشبه عصره بعصر الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة نظرا لأن عهده كان عهد سلام بين فترتى حرب ولأنه اهتم باستخراج ثروة مصر الحجرية والمعدنية الكامنة فى صحارى مصر كما أرسل بعثة الى بلاد بنت وأيضا قام باصلاح وترميم بعض آثار الأقدمين كما فعلت حتشبسوت بما خربه الهكسوس(٣٤) •

ويشير نقش على لوحة جنازية بابيدوس الى أن « سى‌حتحور » احد رجاله قد قام بزيارة للنوبة لاحضار بعض منتجاتها ، كما يبدو أنه نجح فى تطوير علاقاته مع الدول المجاورة ، اذ عثر فى معبد طود على أوان تدل صناعتها على أنها جاءت من جزيرة كريت أو من جنوب غرب آسيا • كذلك كشف دى مورجان فى مقبرة الأميرة « خنمنت » وغيرها من الأميرات ، على عقود واكاليل ، وكذا على خناجر من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة تتميز بالبراعة وحسن الذوق ، معروضة الآن فى متحف القاهرة •

وقد ذكر مانثيون أن هـذا الملك قد قتل بيد بعض رجال بلاطه ويبدو أنه قد خلط فى هـذا الشأن بين نهاية هذا الملك ونهاية أمنمحات الأول الذى دبرت مؤامرة فى أواخر أيام حكمه لاغتياله • وقد بنى هـذا الملك لنفسه هرما بدهشور الى الجنوب من هرمى سنفر وأضحى الآن مخربا تماما •

٤ ـ سنوسرت الثانى :

كان عصره عصر سلام ، وان كان هناك ما يوحى بأن بعض الاضطرابات قد بدأت فى أيامه ، ولكن ذلك لم يمنعه من انجاز الكثير من المشروعات وخاصة فى مجال العمارة الدينية كما بنى معبدا للاله حريشاف فى أهناسية المدينة ، عثر على انقاضه

الأثرى السويسرى « نافيل » فى أوائل القرن الحالى • ولا تقل الحلى التى عثر عليها فى قبور الأميرات من عصره باللاهون فى روعتها عن تلك التى عثر عليها فى عهد سلفه فى دهشور ، والمحفوظة هى الأخرى بمتحف القاهرة • وقد عثر على تمثال له فى أوجاريت « رأس شمرا » بفينقيا (لبنان الحالية) ، مما يدل على استمرار الصلات التجارية بتلك البلاد •

وهناك نقش فى مقبرة حاكم اقليم الوعل « خنوم حتب الثالث » بجبانة بنى حسن ، يمثل وصول مجموعة من (الفلسطينيين) يبلغ عددهم ٣٧ فردا بقيادة أميرهم « ابشا » فى السنة السادسة من حكم ذلك الملك • وكانوا خليطا من الرجال والنساء والأطفال وقد صحبوا معهم حيواناتهم وحملوا متاعهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية ، وأرتدوا ملابس مزركشة وتزينوا بزينة تختلف تماما عن زينة المصريين • وعلى الرغم من أن زعيم القبيلة قد تلقب بلقب « حكا خاسوت » أى حاكم البلاد الأجنبية الذى أشتق منه مانثيون لفظ (هكسوس) فان الأبحاث الحديثة لا تربط بين هذه القبيلة وغزاة مصر من الهكسوس فيما بعد(٣٥) •

وقد أقام سنوسرت الثانى هرمه باللاهون عند مدخل اقليم الفيوم الجنوبى فوق ربوة صخرية قام باصلاح جوانبها • ورغم صغر حجم ذلك الهرم نسبيا ، فان بانيه قد حرص على الاكثار من الغرف والسراديب داخله وعلى اخفاء مداخله أملا فى تضليل اللصوص اذا ما حاولوا نهبه •

ونظرا لأن اللاهون كانت من الأماكن البعيدة نسبيا عن العمران فقد اضطر فرعون الى تشييد مدينة صغيرة ليقطنها العمال الذين شيدوا هرمه ويبدو أنها هجرت بعد مدة قصيرة ، ولذا لم

تتعرض لعوامل الهدم والتدمير كما حدث لغيرها من المدن ، وظلت مدفونة تحت الرمال الى أن عثر العالم الانجليزى « بترى » فى أواخر القرن التاسع عشر على اللاهون التى حرفها فى كتاباته الى كاهون وهكذا أماط هذا الكشف المهم عن مدينة عمالية قديمة ذات مساكن متماثلة التنظيم ، وان اختلف اتساعها وفقا لمركز شاغلها الاجتماعى وقد عثر بمساكنها على الكثير من أدوات البناء والتجارة والاستعمال اليومى وبقايا قطع الأثاث ولعب الأطفال وغير ذلك من لوازم الحياة اليومية وكذا على عدد كبير من البرديات الخاصة بالادارة والقانون وما يتصل أيضا بالعلوم الرياضية والفلك • وهناك من العلماء من يعتقد أن سنوسرت الثانى هو الذى بدأ المشروع الخاص بالتحكم فى مياه النيل عند الفيوم ، واستغلالها فى التخزين ورى الأرض •

وبموت هذا الفرعون انتهت فترة السلام التى سادت فى الفترة الأولى من حكم هذه الأسرة ومن ثم بدأ نشاط حربى ملحوظ منذ تولى خامس ملوك الأسرة « سنوسرت الثالث » حكم البلاد •

٥ ـ سنوسرت الثالث :

يعد هذا الفرعون من أهم ملوك الدولة الوسطى(٣٢) لتميزه بشخصية حربية حازمة ، مما جعل بعض المؤرخين يشبهونه بتحتمس الثالث الذى بنى فيما بعد امبراطورية مصر فى الشمال والغرب مثلما بناها « سنوسرت الثالث » فى الجنوب • وقد ظلت ذكراه عاطرة لدى الأجيال التى تلت عصره ، كما روى عنه من الأساطير ما وصل الى آذان كتاب الاغريق ، بل لقد رفع فى العصور المتأخرة الى مصاف المعبودات •

ولعل أهم أعماله هو مطاردته للعصاة من النوبيين وهزيمتهم من خلال أربع حملات ، ربما قاد بعضها بنفسه ، ومن ثم فقد نجح

فى توطيد الأمن بالنوبة وربطها بمصر برباط قوى • ورغبة منه فى ضمان استمرارية انتصاراته العسكرية ، فقد شيد عددا من الحصون، لعل أهمها حصنان متقابلان بالقرب من وادى حلفا فى منطقة الجندل الثانى ، هما حصنا « سمنة وقمة » لمراقبـة تحرك من تسول له نفسه الاعتداء ، كما وضع فى هذه الحصـون حاميـات مصريـة يمكنها القيـام بالردع الفورى اذا لزم الأمر • وقد قـام أيضـا بشق طريق للسفن من خلال صخور الجندل الأول ، سمى « طريق خع كاورع » (أى سنوسرت الـ ٣ الجميل) وذلك لتسهيل الملاحة والحد من قوة تيار المياه ، وقد وضع لوحة فى سمنة حذر فيها أى زنجى من محـاولة اجتياز الحدود عن طريق النيل أو برا الا باذن خاص وقد ختم حديثه بقوله « أن من يحافظ على هـذه الحدود سيصبح ابنى الذى ولد منى أما من يتجاهلها أو يهملها فليس بابنى ولم يولد منى »(٣٧) •

ومما لاشك فيه أن الاستراتيجية العسكرية فى ذلك الوقت كانت استراتيجية دفاعية ، فقد عثر على بردية ربما ترجع الى أيام سنوسرت الثالث ذكرت سبعة عشر حصنا مصريا ، ما بين منطقة الجندل الأول ، ومنطقة سمنة (جنوب الجندل الثانى مباشرة) ، وهى المنطقـة التى عدهـا المصريون بمثابة منطقـة عازلة بين مصر ومصدر الخطر الحقيقى وهو بلاد « كوش » ومما يؤكد الطبيعـة الدفاعية لتلك الحصـون أن المصريين قد أسموها بأسماء تدل على طبيعتها مثل « قمع القبائل » و « صيد المجـا » (قبائل ذات طبيعـة عسكرية ، أغلب الظن أنها تعرف الآن بقبائل البجـاه) و « قنص الرتنو » (بدو سيناء وجنوب فلسطين) •

وقد غزا سنوسرت الثالث جنوب فلسطين ، ومهد بذلك لملوك الدولة الحديثة غزو سورية ، مثلمـا سبق أن مهد ملوك الدولة القديمة لملوك الدولة الوسطى فتح النوبة • وقد ذكر ضـابط يدعى

« سبك خو » على لوحة عثر عليها فى أبيدوس ، أنه وصل الى بلدة سكيم (فى أواسط فلسطين) حيث رد هجمات أهل هذه المنطقة من الرتنو ، ولو أن ما ذكره الضابط لا يعنى اطلاقا استيلاءه على تلك المنطقة(٣٨) .

وقد اتخذ سنوسرت الثالث اجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكم الأقاليم وأخضع من ناوأه بالقوة ، فتوقفوا فجأة عن نحت مقابرهم فى مقاطعاتهم ، واختفت مظاهر الحكم الاقطاعى ابتداء من عصره وطوال أيام الدولة الحديثة من بعده ، ويبدو رغم ذلك أن حكام الأقاليم قد ظلوا على جانب كبير من الثراء فهناك منظر بقبر « تحوتى حتب » حاكم اقليم الأشمونين بجبانة البرشا بمحافظة المنيا الحالية ، تمثل نقل تمثال للحاكم ، تدل ضخامته وكذا عدد العمالة المستخدمة فى نقله ، على قدرات ادارية ومادية فائقة وكذا على التنظيم الرائع لمئات العمال الذين اشتركوا فى النقل من خلال نظام عسكرى محكم . ومع ذلك فقد أكد تحوتى فى النص المدون على المنظر انه لم يقم بهذا العمل الا بعد استئذان ملكه وبعد أن سمح له بقطع الحجر من محاجر المرمر بحاتنوب ، كما أشاد برضا الملك عنه وعطفه عليه .

ويبدو أن الأمن كان مستتبا الى حد كبير بالصحراء الغربية ، وأن التبادل التجارى بين مصر والقاطنين فى الصحراء قد استمر ، اذ يذكر لنا « حغو » فى نقش له مدون بوادى الحمامات أن ملكه « سنوسرت الثالث » قد أرسله ليجلب له منتجات بلاد « التحنو » . ومن المعتقد أن سنوسرت الثالث قد حفر قناة فى شرق الدلتا ، وصل بها بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى الطميلات والبحيرات المرة . وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى وصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل . وقد أسماها المؤرخون القدماء قناة سيزوستريس .

وقد أرسل سنوسرت البعثات الى الصحارى المصرية لجلب الأحجار والمعادن مما أدى الى تقدم الفن ، وبعد تمثال « أبو الهول » من حجر الديوريت ، والذى عثر عليه فى طيبة ومعروض الآن فى متحف متروبوليتان من روائع ما تركته تلك الأسرة من تماثيل كما أنه فن يمثل الدولة الوسطى خير تمثيل وقد ذكر لنا « خعو » على لوحة بوادى الحمامات انه قد صدرت اليه الأوامر بالذهاب الى وادى الحمامات ليحضر للمليكة أحجارا جيدة لاستخدامها فى بناء معبد فى أهناسية لمعبودها المحلى « حريشاف » ٠

وقد أقام سنوسرت عمائر دينية فى الكرنك وأبيدوس وغيرهما كما شيد هرما يشبه أهرامات أسلافه فى دهشور ، أقيمت من حوله مقابر النبلاء وسيدات بيته ، حيث عثر على بعض الحلى الرائعة ٠

وقد توفى سنوسرت بعد أن حكم مدة طويلة ، كما أشرك ابنه أمنمحات (الثالث) ـ فى السنوات الأخيرة ـ فى الحكم ، تاركا مصر فى أوج مجدها ، وقد أصبحت دولة متحدة ، ذات حكومة مركزية قوية ، كما أصبحت فى مأمن من غارات جيرانها ٠ وقد جعلت هذه الأعمال منه بطلا أسطوريا فى نظر الأجيال المقبلة فأقام له تحتمس الثالث عادة خاصة به فى « سمنة » ، وأضحى من معبودات النوبة الرئيسية بجانب خنوم معبود أسوان وددون رب النوبة وقد عبر المصريون عن تقديرهم وتمجيدهم له فى قصيدة شعر عثر عليها فى اللاهون ، نقتطع منها ما يلى :

أنت عظيم يا مليك بلده : أنت كالسد القوى الذى يوقف
ثورة النهر عند فيضانه ٠

أنت عظيم يا مليك بلده : أنت كالظل الوارف الذى انعشنا
فى أيام الصيف ٠٠

إنه عظيم يا مليك بلده : أنت كالركن الدافىء فى أيـام الشـتاء ٠

أنت عظيم يا مليك بلده : أنت كالجبـل الذى يحمـى من العواصف عند زمجرة السماء ٠

كما أشادوا به فى هذه القصيدة التى جاء بها ٠

جاءنا فوجد الأرضين وحمـل رمز الوجهين

جاءنـا فحمى القطرين ومنح أرضهما السلامة

جاءنـا فأحبـه الناس اذ أذهب عنهم الغمة

جاءنـا فمد الحياة للناس وجعلهم يتنفسون الهواء

٦ ـ أمنمحـات الثـالث :

كان اداريا حازما وسياسيا حكيما وبناء كبيرا ، وكان عهده الطويل المزدهر عهد سلام واستقرار وتعمير ، بعد الحروب التى خاضها أبوه ، ويبدو أنه قد أحسن الاستفادة من استقرار الأمن وتوطد السـلام(٣٩) ، وعدم تعرض فترة حكمـه لمشاكل تذكر ، فاتجه الى تحسين أحوال البلاد اقتصاديا وكرس وقته لتوفير الرخاء واقامـة المشروعات التى تعود بالخير على البـلاد ٠ وقد احتـل أمنمحات مكانة رفيعة فى نظر معاصريه ، كما ظلت سيرته تتردد فى ثنايا العصـور ، ورفعته الأجيال المصرية التالية كما رفعت والده من قبل الى مصاف الآلهة والأرباب ٠

وقد تميز عهده ببرنامج طموح للرى والتوسع الزراعى ، تركز بوجه خاص فى منخفض الفيوم ، الذى يمثل واحة فى الصحراء الغربية تنخفض كثيرا عن مستوى سطح البحر ٠ وتصل اليها مياه

النيل عن طريق فتحة فى التلال فى جنوب المنخفض عند اللاهون يمر فيها بحر يوسف ليصب مياهه فى بحيرة موريس التى تقع فى النصف الشمالى من المنخفض(٤٠) • وقد أقام أمنمحات الثالث خزانا طبيعيا يمتلىء وقت الفيضان بالمياه التى تستخدم فى وقت التحاريق (قبل مجىء الفيضان الجديد) وقد ذكر هيرودوت أن ذلك الخزان كان يسمح برى الأرض وقت الحاجة لمدة مائة يوم كما أشاد استرابو عند زيارته للمنطقة بنظام تخزين المياه هناك ، مما يدل على استمرار المشروع حتى القرن الأول قبل الميلاد ويبدو أن أمنمحات قد شق الترع وبنى الجسور فى اقليم الفيوم مما نتج عنه استصلاح أرض شاسعة هناك ، ساعدت بلا شك على رخاء مصر الاقتصادى فى عهده وذكر هيرودوت أنه شاهد بنفسه تمثالين عظيمين نصبهما أمنمحات لنفسه ليشرفا على مشروعه الكبير

كذلك أقام أمنمحات مقياسا للنيل فى سمنة عند الجندل الثانى لتسجيل مناسيب الفيضان منذ دخوله الى مصر • وتشير النقوش الصخرية الى الأعوام التى ارتفع فيها منسوب المياه نتيجة لتدفق الفيضان عاليا • ولا شك أن هذه التسجيلات قد ساعدته فى تقدير كميات الحبوب المطلوبة كضرائب وكذا تلك التى يجب تخزينها وتوفيرها لوقت الحاجة •

وقد اهتم ذلك الملك بارسال البعثات الى النوبة والصحراء الشرقية ، كما أبدى اهتماما خاصا باستخراج النحاس من سرابيط الخادم فى غرب سيناء حيث أقام مساكن للعمال وحفر الآبار لامدادهم بالماء ، وبنى معبدا للالهة حتحور والاله ميدو الذى عبد فى شرق الدلتا وسيناء •

وقد شيد أمنمحات الثالث هرما فى دهشور فى حين تم دفنه فى هرمه فى هوارة بالقرب من مدخل الفيوم الشمالى والذى نهب تماما رغم محاولات أمنمحات كأسلافه لتصميمه بشكل يضلل

اللصوص ، وقد بنى بجانبه معبده الجنازى الذى عده الاغريق أعظم عجائب مصر المعمارية وأسموه قصر اللابرنته(٤١) • وتميز بكثرة عرفه وممراته ومن ثم فقد أطلق عليه أيضا اسم قصر التيه ، وقد مات أمنمحات الثالث قبل أن يتم العمل فيه فأكمله أمنمحات الرابع ثم من بعده الملكه سبك نفرو آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة •

وقد بدأ أمنمحات فى اقامة معبد فى كوم ماضى فى جنوب غرب اقليم الفيوم للمعبودة « زتنوب » ربة الحصاد ، أكمله ابنه أمنمحات الرابع • ويكاد هذا المعبد أن يكون المعبد الوحيد الذى بقى قائما من أيام الدولة الوسطى كذلك عثر على بقايا عمائر دينية لهذا الملك فى ادفو والكرنك وابيدوس وأهناسيه وكيمان فارس بالفيوم ومنف والكاب(٤٢) •

ومما لا شك فيه أن فن النحت قد ارتقى فى عهده ، كما يبدو من تماثيله التي فى مقدمتها تمثال له وهو فى ميعة الصبا ، معروض الآن بمتحف القاهرة • وقد توفى ذلك الملك الذى يعد من أبطال السلام ، والذى بذل جهدا كبيرا فى سبيل توفير حياة كريمة لشعبه ، بعد أن حكم مدة طويلة وبعد أن اشرك ابنه أمنمحات الرابع معه فى الحكم فى أواخر أيامه •

٧ ـ أمنمحات الرابع :

حكم مدة قصيرة ، قدرتها بردية تورين بتسعة أعوام • ولم يكن قويا كأسلافه مما أدى الى فقدان الأسرة المالكة لقوتها وحيويتها • ومن ثم فقد بدأ الانهيار يدب فى أوصال المملكة كما أخذت عوامل الاضمحلال والضعف تنخر فى كيان الدولة ، وقد أكمل هذا الملك معابد أبيه ، كما عثر له على بعض الآثار فى طيبة واللاهون ويعتقد البعض أنه قد دفن فى أحد الهرمين القائمين فى مزغونة بالقرب

من دهشور بينما دفنت الملكة سبك نفرو(٤٣) « التى شاركته أو خلفته » فى الهرم الثانى • وقد توفى هذا الملك دون أن يترك وريثا يخلفه فى حكم البلاد •

٨ ـ الملكة سبك نفرو :

احدى بنات أمنمحات الثالث فى أغلب الظن ، علما بأن مانثيون ذكر أنها أخته • وقد تلقبت بالألقاب الملكية كاملة ، كما تدلنا على ذلك اسطوانة من الأردواز بالمتحف البريطانى بلندن • وتعد هذه الملكة الثانية بعد نتو كريس التى وضعت اسمها داخل خرطوش ، وقدرت بردية تورين مدة حكمها بثلاث سنوات • وقد عثر لها على عدد محدود من الآثار فى تانيس وهوارة وأهناسية •

ومن الواضح أننا لم نتعرف بشكل حاسم على الطريقة التى أوصلتها الى العرش أو العوامل التى أدت الى انتهاء حكمها بعد مدة قصيرة ومن ثم الى انهيار الأسرة الحاكمة والى اضمحلال البلاد اضمحلالا شبيها بالانحلال الذى حدث فى أعقاب الأسرة السادسة وان كان فى هذه المرة قد تميز بعنصر الفجائية والغموض التام •

نظرة سريعة فى أحوال مصر أيام الأسرة الثانية عشرة :

نهضت مصر فى عهد هذه الأسرة نهضة شاملة وتمتعت بقسط لا بأس به من الرخاء لاهتمام الدولة بالنشاط الاقتصادى وسعيها لتحقيق الانجازات التى تعود على الشعب بالخير ، ونتيجة لسيادة القانون واستتباب الأمن • وقد تمكنت مصر فى عهد هذه الأسرة من اتخاذ اجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكام الأقاليم التقليديين وتحولوا الى حكام يرعون مصالح أقاليمهم ولكنهم فى نفس الوقت ينفذون توجيهات وطلبات الملك نفسه ، وقد اختلف ملوك الدولة

الوسطى عن أمثالهم فى الدول القديمة اذ أضحى الملك يعتمد على قوته وشخصيته بدلا من الاعتماد على قداسته والوهبتة ، وأصبح الملك فى عهد هذه الأسرة زعيما ورئيسا من البشر يتولى ادارة شئون البلاد فى ظل الاجلال والتقدير الذى تحوطه القداسة والتبجيل •

كذلك سعى ملوك هذه الأسرة الى حماية حدود البلاد فى الشرق والغرب والجنوب ضد المغيرين وعمدوا الى تكوين جيش مدرب على القتال مستعد دائما للنزال ، يمثل فى نفس الوقت قوة البلاد وسطوة الملك • وقد عمل ملوك هذه الأسرة على تقوية ذلك الجيش النظامى وبنوا له الحصون فى النوبة وغيرها وخاضوا به العديد من المعارك فى سبيل تمصير الجزء الشمالى من النوبة وردع الليبيين فى الصحراء الغربية بل لقد وصل هذا الجيش حتى مشارف فلسطين •

وقد قامت هذه الأسرة بمحاولات لتوطيد علاقاتها السلمية بجنوب غرب آسيا وخاصة فى فينيقيا فعثر فى أوجاريت على تمثال لسنوسرت الثالث وتمثال لزوجة سنوسرت الثالث وآخر لأمنمحات الثالث على شكل أبو الهول • وكذا على مجموعة تمثل أحد وزراء مصر مع سيدتين من أسرته ، مما يدل على علاقة قوية بين مصر وذلك المركز التجارى المهم ، كما ظلت الصلة قوية مع جبيل وكذا مع بلاد ينت • ويرجح أيضا قيام صلة تجارية بين مصر وجزر شرق البحر المتوسط اذ عثر على بعض الآثار المينوية (حضارة جزر بحر ايجه) ، كما تدل هجرة قبيلة ابشا التى سجلتها احدى مقابر بنى حسن على العلاقة السلمية السائدة حينذاك بين مصر وفلسطين •

وقد ادت حالة الاضطراب فى العصر المتوسط الأول الى تدهور وسائل الرى واضمحلال الزراعة مما ألقى بمسئوليته تنمية موارد

البلاد على كاهل ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين بذلوا الكثير من الجهد فى سبيل ضبط المياه وتنظيمها ٠

ويبدو أن فراعنة الدولة الحديثة قد استغلوا معابد ملوك الأسرة الثانية عشرة وبنوا على انقاضها معابدهم فلم يبق لنا من عمائرهم الدينية سوى معبد كوم مدينة ماضي ومقصورة سنوسرت الاول بالكرنك أما أهراماتهم فى دهشور واللشت ومزغونة وهوارة واللاهون فقد تميزت بصغر حجمها نسبيا وبأنها مبنية باللبن المكسو من الخارج بالحجر الجيرى ، كما عملوا على أخفاء معالم مداخلها والاكثار من السراديب والممرات بداخلها ٠ وقد بلغت صناعة الحلي الذهبية والمرصعة بالأحجار الكريمة والشبه الكريمة التى تضم تيجانا وصدريات وعقودا وأساور وغيرها درجة كبيرة من التقدم والابداع سواء من حيث دقة الصناعة أو جمال الذوق أو القدرة على الابتكار وخاصة تلك التى عثر عليها فى اللشت واللاهون ودهشور والتى قد لا تقل فى روعتها عن الحلى التى عثر عليها فى المقابر الملكية أيام الدولة الحديثة ٠

ويعتبر عصر الدولة الوسطى بوجه عام والأسرة الثانية عشرة بوجه خاص أزهى عصور الأدب المصرى ٠ وقد عد المصريون الذين عاشوا بعد أيام الدولة الوسطى مخلفاتها الأدبية نموذجا للأسلوب الجيد فعمدوا الي تقليده والاحتذاء به ٠ وقد شملت النهضة الأدبية فى ذلك العصر كافة مجالات الأدب من دينى وتهذيبى وشعرى ثم القصص بوجه خاص ٠

وقد تميز عهد الدولة الوسطى بوجه عام بشيوع عبادة اوزوريس وخاصة فى أبيدوس التى أضحت مقرا لعبادته دون ان يكون لتلك المدينة طابع سياسى معين ، أو لكهنتها مطمع سياسى

أو مادى • وقد كثر الحجيج الى ابيدوس لأهداف جنازية بوصفه رب الموتى كما صور على نصوص الأكفان التى انتشرت فى عهد هذه الدولة ، ومع ذلك فبالرغم مما تمتعت به مصر أيام الدولة الوسطى من قيم ديموقراطية فقد أخذت فى التقلص تدريجا • ومن ثم فان مصر قد تمكنت فى أيام الدولة الوسطى فى ظل حكومة ترتكز على نفس الأسس الدينية والسياسية والادارية التى ارتكزت عليها حكومة الدولة القديمة ، من استرداد مكانتها الأولى التى عرفتها لها الدنيا فى عصر بناة الأهرام ، كما نجحت بعد اتحادها للمرة الثانية فى بعث حضارة تماثل حضارة الدولة القديمة من حيث طابعها المصرى الأصيل ، الا أن الأحداث التى سبقت أيام الدولة الوسطى وعاصرتها قد أكسبت تلك الحضارة بعض الملامح والاتجاهات مما قد يختلف فى بعض النواحى عن مظاهر حضارة الدولة القديمة •

وقد كانت نهاية الدولة الوسطى شبيهة الى حد كبير بختام أيام الدولة القديمة اذ خلف الملك أمنمحات الثالث ملك ضعيف تلاشى على يديه نفوذ فرعون ، فكان ذلك نذيرا بانتهاء أيام تلك النهضة وسقوط الأسرة الثانية عشرة وأفول نجم الدولة الوسطى ، ثم ما تبع ذلك من دخول مصر فى عصر من عصور الفوضى والظلام هو العصر المتوسط الثانى حوالى سنة ١٧٨٥ قبل الميلاد •

العصر المتوسط الثاني الأسر ١٣ ــ ١٧ (١٧٨٥ ــ ١٥٥٢) :

تمهيـــد :

يعد عهد الأسرة الثانية عشرة من أزهى عصور مصر دون شك ، وخاصة أيام الملك أمنمحات الثالث الذى يمكن اعتباره من أعظم الفراعنة ، ومع ذلك فقد بدأت البــلاد فى الضعف ونهضتهــا فى الاضمحلال فى عهد أمنمحات الرابع وسبك نفرو (رع) وما لبثت مصر أن دخلت فى عصــور من عصــور الاضمحلال والفوضى جرت العادة على تسميته بالعصر المتوسط الثــانى(٤٤) • ولعل أشــد أيام ذلك العصر اضطرابا وغموضــا هى الأيام التى تلت ســقوط الأسرة الثانية عشرة مباشرة حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش وكل ذى قوة أو ســطوة الى عرش البــلاد ، ما يكاد يجلس أحدهم عليه قليلا ، حتى يخلفه أو يغتاله آخر ليحل محله ، كذلك اشــتد النضــال بين حــكام الأقاليم بعضهم مع بعض من جهــة وحكام الأقاليم والقصر من جهة أخرى وقد نتج عن ذلك أن تعددت المؤامرات واندلعت الثورات وتتابعت الحروب الأهليــة ، فســاد التفكك واضطرب الأمن واختل النظــام وتسرب الفســاد الى كل مرافق الحياة وساءت الأحوال السياسية والاقتصادية وعجزت البلاد

عن دفع عجلة التقدم وعاد الحال ـ بعد فترة الدولة الوسـطى التى تعد من ازهى عصـور مصر ـ الى مثل ما كانت عليه فى أعقاب الدولة القديمـة ٠

وقد كانت النتيجة الحتمية لذلك ان سقطت البـلاد حوالى سنة ١٧٨٥ ق٠م فريسة فى يد عدو متربص بها اذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوية التى أطلق عليهـا مانثيون اسم « هكسوس » واجتاحت مصر بسهولة وخضعت البلاد للمغيرين الذين سيطروا على الدلتا وتوغلوا فى أرض مصر الوسطى بينما سيطر الليبيون على بلاد النوبة ولم تبق من مصر المستقلة نسبيا سـوى رقعة ضيقة تحيط ببلدة طيبة أخذ حكامها فى تقوية أنفسهم تدريجا ثم التحموا مع الهكسوس المغيرين فأيدهم الله بنصره ونجحوا فى تطهير البـلاد من هؤلاء الغزاة فانهوا بذلك عصرا بغيضا من عصـور مصر الفرعونية وبدأوا عهد جديدا مشرقا هو عصر الدولة الحديثة ٠

ولم نتوصل حتى الآن الى عوامل الانحلال الذى أخذ بتلابيب مصر فى ذلك العصر وهل كان سببه خارجيا ؟ ربما سببه فى رأى البعض ظهور أعداء جدد لمصر فى سوريا وفلسطين وكذا فى بلاد النوبة ، خاصـة بعد العثور على عدد غير قليل من الأوانى الفخارية والتماثيل الطينية الصغيرة سجلت عليها نصـوص تعرف حاليا تحت اسم نصوص اللعنة وتشتمل على تعاويذ سحرية وأدعيـة سـحق أعـداء فرعـون فى تلك الجهـات مما يدل على ضـعف حكام مصر وعدم قدرتهم على مجابهة الأعداء فى ميادين القتال(٤٥) فى حين يعتقد البعض الآخر أن ذلك الانحـلال انما يرجع الى عوامل داخلية كانقسامات في العائلة المـالكة أو المشاحنـات بين حـكام الأقاليم الذين استردوا سلطانهم بعد وفاة أمنمحات الثالث أو لغير ذلك من العوامل التى أدت الى تردى أحوال البلاد داخليا وخارجيا ٠

والواقع أنه لم تمر بمصر طوال تاريخها القديم فترة أشـد

غموضا واكثر تعقيدا عند محاولة فهم أحوالها وتتبع أحداثها من تلك الفترة ، فالمصادر التاريخية يصعب الارتكان اليها ، والآثار قليلة ومتناثرة ، وقوائم الملوك لا تفيدنا كثيرا كما أن كتابات مانثيون والكتاب الاغريق لا يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بذلك العصر • ورغم أن بعض المؤرخين يعطى هذا العصر مددا طويلة تضم مئات السنين فان الاتجاه العام الآن يتجه نحو تقدير فترة العصر المتوسط الثانى بما يقارب قرنين من الزمان ، ويمكن تقسيم ذلك العضر بوجه عام الى ثلاث فترات :

الفترة الأولى :

وتضم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وهى فترة تفكك واضمحلال مهدت للفترة التالية •

الفترة الثانية :

وتضم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وفيها وقعت البلاد فريسة للحكم الأجنبى بعد دخول الهكسوس مصر •

الفترة الثالثة :

التى تقابل أيام الأسرة السابعة عشرة لمانثيون والتى عاصرت ذلك الصراع المرير بين ملوك الهكسوس فى الشمال وأمراء طيبة فى الجنوب والتى انتهت بتحرير البلاد وقيام الدولة الحديثة •

الأسرتان آل ١٣ وآل ١٤ (١٨٥ ــ ١٦٣٣) :

تعتمد الدراسة التاريخية لهذه الفترة على مصادر تاريخية محدودة للغاية ولقد حدثنا مانثيون عنها ذاكرا أن الأسرة الثانية عشرة قد خلفها ملوك نسبهم الى أسرة ترتيبها الثالثة عشرة فى تقسيمه ، وأسماهم الملوك الذين جاءوا بعد أسرة « أمنمحات » وارجعهم الى

مدينة طيبة(٤٦) وقدر عددهم بسبعين ملكا حكموا لمدة ٤٥٣ عاما ، أما ملوك الأسرة الرابعة عشرة فقد نسبهم الى مدينـة سخا فى شمال غرب الدلتا وقدر عددهم بستة وسبعين ملكا حكموا مدة ١٨٤ عاما(٤٧) • ويبدو أن قوائم طويلة لحكام يدعى كل منهم انه كان ملكا على مصر قد كانت أمامه وأوصلته الى تلك الأعداد الكبيرة التى أوردها ، وربما لم يكن هؤلاء الملوك سوى حكام اقليميين محليين يدعون الأنفسهم سلطة وسلطانا يتعدى حدود أقاليمهم • ومما هو جدير بالذكر أن مانثيون لم يمدنا بأسماء أولئك الملوك •

وفيما يتعلق بقوائم الملوك فقد قدم مسرد الكرنك ما يقرب من ثلاثين اسما لملوك تلك الفترة ولكن بطريقة غير متتابعة أو منظمة بخلاف مسردى أبيدوس وسقارة فقد تعمدوا عدم الاشارة الى هذه الفترة وانتقلا مباشرة من أيام الأسرة الثانية عشرة الى أيام الأسرة الثامنة عشرة ، متجاهلين تماما فترة العصر المتوسط الثانى، فى حين ذكرت بردية تورين أربعين ملكا من ذلك العصر • كذلك عثر على بعض المقابر فى منف وبعض البرديات واللوحات والتماثيل التى قد تفيدنا فائدة محددة ، كما أن هناك العديد من الجعارين التى وردت عليها عشرات من الاسماء الملكية • وتتميز بعض هذه الجعارين بطابعها الآسيوى مما يرجعها غالبا الى عصر الهكسوس ، أما تلك التى تميزت بطابعها المصرى فان من الصعب فى كثير من الأحيان تحديد عصرها وهل ترجع الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة أو لملوك جاءوا بعد ذلك •

وقد اتصفت هذه الفترة بالانهيار السياسى والادارى والأمنى وبالتدهور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، وحدوث تطورات او هزات عنيفة انعكست على الفن والأدب اللذين فقدا عناصر الابداع والتجديد وانحسرت مظاهر المساواة والعدالة الاجتماعية التى تمخض عنها العصر المتوسط الأول •

الأسرة الثالثة عشرة :

كما سبق أن ذكرنا اعتبر مانثيون الأسرة الثالثة عشرة أسرة طيبية والواقع أن الآثار التى خلفها بعض ملوكها فى طيبة ومداموود والطود ترجح أصل هذه الأسرة الطيبى رغم العثور على مقابر عدد من ملوكها فى جبانة منف (سقارة ودهشور ومزغونة) بجانب بعض التماثيل واللوحات وموائد القرابين والكتل المعمارية فى العديد من أنحاء مصر مثل الفنتين وقفط وابيدوس ثم اللاهون حيث عثر على كميات كبيرة من أوراق البردى(٤٨) .

وقد اتخذ كثير من ملوك هذه الأسرة الأسماء الشخصية لملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة مثل انتف وسنوسرت ، وقد عثرنا على تماثيل لبعض هؤلاء الملوك فى هيئة أبى الهول ، شبيهة بتلك التى ترجع الى الأسرة الثانية عشرة ، ولكنهـا تعوزها الدقة والجمال الفنى اللذين عرفا فى تماثيل الأسرة الثانيـة عشرة . ويبدو من دراسة هؤلاء الملوك أن الأسرة الثالثة عشرة كانت بمثابة امتداد للأسرة الثانية عشرة ، كما أنها حاولت فيما يتعلق بأسـلوب حكم البلاد أن تسير على نفس الطريقـة التى انتهجتهـا الأسرة السابقة . كذلك يبدو أن انتقال الحكم بين الأسرتين قد تم فى هدوء دون اضطرابات تذكر(٤٩) .

ويمكن تقسيم الأسرة الثالثة عشرة الى مجموعات ثلاث :

ـ ملوك تلوا ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كان معترفا بهم فى مصر العليا ، حكم بعضهم من منف ودفن فى جبانتها ٠

ـ ملوك جاءوا مباشرة بعد الملوك السابق ذكرهم وحكموا مصر العليا من طيبة ودفنوا هناك ٠

ـ مجموعة غير مؤكدة العدد ، ربما كانوا حكاما اقليميين ، وحمل بعضهم الألقاب ، وربما كانوا أو كان بعضهم معاصرا لحكم المجموعتين السابقتين ٠

وقد وردت الينا من عصر تلك الأسرة أسماء أكثر من عشرة ملوك تسموا باسم سبك حتب مما يدل على أنهم كانوا يقدسون الاله سبك (التمساح) الذى كان يعبد فى منطقة جبلين جنوب الأقصر ٠ ولايزال ترتيب هؤلاء الملوك موضع تناقض واختلاف بين العلماء(٥٠)

ومن أهم هؤلاء الملوك على سبيل المثال الملك سبك حتب (سخم رع خوى تاوى أمنمحات) الذى ورد اسمه فى قائمة الكرنك وكذا فى بردية تورين ٠ وقد ذكرت تلك البردية أنه جلس على العرش ست سنوات ٠

وبينما يرجح بعض العلماء أنه وصل الى الحكم عن طريق زواجه (بسبك نفرو) يرى البعض انه كان مغتصبا للعرش ، وانه أراد أن يغطى اغتصابه بتسمية نفسه أمنمحات ٠ وعلى كل حال فليس هناك ما يثبت أو ينفى انتماءه للبيت الحاكم أيام الأسرة الثانية عشرة ، وقد عثر له على آثار فى الأقصر ومدامود ، كما قام بتسجيل ارتفاع مياه النيل عن مقياس سمنة لمدة أربع سنوات ٠ مما يدل على أن مملكته امتدت فى أغلب الظن

من الدلتا فى الشمال حتى الجندل الثانى جنوبا • ويختلف المؤرخون أيضـا فى ترتيبه بين ملوك هذه الأسرة فمنهم من يجعله مؤسسها ، ومنهم من يعده ثانى ملوكها ، أو رابعها فى رأى ثالث •

ملك آخر من ملوك تلك المجموعة هو الملك « سبك حتب ، سخم رع سواج تاوى » الذى حكم لفترة قصيرة لا تعدو ثلاث سنوات وقد وجدت له آثار فى تل بسطة واللشت وجبلين والأقصر والكاب « جزيرة سهيل » بأسوان مما يدل على نشاطه فى كافة أنحـاء البـلاد ، كما ذكر اسمه على لوحة عثر عليها بالكرنك (متحف القاهرة رقم ٥٢٤٥٣) سجل عليها عقد تنازل فيه حاكم اقليم الكاب عن منصبـه لأحد أقـاربه مقـابل كميـة من الذهب والثيـاب والحبوب •• إلخ • ولا ندرى أكانت هذه حالة فردية أم عادة متبعة فى تلك الأيام •

أما الملك سبك حتب (خع نفر رع) فقد أقام لوحة بالكرنك من الحجر الجيرى تمجيدا للاله آمون (متحف القاهرة رقم ٥١٩١١) ، كما عثر له على تماثيل وآثار متنوعة فى صان الحجر (تانيس) وتل بسـطة وتل الربع وغيرها من أماكن الدلتا توزعت الآن فى متاحف مختلفة ، منها تمثال يمثله فى حجم طبيعى ، محطم الرأس فى متحف الخرطوم ، تم اكتشافه فى جزيرة أرجو (بين الجندلين الثانى والثالث) • ولكن ذلك لا يعنى اطلاقا أن ملكه قد امتد الى تلك المناطق وعلى كل حال فان من الواضح أن عهده كان الى حد ما عهد ازدهار نسبى •

أما الملك « خع سخم رع ــ نفر حتب » فهو أيضا من مجموعة « سبك حتب » ويرجح أنه أخ لفرعون آخر من تلك المجموعة ، وقد كشف له عن لوحة بالقرب من ببلوس تمثل حاكم المدينـة يقدم آيات الولاء لهذا الملك مما يشير الى نوع من النفوذ المصرى

هناك ، مما يتطلب سيطرته على شرق الدلتا ، وعثر له على لوحة في أبيدوس تسجل زيارته لمعبد أوزوريس بها • وقد عثر على هرم للملك « خنجر » (أوسر كارع) كشفت عنه حفائر مصلحة الآثـار سنة ١٩٢٩ بسقارة وكان مشيدا بنفس الأسـلوب الذى أتبع فى الأسرة الثانيـة عشرة فهو مبنى باللبن ومكسو بالحجر الجيرى • ويبلغ طول ضلعه حوالى ٣٥ مترا ويجاوز ارتفاعه كذلك ٣٥ مترا ، وبجانبه اطلال معبده الجنازى • وقد كشف على مقربة من هذا الهرم عن هرمين آخرين ربما يخصـان ملكين من هذه الأسرة ، ولم يعثر على اسمى صاحبيهما(٥١) •

كذلك عثر على اسم وألقاب الملك مر مشع (سمنخ كارع) على تمثالين عثر عليهما فى تانيس واغتصبهما الهكسوس فيما بعد • كما كشف بدهشور الى الشمال من هرم أمنمحات الثالث على هرم لملك يدعى « حور » ، يعتقد أنه من نفس الأسرة • وقد عثر بداخل ذلك الهرم على تمثال خشبى داخل ناووس يمثل ذلك الملك عاريا وفوق رأسه رمز الكـا (القرين) وهو معروض بمتحف القاهرة • وقد عثر سنة ١٩٢٧ على هرم فى دهشور للملك « أمينى عامو » الذى جاء ذكره على أوانى الأحشاء الخاصة به ، ولكن ليس من المؤكد أن هـذا الملك ينتمى الى الأسرة الثالثـة عشرة ، عـدا أنه قد شيد هرمه بجوار هرم الملك حور(٥٢) •

ومن ثم يتضح أن الوجود التاريخى لعدد كبير من ملوك هـذه الأسرة قد أصبح أمرا مؤكدا ، وأن اختلف المؤرخون اختلافا بينـا فى انسابهم وأحداث حكمهم وتتابعهم التاريخى •

الأسرة الرابعة عشرة :

لا تساعدنا المصـادر التاريخية على التوصل الى الظروف التى ادت الى تولى هذه الأسرة الحكم ، هل بدأت مع بداية الأسرة

الثالثة عشرة أو قامت بعد ذلك عندما ظهرت أسرة محليـة قويـة فى شمال غرب الدلتا ، وقد استطاعت هذه الأسرة الانفراد بالحكم فى تلك المنطقة المليئة بالمستنقعات بيد أنها لم تمد سلطانهـا على أى أرض خارج منطقتها التى كانت تحكمها أسرة طيبة أو أمراء محليون • ولم نعثر على آثار لهذه الأسرة كما تناقضت بردية تورين التى ذكرت أنها قد ضمت ٢١ ملكا مع تقدير مانتيون لعدد ملوكها بـ ٧٦ ملكا •

ومع ذلك فهناك ملك من الدلتا يدعى نحسى (أى الزنجى) عثر له على تمثال فى تل المقدم بشرق الدلتا وصف فيه نحسى بأنه حبيب سـت صاحب أواريس عاصمتهم ، مما يدل على أن هـذا الملك كان معاصرا للهكسوس بعد دخولهم مصر واتخـاذهم أواريس عاصمة لهم • وقد اغتصب منفتاح من الأسرة التاسعة عشرة هـذا التمثال ونقش اسـمه عليه • وقد عثر فى تل بسطة وغيرها من مدن الدلتا جعارين تحمل اسم ذلك الملك • ويبدو أن الأسرة الرابعـة عشرة قد امتدت أيامها بعد الأسرة الثالثة عشرة وانها استمرت بعض الوقت بعد غزو الهكسوس لموقعها فى الغرب بعيدة الى حد ما عن عاصمتهم • ويبدو كذلك أن هذه الأسرة لم تدخل فى أى صراع مع حكام طيبة وربما كانت موالية لهم ، على كل حال فمن الواضح وفقا لمـا لدينا من معلومات أنها لم تلعب أى دور خطير فى تاريخ مصر القـديم •

عصر الكهسـوس ـ الأسرتان الـ ١٥ والـ ١٦

كانت النتيجـة الحتمية لاضطرب أحوال البـلاد وتفككها وضعت حكامها ان سقطت حوالى عام ١٧٢٥ ق٠م تقريبا فريسة فى يد عدو قوى متربص بها اذ دهمها المغيرون من القبـائل الرعوية التى أطلق عليها مانتون اسم هكسوس والتى كانت تسكن فلسطين وما حولها من بقاع فى أغلب الظن ٠

وقد ظل حكم الهكسوس قائما طوال أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ودخلوا فى صراع مع أمراء طيبة فى الأسرة السابعة عشرة انتهى بطردهم من البلاد(٥٣) ٠

ولدينا بعض المصادر المحدودة عن الهكسوس ، منها :

أولا :

ما كتبه المؤرخ المصرى مانتيون ونقله عنه جوزيعوس ٠ وقـد ذكر أنه فى حكم الملك « تتيمايس » اسـتولى على مصر غزاة من جنس مجهول جاءوا من الشرق ، فأحرقوا وخربوا معـابد الالهـة وعاملوا المصريين بروح عدائيـة وقد حكموا من ممفيس ثم بنوا قلعة فى « أفاريس » (أواريس) فى شرق الدلتا ٠ وأخيرا فقد هاجمهم ملوك من طيبـة واستولوا على أفاريس وتركوهم يغـادرون مصر بسـلام ٠

وقد أورد جوزيعوس اقتباسات نسبها الى مانثيون وهى تعتبر مرجعا علميا تبنى عليه معارفنا التاريخية • وقد تحدث عن غزوهم لمصر ثم خروجهم غير مدحورين وأسرف فى تمجيدهم كأن هدفه من ذلك الرد على « أبيوس » الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الأول الميلادى وعاصر جوزيعوس وكتب كتابا نعت فيه اليهود بأسوأ النعوت فحاول جوزيعوس فى هذا الجزء الذى أورده من تاريخ مانثيون أن يدافع عن الهكسوس باعتبارهم أجداد اليهود •

ثانيــا :

الآثار السابقة لعصر الهكسوس لقصة سنوحى التى ورد بها لقب « حكا خاسوت » الذى حرفه مانثيون الى هكسوس عند حديثه عن فلسطين • كما لقب ابشا الذى سجل قبر خنوم حتب الثانى فى بنى حسن قصة مجيئه الى مصر على رأس قبيلته بنفس اللقب •

ثالثــا :

ما تركه الهكسوس من آثار وهى قليلة نظرا لانهم استقروا طوال مدة حكمهم بالدلتا ، التى اندثرت معظم أثارها • وقد عثر على كثير من الجعارين المصرية وكذا على كمية كبيرة من أسلحتهم المختلفة أيضا عن الأسلحة المصرية • وقد وجدت بعض آثارهم فى مقابر خارج مصر وخاصة فى فلسطين مما يدل على وجود صلة قوية بين الهكسوس وأرض فلسطين(٥٤) •

رابعــا :

الآثار والنصوص اللاحقة لعصر الهكسوس كبردية تورين التى أعطتنا أسماء ستة من ملوك الهكسوس حكموا مدة ١٠٨ سنوات كما كشفت عن اللوحة المعروفة بلوحة الأربعمائة عام التى سجل

عليها العيد الأربعمائة لاعلان تتويج الاله ست الها للبلاد والذى احتفل به فى عهد حور محب . وهذا التتويج لابد أنه قد وافق سيطرة الهكسوس على مصر وقد أمر رمسيس الثانى الخليفة الثالث لحور محب باقامة تلك اللوحة فى أواريس . واذا قدرنا أن هذه اللوحة أقيمت حوالى سنة ١٣٠٢ ق.م ورجعنا اربعمائة سنة الى الوراء فستكون سنة ١٩٢٠ ق.م تقريبا هى وقت تأسيس أواريس بعد أن سيطر الهكسوس على البلاد .

ومن هذه النصوص اللاحقة لعصر الهكسوس ما دونته حتشبسوت على معبدها المنحوت فى أسطبل عنتر المعروف باسم « سيبوس ارتميدس » تقول « لقد أصلحت التالف ، وأكملت الناقص بعد أن كانت البلاد تحت حكم الآسيويين من عاصمتهم اورايس بالدلتا . لقد أتلف هؤلاء القوم الآثار عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع » .

كما جاء فى بردية سالبيه ، من عهد « منخاع » ابن رمسيس الثانى ، المحفوظة الآن بالمتحف البريطانى « وأصبحت مصر فى أيدى قوم قذرين غاصبين ، بعد أن تعذر على المصريين أن يملكوا على انفسهم أحدا منهم وكان فى ذلك الوقت الملك « سقنرع » يحكم قسم طيبة الجنوبى والملك أبوفيس الهكسوسى يحكم البلاد من « أواريس » ويجمع الجزية من سائر الأقاليم من الحاصلات والخيرات التى أنتجتها أراضى الوجهين القبلى والبحرى . واتخذ الملك أبوفيس المعبود « ست » الها دون معبودات مصر كلها وشيد له معبدا جميلا » .

اسم الهكسوس وأصلهم :

كان مانتيون هو الذى أطلق على هؤلاء الغزاة لفظ الهكسوس المشتق من الكلمة المصرية القديمة « حكا خاسوت » اى حكام

البلاد الأجنبية وقد سماهم المصريون بأسماء تدل على مدى كرههم لهم مثل « الوباء » و « الطاعون » اذ نهبوا رزقهم وآذوهم وخاصة فى البدء فى دينهم ودنياهم ٠

أما عن اصلهم فقد تعددت الآراء فى هـذا الشأن ولكن الرأى الأكثر شيوعا الآن ان حملة الهكسوس على مصر لا تعد من الحملات التى قام بها شعب له جيشه الخاص بل قامت بتلك الغزوة مجموعة من الشعوب التى سكنت فلسطين واضطرت تحت ضغط الشعوب الهندو أوربية الذين استقروا فى شمال سوريا وربما أيضا بسبب جفاف وقحط أصاب بلادهم الى أن تزحف على مصر ٠ وقد أساء الهكسوس معاملة المصريين فى بادىء الأمر ولكنهم لم يلبثوا أن تمصروا فتكلموا لغة المصريين وعبدوا معبوداتهم وقلدوا المصريين فى أزيائهم وألقابهم وتقاليدهم ٠ والرأى السائد الآن ان مدة حكمهم لمصر منذ غزوها حتى طردهم منها لا تتجاوز مائة عام على أكثر تقدير ٠

حكم الهكسوس :

نجح الهكسوس فى احتلال مصر بسهولة لضعفها من ناحية ولمجيئهم فى أعداد كبيرة من ناحية أخرى ثم لاستخدامهم الأسلحة متطورة كالقوس والمركب والسيف العريض وربما الخيل والعربات الحربية التى اكتسحت خطوط المشاة المصريين(٥٥) أما أورايس فقد اتخذوها عاصمة لهم طوال مدة حكمهم وكان فى اعتقاد البعض انها مكان تانيس الحالية أو « قنتير » القريبة منها ولكن حفائر البعثة النمساوية تدل على أن موقعها هو تل الضبعة فى صحراء الاسماعيلية حيث وجدوا الكثير من أسلحة الهكسوس وآثارا متنوعة لهم ٠

وقد اراد بعض المؤرخين أن ينسبوا الى أورايس ابتكار طابع فن خاص أسموه طراز تانيس ولكن تأكد الآن أن القطع الفنية

الرائعة التى عثر عليها هناك مثل تماثيل النيل وأبو الهول المعروضة فى متحف القاهرة الآن انما يرجع الى الأسرة الثانية عشرة • كما حاول « وثلوك » اثبات أن الشادوف والنول والقيثارة وكذا أسلوب ختم الماشية انما دخلت الى مصر بواسطة الهكسوس ولكن « ويلسون » قد فند هذا الرأى تفنيدا قويا(٥٦) •

وقد أقام الكهسوس ديانة رسمية فى أواريس اقتبست من الديانة المصرية ، واتخذوا لهم من بين الآلهة المصرية ذلك الاله الذى كان مقدسا فى تلك المنطقة وهو المعبود « ست » الذى عبد هناك منذ الدولة القديمة • وليس بمستبعد أن الهكسوس قد عرفوا فى ست أورايس صورة أخرى لأحد آلهتهم الآسيوية وهو الاله « سنوتخ » ، وقد نجح الهكسوس فى مد سلطانهم على الدلتا ، وربما تركوا شمال غرب الدلتا تحت امرة ملوك الأسرة الرابعة عشرة ثم ما لبثوا أن تقدموا فى مصر الوسطى حتى القوصية بمحافظة أسيوط ، كما فرضوا على بقية الصعيد بما فيه امارة طيبة نوعا من الاستقلال الداخلى • ومما لا شك فيه أن احتلال الهكسوس لمصر وسيطرتهم على البلاد قد أثر تأثيرا عميقا على المصريين وهز الاذلال الجديد شعورهم القديم بالتفوق والأمن فى ظل آلهتهم ، ومن ثم فلم يلبثوا بدأوا حرب تحرير قادها حكام امارة طيبة •

أما بلاد النوبة ، فقد فقد المصريون سيطرتهم عليها بعد انهيار الدولة الوسطى وغزو الهكسوس لمصر • ونجح النوبيون فى استرداد استقلالهم ، وأقاموا مملكة عرفت باسم مملكة كوش ، يبدو مرجحا أنها اتخذت بلدة كرما جنوب الجندل الثانى عاصمة لها • وقد ازدهرت هذه المملكة أبان العصر المتوسط الثانى وكانت لها علاقات تجارية ودبلوماسية مع مملكة الهكسوس •

ملوك الهكسوس :

من الصعب حتى الآن حصر ملوك الهكسوس حتى لو اعتمدنا على ما ذكره جوزيفوس وأفريكالوس نقلا عن مانتيون أو من ذكر منهم على الآثار والجعارين • ووفقا لتقسيم مانتيون فان هناك ثلاث أسرات تتابعت الواحدة تلو الأخرى هى : الأسرة ال ١٥ التى ضمت ستة ملوك ، والأسرة ال ١٦ التى ضمت اثنين وثلاثين ملكا ثم الأسرة ال ١٧ وعدد ملوكها ٤٣ ملكا ، عاصرهم عدد مماثل من أمراء طيبة وتنتهى هذه الأسرة بخروج الهكسوس من مصر • أما بردية تورين فقد ذكرت ستة ملوك يمكن أن يطلق عليهم اسم ملوك الهكسوس الكبار ثم أوردت البردية فى الجزء الذى تلا ذلك عددا كبيرا من الملوك لم تذكر سنى حكمهم ولم تقسمهم الى مجموعات • ولاشك أن هذا العدد الكبير يحوى أسماء ملوك الأسرات التى ذكرها مانتيون •

ويعد الملك خيان من ملوك الهكسوس الذين تركوا لنا بعض الآثار(٥٧) وان كانت ترتيب هؤلاء الملوك لايزال غامضا • وقد ورد اسم هذا الملك على بردية تورين وربما هو نفس الملك «ايناس» الذى ورد اسمه فى قائمة مانتيون • وقد تلقب بألقاب ملكية مصرية ، كما احتفظ بلقب الهكسوس التقليدى « حكا خاسوت » • وقد عثر له على آثار فى الدلتا بوجه خاص ذات طابع مصرى من بينها اجزاء من تمثال من الجرانيت عثر عليه فى بوبسطة وخاتم وجعارين بمتحف ليدن بهولندا الآن ، كما عثر له على حلية معمارية فى جبلين بمصر العليا • كذلك وجد لهذا الملك بعض الجعارين بسوريا وفلسطين وجزء من اناء من الأبسوديان عثر عليه فى نوغاز كوى (عظمة الحثيين بآسيا الصغرى) كما تم العثور ببغداد على تمثال صغير لأسد طوله ٤٥ سم تقريبا ، وقد دون على صدره اسم الملك خيان وهو الآن فى حوزة المتحف البريطانى بلندن •

كذلك عثر له على غطاء آنية متوسطة الحجم من المرمر فى كنوسس بجزيرة كريت وهى الآن فى متحف كنديا بتلك الجزيرة . وقد استنتج بعض المؤرخين نتيجة العثور على تلك الآثار خارج مصر أمر قيام دولة كبرى للهكسوس امتدت من النوبة حتى الغرب . ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتعدى وجود علاقات تجارية بين الهكسوس وتلك المناطق .

وقد عثر على آثار كثيرة تحمل اسماء ثلاثة من ملوك الهكسوس باسم « ايبيى » يصعب التأكد من ترتيب تتابعهم ، فهناك الملك « ايبيى عاقنن رع » الذى يغلب على الظن أنه صاحب أول معركة من سلسلة المعارك التى انتهت بطرد الهكسوس(٥٨) ويبدو أنه قد بنى معبدا ورممه فى « أواريس » وقد عثر له آثار عديدة فى الدلتا منها تمثال من تانيس يحمل اسمه وألقابه ، ومن بينها لقب « أمير الجيوش » أو جزء من دعاء يحمل اسمه وجد فى منف ، وهو الآن بمتحف برلين ، وكذا مذبح من الجرانيت الرمادى ، لا يعرف أين وجد وهو الآن فى جوزة المتحف المصرى وقد كتب عليه نص ترجمته « لقد عمل ايبيى هذه الآنية لست سيد أواريس كما جعل ست البلاد تحت قدميه » .

أما الملك « ايبيى أو سر رع » فمن آثار أيامه بقايا أدوات كتابية عثر عليها بالفيوم ويزعم صاحبها أنها أهديت له من الملك وقد نعته بأنه بطل حرب ورجل نزال تمتد شهرته الى أطراف الأرض ، كما وجد اناء من الجرانيت فى قبر أمنحتب الأول بوادى الملوك عليه اسمه ، كذلك عثر على حجر لا يحمل غير اسمه فى « جبلين » جنوب الأقصر وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى ومما يذكر أيضا أن اسمه قد وجد فى بردية رند الحسابية فى حوزة المتحف البريطانى .

وهناك ملك ثالث من هذه المجموعة هو « ايبيى نب خبش رع » ومن أهم الآثار التى ترجع الى أيامه خنجر من البرونز عليه نقوش متأثرة بالفن الكريتى ، عثر عيه فى قبر رجل يدعى « عبدو » بسقارة، ولو أن صاحبه هو رجل آخر يدعى نحمان وهى أسماء سامية ترجح الرأى القائل بأن الهكسوس قد وفدوا من فلسطين ، وكان نحمان من حراس الملك ، وربما والد « عبدو » ويبدو أن ايبيى (أبوفيس) اتخذ حراسه من الآسيويين نتيجة لعدم اطمئنانه للمصريين • كذلك وجد اناء حجرى عليه اسم هذا الملك وبجانبه ألقاب مصرية قديمة « كالاله الخير ، وابن الشمس حبيبها » •

طرد الهكسوس :

مرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن يكون بين المصريين من يستطيع مقاومة الهكسوس ، خاصة أنه لم يكن باقيا من مصر المستقلة سوى شريط ضيق فى مصر العليا يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ، ويخضع نسبيا لنفوذ طيبة ، ويمتد من القوصية فى محافظة أسيوط التى مثلت أقصى جهات مصر الخاضعة تماما للهكسوس فى مصر الوسطى ، حتى الفنتين(٥٩) ولكن ما لبث أمراء طيبة أن شعروا بنوع من القوة فبدأوا فى التحالف مع جيرانهم فى الشمال والجنوب، كما عمدوا الى كتابة أسمائهم فى خراطيش مسبوقة بالألقاب الملكية •

فلما أخذت قوة الهكسوس فى الضعف وسطوتهم فى التداعى ، انتهز هؤلاء الحكام الطيبيون الفرصة فبدأوا العمل فى سبيل استرداد حرية بلادهم ويسعون لتخليص وطنهم من ذلك الدخيل البغيض • وقد كتب الله لهم الفوز والنجاح بعد حرب طويلة قادها على التوالى سقننرع الثانى ثم ولداه كامو سا وأحمس •

ولا ندرى بالضبط الأسباب المباشرة لبدء الاحتكاك بين الهكسوس وحكام طيبة ومحاولة للهكسوس للقضاء على حكام طيبة قبل أن يستفحل أمرهم ، ذلك رغم عثورنا على عدد من الوثائق توضح لنا الدور الذى لعبه كل من هؤلاء الحكام فى طرد الهكسوس والوثيقة الأولى قد وردت فى بردية سالبيه ٢ من أيام الأسرة التاسعة عشرة ، مسجلة بطريقة شبه أسطورية قصة اشتباك سقننرع مع أبونيس ملك الهكسوس فى أول معركة فى ذلك الكفاح • وهى تصور أبونيس كأنه يبحث عن مبرر للتحرش بأمير طيبة فيرسل اليه برسالة يشكو فيها من أفراس النهر التى تسبح فى البركة المقدسة بمعبد آمون بطيبة فتمنعه من الاستمتاع بالنوم (فى عاصمة أواريس) ويطلب منه قتلها • وقد رد عليهم سقننرع ردا يدل على الرغبة فى السلام ، كما أكرم الوفد الذى حمل اليه تلك الرسالة بعد أن استشار رجال البلاط فى الأمر ونصحوه بذلك • وهنا ينتهى المخطوط فتكمل مومياء سقننرع المحفوظة فى المتحف المصرى تلك القصة فهى تثبت أن صاحبها قد مات متأثرا بجراحه • وقد تأكد هذا الأمر بعد أن جربت بعض الأسلحة التى استخدمها الهكسوس فتطابقت مع معظم الجراح التى بالجمجمة بجانب أن رداءة التحنيط تؤكد سرعة تحنيطه فى ميدان القتال •

أما كفاح ابنه كاموسا فقد وصل الينا النبأ عن طريق ثلاث وثائق أكملت كل منها الأخرى مما قدم لنا قصة شبه كاملة لكفاح ثانى أبطال حرب التحرير • فقد جاءت الوثيقة الأولى لتلميذ كتبها على لوح يعرف بلوح كارنارفون أما الثانية فمدونة على لوحة عثر عليها سنة ١٩٢٨ تقص القصة التى تروى أن كاموسا قد ضاق بعد وفاة والده وجلوسه على العرش بالموقف ازاء الهكسوس فدعا رجال البلاط وقواد الجيش وشاورهم فى الأمر فأخذوا فى مدحه والتغنى بشجاعته والاشادة بقوته فتعجب من أقوالهم وذكرهم

بموقفه بين ملكين أحدهما آسيوى يحكم بلاده فى الشمال والآخر يحكم بلاده فى الجنوب(٦٠) وقد بدا من رد المجتمعين أنهم راضون بحالهم وأنهم كارهون للحرب يؤثرون الرضاء بالأمر ولكن كاموسا صمم على قتال الهكسوس ،فتأكد من أن البلاد كلها ستهتف لكاموسا حامى مصر . ويفهم من بقية النص أنه تقدم مستخدما النيل نحو الشمال حتى بلدة نفردس وانتصر على حاكمها تتى الذى كان مواليا للهكسوس(٦١) .

أما الوثيقة الثالثة فعبارة عن لوحة كاملة من الحجر الجيرى عثر عليها فى الكرنك سنة ١٩٥٤ وهى تكمل الوثيقتين فتتحدث عن استمرار انتصارات كاموسا على الهكسوس وعن الرعب الذى أصابهم من جيش مصر ، وكذا عن الغنائم التى حصل عليها من أسره لرسول بعث به أبوبيس لتوصيل رسالة منه الى ملك كوش، يحثه فيها على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء انشغال كاموسا فى الشمال ، ثم يعدد المدن التى استولى عليها .

ونحن وان كنا لا نعرف كيف انتهت أيام كاموسا أو سبب موته فان من المؤكد أن المنية قد وافته قبل أن يحتل أواريس فترك بذلك مهمة طرد الهكسوس من مصر الى أخيه أحمس .

ورغم أننا لم نعثر على أى أثر أو وثيقة ملكية تقص علينا قصة طرد أحمس للهكسوس فان قائدين من قواده هما القائد البحرى أحمس ابن ابانا والقائد البرى أحمس بن تخيت (أى أحمس الكابى) قد سجلا على قبريهما بمدينة الكاب ما قاما به من حملات حربية تحت قيادة الملك أحمس ، الذى تمكن من الاستيلاء على العاصمة أواريس واقتفى أثر الهكسوس شرقا حتى جنوب فلسطين حيث تحصنوا فى حصن شاروهين المنيع (فى منطقة غزة) فحاصره لمدة تقارب الثلاث السنوات حتى تمكن أخيرا من الاستيلاء

عليه بعد هزيمة منكرة وشتتهم فى بقاع الأرض ولم يعد لهم ذكر فى التاريخ ٠

ويجدر هنا الاشارة الى ثلاث ملكات لعبن دورا مهما فى حرب التحرير وتوارثن الأهميــة السياسية للمرأة طوال هــذه الحقبــة المهمة من تاريخ مصر ٠ وتتصــدر قائمتهن الملكية تتى شرى زوجة سقننرع الأول وأم سقننرع تاعا الثانى ٠ وربما كانت أما أيضا لزوجته « اباح حتب » وقد عثريا على تمثالين لها فى مقبرتها بغرب طيبة وعلى لوحة فى أبيدوس يشيد فيها أحمس بأفعالها كما شيد لها ضريحا فى تلك المدينة المقدسة ٠

ثم تأتى بعد ذلك الملــكة « ايــاح حتب » زوجــة سقننرع الثانى وأم كاموسا واحمس ٠ وقد لعبت دورا مهما فى الكفاح لتحرير البلاد أيام زوجها وولديها ٠وتشير لوحة أقيمت فى الكرنك الى أنها كانت ترعى الجنود وتهتم بشئون مصر وأنها قضت على الأعــداء ٠٠ الخ(٦٢) ٠ وقد عثر فى مقبرتها على بلطة وخنجر وحلى رائعــة تحمل اسمى كاموسا وأحمس ، ويظهر فى بعضها تأثير واضح لفن كريت وجزر بحر ايجه ٠

أما الملكة الثالثة فهى أحمس نفرتارى التى كانت فى أغلب الظن زوجة لكاموسا ثم أحمس من بعده ، والتى ظل نفوذها قويا أيام ابنها أمنتحتب الأول ٠ وقد صــورت على لوحة أبيدوس التى سبق ذكرها وهى تشــارك فى بناء ضريح الملكة تتى شرى هنــاك ٠ وقد اكتسبت هذه الملكة تقديرا أدبيا كبيرا والهت مع ابنهــا أمنتحتب الأول فى العصور اللاحقة ٠

هكذا نجحت مصر بقيادة أحمس الأول فى تسجيل فصل الختام من ذلك العصر البغيض المشئوم ، عهد الاحتــلال والحكم الأجنبى للبلاد وبدأ بذلك عهد جديد زاهر هو عهد الدولة الحديثة ، عهد المجد العسكرى والانفتاح على الخارج ٠

الهـــوامش

(١) يطلق المؤرخون على هذه الفترة التاريخية أسماء مختلفة مثل « عصر الانتقال الأول » أو « عصر الاضمحلال الأول » أو « عصر الاقطاع » أسماء مشتقة من الحالة العامة وقت ذلك . كذلك اختلفت الآراء فى تقدير المدى الزمنى لتلك المرحلة ، فهى تمتد عند البعض الى ما يزيد على مائتين وخمسين عاما وان كانت الآراء الحديثة تقدرها بقرابة المائة والخمسين عاما .

(٢) نسبة الى العاصمة منف التى ظلت من الناحية الاسمية عاصمة للبلاد . ومن ثم فهناك من ينادى بضم الأسرتين السابعة والثامنة الى عصر الدولة القديمة تمشيا مع بردية تورين التى وضعت ملوك الأسرة الأولى ومن تلاهم من ملوك حتى نهاية الأسرة الثامنة (وفقا لتقسيم مانتيون) ضمن نطاق واحد . وبعبارة أخرى كانت هاتان الأسرتان فى نظر تلك البردية مكملتين للعصر الذى سبقهما .

(٣) انظر أحمد بدوى — فى موكب الشمس — جزء ٢ — القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٢٠ .

(٤) يمكن الرجوع فيما يتعلق بهذه الفترة التاريخية الى مراجع منها :

محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ .

— Stöck, Die Erste Zwischen Seit Agypten, Rome, 1940.

— B. Bell, The Mark Ages in Ancient History, I, The First Mark Age in Egypt, American Journal of Archalology, 75, 1941, P.P. 1 — 26.

(٥) G. Jregger & others, Ancient Egypt, Social History, Cambridge, 1983, P. 112.

(٦) حكم لمدة سنتين وفقا لبردية تورين .

(٧) ليس هناك من شك فى أن هذه البردية وكذا مقطوعة أيب آور ترجعان الى العصر المتوسط الأول وتعبران عن الحالة السائدة وقتذاك .

(٨) لا نعرف الأسباب التى دعت مانثيون الى تقسيم ملوك البيت الأهناسى الى أسرتين ، خاصة أن بردية تورين قد دونت ملوكهما فى مجموعة واحدة قائمة بذاتها . والرأى السائد أن الأسرة التاسعة قد حكمت ثلاثين عاما تقريبا فى حين أن الأسرة العاشرة قد حكمت مائة عام فهى أطول كما أن تاريخها أقل غموضا من التى سبقتها .

(٩) اشتق اسم أهناسية من الاسم المصرى القديم « حنن نسوت » أى مدينة الملك الطفل ، والتى حرفت فى الكتابة القبطية الى « هنس » ونطقها العرب « أهناس » وتعرف اليوم « بأهناسية المدينة » . وقد كانت هذه المدينة عاصمة للاقليم العشرين من أقاليم مصر العليا ، وتميزت بموقعها الجغرافى والاستراتيجى المهم فهى تقع فى الجانب الغربى للنيل فى منتصف المسافة بينه وبين منخفض الفيوم ، كما تميزت أهناسية بأهمية سياسية وتاريخية فى فترات عديدة من العصر الفرعونى . وقد أطلق عليها الاغريق إسم « هيراكليوبوليس » نظرا لأن معبودها المحلى كان يمثل بوجه كبش . انظر :
G. Mokhtar, Thnasga, el Medina (Herapepola Magnal ;; M. Prez ?Die, P. Vernus, Exearations in Ehpasya El Medipe, Madrid, 1993.

(١٠) عثر فى المعلا (جنوب الاقصر بأربعين كيلو مترا تقريبا) على مقبرة « عنخ تى فى » حاكم اقليم الكاب الذى عاش أيام بيت أهناسية وكان مواليا لملوكها . وقد نجح فى الاستيلاء على اقليم ادفو وحاول السيطرة على اقليم أسوان . ولكن طيبة التى بدأت تقوى حينذاك عقدت تحالفا مع قفط نجحت من خلاله فى السيطرة على اقليمه . انظر :
J. Vandier, Le Bombe d'Ankhtife à Moolla, Le Caire 1995.

ويجدر بنا أن نشير هنا الى قلة معلوماتنا عن طيبة قبل أن تعلو مكانتها أبان العصر الأهناسى ، وليس لدينا من آثار طيبة قبل ذلك العصر سوى ترابة

خمسين مقبرة حجرية محدودة القيمة التاريخية ، كما أنه ليس لدينا من أيام الفترة الأولى من العصر المتوسط الأول غير بضعة نقوش تحوى ثلاثة أسماء لحكام لهم صلة بأسرة انتف التى أسست الأسرة الحادية عشرة الطيبية ، واحتضنت ذلك الصراع الطويل مع ملوك أهناسية .

(١١) Wè Schenkel, Demphis-Herapleopolis Theben, epegraphishen Zeugnessedes 7 — 11 Dynastie Agyptens, Weisbade 1956.

(١٢) من أحدث الكتب التى تناولت الأدب المصرى القديم :

— J. Priticfard (ed) Ancient near Easkrn Texts relded to the Oold Jestament, Princetion, 1969.

وقد قام بترجمة جانب منه د. عبد الحميد زايد وراجعه د. محمد جمال الدين مختار . عضوان : نصوص الشرق الأولى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٨٣ .

— N. Lichtheim's, Ancient Egyptian Literatue, Vol 1 The Oold and Middle Kingdoms, Beslecly, 1970.

— WèKè Simpson (ed.) , The Lilarture of Ancient Egypt, New Heaven and London, 1973.

— O. Laluttes Textes, sacrés et texles profanes, de l'ancénne Egypte des pharaone et deshmmes, Paris, 1985,

وقد ترجم الى اللغة العربية

د. سليم حسن . الأدب المصرى القديم ــ القاهرة .

د. أحمد عبد الحميد . الأدب المصرى القديم ــ القاهرة .

(١٣) يعتبره العديد من المؤرخين الملك خيتى الثانى وان كان موقعه بين ملوك أهناسية مازال موضع نقاش .

(١٤) H. Winclovk; The Rise and Fall of the Middle Kingdom, in Thebes, New York, -974.

(١٥) Wè Hays, The Middle Kingdom in Egypt, (CAHI, CAH XV, Cambrdge, 1976.

(١٦) على الرغم من أن ملوك هـذه الأسرة قد تسموا جميعا باسمى « انتف » و « منتوحتب » فاننا لم نعثر على نصـوص أو قرائن تاريخية تسمح لنا بترتيب هؤلاء الملوك ترتيبا تتابعيا مؤكدا ولذا فقد عمدنا الى كتابة اسمين لكل ملك لتسهيل التفريق بينهم .

(١٧) هناك من يخالف هذا الرأى معتقدا أنه قد سبق انتف الأول حاكم آخر لم يدع الملكية أيضا اسمه « منتوحتب الأول » انظر :

N. Grémal, Heslotre de l'Egypté, Ancienne, Paris, 1938.

وقد ترجم الى العربية .

نقولا حريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتى ، مراجعة زكية طبوزادة .

J. Vandier, La Femaine, dans lêEgypte Ancienne, Le Caire, 1936, P. 111.

(١٩) يسميه العديد من العلماء منتوحتب الثانى نتيجة لاختلافهم فيما يتعلق بترتيبه وموقعه بين ملوك هذه الأسرة .

(٢٠) H.J. Fischer Insceptions from htc Coptionome Dynasties VI ... XI Andecte, Drientalia 40, Rome, PP. 112 — 118.

(٢١) فرق المصريون القدماء بين «وأوات » أى النوبة السفلى أو المصرية أو الشمالية و « كوش » أى النوبة العليا أو السودانية أو الجنوبية .

(٢٢) W.S. Smith, The Fortress of Bufen — the inscription, London, 1976.

(٢٣) هناك تعارض بين آراء العلماء فى هذا الشأن .

(٢٤) أقام ستنحوت مهندس حتشبسوت خامس ملوك الأسرة الـ ١٨ معبدها فى الشمال منذ مستخدما نفس الطراز .

(٢٥) انظر

— E. Nairlle, Deir El Bafari I, London, 1907.
— A. Arnold, Der Temfel des Kanegs Mentoris, von Deir El Baferi, I, II, Maing, 1971.

(٢٦) — T.G. James The Herapachte Pafey and other Early Middle Kingdom Documents, 1961.
— R. El Sayed, Quaeques Personnage, Célétes

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ٢٢٥ — ١٩٧٨ ، ص ٣٢ — ٤٣ .

(٢٧) G. Goy on, Nouvellcs Inscreptions Rcfcstrcs de Wadi Hammam at, Paris 1957, No. 52 — 68.

(٢٨) Dumas, La Cevilization d'Egypte Pharonequic Paris, P. 405.

من الواضح أن أمنحمات قد استولى على الحكم بطريقة غامضة ، لم تتضح حتى الآن ، وربما كانت هناك صلة بينه وبين ملوك الأسرة الحادية عشرة، اذ أن ملوك الأسرة الثانيـة عشرة ، اعتبروا « انتف الكبير » جدا لهم ونصبوا له تمثالا فى الكرنك .

(٢٩) الاسكندر شارف : تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى انشـاء مدينة الاسكندرية ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ص ٩٤ .

(٣٠) حفظ لنا التاريخ أخبار بعض مؤمرات حريم القصر الملكى ، ومن بينها تلك المؤامرة التى حدثت فى عهـد الملك بيبى الأول ثـانى ملوك الأسرة السادسة ، والتى جاء ذكرها فى السيرة الشخصية « لأونى » أحد المقربين من ذلك الملك ، والذى ذكر انه قد شكل محكمة فى القصر لمحاكمة احدى الزوجـات الملكيات برئاسته ، ثم اكتفى بالاشارة الى تقديم تلك الزوجـة الى القضـاء الخاص دون أن يذكر سبب المحاكمة أو تفاصيلها أو الحكم الذى أصـدرته المحكمة . وهناك قصـة المؤامرة التى دبرتها احدى الملكات ضـد رمسيس الثالث ثانى ملوك الأسرة العشرين ، والتى أمدتنا الأوراق بكل تفاصيلها .

(٣١) يعنى اسـمه : رجل (الآلهة) القوى : وقد أطلق الاغريق على سنوسرت لفظ « سيزوستريس » ونسجوا حول هـذا الاسم قصصا خيالية وألبسوه ثوبا من البطولة يفوق بكثير ما وصلنا من أعمـال ذلك الملك أو الملك سنوسرت الثالث بعد ذلك .

(٣٢) Jregger, Op. Cit., P.P. 130, 149.

(٣٣) Jregger, Op. Cit., PP. 130, 143.

(٣٤) Dumas, Op. Cit., P. 179.

أحمد بدوى — فى موكب الشمس — جزء ٢ — ص ١٣٤ .

(٣٥) يربط البعض بين منظر هؤلاء القوم ومجىء النبى يعقوب وأهـله الى مصر ، ولكن الأبحاث الأثرية لا تقدم دليلا أو قرينة للربط بينهم وبين مجىء ابراهيم أو يعقوب الى مصر .

(٣٦) لعل هؤلاء الفراعنة العظام الأكثر أهمية هم منتوحتب الثاني من الأسرة الحادية عشرة ، وامنحمات الأول ، وسنوسرت الثالث وامنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة .

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chergeo, 1975, P.P. 136, 137. (٣٧)

وقد ترجمه المرحوم الدكتور أحمد فخرى الى اللغة العربية تحت اسم « الحضارة المصرية » .

(٣٨) ذكر الكتاب الاغريقى أن سنوسرت الثالث دخل بلاد السكيثيين ، ومعنى ذلك انه توغل فى غرب آسيا حتى البحر الأسود ويبدو أنهم قد خلطوا بين حملته وحملات ملوك الدولة الحديثة ، رغم ان الآخيرين لم يصلوا قط الى تلك الجهات ، وربما يفسر ذلك بأن سنوسرت قد بلغ فى العصور التالية حدا من العظمة والقدسية ، ترامت الى آذان هؤلاء الكتاب .

(٣٩) هناك احتمال بأنه أرسل حملة الى النوبة ربما واصلت تقدمها حتى الجندل الثالث .

(٤٠) يرجع اسم اللاهون الى تعبير مصرى قديم بمعنى فم القناة ، تسمية تدل على أن موقع اللاهون كان بالقرب من المكان الذى يترك فيه بحر يوسف وادى النيل ويتجه غربا نحو الفيوم .

أما بحيرة موريس فهو اسم أطلقه المؤرخون على هذه البحيرة ، تم من الاسم المصرى القديم الذى يعنى البحر الكبير وقد تقلصت هذه البحيرة الآن فيما يطلق عليه اسم « بحيرة قارون » .

(٤١) نسبة الى قصر اللابرنه الذى بناه الملك مينوس فى كنوسس عاصمة كريت القديمة . وقد ذكر هيرودوت (الكتاب الثانى ١٤٨ — ١٤٩) أن هذا القصر هو بناء يعجز القلم عن وصفه ويعلو على قدرة البشر وأنه كان مكونا من اثنى عشر بهوا متقابلة ، وانه قد ضم ٣٥٠٠ حجرة نصفها فوق سطح الأرض والنصف الاخر تحتها . وذكر هيرودوت أيضا أنه شاهد بنفسه الحجرات الموجودة فوق سطح الأرض أما الحجرات الموجودة تحت سطح الأرض فان المشرفين عليها لم يسمحوا له بدخولها . أما ديودور الصقلى فقد وصفه بأنه يدعو للعجب لدقة تشييده وان من يدخله لا يجد طريقه الى الخارج بسهولة ، فى حين تصور استرابو أن لكل اقليم من أقاليم مصر صالة بذلك المبنى وعلى كل فان

من الصعب التحقق مما كتبه هؤلاء الكتاب بعد أن أصبح المبنى أكداسا من الانقاض تغطى آلافا من الأمتار المربعة .

(٤٢) V. Voglinano, Medinet Kommadé, Milano

(٤٣) G. Jeguer, Deux Pyrameds de Moyen Emfire, Le Caue, 1986.

(٤٤) يسميه البعض بعصر الانتقال الثانى أو عصر الاضمحلال الثانى أسوة بتسمية العصر المتوسط الأول .

(٤٥) G Posener, Prénces et Pays d'Asie et de Nubie, Bruxelle, 1910.

(٤٦) هناك من المؤرخين من يعتقد أن عاصمة هذه الأسرة كانت منف نظرا لعثورنا على أهرامات فى جبانة الدولة القديمة قد ترجع الى ملوك من هذه الأسرة ، ويعتقد أصحاب هذا الرأى أن الملك والبلاط الملكى كانا يتحركان فى بعض الأحيان الى طيبة .

(٤٧) من المعتقد أن مانتيون قد أعطى رقما حاليا لهذه الفترة (٤٥٣ عاما للأسرة الـ ١٢ ، و١٨٤ عاما للأسرة الـ ١٤) أى بلغت مدة حكم الأسرتين ما يزيد على ستة قرون ، وهو أمر غير مقبول .

(٤٨) عثر على آثار لملوك تلك الأسرة فى منطقة الختاعنة (مركز فاقوس) وأغلب الظن أن هذه الآثار قد جلبت من منف لاستخدامها فى أعمال البناء فى عصور تالية . وتدل الآثار التى عثر عليها فى الدلتا والنوبة على أن نفوذ بعض ملوكها امتد نحو الشمال والجنوب .

(٤٩) — R. Welill, La fin du Meyen Emfire Egyptienné, Etiude Sur, les monuments et l'histoi:e de la peréode compuse entre XIIe et XIIIe dynasties, Paris, 1918.

— H. Stock, Sludien sur Jeschichte and Archöologie der 13 bes 17 Dynastie Agyptiens, Glückslâdt, 1942.

— A. Scharff, Ein Rechingsbech des Hafes ousder 13 Dynastie & AS, 57, P. 4.1

(٥٠) انظر مجموعة الملوك المسماة « سبك حتب » فى الأسرة الثالثة عشرة للدكتور أحمد محمود صابون ، الاسكندرية ١٩٨٨ .

(٥١) G. Jequuer, Deux Pyramédes du Mogen Empire, Le Caire, 1986.

(٥٢) انظر — V. Maragiogle & Runaldi, Note Sylla Pyramid de Ameny, Amu, Orientalia 37, 1968, P.P. 325 , 338.

— J. Von Becherath, Handmuchder Agyptiachen Konegsenamen, München, 1984.

(٥٣) — P. Lalib, Die Herschaft der Hghsos in Agypten, 1934.

— J. Seters, The Hyksos, 1968.

— J. Von Beckerath, Unterschungen, Sur politischen Geschechte der Zwschen zeitim Agypten, Guckstadt, 1964, P.P. 27 — 8.

(٥٤) ومع ذلك فان الآثار القليلة التى تركها الهكسوس لا تعطى معلومات كافية عنهم بعكس غيرهم من الأجانب الذين حكموا مصر كالفرس والاغريق والرومان ، أما قصة طردهم من البلاد ، فقد عثرنا لحسن الحظ فى طيبة على نصوص وكتابات أفادتنا كثيرا .

(٥٥) هناك رأى آخر يرى أن العجلات الحربية لم تستخدم الا فى اواسط أو أواخر عهد الهكسوس اذ لم تصل الينا أى اشارة الى العربات الا فى عهد كاموسا ثانى أبطال حرب التحرير كما صور المصريون فى ذلك العهد حيوانات كثيرة على الجعارين لم يكن من بينها الحصان .

(٥٦) W. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom at Thebes, New York, 1947.

الحضارة المصرية : تأليف جون ديلسون — ترجمة أحمد فخرى — القاهرة ص ٢١٨ .

(٥٧) لم يترك الهكسوس آثارا ضخمة ، وربما سبب ذلك أن المصريين قد حطموا فيما بعد ما يمت اليهم بصلة ، كما أن الظروف البيئية للدلتا وكذا تعرضها الدائم للغزو وعدم وجود محاجر بها قد ساعد على تدمير آثارها .

(٥٨) احمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٢٤١ ، وكذا د. أحمد بدوى : فى موكب الشمس ص ٢٩٢ جزء ٢ .

(٥٩) الواقع أننا لا نعرف مدى الصلة بين ملوك الهكسوس وأمراء طيبة فى تلك الفترة ، ويبدو أنهم كانوا يدفعون ضريبة لملوك الهكسوس ولكنهم تمتعوا فى نفس الوقت بقسط من الاستقلال .

(٦٠) كانت النوبة السفلى (المصرية) تابعة الملك كوش (مملكة كرما) التى كانت على درجة كبيرة من التقدم نتيجة لمزاولتها التجارة مستخدمة الدروب الصحراوية وكذلك النيل . ومما هو جدير بالذكر ما روته هذه الوثيقة من استخدام كاموسا جنودا من الميجا (ربما هم أحفاد قبائل البجة الحالية التى تقطن صحراوات افريقيا الشرقية بين هضبة الحبشة والصحراء شمالى أسوان) فى هجومه على بلدة نفروس فى مصر الوسطى المماثلة للهكسوس .

(٦١) انظر — J. Lacau, A.S.A. 39, 1939, P.P. 245 f.f.

—L' Habechi, Preliminary refort on Kamese Slel, A.S.A. 53, 1955, P.P. 195. f. f.

— M, Wainmad, Decouoerte d'une. Stela du Roi Kamosa, Chronique d'Egypte, XXX, 1955, P.P. 198 — 218.

(٦٢) لقبت أياح حتب على هذه اللوحة بلقب أم « الحاونبو » أى الكريتيين ، مما يدل على قوة العلاقات بين مصر وجزر ايجه فى ذلك الوقت ، ومما يبعث على الظن بأنهم قد ساعدوا المصريين فى حربهم مع الهكسوس .

الباب الثالث

عصر الدولة الحديثة

من ١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق٠م

بقلم : أ٠د٠ محمد ابراهيم بكر

عصر مجد مصر الحربى ·

عصر الوحدة مع أقطار الشرق العربى فى ذلك الوقت ·

عصر مجد طيبة سماها هومر بالمدينة ذات المائة باب ·

عصر الرخاء والتقدم الواسع النطاق ·

كل هذه النتائج جاءت بعد مقاومة الهكسوس ·

مطاردة الهكسوس علمت المصريين أنه لابد من القوة ومن الجيش لحماية البلاد والمحافظة عليها ·

اضطروا فى مقاومة الهكسوس الى استعمال أسلحة أخذوها عن الهكسوس فتدربوا على أساليب الحرب ·

انتصارهم على الهكسوس رد عليهم الثقة فى أنفسهم وبعث فيهم الروح الحربية ·

مطاردة الهكسوس اتاحت لهم الفرصة للتعرف على شعوب وموارد البلاد الآسيوية ويدركون أنه ممكن لهذه الشعوب أن تؤلف وحدة كبرى متكاملة مكتفية بذاتها ·

بعض المؤرخين يسمى هذه الفترة الامبراطورية المصرية ، أو عصر السيطرة العسكرية · الواقع أنها كانت أقرب الى وحدة افريقية آسيوية منها الى امبراطورية ·

لم يتدخل المصريون فى معتقدات هذه البلاد أو نظمهم وقوانينهم ولم يفرض المصريون عليهم لغتهم وتركوا الحكام الأصليين فى بلادهم ولكن المصريين اضطروا أحيانا بل كثيرا الى استخدام القوة لما كان يسود وقتذاك من فتن ومؤامرات ودسائس . هذه الوحدة الكبيرة تمثل أبرز الحوادث فى تاريخ الشرق القديم وقتئذ وقد صمدت هذه الدولة الممتدة على حد تعبير المصريين القدماء من قرن الأرض الى أطراف المياه المعكوسة وشملت مصر وشمال السودان وفلسطين وسورية ، صمدت ضد التوغل الحبشى الذى كان يشكل أكبر خطر على المنطقة وقتذاك .

نقطة أخيرة يجب ذكرها هى أن الاتصال بين جميع جيران مصر بما فى ذلك بلاد بونت وجزر البحر المتوسط وبابل والحيثيين أنفسهم لم يكن عن طريق الغزو والفتح فحسب بل كان أيضا عن طريق الصلات .

الأسـرة الثامنـة عشرة

١٥٧٥ ــ ١٣٠٨ ق٠م

تعتمد فى معرفة هؤلاء الملوك على عدة مصادر :

١ ــ مسارد الملوك ٠
٢ ــ حياة الموظفين ٠
٣ ــ آثارهم ٠
٤ ــ أوزاق البردى ٠

الملك احمس

١٥٧٥ ــ ١٥٥٠

. يعد راس عهد جديد هو عهد الدولة الحديثة ومؤسس أسرة جديدة كما ذكرنا لنا مانيتون وهى الأسرة ال ١٨ ، وهنا يتساءل البعض كيف نجعله راس أسرة جديدة وهو اخو كاموزى وابن سقن رع وهما من الأسرة ال ١٧ فى تقسيم مانيتون ؟ الواقع ان مانيتون كان منطقيا فى ذلك ، حقيقة لم يحدث تغير فى الأسرة الحاكمة ولكن عصره متميز حقا عن العصر السابق ويبدأ صفحة جديدة فى

تاريخ البلاد فأحمس متمم رسالة التحرر من الهكسوس والبطل الأخير فى حرب الاستقلال ومؤسس مجد مصر الحربى ومع ذلك فان بعض العلماء مثل شارف يضع أحمس وابنه امنحتب الأول ضمن ملوك الأسرة ال ١٧ جاعلا تحتمس مؤسس الأسرة ال ١٨ ولو أن هذا مردود عليه بأن تحتمس الأول كان من نفس العائلة ، أضف الى هذا أن المصريين أنفسهم فى حفلات تتويج الرعامسة اعتبروا أحمس على رأس عهد جديد ، فالكهنة قد حملوا فى تلك الحفلات تماثيل ملوك ثلاثة : الملك مينا وهو موحد مصر الواحدة التاريخية الأولى التى مهدت لشباب مصر الفرعونية وهو عصر الدولة القديمة ثم تمثال منتوحتب الثانى موحد مصر الوحدة التاريخية الثانية بعد عصر الاقطاع والاضمحلال والفوضى ثم أحمس وهو كما نعرف طارد الكهسوس وموحد مصر الوحدة التاريخية الثالثة ، بل ان المصريين قد قدسوا هذا الملك تقديرا منهم لأعماله وكانت عبادته ذات أهمية فى أبيدوس أكثر منها فى طيبة .

ويتكون اسم أحمس من كلمتين - اياح بمعنى القمر ومس وهى صيغة فعلية تعنى ابن القمر من الفعل ولد - وفى نفس الوقت نجد أسماء أخرى من هذه الأسرة قد احتوت على لفظ القمر مثل الملكة اياح -حتب أى القمر راضى وهى أم الملك أحمس ثم ذلك الاسم الذى انتشر فى أيام هذه الأسرة وهو تحتمس ، وتحوت كان الها للقمر كذلك .

هذه الأسماء ما زالت موضع مناقشة يحاول العلماء التعرف على السر فى ذلك وآخر الآراء تقول بأن الأسرة الحاكمة كانت مع الأشمونين أصلا وتحوت اله القمر هو معبود الأشمونين ولم يكشف من الناحية الأركولوجية « الأثرية » على آثار أحمس قبل السنة الخامسة من حكمه وهو العام الذى تم فيه طرد الهكسوس

من مصر ، ففى ذلك العام أقام لوحا كبيرا لمعبد آمون بالكرنك مجد فيه أمه اياح حتب •

حـــروب أحمس :

تحدثنا عن طرده للهكســوس ومطـاردته لهم فى شــاروهين. واعتمدنا أساسا على نص أحمس وقد حدثنا القائد الثانى « احمس ابن نخيت » أنه رافق الملك فى حربه ضد الهكسوس وبلاد زاهى « فينيقيا » ولسنا نعرف ان كان أحمس قد قام بهذه الحملة فى أعقاب حصار شاروهين ليشتت الهكسوس أم قام بها بعد مدة • ولكن ليس من شك فى أن هدف هذه الحملة كان تأمين الحدود من هجوم مفاجىء والثغور الفينيقية رغم مناعتها لم تقاوم المصريين أما عن النوبة فنحن نعرف أنه بعد أيام الدولة الوســطى انتهز النوبيون فرصــة الفوضى فى مصر وشــقوا عصـــا الطاعة فأسرع اليهم أحمس بعد قضائه على الهكســوس وقضى على الفتنة وأقام لوحــة فى توشــكا على بعد ٣٥٠ كم جنوب أسوان أشار فيها الى هــذه الحملة ولم نســمع بعد ذلك بأى محاولات ضد مصر فى النوبة بقية أيام أحمس •

اعمال أحمس السلمية :

لم يكن أحمس بطلا من أبطال الحرب فحسب وانما كان كذلك بطلا من أبطال التعمير والســلام وقضى أيام حكمه الباقية فى اصلاح البلاد وتوطيد النظام ، ونجح فى اخضاع معظم أمراء الأقاليم وجعلهم أقرب الى رجــال البلاط منهم الى حكام وراثيين ، كذلك قام بفتح المحاجر واصلاح ما هدمه الهكسوس فى المعابد وترميم المقاصير وقبل أن أختم حديثنا عن أحمس لابد أن نشــير الى سيدة ثالثة من أولئك العظيمات اللاتى لعبن دورا مهما فى مجريات الأمور فى ذلك الوقت ، تلك السيدة هى زوجة « أحموسا نفرتارى » وقد ظل نفوذ هذه

السيدة قويا أيام ابنها أمنحتب الأول وقد بذلت جهدا كبيرا فى معونته عندما كان صغيرا ، وقد نظر اليها المصريون منذ أواخر الأسرة ال ١٨ حتى نهاية الدولة الحديثة كمعبودة وأقاموا لها معبدا فى طيبة وجعلوا منها وابنها أمنحتب الهين حاميين للجبانة واعتاد الناس تمثيلهما على جدران المعابد وكان يلون وجهها بلون أسود وأحيانا باللون الأزرق لأسباب غير معروفة وعلى كل حال فتقاطيعها لا تدل على أية ملامح زنجية ، وقد مات أحمس فى سن مبكرة ودفن فى قبر فى طيبة لم يعثر عليه بعد وان كانت مومياؤه قد عثر عليها وقد قدر عالم انجليزى عمر أحمس بأربعين سنة ، وما هو جدير بالاشارة أن أمه اياح حتب قد عاشت عشر سنوات بعد وفاته ، ويجب أن نذكر هنا أننا قد عرفنا كثيرا من المقابر لموظفيه وقواده ومنها نستمد الجانب الأكبر من معلوماتنا عنه ، وهكذا توفى أحمس بعد أن طرد الهكسوس وطهر البلاد من الاحتلال وأصلح ما أفسده المحتلون ووحد سلطة العرش المركزى .

أمنحتب الأول

١٥٥٠ ــ ١٥٢٨ ق٠م

اربعة ملوك من هذه الأسرة تسموا باسم آمنحتب ومعناه :

آمون راض ، أما التسمية اليونانيـة أمنونيس فكانت فى الأصل أمنوتس وفى العصر المتأخر أمنوفيس وهو ثالث أبناء أحمس من زوجته أحمس نفرتارى وقد ساعدته وتولت الوصاية عليه أمه وهو صغير كما حدث لأبيه مع اياح حتب وقد ورث أمنحتب صفات أبيه وجده وسار على منوالها سـواء فى الداخل أو فى الخـارج ولقد بالغ المصريون فى التحدث عن قوته البدنيـة حتى لقد صـوّر وهو يمسك أسدا من ذيله ثم يرفعه فى سرعة خاطفه ليقضى عليـه وهو أمر ولو انه موضع شك كبير فانه قد يرمز الى قوته البدنيـة الخارقة ٠ وقد ظل عمال الجبانة قرونا عدة يقيمون مقاصير العبادة ويقدمون له القرابين كما كان هنـاك تقليد خاص وهو أن كهنـة معبده كانوا من العمال أنفسهم وقد سمى المصريون باسمه شهرا من شهور العام كان يقع فيه الاحتفال بذكراه وهو شهر من شهور التقويم القبطى يسمى برمهات ، ولم يقف تقديسه عند طوائف العمال فحسب وانما قدسه أيضا نفر من علية القوم ولدينـا أثر من أحد الكهان الكبار يدعى « حوى » يقدس فيه أمنوفيس وأمه أحموسنـا نفرتارى وأباه أحمس ٠

ويعتقد العالم شرنى Cerny أن هذا الملك قد اعتنى بطوائف العمال ووضع لهم نظام العمل وقدم لهم أرزاقهم ومن تم جاء تقديرهم له .

أعماله العسكرية :

سار أمنحتب الأول على نهج أبيه فى اتجاهاته العسكرية مع اختلاف بسيط . فمن قبل كان الهدف اعادة حدوده الى أصلها ولكن الآن نشأت الرغبة فى توسيع الحدود والواقع أن عهده كان منتظرا أن يكون عهد سلام وهدوء بعد جهاد أسلافه ولكن مما لاشك فيه أنه قد قام ببعض أعمال حربية ومعلوماتنا عن حروبه استقيناها من أخبار حياة القائدين « أحمس بن أبانه ، وأحمس بن نخبيت » ويبدو أن الجيوش المصرية وصلت وقتذاك الى قرب نهر الفرات لأن الملك تحتمس الأول الذى أعقبه افتخر فى السنة الثانية من حكمه بأن مملكته كانت قد امتدت الى الفرات وكان وقتذاك لم يقم بأى حملة على آسيا . بعد ذلك يبدو أنه حارب الليبيين كما يفهم من نص أحمس بن نخبيت ، ويبدو أن الليبيين قد اغتنموا فرصة وجود الهكسوس فى مصر فنظموا أنفسهم لغزو الدلتا مما اضطر أمنحتب الأول الى سحقهم . أما عن النوبة فنحن نعرف أن أحمس الأول كان قد نجح فى اخضاع العصاة ببلاد النوبة وفى تأمين حدود مصر الجنوبية وتوطيد الأمن بتلك المنطقة ، أما أمنحتب الأول فقد عمد الى غزو النوبة لتوسيع حدود مصر فى تلك المنطقة فقد ذكر أحمس بن أبانه فى سيرة حياته أنه سافر مع ملك الوجهين القبلى والبحرى أمنحتب الأول عندما اتجه الى الجنوب قاصدا كوش لتوسيع حدود مصر ، وهذا التعبير الأخير يدل على التصميم على فتح

النوبــة والسيطرة عليهــا ويبدو أن اقامــة أمنحتب الأول باقليم الشلال الثانى لم تطل ويبدو أنه اضطر للرجوع مسرعا حتى لقد ذكر أحمس بن أبانه مفتخرا بأنه قد نقل الملك فى سفينة من الشلال الثــانى الى مصر فى يومين وعلى كل حــال فيبدو أن أمنحتب لم يستمر فى حروبه وتنا طويلا فقد كانت الحــالة هادئة والجو يبشر بالسلام وقد أخذ يعمر المعابد واهتم بوجه خاص بالكرنك حيث أقام هيكلا أو مقصــورة من المرمر أعيد تركيبــه فى السنوات الأخيرة كذلك شيد معبدا صغيرا فى الدير البحرى ووجــدت له آثــار فى أبيدوس وكوم امبو والكاب وغيرها ، أما قبره فنحن لم نعثر عليــه حتى الآن ولكن تبعا لبردية « آبوت » فقد زارت لجنــة الرقابة والفحص أيام رمسيس التاســع قبر أمنحتب الأول وذكرت أنه كان قبرا عميقا بلغ عمقه حوالى ١٢٠ ذراعا أى حوالى ٦٠ مترا وتبعا لوصف تلك البردية يكون هــذا القبر هو الذى اكتشفه كارنافون عام ١٩١٤ بذراع أبو النجا ويقع على بعد ٨٠٠ متر من معبــده الجنائزى الذى سبق اكتشافه فى عام ١٨٩٦ فى الطرف الجنوبى لجبانة طيبة وعثر على تمثال لهذا الملك بالمتحف المصرى الآن وهنا يجدر بنا مناقشة موضوعين فى هذا الصدد ، أما الأول ففهم من بردية آبوت أن قبر هذا الملك كان عميقا عمقا لم نألفه من قبل بين القبور فى مصر القديمة وقد ربط بعض العلماء بين عمق هذا القبر وتقديس عمال الجبانة لهذا الملك فهو أول من فكر فى هذه المقابر العميقــة وبذا أوجد عملا لهذه الطائفة من العمــال التى تخصصت فى نحت القبور ، وأما الموضوع الثانى فهو فصل هذا القبر عن المعبد فيكون أمنحتب الأول أول من فكر فى فصل القبر عن المعبد حتى لايعرف اللصوص مكان القبر وقد عثر على تابوت هذا الملك الخشبى على هيئة آدمى فى خبيئة الدير البحرى ووجدت الجثة فيه ملفوفة فى

أكفانها دون أن تمس وقد غطيت بالزهر ، وهكذا هذا الملك بعد أن حكم أكثر من ٢٠ عاما أتبع فيها سياسة انشائية زادت من رخـاء البـلاد وعمرتهـا بالمعابد ، مات دون أن يترك ولدا يخلفـه على العرش مخلفـا أميرا من العائلة تمكن من الاسـتيلاء على العـرش بعد فترة من الاضطرابات وهو تحتمس • وعلى كل حال عند موت هذا الملك كانت الدولة الحديثة قد استقرت أمورها واستمرت من بعده وطيدة الأركان قرابة قرن ونصف •

تحتمس الأول

١٥٢٨ ــ ١٥١٠ ق٠م

لم يكن عند اعتلائه العرش صغير سن كمن سبقوه بل كان رجلا مكتمل الرجولة قد جاوز الأربعين عاما وكان عصره ايذانا ببداية عهد جديد هو عهد تسيير الجيوش المصرية على نطاق واسع الى الخارج ٠ فهو فى الواقع أول من خطا الخطوة الكبرى فى سبيل تشييد دولة واسعة وعمل على بسط نفوذ مصر فى الشمال والجنوب والواقع أن سيرة الرجل وما كان له من صفات تدل على ميله لأعمال البطولة والحرب واستئناف جهاد اسلافه وكذا ميله الى التعمير والأعمال السلمية ٠

لم يتأكد العلماء حتى الآن من نسب تحتمس الأول فبعضهم يرى أنه ابن أمنحتب من احدى زوجاته الثانويات وبعضهم يرى أنه ابن أحمس الأول من أحموسا نفرتارى وفريق يرى أنه أحد أقرباء أمنحتب البعيدين وأنه قد نجح فى الاستيلاء على العرش ثم تزوج من أحموسا بنت أمنحتب الأول ليصبغ حكمه بالصبغة الشرعية ٠ وقد كان لاعلان توليه الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفو الحكومة مرسوم التتويج في وادى حلفا وغيرها من مناطق النوبة ، وفى المرسوم الذى نقش بوادى حلفا مثل الملك وقد وقفت

من ورائه زوجته أحموسا ثم الملكة أحموسا نفرتارى التى كانت لها مكانة كبيرة فى هـذا العهد وفى رسمه لها معه ما يدل على أنهـا راضية عنه · ويظهر أن النوبيين لم يكونوا قد تلقوا درسا منذ وقت طويل فأخذوا يقومون بالقـلاقل والاضطرابات وأحس تحتمس بتهديد مباشر لحدوده الجنوبيـة فقـام فى العام الثانى من حكمـه بحملة برية نهرية سجل أخبارها القائد أحمس بن أبانة الذى ذكر أنه رافق الملك لمعاقبة الثوار وذكر أنه استطاع أن يقود الأسطول بعد تطهير القناة التى شقها سنوسرت الثالث فى الجندل الأول من الطمى الذى تجمع نتيجة اهمـال تطهيرها فى أيام الهكسوس ، وقد هزمت هذه الحملة النوبيين وترك تحتمس الأول عند « تومبى » عند الجندل الثالث ، لوحة ذكر فيها أنه المهيمن على الأراضى الشاسعة الممتدة من تومبى جنوبا الى الفرات شـمالا ، كما بنى قلعة هنـاك لاتزال آثارها باقية وقد سجل أحمس بن نخبت على مقبرتة نصوصا تشير الى هذه الحملة ·

كذلك حدثنـا نائب الملك فى أقـاليم الجنوب بأن فرعـون قد أعـاد حفر قناة سنوسرت ثم عـاد عن طريقها بعد أن قتل أعداءه وكان ذلك فى العام الثالث من أعوام حكمه · على كل حال نستنتج مما سبق أن الملك لم يكد يتولى العرش حتى سار على رأس جيش الى جنوب الوادى وطارد الثوار حتى وصل الى الشلال الثالث · كما تدل شـواهد الأمور على أن تلك الثورات لم تكن بالشديدة الخطر ولم تستغرق من فرعون أكثر من عام ·

هـكذا اسـتطاع تحتمس الأول عقب توليـه العرش تثبيت حـدوده عند الجنـدل الثـالث واسـتطاع أن يضـمن هـدوءا نسبيـا عنـد الجنوب كمـا اصطبغت تلك البـلاد بالحضـارة المصريـة التى أخـذت تقهر الحضـارة المحليـة ، ثم توجـه

تحتمس الأول بعد حملتــه فى النوبة للقضاء على القلاقل فى سورية والمصدر الوحيد عن تلك الحروب هى أخبار القائدين المعروفين باسم أحمس اللذين اشتركا فى تلك الحملة ، وقد ذكرا أن الجيوش المصرية لم تقابل بصعوبات بجبهة قادش وتمكنت من الوصــول الى بلاد نهارين « ميتانى » بين الفرات والعاص ــ اسم نهارين جاء فى النصوص المصرية وهى البلاد الممتدة بين نهرى الفرات والعاص ــ وقد ذكر هذان القائدان أنهما قد أظهرا شجاعــة كبيرة كالعــادة والمعروف أن خدمــة أحمس بن أبانــة انتهــت فى تلك المعــركة أما أحمس بن نخيت فقد حارب مع تحتمس الثانى ونال احتراما كبيرا فى عهد تحتمس الثالث وقد دون تحتمس الأول على لوحــة كبيرة نصبها عند كركمش « قرقيمش » كيف وصلت حدود بلاده فى آســيا الغربية الى ضفة الفرات ، ولم نعثر على هذه اللوحة ولكن قدر لحفيد تحتمس الثالث أن يعثر عليها بعد ذلك ب ٥٠ عامــا ويشير اليها فى لوحة أقامها هنــاك وقد انتهت هذه الحملات بانتصار المصريين وعــاد الجيش المصرى بطوائف كثيرة من الأسرى وغنائم الحرب • هكذا حقق هذا الملك بعد سنة واحدة ما افتخر به على لوحة تومبس ونعتقد أن مصر فى ذلك الوقت لم تحتــل الأقاليم الآسيوية احتلالا عسكريا بل اكتفت بالجزية • كذلك أغار الليبيون فى عهده على حدود مصر الغربيــة فحمل عليهم بجيش وظل يقاتلهم حتى شردهم •

امتاز هذا العصر بتمتع البلاد بخيرات كثيرة وبزيادة موارد الدولة نتيجة الغنائم والجزية والهدايا مما ســاعد على اصــلاح ما أتلف منذ عهد الهكسوس ، وقد أخذ الفراعنة فى اعادة بناء وتوسيع الكرنك لشكر الاله آمون على ما أحرزه من نصر وقد زاد تحتمس الأول المعبد المتواضــع ــ الذى كان قائما منذ أيام الأسرة ال ١٢ والذى أعادت مصلحــة الآثار تشييده ــ وبنى أمامه مسلتين من

الجرانيت ما زالت احداهما قائمة فى مكانها الى الآن كما أقام الصرح الرابع وشيد بهوا كبيرا عثر على بعض أعمدته تحت أرضية المعبد •

كانت لتحتمس زوجتان احداهما الزوجة الشرعية أحموسا وتسمى الزوجة الملكية العظيمة التى ماتت أثناء حكمه وهى أم حتشبسوت والثانية تدعى (موت نوت) وقد أنجب منها تحتمس الثانى وكانت لتحتمس زوجات أخريات ، كما كان له أولاد عديدون فله ولدان صورا على قبر (باحدى) حاكم مدينة الكاب وقبر هذا الحاكم يعد من القبور الفخمة التى أعطتنا فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى عهد هذا الملك وقد كان والد هذا الحاكم مربيا لهذين الملكين الحاكمين وقد حمل شخص اسمه امنحتب لقب الابن الملكى لتحتمس ولكنه لم يكن أبنا ملكيا حقيقيا وقد شغل وظيفة الكاهن وعندما توفى تحتمس دفن فى قبره فى وادى الملوك (تحمل الآن رقم « ٨٨ ») أما جثته فقد عثر عليها فى مخبأ الدير البحرى ولم نعثر بعد على معبد تحتمس الأول الجنائزى • وعلى كل حال فقد بنيت له حتشبسوت مقصورة جنائزية فى معبد الدير البحرى ، وقد ذكر المهندس انيتى فى مقبرته بغرب طيبة كيف كلفه الملك بالبحث عن مكان فى البر الغربى أمام الأقصر يكون مقرا صالحا لقبره ، اذ فضل هذا الملك أن يدفن فى مكان خفى بعيد عن العيون وقد ذكر انيتى انه أثناء ذلك العمل كان وحيدا لم تقع عليه عين انسان ولم يسمع به أحد وقد أضحى هذا الوادى المكان الذى دفن فيه معظم ملوك الدولة الحديثة والذى نسميه الآن وادى الملوك •

تحتمس الثانى
١٥١٠ ــ ١٤٩٠ ق٠م

يغلب على الظن انه لم يعمر من أولاد تحتمس سوى ولد يحمل اسم أبيه من الزوجة الثانوية « موت نفرت » وهو الذى اصبح تحتمس الثانى وتزوج من حتشبسوت ليصبح ملكا شرعيا وهكذا تولى الحكم بنفس الطريقة التى تولى بها أبوه ٠

تحتمس

تزوج من	تزوج من	تزوج من
ايزيس	موت نفر	أحموسا
أنجب	أنجب	أنجب
تحتمس	تحتمس	حتشبسوت

منذ بداية حكم هذا الملك دب الخلاف بينه وبين حتشبسوت اذ كان الفارق بينهما كبيرا فكان تحتمس الثانى معتل الصحة ضعيف الشخصية دفعته الظروف الى اعتلاء العرش دفعا بينما كانت حتشبسوت فتاة طموحا قوية الشخصية ورثت الصفات الشخصية لنساء هذه الأسرة وكانت تتطلع الى الاستئثار بالملك وجعلت من تحتمس الثانى فرعونا رمزيا وقد أشار أنيتي الى اعتلاء تحتمس الثانى العرش حين قال أنه بعد وفاة تحتمس الأول تولى ولده

تحتمس الثانى فأصبح ملكا على أرض الســواد « مصر » كمــا سيطر على الأرض الحمراء ـ الصحراء ـ ثم ذكر أنه فى بداية عهده بلغ سن الشيخوخة وأنه كان له حظوة من قبل فى بلاد ذلك الفرعون وأنه نال على يد هــذا الفرعون ما له ينله أحد فهو كما ذكر قد كان محظوظا فى القصر قريبــا من صاحبه يجلس معه الى الطعــام ويأكل منه وان الكل كان يتقرب اليه لاهتمــام الملك به وعلى كل حال كان نتيجة هــذا الخلاف أن انقسمت البلاد لحزبين وسادت المؤامرات والدســائس فانتهز النوبيون هــذه الفرصــة وشقوا عصا الطاعة منذ السنة الأولى من حكمه وهذه كانت عادة النوبيين فهم ينتهزون فرصة الحكم من ملك لآخر لاشعال نار الثورة • وأغلب الظن أن النوبيين قد سمعوا بالخلاف الواقع فى بيت فرعون وقد أرســل تحتمس الثانى جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور الى نصابها وقد سجل ذلك على لوح أقيم بين أسوان وفيلة ، ويزعم بعض المؤرخين أن جهود تحتمس الثانى الحربية امتدت الى الشــلال الرابع لأن اسمه وجد مسجلا على صخرة فى جبل برقل هنــاك ولكن ليس فى تسجيل الاسم أى دليل على غزو حربى ، كذلك حدثنــا أحمس بن نخبيت عن حرب خاضها أيام تحتمس الثــانى ضرب فيها البدو الذين يعيشــون على حدود فلسطين ، كذلك عثر فى أنقاض الدير البحرى على نقوش ترجع الى أيام ذلك الملك وتشير اشارات غامضة الى حملات قام بها فرعون فى بعض البقاع الســورية ، كذلك من الجائز أن تكون بعض القبائل فى الصحراء الغربية قد انتهزت فرصة النزاع على العرش فى بيت فرعون فأشعلت نيران الثورة مما اضطر الملك الى ارســال حملة حربية لاخضــاعهم يشير الى ذلك تسجيل اسم فرعون فى واحة الفرافرة المواجهة لأسيوط : وعلى كل حــال فجهود هذا الفرعون الحربية لم تكن عظيمة كأســلافه فقد كفاه أسلافه مؤنة ذلك •

هذا وتشير ظواهر الأمور الى أن ذلك الفرعون قد كان وفيا لأبيه الذى ترك آثارا لم تكمل فأتمها دون أن يسجل اسمه عليها وقد أقام بعض العمائر فى الكرنك كما وجدت له آثار فى جهات مختلفة من مصر . وقد تزوج تحتمس الثانى من زوجات أخريات بجانب حتشبسوت التى أنجبت له نفرو رع ثم مريت رع حتشبسوت وأغلب الظن أن زوجته الثانية الثانوية ايزيس قد أنجبت له ولدا هو الذى سمى فيما بعد تحتمس الثالث ولا نعرف اذا كان تحتمس الثانى قد مات موتة طبيعية أم لا ، وعلى كل حال فقد دفن فى قبر غير مزخرف بوادى الملوك وعند فحص جثته تبين أنه كان طويل القامة ولكنه لم يكن قوى البنية وكانت ملامحه جميلة تتفق مع ملامح أفراد أسرته كما لوحظ أنه كان يميل الى التأنق فأظافر قدميه مسواة بعناية ويغطى رأسه شعر مستعار مجعد تجعيدا مصطنعا يظهر طبيعيا ويدارى راسه الأصلع .

حتشبسوت

١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق٠م

هى احدى ملكات الأسرة ال ١٨ وأول ملكة حكمت البلاد مدة طويلة وهى أشهر نساء مصر القديمة وأشهر الملكات اللاتى يعرفهن التاريخ القديم وأحد الحكام العظـام الذين بنوا مجد مصر ، تميزت بنشاطها وذكائها وقوة شخصيتها وسـعة حيلتها وهى لم تستخدم سلاحا طوال مدة حكمها ولم تحمل سيفا ولكنها فى نفس الوقت كانت تمسك بزمام الموقف فى أحرج اللحظات دون أن يكون لها سـلاح سوى العزيمة الصادقة والحيلة النيرة والأنوثة الذكية وسيرة حياتها وآثارها وتماثيلها تنطق بالعظمـة وقوة الشخصية ، ولقد وصفتها نصوص معبد الدير البحرى وصفا شعريا رائعا حين سجلت قصـة مولدها اذ يقول النص : لقد كانت جميلة جمالا فريدا لقد كان النظر اليها أمتع من النظر الى أى شىء آخر لقد كانت فى صورة قديسـة وقد كانت تتصرف كالآلهة ولها روعة الآلهة وبهاؤهم ٠

توليها الحـكم :

كان تحتمس الأول قد تزوج من أمـيرة ذات دم ملـكى هى أحموسـا خلف منها ولدين هما آمون مس ، وواج مس وبنتين بيت نفرد ، وحتشبسوت ماتوا جميعـا عدا الأخيرة وكانت له زوجـة

ثانوية هى موت نفر خلف منها تحتمس الثانى الذى اشترك مع حتشبسوت ليصبح ملكا شرعيا وبعد موت تحتمس الثانى بدأ صراع رهيب على العرش بين حتشبسوت وأمير ملكى صغير السن فى الـ ١٦ من عمره هو الذى عرف فيما بعد باسم تحتمس الثالث وقد اختلف العلماء فى من هو أبوه ؟ • البعض يعتقد أنه تحتمس الأول فيكون أخا لحتشبسوت والبعض يعتقد أن أباه هو تحتمس الثانى فيكون ابن أخى حتشبسوت « تسمى هذه مشكلة التحامه » •

ويزعم تحتمس الثالث أن تحتمس الثانى أوصى بالعرش له كما يؤيده كهنة آمون ودبرت له حادثة الوحى بالكرنك ومن ناحية أخرى هناك امرأة مكتملة العمر وافرة التجربة هى حتشبسوت من أبوين ذوى دم ملكى تزعم أن والدها تحتمس الأول قد أوصى بها ملكة على البلاد بل انها تقول ان أباها الحقيقى هو آمون الذى تقمص شخصية تحتمس الأول فكان يؤيدها حزب كبير من كبار الموظفين وقد اضطرت الظروف حتشبسوت الى مشاركة تحتمس الثالث الحكم ولكنها كانت مشاركة صورية اذ ما لبثت حتشبسوت أن انفردت بالحكم تقريبا وقد زوجت تحتمس الثالث من ابنتها وسيطرت على الاثنين معتمدة على صغر سنهما ودمائهما الملكية وحزبها القوى •

قصة ولادة حتشبسوت :

أدركت حتشبسوت عدم ارتياح الشعب لانفرادها بالحكم وارادت أن تخلع على مولدها ثوب القداسة فاخترعت قصة بنوتها لآمون وسجلت ذلك على جدران معبد الدين البحرى ، وتتابع صور هذه القصة على النحو التالى :

المنظــر الأول :

اجتماع يعقد فى السماء من الآلهة نرى فيه الاله آمون جالسا على العرش وحوله « ١٢ » من آلهة مصر يتقدمهم الاله منتو اله طيبــة القديم ثم الاله آمون اله الشمس وهــكذا قــد أعلن آمون للآلهة بولادة أميرة ستحكم مصر يكون عهدهــا عهد رخاء وســعادة وقــال :

سأوحد الأرضين •

المنظــر الثــانى :

وفيه يقوم الاله تحوت رب الحكمة والمعرفة بذكر اســم الملكة التى ستكون أما للحاكم المقبل وهى أحموسا •

المنظــر الثــالث :

يتخذ آمون شكل الملك الحاكم تحتمس الأول « يتمثل للملكة بشرا سويا ويخبرها بأن ابنتها ستصبح ملكة على مصر » ومنظر آخر فيه يصدر آمون أمره الى ختوم اله الخلق بتشكيل جسم الأميرة على عجلة فخار كما تمنح الآلهة حقت روح الحياة الى تلك الصورة ثم يتعاون ختوم وحقت على مساعدة الملكة الأم فى الولادة حتى يتم ولادة حتشبسوت • وفى لوحة أخرى نرى الملكة أحموســا تحمــل حتشبسوت فى يدها ثم نجد المعبودة حاتحور تقدم للاله آمون ابنته حتشبســوت التى لم يكن قــد رآهــا للآن وتقول له « لير ابنتــه ومحبوبته حتشبسوت كارع لها الحياة » •

وبعد ذلك يسير آمون لحتشبسوت ويضمها ويقول انها الملكة التى تعتلك عرش مصر ، ثم منظر الاله آمون يقدم الملكة للآلهة عاملا

بذلك على أن تعتلى عرش البلاد ولم تكتف حتشبسوت بذلك بل ادعت أن أباها قد أعلن بحفل كبير بالقصر الملكى أمام عظماء البلاد ورجال الدين حقها فى العرش وخاطبهم قائلا : هذه ابنتى حتشبسوت لقد عينتها ولسوف تخلفنى انها ستعتلى العرش وتأمر الناس فى كل مكان انها ستقودكم وستستمعون اليها وتتحدون تحت لوائها • ان من يظهر الخضوع لها سيسعد ومن ينطق بالسوء لها سيشقى • وكما كان تولى امرأة على كل حال من الأمور النادرة فقد عمدت حتشبسوت لكى تكسب الموقف الى تقليد الرجال فارتدت ملابسهم ووضعت اللحية المستعارة وكافة التيجان وشارات الملوك وتلقبت بألقابهم واستخدمت ضمير المذكر فى الكتابة هادفة بذلك الى ابطال أى معارضة فى هذا الشأن وايهام الناس بأن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بتولى امرأة العرش ، وقد ذكرت هذا من ناحية تحتمس الثالث فقد ذكر نص بالكرنك جميل الأسلوب كيف تولى تحتمس الثالث العرش جاء فيه أنه لم يكن الا خادما بسيطا يعمل فى معبد آمون بالكرنك وفى يوم من الأيام كان آمون يقوم بجولة فى صالة الأعمدة وتوقف أمام الأمير الصغير الذى خر على الأرض ساجدا فرفعه آمون من سجوده ووضعه على العرش وكان ذلك بحضور والده ومعنى هذا أن تحتمس الثالث عين ملكا بالوحى الالهى وهنا نتساءل هل كتب هذا النص فى أول عهده بالحكم تحت وصاية حتشبسوت أو بعد أن تولى منفردا ؟ وعلى كل حال فهو أمر مازال موضع تحقيق وهناك نص معاصر قد نعتمد عليه الى حد كبير فى تقرير تتابع الأمور فى ذلك الوقت فقد سجل المهندس العجوز « أنينى » على جدران قبره النص التالى :

« رحل الى السماء واتحد مع الآلهة تحتمس ••

« ولكن أخته الزوجة المقدسة حتشبسوت أدارت شئون البلاد وفقا لادارتها وخضعت مصر لرغبتها ولا غرابة فى ذلك فجلالتها

من النيل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة ، وقد كانت جلالتها بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية وحبل مؤخر السفينة فى البلاد الشمالية ، لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة القول المليح الذى ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا وقد جعلتنى عظيما وملأت دارى فضة وذهبا » •

ويفهم من هذا أن تحتمس الثالث قد تولى العرش بعد موت تحتمس الثانى ولكن حتشبسوت كانت هى التى تدير شئون مصر بعد وفاة تحتمس الثانى كوصية ، ويقدر المؤرخون ذلك بسبعة أعوام ثم ما لبثت أن تجاهلت تحتمس الثالث وحكمت البلاد منفردة مدة تبلغ قرابة ١٤ عاما وقد عهدت حتشبسوت الى تقليد الرجال فارتدت ملابسهم ووضعت اللحية المستعارة وكافة تيجان وشارات وعلامات الملوك وتلقبت بألقابهم واستخدمت ضمير المذكر فى الكتابة ذلك لأن المصريين كانوا ينفرون الى حد كبير من تولى امرأة العرش فأرادت تقوية مركزها وابطال أى معارضة فى هذا الشأن وايهام الناس بأن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بتولى امرأة العرش •

سياستها :

كان عصرها عصر سلام واستقرار بين عهدين اندلعت فيهما الحروب • تحاشت ارسال جنود الى الخارج • سياستها الخارجية كانت مبنية على العلاقات السياسية والثقافية ، لا على القهر والقوة • هذه السياسة الخارجية أدت الى تقدم ورفاهية داخلية فى البلاد ولكن كان لها تأثير عكسى فقد أضعفت هذه السياسة من نفوذ مصر فى غرب آسيا التى أخذ أمراؤها فى تحطيم نفوذ مصر هناك واتخذوا من مدينة قادش مركزا لهذه المؤامرات •

اهم أعمالها المعمارية :

معبد الدير البحرى « جنة آمون » ٠

المعبد على ثلاثة مدرجات تستند الى الجبل وتعلو كل منهـا الأخرى ويوصل بينهما طريق صاعد ٠ هذا المعبد كان معبدا جنائزيا لها ولأبيها تحتمس الأول ولكن عبد فيه الاله آمون وحاتحور ربة الجبانة وأنوبيس اله الموتى ٠

قلد المهنـدس هنا مقبرة منتوحتب الثانى ولكن تلاشى فيه نواحى الضعف فى بناء الأسرة الـ ١١ ٠

يعد هذا المعبد من أعظم مخلفات مصر القديمة :

١ ـ لتصميمه الفريد ٠

٢ ـ للنقوش التاريخية والسياسية والدينية المهمة المدونة عليـه ٠

من أهم النقوش المسجلة عليه بعثة بلاد بونت التى أرسلتها حتشبسوت فى السنة التاسعة من حكمها تحت قيادة رجل يدعى « نحسى » زنجى وقد سارت من طيبة فى النيل شـمالا حتى شرق الدلتـا ثم عبرت قناة وادى الطميلات التى كانت تصـل النيـل بالبحر الأحمر قرب السويس الحالية وطبعا من المعروف أنه أيام الدولة القديمة كانت السفن تسير من الموانىء على البحر الأحمر مباشرة الى بلاد بونت ولكن بعد أن حفرت القناة التى تصـل بين النيل والبحر الأحمر والتى يغلب على الظن أنها كانت أيام الدولة الوسطى فقد أصبحت السفن تسير فى النيل ثم فى تلك القنـاة التى تخترق وادى الطميلات حتى السـويس ومنها الى بلاد بونت وهذا الطريق هو الذى سلكته بعثة حتشبسوت سـواء فى الذهـاب او الاياب ٠

وكان قائد الأسطول يدعى نحسى ونراه ممثلا فى مناظر هذه

الرحـــلة ووراءه بعض جنوده وقد خرج ملك بونت ومعه زوجتـــه وأطفاله بحفـــاوة واكرام وقد استوردت هذه البعثة نباتات وحيوانات حيه ومما استحضروه معهم شجر المر واستحضروا أيضـــا البخور والكحـــل ٠

كما أحضروا حيوانات حية كالنسانيس والقردة وغير ذلك من البضـــائع كالعاج والأبنوس والذهب وجلد الفهد بل ان بعض اهالى بونت حضروا مع البعثة الى مصر وقد قدم قائد الأســـطول فى طيبة هذه الخيرات الى الملكة وقد دلت الأبحاث الحديثـــة على أن الأشجار العطرية التى أتت بها البعثة قد غرست أمام معبد الدير البحرى فى حفر ملئت بالطين وكذلك صـــورت لنا النقوش بلاد بونت بأكواخها التى ترتفع على قوائم خشبية بجوار شـــواطىء البحر كما استطاع الفنان رسم أســـماك وحيوانات البحر الأحمر بطريقة واقعية جميلة ٠ ومن مناظر هذه البعثة الجديرة بالذكر منظر ملكة بونت المترهلة التى لاشـــك أن الفنان قد بالغ فى تصـــوير جسمها البدين فجعله يتكتل شحما ولحما ويكاد أن ينثنى من ثقل ما يحمل ٠

وقد أضافت حتشبسوت بعض المبانى الى معبد الكرنك ومنها معبد الجرانيت واستخدمت أحجاره بعد أن هدمه تحتمس الثالث فى بناء صرح الملك أمنحتب الثالث وقد أقامت مسلتين كبيرتين يبلغ طول كل منهما أكثر من ٣٠ مترا ويغلب على الظن أنهما كانتـــا أطول ما أقيم من مســـلات حتى فى عصرها ولا تزال احدى المسلتين قائمة الي اليوم فى ذلك المعبد أما الثانيـــة فقد تحطمت وترقـــد قمتها على الأرض الآن وهى تتميز بصخرها وبنقوشها هـــذا بجانب مبانى حتشبسوت فى أماكن اخرى غير طيبة وفى مقدمتها معبدهـــا الصخرى فى بنى حسن وقد استلزم كل ذلك ارســـال البعثات الى وادى مغارة بطور سيناء والبحث عن المعادن والى محاجر أسوان

لجلب الجرانيت وقد اعتمدت حتشبسوت فى فترة حكمها على طائفة من الرجال الأقوياء المخلصين وفقت فى اختيارهم ومنحتهم ثقتها فساندوها وعاونوها وساعدوها على التغلب على الصعاب والقبض على الأمور بيد حاسمة قرابة عشرين عاما وكان على رأس هؤلاء الرجال شخصية عصامية « بنى نفسه بنفسه » غير معتمد على حسب أو نسب وهى شخصية المهندس المعمارى الكبير « سنحوت » الرجل الأول فى عهد حتشبسوت وقد كان سنحوت صاحب خطوة كبيرة لدى الملكة التي ولته أعلى مناصب الدولة بعد أن اكتسب ثقتها وعطفها واذا جاز أن نصدق ما ادعاه سنحوت فقد كان المسئول عن كافة المنشآت الملكية فى طيبة وهو الذى بنى لها معبدها العظيم بالدير البحرى وأقام لها مسلتها بالكرنك وقص قصة تلك المسلات على جدران معبد الدير البحرى وقد عهدت حتشبسوت فيما عهدت الى سنحوت من أعمال تربية ابنتها الكبرى نفرو رع التى نجدها ممثلة فيما لا يقل عن ستة من تماثيل سنحوت العشرة وقد حملها على ركبتيه أو بين ذراعيه لذا لقب بوالد هذه الأميرة ومربيها العظيم ٠

وقد وصف سنحوت نفسه على جدران مقبرته قائلا انى كبير الكبراء فى البلاد ٠ ويرجع الى فى تصديق كافة شئون الدولة ٠ انى أشرف على موارد الشمال والجنوب وكل ما يأتى الى مصر من البلاد الأجنبية ٠ لقد صرت عظيما عظمة لايستطيع القلم أن يصورها وسأحدثكم عن ذلك أيها الناس استمعوا الى وأصغوا الى ما صنعت من خير ٠ ومع ذلك فلا نقابل على الآثار اسم هذا العبقرى الا لماما اذ محاه تحتمس الثالث عندما تولى العرش منفردا بعد وفاة حتشبسوت ٠ وهناك رسم وحيد لهذا الرجل أفلت من التهشيم يبدو كأنه رسم كروكى وهو مع ذلك معبر حى عن التقاطيع « هذا الرسم فى مقبرته » ٠

ويوجد بمتاحف العالم الكثير من تماثيل هذا المهندس وهو يحمل ابنة حتشبسوت الكبرى نفرو رع ٠ منها تمثال من الجرانيت الرمادى عثر عليه عام ١٩٠٤ بالكرنك وهو معروض الآن فى متحف القاهرة ونراه فيه متربعا متنسدتا بردائه واضعا نفرو رع بين ركبتيه ويفتخر سنحوت فى النص المحفور فى مقدمة التمثال بما فيه « صفاته » قائلا :

« لقد كنت أعظم العظماء فى الأرض كلها ٠ لقد كنت صادقا غير متحيز حتى أرضى مولاى سيد الأرضين ٠ لقد كنت داخل القصر محبوبا وأنطلق منه مرضيا عنى ، لقد كنت كبير الكبراء وعظيم العظماء أنا سنحوت الصديق الموثوق به لدى الملك » ٠

وهناك تمثال آخر من الجرانيت الرمادى عثر عليه عام ١٩٠٤ وهو بمتحف القاهرة يمثل سنحوت راكعا على احدى ساقيه حاملا على حجره الأميرة فى شكل طفلة صغيرة تضع اصبعها فى فمها كذلك هناك تمثال من الجرانيت الرمادى أيضا بمتحف لندن الآن نرى فيه سنحوت جالسا جلسة عادية حاملا ابنة حتشبسوت وقد أحاطها بردائه ٠ أما تمثال سنحوت بمتحف التاريخ الطبيعى « متحف فيلد بشيكاغو » فهو من الجرانيت الرمادى أيضا يمثله واقفا يخطو الى الأمام وقد حمل الأميرة الطفلة بين ذراعيه وقد أمسكت بالصولجان فى يدها اليسرى وقابضة باليد اليمنى على كتف سنحوت وهناك تمثال سنحوت ممسك بحبل المساحة ٠ وكبقية تماثيل سنحوت قد أصاب التمثال تهشيم فى الوجه وقد عثر لسنحوت على مقبرتين احداهما شيدها عندما كان موظفا عاديا على الطراز الخاص بهذا العصر وكانت مناظرها جميلة ملونة ولكنها هشمت تماما ويغلب على الظن أن ذلك قد حدث بعد تولى تحتمس الثالث الملك منفردا أما مقبرته الثانية فقد كشف عنها أخيرا أثناء أعمال الحفر والتنقيب التى قامت بها بعثة متحف المتروبوليتان بمنطقة الدير

البحرى وهى تقع قريبا من المعبد وتتميز برســوم تطابق الرسوم التى كانت وقفا على الملوك ، ومن أشهر تلك الرسوم رسم فلكى يعد أقدم خرائط الســماء التى عثر عليها بين آثار قدماء المصريين وهذه المقبرة بالذات لم ينته العمــل فيها كما انهــا لم تستخدم للدفن ويرى البعض أن هــذه المقبرة الضخمة المتميزة دليل فى حد ذاتها على أن سنحوت كان يأمل أن يكون زوجا لملكة مصر ولذا يعدونه رجلا وصوليا نهازا للفرص وهبته الطبيعة من قوة العقل وبعد النظر ما جعله يقفز من ساحة الشعب الى مشارف القصر الملكى وهو لم يضيــع وقتا فى اكتساب مودتها لأن زمام الدولة كان فى يدها غير أن القدر كعادته قد أعد لمثل هذه الأحلام بالسيادة والسيطرة خاتمــة مؤسفة وقبل الأوان ، بل ان بعض العلماء يرى أن تحتمس الثالث لم يكن له يد فى تلك النهاية وينسبونها الى حتشبسوت نفسها وهم يعتقدون أن الملكة قد أدركت مقدار ما وصــل اليه الرجل من قوة ونفوذ واتســاع ســلطان وأنهــا قــد خشيت خطره وزهــدت فيه فطردته من خدمتهــا وربما توقع سنحوت بذكائه مثل هــذه النهاية فقد رسم نفسه سرا فى معبد الدير البحرى أكثر من مرة وهو يتعبد وقد حرص على أن تكون رسومه خلف الأبواب فلا يراها الناظر عندما تنفتح ومع ذلك فلم ينس الحزب الذى فاز أن يحطم هــذه الرسوم وأن يدمر مقبرة سنحوت بالدير البحرى .

ومن معاونى حتشبسوت سيمن شقيق سنحوت الذى أشرف على تربيــة ابنتها الثانيــة مريت رع حتشبسوت ثم هنــاك حابو سينب ، ومن ألقابه :

الــرئيس الكبــير لكهنــة الشــمال والجنــوب . الذى كان وزيــرا ورئيســا لكهنــة آمــون وقــد كان صــاحب شخصية مهمة يسيطر على الشئون الدينية والدنيوية فى نفس الوقت، ومن رجال حتشبسوت كان تحوت « حجوتى » وزير الخزانة وتحس

قائد الأسطول فى حملة بونت • وبوحى أن رع ثانى كهان آمون مدير أعمال الملكة،وأمنوفيس من كبار رجال الدين وقد اختفت حتشبسوت فجأة من مسرح التاريخ حتىّ مومياء هــذه الملكة لم يعثر عليهــا وان كان من المحقق أنها قد حفرت مقبرة لنفسها بجوار الدير البحرى ولابد أن نهاية هــذه الملكة العظيمة كانت محزنة ولا نعرف الى الآن اذا كانت ماتت ميتة طبيعية أو قتلت أو عزلت وكما ذكرنـــا سابقـــا كانت مقبرتها خلوا من جثتها وان كان قد عثر بهـــا على تابوت باسم تحتمس الأول وتابوت آخر بجواره لحتشبسوت خال من الجثة أيضا وقد عمد تحتمس بعد وفاتها ــ رغم أنه كان فى أغلب الظن ابن أخيها ثم زوج ابنتها ثم شريكها فى الحكم ثم خليفتها ــ عمد الى تهشيم تماثيلها التى عثر على عشرات منها تمثلها واقفة أو راكعة تقدم القرابين أو على شكل أبو الهول مهشمة بجوار معبـــد الدير البحرى وقد أمكن جمع الكثير من أجزائها وترميمها وهى الآن بالمتحف المصرى وبمتحف المتروبوليتان • كذلك عمد الى تحطيم آثارها واغفال « اخفاء » تاريخها ومحو اسمها والتنكيل بأنصارها وكان ذلك حقدا منه عليها وقد جعلت منه أثناء مشاركتها فى الحكم دمية ليس لها أى قيمة • لقد جعلت ذلك الملك الذى لعب بعد أن انفرد بالحكم دورا خطيرا فى دول الشرق ، جعلته مغمورا لا حول له ولا قوة وقد لقيت حتشبسوت من حقد تحتمس الثالث بعد وفاتها وبعد أن أصبحت لا تستطيع الدفاع عن نفسها أضعاف ما لقيه هو أثناء حياتها ، فقد كانت التمـــاثيل ضرورية فى حيـــاة المصريين ليحيا الانسان حيـــاة أخرى فأراد أن يحرمها تلك الحياة ومع ذلك فان تلك الأعمـــال التخريبية التى تعد وصمة عار فى جبينه لم توصله الى شىء فقد بقيت حتشبسوت رغم ذلك خـــالدة على مر الأيام والســـنين ولم تتمـــكن أى قوة مهمـــا كانت من محو ذكراها التى بقيت خالدة حتى اليوم •

تحتمس الثالث ١٤٩٠ ــ ١٤٣٦
١٤٦٨ ــ ١٤٣٦

هنـــاك فارق كبير بين السياســـتين اللتين اتبعتهمـــا كل من حتشبسوت وتحتمس فالأولى كانت سياستها سلميـــة تهدف الى تقديم أمجـــاد فى الداخل بدلا من انتصارات فى الخـــارج ، سياســـة سلمية أساسها تقوية أواصر المودة بينها وبين الأصدقاء القدماء بدلا من التشاحن مع أعداء جدد ، سياسة تهدف الى العودة الى سياسة مصر القديمة المسالمـــة المتسامحة ويمكن أن نقول فى عبارة أخرى انها سياسة تنشط رقيا وتقدما داخليا دون الاهتمام كثيرا بالخارج ولذا اهتمت باقامة العمائر والنهضـــة باقتصاد البلاد وقد أظهر المعاصرون من الشيوخ كثيرا من التقدير والاعجـــاب لحتشبسوت وسياستها وعملها ومن هؤلاء أحمس بن نخبيت والمهنـــدس أنينى اما تحتمس الثالث فعندما استقل بالحكم كان قد أصبح رجلا يافعا قويا له قدرات كبيرة فعمل على توسيع الدولة ونشر نفوذها واشتهر بشجاعته ومهارته الحربيـــة كقائد وبمرونته وحزمه وقدرته على التنظيم الادارى باصـــلاحه وأعماله المعمارية حتى لقد اعتبره العلماء أبرز شخصيات التاريخ المصرى القديم وألمع قواد الشرق القـــديم حتى سماه بريتد نابليون مصر ، وقد بالغ المعـــاصرون أيضـــا فى الاشادة بموهبته وقدرته وذكر عنه وزيره « رخمى رع » « أنه كان

يعلم كل شيء • لا يترك صغيرة أو كبيرة الا أحاط بها » بل ان هناك قصيدة شعرية نسبها كهنة آمون الى الاله آمون نفســه شبه فيها تحتمس بالملك المصــور من النور وبالكوكب الذى ينشر النور فى الظلام وينشر الندى فى الصباح وبالثور القوى الذى تستحيل مقاومة قرنيه وبالتمســاح ملك البحار القــاهر وبالصقر الذى يأخذ كل ما يريد وبالأسد الذى يفزع كل من ينظر اليه بل ان المصريين بعد مئات السنين من موته اعتقدوا فى وجود صفات سحرية فى اســمه فنقشوه على الجعارين تيمنا بذلك •

أعماله الحربيــة :

توجه الى آسيا بعد حوالى شهرين ونصف من انفراده بالحكم اذ تحالفت بعض الامارات ضد مصر : فما الدافع الى ذلك ؟ هل كانت وفاة حتشبسوت هى السبب فى تكوين هذا الحلف ، أو ان الحلف كان قد تكون وتحدى حتشبسوت مما عجل بسقوطها ؟ وعلى كل حال فمما لاشــك فيه أن الخلاف بين تحتمس الثالث وحتشبسوت قد هيأ أمام هؤلاء الحكام الفرصــة السانحة للتمرد ضد النفوذ المصرى وقد سجل تحتمس الثــالث حروبــه التى استغرقت عشرين عاما وخاصة معركة « محبو » على جدران معبد الكرنك ويعتبر هــذا التسجيل الأول من نوعه فى تاريخ البشرية اذ أنه بمثابة تقارير حربية تشبه الى حد كبير اليوميات التى يكتبها قادة الجيش فى عصرنا الحــالى • ويغلب على الظن أن تحتمس الثالث كان يصطحب معه فى حملاته كتبة يسجلون كل ما يحدث على أوراق البردى ثم تنقل مقتطفات منها على جدران الكرنك ، وكان الهدف من هــذه الحملات الضرب على أيدى العــابثين والمتــآمرين والقضــاء على التكتلات ضد مصر وعلى دويلات المدن الكبيرة وخاصة دويلة مدينــة قادش التى كانت تمثل مركز مقاومة السيادة المصرية ثم انشــاء

خط دفاع قريب من دولة الميتاني الطموح التى مدت سلطانها فى شمال غرب سورية وأخذت فى تهديد المصريين ، وقد قاد الحملات الست عشرة بنفسه وكان موفقا فى اختيار الطرق التى يسلكها الجيش والميادين الصالحة للقتال وكان ماهرا فى توزيع قواته بنظام وفى استخدام الخدع الحربية وفى القيام بحركات الالتفاف والمباغتة كل ذلك فى مهارة حربية فائقة وتدبير عسكرى دقيق . وفى قصة الاستيلاء على يافا — وهى قصة خيالية ادخرتها لنا آداب العصور التالية — مثل طريف للخدع الحربية التى استخدمها قواد تحتمس الثالث لبلوغ أهدافهم . تشير حوادث تلك القصة الى أن المدينة كانت حصينة صعبة المنال حتى امتنعت على جيش فرعون وحتى اضطر تحوتى قائد القوة المصرية التى تحاصرها الى استخدام الحيلة فأشاع أنه ساخط على أعمال فرعون عازم على الغدر به والانضمام الى عدوه ثم راسل حاكم يافا فى هذا الشأن حتى جاءت على الحاكم الخدعة ولما خرج حاكم يافا لمقابلة القائد أخذ الأخير يبالغ فى حديثه عن فرعون مما أثار دهشة الحاكم وأرهب قلبه ولكن القائد طمأن الحاكم ذاكرا أن قوة فرعون منشؤها عصا سحرية يمتلكها يضرب بها الأرض فيعطيه الله ما يريد ثم يذكر له أنه قد تمكن من الحصول على تلك العصا فلما طلب الحاكم أن يراها أخبره أن ذلك ممكن اذا اختليا فى مكان بعيد وعندما تم ذلك عاجل الحاكم بضربة صرعته ثم عمد الى مائتين « ٢٠٠ » من الجنود المصريين فأخفاهم فى زكائب ثم أمر بهم أن يحملوا فى تلك الزكائب الى المدينة يتقدمهم ساقى خيل الحاكم برسالة الى زوجة « الحاكم » وأرسل فى عونه معهم حرسا من الجند المصريين أوصاهم باطلاق الجنود الذين فى الزكائب بمجرد دخولهم المدينة ولم تكد أبواب المدينة تفتح حتى نفذوا أمر القائد فانطلقوا يحتلون

شوارعها وميادينها بينما هاجمها المصريون من الخارج وتم الاستيلاء على يافا بتلك الطريقة ·

حملات تحتمس الثالث :

ـ الحملة الأولى :

الاستيلاء على مجدو ·

كانت فى السنة الثانية والعشرين من حكمه ·

ـ الحملة الثانيـة :

فى السنة الرابعة والعشرين أعمال حربية محدودة

ـ الحملة الثالثـة :

فى السنة الخامسة والعشرين أحضر النباتات والحيوانات التى رسمها بالكرنك ·

ـ الحملة الرابعـة :

فى السنة السادسة والعشرين هذه الحملات لا تعتبر حملات حربية ولكنها زيارات تنظيمية واستعراضات عسكرية ·

ـ الحملة الخامسة :

فى السنة التاسعة والعشرين بغرض السيطرة على الساحل الفينيقى تمهيدا للاستيلاء على قادش · استولى على مدينة ارواد المنيعـة ·

ـ الحملة السادسة :

استولى على قادش فى السنة الثلاثين

- **الحملة السابعـة :**

في السنة الواحدة والثلاثين تنظيمية واقامة قواعد على شاطيء فينيقيـا .

- **الحملة الثامنـة :**

استولى على قرقميش في السنة الثالثة والثلاثين .

- **الحملتان التاسعة والعاشرة :**

في السنة الرابعة والثلاثين قليلة الأهميـة الحربيـة كذلك الجملة العاشرة في السنة الخامسة والثلاثين .

- **الحملة الحادية عشرة :**

في السنة السادسة والثلاثين .

- **الحملة الثانية عشرة :**

في السنة السابعة والثلاثين عسكرية .

- **الحملة الثالثة عشرة :**

في السنة الثامنـة والثلاثين .

- **الحملة الرابعة عشرة :**

في السنة التاسـعة والثلاثين .

- **الحملة الخامسة عشرة :**

في السـنة الأربعـين .

- الحملة السادسة عشرة :

فى السنة الثانية والأربعين استولى على قادش للمرة الثانيــة وبعد هــذه الحمــلة وجدت فى حوليــات الكرنك العبارة الآتية :

« لقد أمر جلالته بتدوين الانتصــارات التى أحرزهــا منذ العالم الـ ٢٢ من حكمه حتى الثانى والأربعين فلاشك أنها كانت آخر غزواتــه » .

هذه الأعمال الحربيــة انتهت باتفــاق نص على احتفــاظ الميتانيين بمناطق شمال سورية مع مدينتى حلب وقرقميش ولكنها ضمنت للمصريين طريقا الى الفرات كما احتفظت لهم بالســاحل الفينيقى وفلسطين وجنوب سورية وقد تطورت علاقــة المصريين بالميتانيين بعد ذلك حتى ان فراعنة مصر تزوجوا من أميرات ميتانيات كذلك ازدادت هيبة مصر وقدمت لها بلاد ختيا وأشــور وبابل وقبرص الهدايا هذا بجانب الفائدة الاقتصادية الكبيرة التى عادت على مصر .

ادارة الأراضى الآسيوية :

انتهج تحتمس الثالث سياسة حكيمة فى البلاد الآســيوية فلم يتدخل فى ديانتها أو شئونها الداخلية كما ترك حكام تلك المناطق يزاولون سلطانهم تحت اشراف المصريين بل انه استدعى بعض أولاد الأمراء وأنزلهم فى قصور طيبة ليتربوا فى بلاط فرعون وقد نجحت هذه السياسة فى كسب أولئك الأمراء الى جانب مصر وهكذا توطدت أواصر الصداقة بين الأسرات الحاكمة فى فلســطين وســورية ، وفرعون والادارة المصرية ونجد صدى هذه العلاقة بعد خمسين عاما فى رســائل تل العمارنة .

حملاته فى النوبـة :

قام بحملة فى العـام الخمسين من حكمـه وكان وقتذاك فى السبعين من عمره وتمكن من اخماد فتنة هناك بنفسه ولم نعثر على نصوص تتحدث عن معارك بين ليبيا ومصر كما أرسـل حملة الى بلاد بونت على غرار حملة حتشبسوت ٠

اعماله المعماريـة :

وقد قام تحتمس الثالث عادة بحملاته فى الصيف على أن يعود لمصر فى أوائل الشتاء ليبقى بقية أيام السنة يعمل على اصـلاح البلاد وتعميرها كما أنه لم يقم بحروب تذكر فى ال ١٢ سنة الأخيرة من حكمه مما يسر له اتمام منشآته المعمارية ٠

الكرنـك very important :

١ ـ أنشأ بهو الأعياد الذى لا يزال محتفظا بروعته وبهائه والى جواره شيد عددا من الحجرات الصغيرة نقش على جدرانهـا رسوما لحيوانات وطيور ونباتات كانت جديدة وغريبة على المصريين وقد زرع الكثير من تلك النباتات فى حدائق المعبد كذلك خصص احدى الحجرات لكتابة السماء وألقاب أجداده عليها ونحن نطلق على هذه الحجرة « غرفة الأجداد » كما تسـمى تلك القائمـة سرد الكرنك وهو الآن بباريس كذلك دون غزواته على جدران الكرنك وقد شيد معبدا للاله بتاح هناك ٠

٢ ـ شيد ثلاث مقاصير لا تزال قائمة للآن فى فناء رمسيس الثانى بمعبد الأقصر ٠

٣ ـ كشفت الحفائر عن معبد له بجوار معبد حتشبسـوت بالدير البحرى والى الجنوب منه ٠

٤ ـ شيد معبدا قرب دنقلة وآخرا عند سمنة كما أقام الكثير من المقاصير والمعابد فى مدن الصعيد والدلتا وخاصة الفيوم ودندرة وقفط والعرابة المدفونة وأرمنت والكاب وادفو وكوم أمبو وأسوان ٠

وكذلك عثر على آثار له فى كلابشة وكوبان والدكة ببلاد النوبة كما أقام معبدين هنـاك فى عمدا والليسيه أما معبد العمدا فيقع على بعد ٢٠٠ كم جنوب أسـوان وهو معبد صغير ولكنـه يعد أجمل وأبرع معـابد النوبة الستة عشر ومع أنه مبنى أى من السهل فكه واعادة تركيبه فانه حرصـا على نقوشـه وألوانها قامت الحكومة الفرنسية بنقل ذلك المعبد كتلة واحدة على عجل يسير فوق قطبان ٠

أما معبد الليسيه فهو معبد صغير منحوت فى الصخر وفى حالة الآن غير جيدة ولم يكن هنـاك مشروع لانقاذه ولكن أهالى بلدة تورين الايطالية جمعوا أموالا كافية لانقاذه وتم لهم ذلك فى اللحظات الأخيرة وقررت حكومة الـ ج٠ع٠م٠ اهداءه الى تلك المدينة ليقام فى متحفها ٠ وقد أقام تحتمس الثالث ما لا يقل عن سبع مسلات ولتحتمس تماثيل كثيرة ولكننا لابد أن نشير الى تمثـال بالمتحف من الحجر الشست وهو يعد من أجمل التماثيل ٠

كبار الموظفين فى عهده :

تقدم لنا مقار كبار الموظفين والضباط العظام والأشراف فى طيبة صورة مليئة بالحياة الاجتماعية وتعد أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعيـة ودسـتور الادارة فى ذلك العصر وقد عمد القـواد الى تسجيـل الحمـلات والمغـامرات التى اشـتركوا فيهـا أثناء حمـلات تحتمس الثـالث وان كان ذلك التسجيل لم يعين الغزوة التى حـدثت أثناءهـا المغـامرة وان كان مما يبـدو من هـسلم

التسجيلات ان تحتمس قـد قدر شجاعـة رجـاله واخلاصهم وقدم لهم الهدايا والانعامات ولنضرب لذلك مثلا ما سجله القائد « آمون أم حب » « آمون فى العيد » فى مقبرته عن اشتراكه فى مغامرة لعيد الفيلة فى شمال سورية وقد أظهر شجاعة فائقة حين أنقذ الملك من فيل كبير كاد أن يفتك به لولا أن أسرع آمون أم حب ببتر خرطومه وعند ذلك هاج الفيل وكاد أن يفتك بالقائد ٠

رخمـى رع :

وتعتبر مقبرة الوزير رخمى رع بطيبة من أهم مصادرنا عن الحيـاة المصرية فى ذلك الوقت ، وكان رخمى رع « العارف كرع » من أسرة نبيلة كريمـة نشأت فى طيبة وتقلد عدد كبير من رجالها المناصب الاداريـة الكبرى ، فأجداده وعمه تولوا منصب الوزارة اما أبوه فكان كاهنا لآمون ونحن لا نعرف الكثير عن حياة رخمى رع اذ عندما سجل التاريخ اسـمه كان قد وصل فعلا الى منصب وزير مصر العليا وحاكم طيبة وقد تولى هذا المنصب فى السنة ال ٣٢ من حكم تحتمس الثالث وظل به حتى توفى فى السنين الأولى من حـكم امنحتب الثانى ويعد رخمى رع من أشهر وزراء الدولة الحديثـة ومن اهمهم مكرا وقد كان الوزير فى مصر القديمـة بمثابة رئيس الوزراء الآن أى أكثر رجال الدولة مسئولية وكان يختـار من أحسن الناس سيرة وأرجحهم عقلا وكان مع الوزير الكبير وزراء آخرون فهناك وزير للمـالية والاقتصاد وآخر للعدل وثالث للأشغال العامة وهكذا ٠ وقد ترك لنا رخمى رع مقبرة بالبر الغربى بطيبـة تعد من أغنى المقابر بالمناظر التى ترسم لنا صورا عن نظام الحكم والمهام الجسيمة الملقاة على عاتق الوزير في ذلك الوقت وقد سجل رخمى رع

على جدران مقبرته أصله ونسبه ثم حدثنا عن اسرته ووصف لنا حفل تنصيبه وزيرا وما أوصاه به فرعون يومئذ حين وجه اليه الكلام قائلا « عامل من تعرفه كمن لا تعرفه ، ليكن غضبك لما يستوجب الغضب ، لا تصرف شاكيا دون أن تسمع شكواه .. فهذه وصايا صالحة لكل زمان ومكان » ثم يتكلم عن كفايته ومهارته في النهوض بواجباته نحو أمته وطهارة يده وحسن معالجته الأمور الدولة وقيامه بالمهام الجسام التى وضعها فرعون على كتفيه ثم تقدير الشعب لكفايته وتعمقه فى القانون وتمسكه بالقانون عند الفصل فى الأمور فهو كما يصف نفسه « لا يميل فى جنب عن الآخر ، ولا يزن الحق بميزان الرشوة أو المكسب وهو صبور مع الشهود دقيق فى أحكامه هدفه ايصال الحق الى أعالى السماء ونشر العدل فى طول البلاد وعرضها ومساعدة الأرامل والمغلوبين على أمرهم ومعاقبة المغتربين والطغاة » وقد صور لنا رخمى رع على جدران مقبرته أعمال الوزير الرسمية وحياته اليومية خير تمثيل حتى لتعد مقبرته بمثابة سجل ادارى لمصر فى ذلك الوقت بجانب ما تتميز به من بديع النقش وروائع الفن ، هكذا حققت تلك المقبرة أمنية رخمى رع التى نقشها على جدرانها حين قال « انها ستبقى الى الأبد وان اسمه سيكتب فى سجل الخالدين » .

وقد توفى تحتمس الثالث حوالى نهاية السنة الـ ٥٤ من حكمه ودفن فى مقبرة بوادى الملوك أما مومياؤه فقد عثر عليها بمخبأ الدير البحرى فى حين تهدم معبده الجنائزى ويقع فى شرق الرامسيوم .

هكذا توفى تحتمس الثالث ذلك الرجل الذى ملأ الدنيا دويا والذى كان دائما فى مقدمة جيشه والذى وضع أسسا سليمة للتكتيك الحربى وفن الاحكام والاغارة ، ذلك الرجل الذى بدا فى جميع مواقفه ذكيا ماهرا حسن التدبير وفى نفس الوقت انسانا يمتلىء قلبه

بالمروءة والنفور من القسوة الا فيما يتعلق بحتشبسوت ، كما كانت حياته كلها نضالا يتميز بالبطولة والشجاعة وقوة العزيمة من أجل مصر ووحدة الشرق القديم ، وعندما ودع هذا الرجل دنياه تصوره المصريون منقذا يتخلصون عندما يحملون تمائم تحمل اسمه مما قد يصادفهم من مصائب الحياة أما أعداؤه فتصوروه بشرا فوق البشر يمكنه أن يفعل المعجزات ولا يمكن لانسان أن يمسه بسوء •

أمنحتب الثاني
١٤٣٦ ــ ١٤١٣ ق٠م

يعد أمنحتب الثاني من الفراعنة العريقى النسب فقد ولد من أبوين يجرى فى عروقهما الدم الملكى ، وقد رباه أبوه تربية رياضية عسكرية فقد اعتقد أنه لا بقاء لهذا الملك الواسع الا اذا خلفه ملك قوى ٠ فعهد بتربيته الى أحد ضباطه ويدعى « مين » وقد صور لنا هذا الضابط على جدران مقبرته منظرا يمثله وهو يلقى على ولى العهد درسا فى الرماية ويقول له « شد القوس حتى أذنيك واستعمل كل قوة ذراعك وثبت السهم أيها الأمير أمنحتب » وقد تولى وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريبا وكان مشهورا بالفروسية بارعا فى ألوان الرياضة وخاصة الرماية والتجديف والجرى وركوب الخيل ولذا عندما دقت طبول الحرب لم يظهر أى ميل للتساهل أو المسالمة بل أسرع ليظهر بطولته وشجاعته ٠

حروبه فى آسيا :

قام بحملتين حملة فى السنة الثانية من حكمه وحملة فى السنة التاسعة أخبارها تبين الحملتين على لوحتين احداهما اكتشفها شامبليون بالكرنك بمعبد آمون والثانية اكتشفت منذ حوالي

٢٥ سنة تقريبا اكتشفها د. احمد بدوى فى معبد بتاح بمنف وهى الآن بالمتحف المصرى « انظر كتاب د. زايد الحروب وكذلك مبانيه بالكرنك » وغيرها .

من ناحيـة النوبة :

أتم معبد والده الذى أقامه فى عمدا وترك لوحة تاريخية هناك لها صورة مماثلة فى الفنتين جاء فيها أنه عند عودته من حملته الأولى فى آسيا أحضر معه سبعة أمراء من المناطق التى هزمها ، وصلوا الى طيبة وقد أوثقت أيديهم وعلقوا منكسى الرءوس وذبح ستة منهم بيده أمام الاله آمون وعلق جثثهم على جدران طيبة وبجانبهم أيديهم المبتورة أما السابع فأرسله الى بلدة نباتا عند الجندل الرابع حيث أعدم بنفس الطريقة وعلق على جدرانه

الواقع أن أمنحتب الثانى كان يحدثنا باستمرار عن أعمال تثير الرعب والتخاذل بين أعدائه ، لقد حدثنا عن اطلاقه لسهامه على هدفين من النحاس أمام الآسيويين بعد أن استولى على مدينة قادش وحدثنا أنه ساق عربته الى احدى مدن سورية وقد أحضر معه ستة عشر أسيرا أسرهم بنفسه ، وحده ، وجعلهم يجرون بموازاة عربته وقد علق عشرين يدا مقطوعة على جبهة جواديه وذكر أن هذه المدينة سلمت دون قتال وذكر أيضا أنه قام بنفسه على حراسة أكثر من ٣٠٠٠ « ثلاثة آلاف » أسير آسيوى خلال الليل كله وقد ظل ساهرا بمفرده وفى يده فأس الحرب بينما كان الجيش بعيدا عن سماع صوته ، وقد هاجم كثير من المؤرخين أمنحتب الثانى يتهمونه بالوحشية ولكنه كان يهدف أغلب الظن الى اعطاء دروس لأعدائه وقد نجح فعلا فى ذلك اذ خمدت روح المقاومة الجدية عشرات السنين بعد وفاته ولكن تلك السياسة تخالف ما سبق أن عرفناه عن المصريين بل تخالف تمام المخالفة سياسة أبيه تحتمس الثالث الذى يعد حضارة

لجده ، ومنح الأمان لكافة الجنود من الأعداء الذين طلبوه وسمح لهم بالعودة الى ديارهم بعد أن أقسموا يمين الولاء له وقد كان هـذا الترفع عن الصغائر والعفو عند المقدرة والتسامح الكريم هو حجر الزاوية فى بنـاء صرح تلك الدولة الكبيرة التى أقامها تحتمس الثـالث ٠

وقد عثر د٠ سليم حسن عام ١٩٣٦ على لوحة فى شمال شرق أبو الهول تتحدث عن مهارة وبراعة هذا الملك فى الفروسية والرياضة « انظر كتاب مصر الخالدة د٠ زايد » ٠

وقد أحاط أمنحتب الثانى نفسه بشباب رافقه بعضهم أيام شبابه ومنهم « قنمة آمون » أخوه فى الرضـاعة الذى أكرمه وولاه مناصب مهمة ٠ وهناك خلاف على اسم زوجتـه الرسمية والرأى الغالب أنها الملكة « تاعا » ابنة تحتمس الثالث ويغلب على الظن أنه أنجب خمسة أولاد من الذكور عهد بتربيتهم الى مرب صورهم على جدران مقبرة بطيبة جالسين على ركبتيه وأسماؤهم قد محيت عدا اسـم الأمير تحتمس الذى تولى العرش بعد ذلك وقد توفى أمنحتب الثانى بعد أن حكم ربع قرن تقريبا ودفن فى قبر بوادى الملوك اتخذه ملوك الأسرة الـ ٢١ مخبأ لمومياوات الفراعنة بعد أن عجزوا عن حماية قبورهم وقد بقيت هذه الجثث ثلاثة آلاف عام أو يزيد حتى نقلت الى المتحف المصرى فى أوائل القرن الحالى ويعد قبر أمنحتب الثانى من القبور الرائعة النقش وقد عثر بجوار جثة أمنحتب الثانى على قوسـه المشهور الذى كان يفخر بأنه لا يوجد رجل بين رجال جيشه أو من الأجانب يستطيع أن يشد ذلك القوس لأن قوته أعظم بكثير من قوة أى ملك عاش من قبل ٠

تحتمس الرابع
١٤١٣ ــ ١٤٠٥ ق٠م

يغلب على الظن أنه لم يكن صاحب حق فى العرش وأنه تولاه عقب نزاع فى الأسرة المالكة يدلنا على ذلك قصة الحلم التى سجلها فى لوحة بين مخلبى أبى الهول بالجيزة « كتاب د٠ زايد » ٠

حروبه :

عبارة عن حملات تأديبية فى النوبة أو سورية ولكن ربما ما يهمنا من هذه الحروب :

أولا ــ أنه كان آخر ملوك مصر المحاربين الذين قامت على أكتافهم الدولة العظيمة ٠

ثانيا ــ أنه سجل انتصاراته فى تلك الحروب بطريقة مبتكرة وبشكل ضخم ٠ على عجلته الحربية مثل عليها منظران : أحدهما يمثله يخوض معركة ضد نوبيين والثانى يمثله فى هيئة أبى الهول يطأ بأقدامه أعداءه الآسيويين ٠ وتعد هذه الرسوم النموذج الأول للأسلوب الفنى الرائع الذى انتشر أيام الأسرة الـ ١٩ فوق جدران المعابد ٠

ثالثا ـ أن حروبه انتهت مع الميتانيين حتى لقد تزوج من ابنة ملكهم التى سميت فى مصر « موت أمويا » وهى أم أمنحتب الثالث الذى خلفه على العرش والذى قضى بتوليته على العرش على فكرة أن أم ولى العهد تكون من العائلة المالكة المصرية ولعل هذا الزواج هو أول زواج لفرعون من ابنة ملك أجنبى وأول مصاهرة سياسية فى التاريخ • أما عن آثاره المعمارية فى الكرنك وغيره فهى متعددة « د• زايد » ونحن نذكر هنا أنه أقام تلك المسلة التى توفى تحتمس الثالث بعد أن أحضرها ودون أن يقيمها والتى ظلت ملقاة فى مكانها دون أن يؤدى أمنحتب الثانى واجبه فى اقامتها •

من رجال عهده البارزين :

من آمون ، وثانوفى وتتميز مقابرهم بمناظر الحرب وقد مات تحتمس الرابع بعد أن حكم مدة لا تتجاوز عشر سنوات وهو فى ريعان شبابه وبموته بدأت فترة جديدة فى تاريخ البلاد بعد أن انقضى قرن على انشاء تلك الدولة المترامية الأطراف •

أمنحتب الثالث

١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق٠م

عرفه البابليون باسم نيموريا ٠ بلغت مصر فى عهده اقصى قوتها ونفوذها ورخائها المادى والاقتصادى وبلغت طيبة أوج عظمتها ٠ كذلك يعد من الفراعنة العظام للأسرة ال ١٨ جنى ثمار المجهودات الضخمة التى بذلها أجداده ، وكان محاطا بالعز والرفاهية منذ أيامه الأولى وكان يميل الى اللهو والترف والمجون أما من ناحية نسبه فقد دون قصته وهى أنه زعم أنه ليس ابن تحتمس الثالث ولكنه ابن آمون من أمه « موت أم أويا » من ميتانى ، ليدفع أى تردد أو شك فى حقه على العرش ٠

هناك لوحة كبيرة بالمتحف كان قد أقامها فى طيبة تخليدا لانتصاراته ، معروف عنه أنه أرسل حملة واحدة الى النوبة تعتبر آخر غزو كبير قام به فراعنة الدولة الحديثة فى السودان اذ بعد ذلك اصطبغت النوبة بالصبغة المصرية تماما كذلك نحن نعرف أنه لم يرسل أى حملة لآسيا ونحن نعرف ذلك من رسائل تل العمارنة « مصر الخالدة » ٠ رسائل العمارنة اكتشفت عام ١٨٧٠ على يد سيدة فلاحة ومكتوبة بالخط المسمارى ٠

كان رياضيا ممتازا وصيادا بارعا « مصر الخـالدة » اصطاد اكثر من ١٠٢ أسد فى العشر السنين الأولى من حياته ، وفى ذات يوم سمع بوجود قطيع من الثيران الوحشية فى احدى المناطق فأمر باحاطة المكان بسياج ليعوق هروبها ودخل للمنطقة بعربة وظل يصوب اليها السهام حتى قتل منها ٩٦ راسا ، كذلك مما يذكر عن هـذا الملك تشجيعه لعبادة الشـمس كمـا فعـل أبوه تحتمس من قبل وقد أطلق على قارب زوجته « تى » المكسـو من ذهب والذى كانت تتنزه فيه فى بركة القصر بالبر الغربى من طيبة ، أطلق عليه اسم « بهاء آتون » ولكن رغم ازدهـار مصر فى عهده فاننا نلاحظ :

أولا ــ أن سلطة الملك المطلقة بدأت تضعف وتتفتت .

ثانيا ــ النفوذ المصرى فى آسيا بدأ يتقهقر .

ثالثا ــ التأثير الأجنبى فى الحضارة المصرية بدأ يتغلغل .

اعماله المعماريـة :

أقام معبدا ضخما وقصرا ريفيا فى البر الغربى من طيبة ، لم يبق منه الا التمثالان المعروفان بتمثالى ممنون « مصر الخالدة » ، وتسمية ممنون جـاءت عندما حدث تصـدع فى أحـد التمثـالين عام ١٢٧ ق.م. من زلزال فتراكمت قطرات من الندى فى الفجوات ولمـا تجىء حرارة الشمس تتبخر المياه فتخرج صـوتا من الفتحات ونغمة حزينة ربطت بأساطير أحد الشهداء اسمه ممنون ينادى فى الصباح أمه ، وسموا تمثالى ممنون حتى عام ١٩٦ م . وحين رمم هذا التمثال أحد أباطرة الرومان بطل خروج الصوت منه .

من الأعمال المهمة أيضا لهذا الملك اقامة معبد الأقصر ثم أوصل بطريق الكباش ثم بالكرنك « كان الاله آمون يمثل الكبش » .

س ــ لمــاذا وضعت الكباش ؟

١ ــ للزينــة ٠

٢ ــ لتحديد الطريق ٠

٣ ــ لاعطائه صفة مقدسة ٠

أيضا وسع كثيرا فى الكرنك وأقام معابد مونتو وموت هناك ٠

الرجال البارزون فى عهده :

١ ــ أمنحتب بن حابو :

اله بعد وفاته ٠ كان حكيما ذا ذكاء خارق ، عرف بالحكيم واستطاع أن يفوز بحق تقديره على غيره من معاصريه وأقيم له معبد خاص به فى جبانة طيبة الغربية ٠

٢ ــ الوزير رامــوزا :

من الذين عاشوا فى عهده وعهد اخناتون ، وتعد مقبرته من أجمل المقــابر ٠

زوجاته وحياته العائلية :

تزوج أمنحتب الثالث من الأميرة كيلوجيبا احدى بنات الملك الميتانى التى وصلت الى مصر يصحبها « ٣١٧ » من بنات بلاطهــا أغلب الظن أنهن تزوجن من موظفى وضباط بلاط فرعون ٠ تزوج فى أواخر أيامه من أميرة ميتانية أخرى اسمها تادوجينا كما تزوج من أميرة بابلية ٠

أما الزوجــة الأولى فهى الملــكة « تى » احــدى ســيدات التــاريخ المصــرى الشــهيرات تزوج منهــا فى العــام الثــانى بعد

توليه الحكم • ظنها البعض من دم ملكى ونسبوها الى البيت المالك الميتانى الى أن كشفت الحفائر عن قبر أبويها فى طيبة واتضح أنها مصرية لحما ودما بل من عامة الشعب فأبوها يويا من الكهان وأمها تويا كانت تعمل فى القصر الملكى • ولسنا نشك فى أن زواج أمنحتب الثالث من « تى » التى لم تكن من سلالة الأسرة المالكة كان يعتبر فى ذلك الوقت خروجا كبيرا على التقاليد الفرعونية وخطوة جريئة فى تحديهم وقد استطاعت بنت الشعب هذه بما وهبها الله من ذكاء وفتنة أن تستأثر بحب زوجها وأن تستهوى قلبه فأمعن فى رضائها والتفتن فى تلبية طلباتها وبقيت أحب نسائه واقواهن فى حياته أثرا بل لقد كانت بمثابة شريكة له حتى بات أمر ذلك معروفا عند الأمراء والحاكمين فى بلاد الشرق الذين كانوا يقدرونها ويبعثون اليها برسائل الود والتقدير ، وقد خلد زواجه بها فى جعران كتب عليه الملك :

« أمنحتب له الحياة : والزوجة الكبرى للملك « تى » لها الحياة اسم أبيها يويا واسم أمها تويا » •

وما من شك فى أن مثل هذا الاعلان يحوى اعترافا قويا بأنه أقدم على عمل جرىء وهو متقبل لنتائج ذلك ، بل لقد ذكر أمنحتب الثالث اسم « تى » على الجعران الذى أصدره بمناسبة زواجه من الأميرة الميتانية جيلوخيبا اذ جاء فيه « العام العاشر من حكم الملك أمنحتب وزوجته الكبرى « تى » اسم أبيها يويا واسم أمها تويا لقد حدث أن وفدت الى جلالته جليوخيبا ابنة ملك الميتانى •• » •

وقد أغدق أمنحتب الثالث على أبويها كافة أنواع التكريم حتى أعطاهما الحق بأن يدفنا فى احدى مقابر وادى الملوك وأتاح لهما حياة كلها عز ورفاهية بدليل ما وجد من أثاث فى قبرهما يعد

أروع مخلفات المصريين فى الأثاث باستثناء أثاث توت عنخ آمون ولم يقتصر دور « تى » على عهد زوجها بل لقد كان تأثيرها واضحا على ابنها اخناتون سواء أثناء نشره للدين الجديد الذى كان يدعو الى توحيد العبادة أو ارتداده عنه فى أواخر أيامه •

وكانت « تى » تتمتع بقسط من الجمال كما تشهد بذلك صورها وتماثيلها التى تصورها قوية التقاطيع وجذابة فى نفس الوقت مما يدل على أنها كانت تجمع الصحة الى جانب ذكاء ودهاء استغلتهما خير استغلال ، ومن أشهر آثارها رأس بديع من خشب الأبانوس عثر عليه فى نواحى الفيوم وانتهى الأمر به الى متحف برلين ويعد تحفة فنية رائعة فالملامح دقيقة والوجه معبر ولا ندرى متى ماتت « تى » ولكن لابد أنها فارقت الدنيا فى أواخر عهد ابنها ودفنت فى مقبرتها التى كشفت عام ١٩٠٧ فى مكان غير بعيد عن مقبرة أبويها فى وادى الملوك ، والمقبرة عبارة عن حجرة منحوتة فى الصخر عليها اسمها وبها الكثير من مخلفاتها وقد عثر فى وسطها على تابوت مغلف بالذهب ومطعم بالأحجار الكريمة وفى قلب التابوت اتخذت الجثة أبهى زينتها ، كسيت أيديها برقائق ذهبية وتوج الرأس باكليل ذهبى وهى أشياء تليق بملكة عظيمة كانت زوجا لملك كبير وأما لملك عبقرى ولكن عندما كشف عن الجثة أصيب الكاشفون بمفاجأة وجدوا أنها لشاب فى نحو الخامسة والعشرين وليست لعجوز ناهزت الستين ولا نعرف كيف نعلل ذلك اذ سرق اللصوص المومياء بما تحمل من حلى ووضعوا جثة ميت من مقبرة مجاورة للتضليل أو ان المقبرة كانت مخصصة لها ولأحد أقاربها فسرقت جثتها وبقيت جثة القريب ، أما أمنوفيس الثالث فنظرا لأنه انهمك فى مباهج الحياة الناعمة فسرعان ما انتابته الأمراض حتى لقد أسند مقاليد الحكم الى ابنه أمنحتب الثالث •

اخنـــاتون
١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق٠م

احتل هذا الملك مكانا بارزا فى التاريخ لسعة فكره وعمق آرائه فقد كان شاعرا مبدعا وفيلسوفا قديرا ومصلحـا دينيا فذا ولم يكن كأبيه مغرما بالصيد أو اللهو أو المجون بل كان يقضى معظم وقته فى مناقشات فلسفية مع أمه « تى » وزوجته نفرتيتى كما كان يتحلى بالصـدق والبساطة وعدم الميـل الى التصـنع أو المبالغة وقد تولى وهو صغير السن وحكم حوالى ١٧ عاماً واختلف العلماء فى أمر مشاركته لأبيـه فالبعض يعتقد أنه لم يشترك معه مطلقا بينما البعض الآخر يعتقد أنه شاركه فى الحكم مدة اختلف العلماء فى تقديرها ، وقد كتب المؤرخون كثيرا فى تاريخ ثورة العمارنة وان كانت كتاباتهم مركزة حول شخصية اخناتون بدلا من الثورة نفسها وما أحاط بها من رقى فكرى وثقافى ولعل مما يبرر ذلك أن اخناتون لم يكن شخصا عاديا بل كان الزعيم المعترف به وبسلطانه على جميع القوى فى ذلك العهد وقد اختلف العلماء فى دوافع ثورة اخناتون أكانت للقضاء على نفوذ كهنة آمون والايقاع بهم والتخلص من نظـامهم الاقطـاعى أم كانت لايجـاد معبود تفهمه الدولة المصرية الممتدة امتدادا كبيرا فى آسيا أم كانت نتيجة لتفـكيره وايمانـه

أو لهذه العوامل جميعا مجتمعة ، لقد عرفت مصر عبادة الشمس منذ أقدم الأزمنة وكانت للشمس مظاهر متعددة عبدت فى شــكل رع وآتوم وخبر وحور آختى أما آتون فقد عرف فى الدولة الحديثة فقط فى أيام تحتمس الرابع ثم أمنحتب الثالث ذلك الاله الواحد الذى لا شريك له والذى خلق هــذا الكون ووهب كل من فيه الحياة والذى تمثل فى قرص الشمس ترســل أشعتها التى بأيد آدميــة على أهل هذه الأرض فتحمل اليهم تلك الأشــعة النور والحيــاة ولم يرمز اخناتون لمعبوده بغير هــذه الصورة ولم يتخذ له صنمــا ولم يجعل له زوجة أو ولدا وقد أبقت الأيام على طائفة من أناشيد وصلوات الشمس من أيام اخناتون نقتبس منها ما يلى :

« أنت أيتها الشمس الحية التى وجدت منذ القدم أنت أيهــا الاله الواحد الذى لا اله غيره خلقت المخلوقــات من بشر وحيوان وكل ما يدب على الأرض أعطيت كلا مكانه وقدرت له رزقــه ثم ميزت شعوب الأرض باختــلاف لغاتهم وألوانهم وأشكالهم ثم فجرت النيل لمصر من باطن الأرض ثم رفعت السماء على الأرض لترســل منها ضياءك أيها المشرق البهى البعيد القريب ما أعظم أعمــالك أيها الرب كلها بحكمة صنعت وأنت واحد » .

الأزمــــة :

١ ــ اشتدت الأمة فى العام الســادس من حكمه لتحطيمــه تماثيل آمون واغلاقه لمعابده ومحوه لاسمه .

٢ ــ تأسيسه مدينة اخيتاتون « تل العمارنــة » وهجرته اليهــا .

٣ ــ فرضه عبادة الشمس آتون واقامته لمعابده التى وجدنا أمثلة لها فى تل العمارنة والكرنك .

٤ ـ اتخاذه أسلوبا جديدا فى الرسم والنحت والأدب « مصر الخالدة » •

الحالة السياسية :

كانت سيئة فى عصر خناتون داخليا وخارجيا ، أما فى الداخل فقد انتشر الفساد وكثرت الرشاوى والفساد نتيجة انصراف اخناتون الى دينه انصرافا كليا • أما الخارجى تدلنا عليه رسائل العمارنة « مصر الخالدة » فهى مليئة بتحذير فرعون وطلب المعونة منه بعد أن أدرك أمراء غرب آسيا أن فرعون قد أصبح معلما دينيا لا قائدا عسكريا فدبروا المؤامرات وحاكوا الدسائس حتى ان مصر لم تكن فى وقت من الأوقات فى حاجة كحاجتها وقتذاك الى حاكم قوى يعيد لها نفوذها ولكن للأسف كان يحكم مصر ملك فيلسوف عجز عن فهم الخطر المحدق ببلاده وقد استخدم فرعون فى بلاطه عددا كبيرا من الرجال الحديثى النعمة الذين لم تكن لأسراتهم أهمية من قبل فتولوا أعلى المناصب بينما اختفت العائلات القوية العظيمة التى كانت تتوارث الوظائف العظيمة ، معنى ذلك أن الطبقة الاقتصادية الأرستقراطية وقفت بجانب كهنة آمون ضد فرعون وفى مقدمة من عاونوه « أى » الذى بدأ كمروض للجياد ثم تزوج مربية اخناتون ، ومرى رع كبير كهنة آمون ، و « ماى » قائد الجيش . « وراموزة » الذى كان فى الواقع وزيرا منذ أيام أمنحتب الثالث وقد ارتد اخناتون فى أواخر أيامه عن دينه محاولا ارضاء كهنة آمون ولكن ارتداده لم يفده شيئا ولم يعره الشعب أو رجال الدين أى التفات واختفى فجأة من التاريخ ونحن نجهل تماما ما حدث له فى نهاية عمره وان كنا نرجح أن موته قد حدث نتيجة مؤامرة دبرت للقضاء عليه كما أن عدم عثورنا على جثته يجعل من الصعب

التكهن بعمره وقت أن فارق الحياة • وقد محا المصريون اسمه واسم الهه من كل مكان وتجاهلت قوائم الملوك عصر تل العمارنة وأطلق عليه المصريون اسم « مجرم أخنيتى » وقد حفر اخناتون مقبرة صخرية لأسرته اختار لها موقعا فى واد صخرى الى الشرق من تل العمارنة ولم تسمح الظروف باتمام تلك المقبرة كما لم يدفن فيها الا أنه يبدو أن ابنته الثانية التى توفيت فى سن مبكرة قد دفنت فى هذه المقبرة وقد عثرنا على تابوتها الخشبى هناك أما التابوت الخارجى الجرانيتى الضخم فقد حطم الى قطع صغيرة نتيجة لحملات الأخذ بالثأر التى شنها أعداء اخناتون بعد سقوط دعوته •

هكذا أسقط اخناتون اذ أنه لم يحظ بتأييد من أى قطاع فى البلاد • لقد وقف رجال الدين ضده بعد أن نكل بهم وعارض الشعب دعوته الجديدة فهو شعب يتمسك بالتقاليد ويميل الى القديم وتبرم به رجال الجيش بعد أن رأوا تلك الدولة المترامية الأطراف التى بنوها بدماء آبائهم يعبث بها فتى خيالى منصرف عن واجباته كملك مسئول ، ومع ذلك فقد حظى عصره باهتمام من المؤرخين لم نشاهده فى أى عصر آخر ، وقد اختلف المؤرخون فى فكرتهم عنه ، البعض قد أعجب به ومجده ورفعه الى مرتبة تقرب من النبوة والبعض الآخر هاجمه واتهمه بالضعف والتخاذل والتهاون واستنزل عليه اللعنات فهو كحاكم قد أهمل واجباته الأولى وتسبب فى انهيار البلاد بل لقد اتهم بالشذوذ بل بالجنون وشك فى قواه العقلية • ومهما يكن الأمر فقد امتلك اخناتون قوة عقلية عبقرية وعقلا نضج بدرجة لا تناسب زمانه وكان بلا شك فيلسوفا ومفكرا عميقا وفدائيا كرس حياته لدعوة رائعة ستظل احد معالم الحضارة المصرية القديمة بل احدى مفاخرها وستظل تمثل وثبة فكرية رائعة من خوالد الفكر فى العالم •

زوجته نفرتيتي :

لعبت زوجته نفرتيتي ـ ومعنى اسمها الجميلة مقبلة « آتية » ـ دورا خطيرا فى اتجاهات زوجها الدينية والسياسية ويبدو أنها كانت تتمتع بجاذبية وجمال كبيرين وبشخصية قوية كان لها تأثير كبير على زوجها ويبدو أن حياة نفرتيتي واخناتون كانت حياة هانئة سعيدة فى ظل الألفة والتبادل العاطفي والحنان الذى يسبغانه على بناته الست ، والواقع أنه ليس هناك فى مصر الفرعونية ما يماثل صور نفرتيتي مع زوجها اخناتون وبناتها فى الدلالة على مدى قوة العلاقات الزوجية والأسرية فكثيرا ما صورت نفرتيتي مع اخناتون يتعبدان لآتون أو يطلان على الجموع المحتشدة يوزعان الهدايا والعطايا • حين اختطف الموت احدى بناتهما صورا معا باكيين نادمين يودعانها الوداع الأخير • كذلك من المناظر الطريفة لهما منظر على حجر جيرى بمتحف اللوفر يمثل اخناتون يقود نفرتيتي ممسكا بيدها فى صورة تدل على مدى الانسجام بينهما بل هناك منظر يمثلهما يتنزهان فى مركبتهما ويتبادلان القبلات علنا ولكن عندما ارتد اخناتون فى أواخر أيامه الى دين آمون بعد زيارة أمه « تى » له فى تل العمارنة غضبت نفرتيتي التى كانت متحمسة للدين الجديد وربما كانت أكثر ميلا منه وأشد تعصبا فهجرته وعاشت فى قصر منعزل فى أقصى أطراف المدينة متزعمة الحزب الذى ظل مؤمنا بعقيدة آتون •

ولنفرتيتي بعض رءوس تماثيل تعد من أروع ما خلفه المصريون القدماء وكذلك الرأس الملون من الحجر الجيرى الذى عثرت عليه بعثة ألمانية عام ١٩١٢ وهربته للخارج ـ يمتلكه الآن متحف بولين ـ فهذا الرأس التى يبلغ طوله نصف متر تمكن فيه الفنان من ابراز معانى الجمال بشكل قوى أخاذ فالتقاطيع متناسقة ناطقة والعيون بيضاوية ساحرة والأنف صغير دقيق والشفاه ممتلئة

معبرة والواقع أن النظر الى هــذا الرأس الذى مضى عليــه أكثر من ثلاثة آلاف عام لا يزال يثير الاعجــاب ويبعث على التقدير وان الانسان ليعجب فى هذا الرأس بجمال صاحبته وفن صانعه ٠

ولنفرتيتى رأس آخر من الحجر الجيرى الصلب بالمتحف المصرى يبلغ ارتفاعه نصف متر وهو غير تام الصنع ومع ذلك فقد مثــل الفنان معانى الجمال بشكل جعل صاحبته مضرب الأمثال فى الملاحة والرشاقة كما نجح فى اعطاء الشفتين ليونة وحيوية تبلغ حد الاعجاز ولم تترك نفرتيتى ابنا يرث العرش بعد أبيه بل أنجبت بنات بلغ عددهن ستا تتمكن أزواج بعضهن من الجلوس على العرش ٠

سمنخ كارع

١٣٥٠ – ١٣٤٧ ق٠م

في أثناء حكم اخناتون أخذ أخوه الصغير سمنخ كارع في الاستئثار بمحبته وتدليله وخاصة بعد أن هجرته نفرتيتي وقد تزوج من ابنته الكبرى « مريت آتون » وقد أشركه اخناتون معه في الحكم وقد هاجر سمنخ كارع الى طيبة في العام الثالث من حكمه وكان اخناتون ما يزال حيا على الأرجح ولم يحكم سمنخ الا فترة قصيرة ولم يترك الا آثارا محدودة وربما قد توفي اخناتون بعد وفاته وعلى كل حال فبموته أصبحت مصر بدون وريث شرعي للعرش وبدأت المؤامرات تحاك من أكثر من جانب وأخذت البلاد تسير بخطى واسعة نحو الهوة العميقة ٠

توت عنخ آمون « آتون »
١٣٤٧ – ١٣٣٩ ق٠م

معنى اسمه الصورة الحية أو التمثال الحى لآمون أو لآتون :

سارع أهل الرأى لايجـاد حل للأزمة التى أصابت البـلاد فاختاروا صبيا فى سن الحادية عشرة هو توت عنخ آمون ونصبوه ملكا على مصر على أساس أنه قد اكتسب شرعية الجلوس على عرش مصر عن طريق زواجه بابنة اخناتون الثالثة « عنخ سن أم آتون – تحيـا من أجـل آتون » ولا يوجـد أى أثر يوضـح لنا أين ولد توت عنخ آمون ولا فى أى قصر نشأ ولكن لاشك فى أنه كان ينتسب للعائلة المـالكة كما هو واضح ليس فقط فيما جاء من أشـارات على تمثـال أسد جبل بركل عند الجندل الرابع والموجود الآن بالمتحف البريطـانى بل أن صفاته الجسمية التى تظهر فى صـوره وتماثيله توضح مدى قرابته الحقيقية لاخناتون ونفرتيتى وبالرغم من قصر عهده وصغر سنه فان البلاد أخذت تنهض فى أيامه وقد نشطت حركة الاصلاح فيما ضرب من معابد كما بدأ تشييد معـابد جديدة فى جهـات متعددة ولم يقتصر الأمر على طيبة بل تعداها حتى منف شمالا والنوبة جنوبا وقد استعان فى ادارة شـئون البـلاد برجلين قويين أحدهما « أى » الذى أشرف على ادارة البلاد والثانى « حور محب » الذى تزعم الجيش وظل فى منف بعيدا عن طيبة وعن

تل العمارنة وقد قام حور محب قائد الجيش فى السنة الأولى من حكمه بحملة لاعادة الأمن فى بعض ولايات فلسطين وفينيقيا أما سورية وشمال الفرات فقد كانتا شبه ميئوس منهما اذ كانت دولة الحيثيين قد أخذت فى التوسع فى تلك الجهات على حساب مصر منذ أيام أمنحتب الثالث وقد حدث احتكاك بين القوتين وكانت الحرب كما يبدو سجالا بين الفريقين وأذاعت النصوص الحيثية بان النصر كان لها بينما ذكرت النصوص على جدران مقبرة « حور محب » فى سقارة ومقبرة « حوى » فى طيبة أن النصر كان حليف مصر .

ونحن نعرف أن كهنة آمون كانوا قد رفضوا أى حل وسط بينهم وبين اخناتون كما لم يتقبلوا محاولات سمنخ كارع أيضا أما توت عنخ آمون فقد خضع لجميع رغبات كهنة آمون وسلم تسليما كاملا وأضحى ألعوبة فى أيدى هؤلاء الكهنة المنتصرين وقد قام بتغيير اسمه واسم زوجته بان حل آمون محل آتون وحاول التقرب الى الاله آمون بكل طريقة فضاعف من أملاك معابده وجعل لها ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب وأحجار كريمة وزاد فى خدم المعابد على حساب القصر وفى نفس الوقت قام أنصار كهنة آمون بتخريب مدينة أخيتاتون وتحطيم آثارها ونبش قبورها اذ اعتبروها مكانا منبوذا وبذلك انتهت ثورة اخناتون بالفشل وان كانت آثارها استمرت بعد ذلك فى نواح كثيرة وعاد الى طيبة رخاؤها وعزها واسترد آمون نفوذه القديم وعاد كهنة آمون الى مجدهم الضائع ومع ذلك ورغم كل ما فعله لنصرة عقيدة آمون فان الكهنة لم يغفروا له صلته باخناتون ومن ثم أغفل اسمه فى كل مناسبة ممكنة وكان يرجى أن يصل الفن الى ذروة رفيعة لو استمرت مدرسة تل العمارنة فى مجهوداتها غير أن الرجوع لعبادة آمون مكن طيبة من العودة الى سيطرتها الأولى ولكن مع

ذلك ظلت مدرسة العمارنة باقية حتى الأسرة ال ٢٢ على الأقل وقد نجحت فى ادخال الكثير من الرقة والرشاقة الى منتجات مدرسة طيبة مدن قرن على الأقل ، وعلى كل حال فاننا نرى فى محتويات مقبرة توت عنخ آمون وفى مقابر عهده ومن خلفه من ملوك الأسرة ال ١٨ كثيرا من مظاهر التحرر المعروفة عن فن تل العمارنة ٠

أما عن حياته الزوجية فيدل ما بقيمن آثار على أنه كان سعيدا مع زوجته كما توضح صورها معه على كرسى العرش وعلى صناديق الثياب والمجوهرات وعلى المقاصير وغيرها غير أن المؤرخين قد اتهموا عنخ آمون بتهمة خطيرة وهى أنهـا أرسلت الى الملك الحيثى تطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويصبح ملكا على البلاد ٠ هذا الحادث لم يصلنا الا بعض فقرات قليلة عنه عن طريق بعض النصوص التى ظهرت فى بوغاز كوى العاصمة القديمة للحيثيين ونعرف من هذه النصـوص أن الملك الحيثى قد استجاب لهذه الدعوة وأرسل أحد أبنائه ٠ أما المصادر المصرية فلم تذكر أى شىء عن ذلك ويبدو أن المؤامرة قد فشلت وقتل الأمير الحيثى فى الطريق قبل أن يصل الىمصر ، وقد نسب بعض المؤرخين هذه المؤامرة الى نفرتيتى لا الى زوجة توت عنخ آمون ٠وعلى العموم فقد انتهت أخبار عنخسن با آتون فجأة وربما تكون قد حوكمت عندما اكتشف أمر المؤامرة كما يلاحظ أن اسمها لم يرد على جدران مقبرة الملك « أى » خليفة توت عنخ آمون التى قيل انها تزوجته بل وجد اسم زوجة أخرى تدعى « تى » وقد مات توت عنخ آمون وهو صغير السن بعد أن حكم قرابة تسع سنوات ودفن فى قبر صغير ربما أعد لغيره اذ لم يتسع له الوقت لاقامة قبر ملكى ، وقد كدس أثاثه رغم فخامته وتشير هـذه المقبرة وما كدس فيها من أثاث الى اسراف كبير فى المظاهر والترف والثروة المنقطعة النظير ، وقد اكتشفت هذه المقبرة التى تعد أصغر مقابر وادى الملوك فى نهاية عام ١٩٢٢ بواسطة العالم الانجليزى «كارتر»٠

الملك ((أى))
١٣٣٩ ـ ١٣٣٥ ق٠م

بعد وفاة توت عنخ آمون لم يتجه الكهنة الى أمير من أمراء العائلة التى حكمت أكثر من مائتى سنة بل وصل للعرش رجل من الشعب هو « أى » ونحن نعده أول القواد العسكريين الثلاثة الذين حكموا البلاد على التوالى وهم أى ، وحور محب ، ورمسيس الأول مؤسس الأسرة ال ١٩ ولذا يسمى بعض العلماء هذا العهد بعهد القواد العسكريين وهناك من العلماء من يرى أن « أى » اشترك مع توت عنخ آمون فى الحكم اذ عثر فى الصرح الثانى بالكرنك على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمهما المشترك هدمه حور محب واستخدم أحجاره فى بناء الصرح ، وكان « أى » من عامة الشعب انخرط فى سلك الجندية حتى بلغ القصر عن طريق زواجه بالسيدة « تى » مرضعة نفرتيتى وكانت الأم المرضعة عند المصريين القدماء تكاد تكون فى مرتبة الأم الوالدة ولاشك أن « أى » قد لعب دورا مهما أثناء حياة اخناتون وكان هو المدبر لانتقال توت عنخ آمون الى طيبة وقد لوحظ على جدران مقبرة توت عنخ آمون منظر لم نر له مثيلا من قبل ، يظهر الملك « أى » وهو يقوم بعملية فتح فم الملك الذى سبقه وربما أراد بذلك أن يسجل لنفسه الحق فى

العرش ، ومن آثار « أى » المعروفة هيكل أقامه فى أخميم ، واذا كان أمر مؤامرة زوجة توت عنخ آمون للزواج بأمير حيثى أمرا حقيقيا فربما تم ذلك بعد وفاة توت عنخ آمون مباشرة وعلى كل حال فليس لدينا أى دليل على أنها تزوجت « أى » ، فعلى جدران قبر « أى » ذكر فقط اسم زوجته « تى » فربما هو كتم أمر هذه الملكة عندما عرف أمر تآمرها وكان « أى » شيخا هرما عندما تولى الحكم ولذا لم يتجاوز بقاؤه على العرش أربع سنوات ٠

حـــور محـــب

١٣٣٢ ـ ١٣٠٨ ق٠م

يعده بعض المؤرخين مؤسس الأسرة ال ١٩ على اعتبـار أن « أى » كان آخر ملوك العمارنة وأن حور محب كان عهده عهد تجديد وتغيير فى كثير من النواحى ولكن لا يمكننا أن نركن الى هذا الرأى فالواقع أن حور محب قد ختم عهد العمارنة ختاما لا رجعـة فيه ومهد لأسرة جديدة هى الأسرة ال ١٩ وقد نشأ حور محب من أسرة شريفـة فى بلدة الشيخ فضل بشرق النيل محافظة المنيا حاليا وكان قائدا للجيش فى عهد اخناتون وتوت عنخ آمون وقضى اكثر أيامه فى منف المركز الرئيسى للجيش وبنى قبـل أن يتولى الحكم قبره فى سقارة وقد قام بعدة مهـام أيام اخنـاتون كجمع الجزية من بلاد النوبة كما أظهر مهارة كبيرة فى عهد توت عنخ آمون عندما قاد حملة عسكرية الى آسيا وعندما تولى « أى » الحكم كان مركز حور محب الادارى متينا فقد كان حائزا لثقة الجيش ولكهنة آمون وكان قائدا عاما للقوات العسكرية ورئيس المستشارين الملكيين حتى ليبدو أنه كان الحـاكم الحقيقى للبلاد ومع ذلك فلم يحـاول الاستيلاء على العرش من « أى » بل ترك الأمور تسير كما تشاء بغير تدخل أو تغيير ، وقد تميز حور محب بيقظته واخلاصه فى تأدية واجبه وبوقوفه على الحيـاد بين دعوة اخنـاتون وعقيدة آمون

فأبعد بذلك الجيش عن ذلك الخلاف المذهبى فلما مات « أى » تمكن حور محب من اعتلاء العرش دون اراقة نقطة من الدماء وتزوج من أميرة من الأسرة المالكة هى « موت نجم = حلو عزب » ليصبح حقه فى العرش شرعيا وقد تمسك عند اعلانه رسميا لحكمه بأن أعضاء عائلة العمارنة ملحدون وأنه أول ملك شرعى منذ موت أمنحتب الثالث كما قام بتسجيل اسمه على كل المبانى التى أقامها توت عنخ آمون كما أمر بمحو اسم « أى » من على آثاره ومن ثم أخذ يعيد بسرعة هائلة ما كان لعبادة آمون من حقوق مسلوبة وأمر باصلاح المعابد وترميمها فى كل مكان ، ومع حملة حور محب الشديدة على اسم وعقيدة اخناتون فانه حاول ارضاء أعدائه أيضا وأسند بعض المناصب الى مؤيدى اخناتون وقد قام حور محب بتنظيم أمور الجيش وتزويده بالسلاح ومع ذلك فقد كانت تجارب الحياة قد علمته فاتجه رغم أنه من رجال الجيش الى الأعمال الداخلية والاصلاح الادارى اذ أدرك أن ذلك يجب أن يسبق أى محاولة للتوسع فى الخارج وأن الاستقرار الداخلى أجدى بكثير من افناء موارد الدولة فى حرب غير مأمونة العواقب وقد راعى حور محب ما أصاب النظام الادارى من فساد عندما أغفل اخناتون شئون مصر ودولتها وانصرف للتسبيح بمعبوده الجديد ففسدت ادارة البلاد وانتشرت الرشوة وكثرت الاختلاسات وأساء الموظفون استخدام وظائفهم وأخذ رجال الدولة فى ارهاق الفلاح ليملأوا مخازنهم لذلك نرى حور محب يعقد معاهدة مع ملك الحيثيين ليضمن استقرار الحدود ثم يندفع نحو الاصلاح بكل ما أوتى من قوة نحو الاصلاح الداخلى فأصدر مرسوم قوانينه الذى عثرنا عليه مهشما على لوحة حجرية طولها خمسة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار بالكرنك كذلك عثرنا على صورة أخرى مهشمة فى أبيدوس مما يدل

على أن الملك تولى نشر هـذا المرسوم فى أماكن مختلفة وقد بدأ حور محب هـذا المرسوم بقوله « سن جلالته هذا القانون وأصدره لضمان رفاهية شعبه » كما يقول فى آخره « هذه هى أوامرى التى أصدرتها نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ لهـذه البلاد » مما يظهر أن الغرض من وضع هذه القوانين هو العمل على رفاهية الشعب وتخليصه من الظلم الذى كان واقعا عليه وينص هـذا المرسوم على عقوبات شديدة تصل الى جـدع الأنف والنفى الى الحدود لمن يسرق السفن التى تحمل الضرائب الى خزائن الدولة أو الى المعابد أو الى القصر الملكى ولمن يتلاعب من موظفى الضرائب ومن يحتـال على الفـلاحين بأخـذ بعض الحبوب أو من يقسـو أو يرهق الأرقاء كما نص على قتل من يأخذ رشـوة من القضـاة وعلى كل حال فلا يمكننا أن نعد هذا الأمر مرسـوما قانونيا بمعنى الكلمة كما نفهم الآن بل هو عبارة عن مجموعة تعليمات تنظيميـة موجهة ضد من يعيثون فى الأرض فسادا ، أمر بها فسجلت تحت أعين الناس فى المعـابد الكبرى وعلى كل حال يعده المؤرخون من أعظم رجال الاصلاح الاجتمـاعى فى التاريخ القديم كذلك أمر بالتفتيش على المقابر لأنه حدثت بعض الاعتـداءات والتعديات ، وقد أقـام حور محب الصرح الثانى بالكرنك واستخدم فى اقامتـه كثيرا من أحجار معابد اخناتون وخلفائه وقد عثرنا على تماثيل له بعضهـا يصوره فى هيئة الكاتب مما يدل على تعلقه بالثقافة والكتابة .

هكذا حكم حور محب ما يقرب من ثلاثين عاما أعاد فيها أمنها وسلامتها ولمـا مات دفن فى مقبرته الكبرى بوادى الملوك التى تتميز جدرانها الداخلية بنقوشها الرائعة ومما هو جدير بالذكر أنه كان قاسيا على « أى » اذ اغتصب معبده الجنائزى الذى لم يتم وأكمل هو

بناءه وأخذه لنفسه ونذكر هنـا أن لحور محب مقبرة أخرى أقامها فى سـقارة قبل أن يتولى الحكم ، سرقت جدرانهـا وتوزعت بين متاحف لندن وفينيسيا وبرلين واللوفر والمتحف المصرى وبولونا بايطاليـا ٠

وعلى كل حال فقد كان حور محب مصلحا قديرا واداريا حازما تمكن من تجنيب البلاد شر الظلم ورد الى القوانين المصريـة احترامها وتقديرها ٠

الزعامـــــة

احتاجت مصر الى جيل كامل لتستعيد ما فقدته فى أمورهـا الداخلية أثناء ثورة العمـارنة ، أى أنها لم تقم بأى مجهود يذكر لاستعادة امبراطوريتها خلال فترة حكم حور محب ، وقد وقف الحظ بجانب مصر خلال هـذه الفترة ووفر لها رجـالا كان لهم من قوة البأس ورباطة الجـأش ما استطاعوا به أن يعيدوا للبلاد جزءا من مجدهـا .

وعلى الرغم من أن حور محب كان رجلا عسكريا فى المقـام الأول ، وعلى الرغم من أنه صور لنا على جدران مقبرته بسقارة ما يشير لحملات قام بها لاستعادة مجد مصر الحربى ، فاننا نفتقد من الأدلة والقرائن الأثرية ما يثبت ذلك ، فعلى العكس من ذلك تماما فقد كانت مصر فى حاجة الى اتخـاذ خطوات جريئة لاعـادة الأمن والثقة داخل البلاد ولعل مرسومه الذى أصـدره ليصلح به المساوىء ويعيد به الأمن للبلاد أصدق دليل على ذلك .

وقد عاون حور محب فى مهامه الاصلاحية فى البلاد وزيران من العسكريين من مدينة أواريس هما رمسيس وابنه سيتى ، ولعل ذلك مما سـاعد على انتقال العرش فى أعقاب موت حور محب الى

بيت رمسيس الذى حافظ على العرش لسنوات عديدة وعلى أجيال متعاقبة فيما نعرفه بعصر الرعامسة ·

وهكذا يتضح لنا كيف أن عائلة رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة لا تنتسب الى العائلة المالكة بل كانت من طبقة العسكريين ، وموطنها الأصلى شرق الدلتا ، ولعل قنتير كانت مسقط رأسها ·

ومن المفترض أن حور محب قبل وفاته قد أشرك معه فى الحكم وزيره « رعمسسو » نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى ، وتزوج رمسيس الأول من ابنة أحد العسكريين وهى « سات رع » ورزق منها ولدا عرف باسم سيتى الأول عند توليه العرش فيما بعد ، وهكذا نرى أسماء ملوك هذه الأسرة الجديدة تأخذ اتجاها يخالف ما عرفناه من قبل ، فقد حل مكان تحتمس وأمنحوتب أسماء رمسيس وسيتى ومرنبتاح ، ومعنى ذلك أن آلهة الجنوب تحوت وآمون حل محلها آلهة الشمال رع ست وبتاح ، ورع هو اله الشمس المعروف طوال عصور التاريخ المصرى ، أما ست الذى كان يعتبر فى ديانة أوزير من الآلهة الشريرة لأنه قتل أوزير ، فان ديانة رع فى أون قد اعتبرته أحد الآلهة القوية المهيبة الجانب اذ كان يقاتل الثعبان أبو فيس ، وهو يرمز الى القوة التى تجمع السحب وتدفع بها على صفحة السماء ·

وقد قام يونكر بدراسات واسعة خرج منها بأن ست فى صورته التى تمثله من الأعوان الأقوياء الذين يدافعون عن اله الشمس عبد فى أواريس أو فى مكان قريب منها وأن له فيها معبدا شيد فى عصور قديمة ترجع الى أوائل عصر الدولة القديمة على الأقل ·

أما بتاح فهو الاله الخالق المبدع الأول لمنف العاصمة الحضارية الكبرى طوال عصور التاريخ المصرى ·

ونعود الى رمسيس الأول رأس هـذه الأسرة ومؤسسها ؛ فنجد أنه حين ولى العرش كان كهلا فلم يعمر أكثر من عامين ، بل ان مانيثون ذكر أنه حكم سنة واحدة وأربعة شهور ، فاستعان رمسيس الأول بولده سيتى الأول على تصريف شئون البلاد ، فعهد اليه بالوزارة والقيادة ورئاسة الشرطة والرياسة التقليدية للكهنة ، وبهذا لم يذكر للكهل من جديد أكثر من أنه ضمن الحكم الأهله وخلفه فيه ولده الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للأسرة ٠

ونظرا لقصر عهد الرجل فلا نجد غرابة من قلة أعماله وانشاءاته ، ولعل أهمها ما عثر عليه من آثار محراب له صغير أتمه ولده سيتى بناحية العرابة المدفونة وقد نقل المحراب الى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما ذكر اسمه على بعض الآثار بالقرب من البوابة الثانية بالكرنك ، كما كتب اسمه أيضا عليها وربما تدلنا هذه الكتابة على أنه هو البادىء بالبناء ٠

أما مقبرته فقد نحتت فى وادى الملوك وتحمل رقم (١٦) وكانت بسيطة فى تصميمها وهى عبارة عن حجرتين ، زينت واحدة منهما فقط بمناظر رحلة الشمس الليلية ووضع التابوت فى وسط الحجرة وهو من الجرانيت وقد لونت نقوشه بدلا من أن تنحت ، ثم عبث بها ونقلت الجثة الى خبيئة الدير البحرى ٠

على أن أهم ذكر لرمسيس الأول كمؤسس للأسرة التاسعة عشرة قد جاء على لوحة الأربعمائة التى كشف عنها فى تانيس ٠ وكذلك على تمثالين عثر عليهما فى الكرنك عام ١٩١٣ ٠

هذا عن أعماله الداخلية ، أما على الصعيد الخارجى فان عهده لم يسجل أى حدث يذكر فى السياسة الخارجية ، ولم تستطع مصر أن تلعب دورا مهما فى تاريخ الشرق القديم كسابق عهدها الا فى

عهد ابنه وخليفته فى الحكم سيتى الأول ، ومن الغريب حقا وعلى الرغم من كل ذلك أن النـاس أحبوا رمسيس الأول حتى أنهم ألهوه كما سبق لهم من قبل تأليه أمنحوتب الأول الذى حكم فترة قصيرة أيضا ، وفى الواقع ان الناس لم يقدسوا هذين الفرعونين دون تفكير ، وانما لمسوا فيهما اخلاصا للوطن وقدرة على تحمل الأعباء ، وكلاهما قد مهد لخلفائه من بعده بناء دولة قوية ، فأمنحوتب الأول وضع اللبنات الأولى فى تأسيس امبراطورية شاء الله لها أن تمتد حتى الشلال الرابع جنوبا ، ووصلت شمالا الى أطراف الفراتين ، أما رمسيس الأول فقد كان مؤسس أسرة جديدة استطاعت أن تعيد للبلاد عزها ومجدها فى الداخل والخارج ٠

سـيتى الأول :

كان سيتى الأول من العسكريين الذين خدموا فى الجيش أيام حور محب وتتلمذ على يد هـذا القائد والسياسى العظيم والادارى الفذ ، من ذلك نرى أنه نشأ فى بيئة عسـكرية ، فوالده رمسيس الأول كان أيضا من العسكريين المتازين ، فلم يكن سيتى من سلالة ملكية ، فأبوه وأمه كانا من عامة الشعب كما أسلفنا الذكر ٠

وحينما بلغ سيتى أشده واستوى عوده وتجـاوز الثلاثين من العمر قلده رمسيس الأول المناصب الرئيسية فى الدولة ، التى كان يشغلها هو قبل بلوغه العرش ، وقد جاء ذكر الوظائف التى تقلدها سيتى قبل وصـوله العرش على لوح الأربعمائة ، فقد كان حامل المروحة على يمين الملك ، ورئيس كتائب الرماة فى الجيش ، ومشرفا على الحرس فى قلاع ثارو ، ورئيسـا لحرس الحـدود ، ووزيرا للملك ، ومشرفا على كتائب الفرسان ، وفى الواقع كان سيتى اليد المحركة للدولة أيام والده رمسيس الأول ٠

وبالرغم من أن سيتي قد اعترف بالجميل لوالده فانه اعتبر نفسه فاتح عهد جديد ، اذ نجده يكنى بالعبارة التالية « مجدد الميلاد » ، وقد جاء ذلك الوصف فى السنتين الأولى والثانية من حكمه ، فنجد مثلا «السنة الثانية من عهد مجدد الميلاد سيتى الأول»، وهذا التعبير يؤدى الى معنى كلمة النهضة باللغة العربيـة ، وقد استخدمها المصريون فى أواخر الأسرة العشرين كتعبير عن العودة الى القديم ، وقد أدخل هـذا اللقب فى لقبه الخاص بالسيدتين وأحيانا فى اللقب الحورى كما فعل من قبل أمنمحات الأول فى بداية الأسرة الثانية عشرة ، اذ اعتبر هـذا الأخير حكمه بداية عهد جديد أيضا .

على أى الأحوال فقد بلغ سـيتى الأول العرش وقد ناهز الأربعين من عمره وعلمته الأيام التى عاشها مع حور محب السياسة الحكيمة التى أتبعها ذلك الأخير فى علاجه ما أفسدته الأيام فى عهد اخناتون ، فعمل سيتى على أن يكسب ود الشعب باهتمامه باصلاح ما هدمته الأيام من دور العبادة . كما سجل على أحد صخور تلال النوبة مرسـوما لحماية مخصصات منشآته الدينية بناحية العرابة المدفونة فى بلدة (نورى) ، وتبلغ مساحـة هـذه اللوحـة ٢ر٨٠ × ١٥٠ من الأمتار ويشاهد فى جزئها العلوى سيتى الأول يقدم القرابين للآلهة الرئيسية للدولة آمون رع ، وحور آختى ، وبتاح ، وتجدر الاشارة الى عدم تصوير الاله أوزير اله معبد العرابة الذى أصدر المرسوم لحماية مخصصاته ، وقد أرخت اللوحة بالسنة الرابعة من حكم سيتى الأول .

وتعددت مثل هـذه القوانين والمراسيم التى أصدرها سيتى بشأن مثل هذه المنشآت ويتضح من نصوصها كيف التجـأ سيتى الى العقوبات القاسية التى لجأ اليها حور محب وذلك ليعطى مرسومه أهميـة كبرى .

نشاط سيتى الأول الحربى :

كانت لبداية الأسرة التاسعة عشرة أصداء داخلية تختلف عن صداها الخارجي ، ففي حين اعتبرها المصريون فى الداخل بشيرا بعصر نهضة ، فقد ظنتها بعض الطوائف الخارجية لحداثتها فرصة ذهبية لحرمان مصر مما بقى لها من نفوذ خارجى فى عالم التجارة والسياسة ، وشجعتها على هذا الظن عدة عوامل أخرى ، كان منها قلة النشاط العسكرى لمصر فى أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وانهيار دولة حلفائها الميتان تحت ضربات الحيثيين (الخاتيين) ، تفرغ الحيثيون لتحريض من والاهم من أمراء الشام على المصريين ، وزادت هذه الملابسات سوءا بظهور هجرات آرية الطابع أشاعت التوتر فى الشرق ، وقد خرجت طوائفها الأولى من مواطنها المجهولة منذ أوائل القرن الرابع عشر ق٠م٠ وتسللت الى الحوض الشرقى للبحر المتوسط واختلطت بسكان جزره وسواحله اختلاطا جزئيا ، وعمل رجالها مرتزقة عند من يجزلون العطاء لهم من أمم الشرق الغنية ثم رنت بعض طوائفهم الى الشواطىء الجنوبية للبحر فى أواخر القرن نفسه ، ولما عز عليها أن تقصد السواحل المصرية مباشرة اتجهت الى النزول غربها على الشواطىء الليبية ٠

وهكذا حتمت الظروف السياسية على مصر أيام هذه الأسرة والأسرة التى تلتها أن تكرس جهودها الجبارة للدفاع عن كيانها ، والقت الأيام على ملوكها وشعبها عبئا ثقيلا أرهق جيشها وخزانتها حتى استنفدت كل ما كانت تملك من قوة ومال فى سبيل الذود عن حياضها والدفاع عن حدودها وتأمين سلامتها والمحافظة على أملاكها ، وادخار ما كان لها من كرامة سياسية موفورة ٠

وكان حظها يومئذ فى يد القضاء يتردد بين أفقين بعيدين ولا يكاد يعرف الى الاستقرار سبيلا ، فكانت مصر تبذل أقصى

ما تملك من جهد فى سبيل المحافظة على فلسطين وتلاقى العنت والمشقة فى سبيل اخماد ثوراتها التى لا تكاد تنتهى ، وكان عليها أن تطيل السهر على سلامة الأقطار السورية والساحل الفينيقى ، ولقد قامت فى وجه مصر يومئذ عقبات وصعاب ، نظرا لما أصيب به حكام تلك البقاع من غرور فتنهم على أيدى دولة الحيثيين ، فباتوا ينخدعون بسلطان وهمى يحبب الى نفوسهم الثورة بغية الخروج على ملك مصر والانفلات من قيده •

وأخذ سيتى الأول الذى ارتقى العرش وهو فى سن الرجولة الناضجة على عاتقه تنفيذ تلك المهمة الشاقة وهى اعادة السيطرة المصرية على ربوع فلسطين وسوريا فبدأها فى العام التالى لتوليه الحكم مباشرة ، لعله يستعيد الامبراطورية الآسيوية فاهتم بصيانة وحراسة الطريق الحربى الذى كان يشق صحراء سيناء الموحشة وذلك بانشاء نقط الحراسة ، وحفر الآبار التى وضعها تحت الحراسة • وعلى أحد جدران معبد آمون بالكرنك نرى نقشا يمثل ما يشبه الخريطة الحربية لصحراء سيناء بين ثارو (الحصن المصرى على الحدود) ومدينة رفح (أول قرية فى فلسطين) •

وشيد سيتى الأول عند كل بئر أو مورد ماء على طول الطريق قلعة محصنة تقيم فيها حامية صغيرة ، ونرى من أسماء تلك الواحات الصغيرة فى الصحراء أنها أعمال حديثة التشييد ، أو على الأقل حديثة التنظيم ، ونفهم من الأسماء أن بعض تلك الواحات كانت موجودة من قبل ولكن أعيد تنظيمها •

كما اتخذ سيتى اجراءات حاسمة فى اعادة تنظيم الجيش المصرى الذى أصبح يتكون من عدة فرق كاملة أطلق على كل منها اسم اله من آلهة مصر الكبرى كما ألحق بكل منها مجموعة كبيرة

من العربات الحربيــة لعبت دورا كبيرا فى المواقع الحربيــة فى عصر الرعامسة ، اذ كان دخولها المعركة بمثابة التعجيل بالفوز والنصر ٠

واستن سيتى الأول سنة جديدة بتسجيل أخبار حملاتــه الحربية ، فبدأ بذلك عصرا جديدا فى تسجيل الأحداث التاريخية ، اذ خصص جزءا كبيرا من المسطح الخــارجى للجدار الشمالى لهذا البهو الكبير للأعمدة بالكرنك ، الذى شرع فى تشييده رمسيس الأول لتسجيل مناظر انتصاراته الكبرى التى حققها فى فلسطين ، ولعل هذا الأمر أول محــاولة لتنفيذ مناظر منقوشــة على ساحات واسعة من عصر الدولة الحديثــة ، اذ أن المناظر المشابهة التى وصلت الينا من العصـــور السابقة لسيتى الأول كانت تنقش على أدوات صغيرة مثل الجوانب الواقيــة للمركبات الحربيــة أو صناديق صغــيرة وما الى ذلك ، وكانت مناظر الحرب التى سجلها سيتى الأول تصور باسهاب كل أحداث الحملة ابتداء من خروج الجيش من « سيلة » أول حصن عند الحدود المصرية حتى رجوعه اليه ٠

حقا ان هذه المناظر لا يمكن أن تقارن بالوصف المــادى الذى تميزت به حوليات تحتمس الثالث ، ومازلنــا نأسف لأن معــارك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين لم تصــل الينا مشروحة بتلك الطريقة الموضوعية التى اتبعت فى عصر تحتمس الثالث وان كانت هناك بعض اللوحات الحجرية التى أقامها سيتى الأول مثــل تلك اللوحة التى نصبها فى بلدة « بيت شيان » (بيسان) فى فلسطين والتى نقش عليها نصــوصا تميط اللثام عن بعض الحقائق الخاصة بهذه الحملات ، الا أنها لا ترقى مطلقا الى ما وصلت اليه الحوليات من اسهاب فى الشرح الموضــوعى ، وهذه النصوص تفصل لنا احدى المعارك التى أدارها ســيتى الأول على أرض الشرق ، فتصف لنا (كيف ان أمير حماة تزعم ثورة أهل فلسطين فى ذلك الوقت ، وكيف

أنه استطاع الاستيلاء على مدينة « بيت شائيل » كما حالف امارة « باهيريا » ، وكيف أنه أخذ من بعد ذلك يذيع الفتنة ويشعل نيران الثورة فى أكثر البقاع المجاورة ، كما اشتد ضغطه السياسى والاقتصادى على بعض من جاوره من الأمراء ، ولما علم سيتى الأول بذلك صمم على أن يضرب فى تلك الأقاليم ضربته الحاسمة ، فساق على العدو وحلفائه جيوشا ثلاثة فى وقت واحد فأرسل بخير فرق آمون (عظيمة الأقواس) الى مدينة حماة ، وخير فرق رع (مفرطة الشجاعة) الى مدينة بيسان ، وخير فرق ست (قوية الأقواس) الى مدينة ينعم ، وفى مدى يوم خضع الثوار لمجد جلالته .

كما دونت أخبار تلك الحملة الأولى أيضا على جدران الكرنك بل انها لم تقتصر على القول والحكاية فحسب بل تعدتهما الى التصوير ورسم المراحل رسما ، فصورت الطرق وبعض الحصون التى اتخذت معاقل لتمويل الجيش ومهبا لمواصلة زحفه .

أما الحملة الثانية على الشرق فقد سجلت أخبارها على جدران الكرنك أيضا وان ضاع أغلبها ، ولكن عثر على تمثال لأبى الهول لسيتى الأول بالقرنة تشير نصوصه الى هذه الحملة والى أن سيتى الأول قد سلك فيها خطة تحتمس الثالث اذ اعتمدت على قواعد بحرية فى بلاد آمور قبل أن يهاجم قادش ، واستولى فيها على سميرية ، وآلازا ، وأغلب الظن أنها ديار الأموريين وأهم ثغورهم .

وكانت الحملة الثالثة امتدادا للحملة الثانية ، فبعد أن استولى سيتى على بلاد آمور وصل الى وادى الاورنت ، وقد ظهر فى نصوص الكرنك سيتى فى قادش يحارب الحيثيين ، وجدير بالذكر أن « موتالى » بن خاتوسيل الثانى الذى أثار الفتنة فى فلسطين فى الحملة الأولى ، وفى هذه الحملة الثالثة كان هو أول لقاء بين المصريين والحيثيين وانتصر المصريون وتراجع الحيثيون .

وبعد أن قام سيتى الأول بحروبه هذه على آسيا ، هاجم مصر بعض جماعات من الليبيين الذين صورتهم المناظر المصرية بأشكال مختلفة عما صورتهم به من قبل فكانت لهم شعور كستنائية وعيون زرق وبشرة فاتحة ولكن لم يعطهم المصريون اسما جديدا بل سموهم أيضا النحنو ، ومن الجائز أن هؤلاء هم العناصر الأولى للمشوش وغيرهم ممن سيأتى ذكرهم فيما بعد أيام رمسيس الثانى، وقد صور رجال سيتى الأول بعض أحداث هذه الهجمات على جدران الكرنك ، كما ذكرت النصوص كذلك حملة لآسيا بعد هذه الحملة الليبية ، كما ذكرت هذه الحملة الآسيوية نصوص ألواح « بوغاز كوى » التى ذكرتها بالحرب المصرية الحيثية ، ذكرت نصوص الكرنك حملة أخيرة لسيتى الأول قابل فيها الحيثيين فى منطقة ما لم تحدد ، ولكن غالبا ما تكون شمالى قادش ، وأن النصر الذى أحرزه سيتى لم يكن نصرا كبيرا ، وأنه لم يستطع أن يعيد سوريا تماما الى الحكم المصرى ، وقد ظلت هذه المنطقة رغم حروب سيتى هذه متأثرة بحكم الحيثيين ، وهكذا فان حكم تحتمس الثالث الزاهر لهذه المنطقة قد انتهى الى غير رجعة ولم تستطع مصر الى الأبد أن تعيد سلطانها الواسع فى آسيا مرة أخرى بعد فقدانه •

ولكن هذا بطبيعة الحال لا يقلل من شأن سيتى الأول وجهده وجهاده فى سبيل استعادة سلطان مصر القديم على الشرق ، بل يكفيه فخرا أنه أعاد النفوذ المصرى لأرض فلسطين • فثبت بذلك سيادة مصر وسلطانها ، ثم أفلح غالبا فى مد ذلك السلطان الى أقاليم سوريا الجنوبية ، وانه لعمل جليل على كل حال وأقل ما يمكن أن يوصف به أنه قد نبه دولة الحيثيين الفتية الطامعة الى أن قوة مصر ينبغى أن يحسب لها حساب •

نشاط سيتى الأول الداخلى :

سبق أن أشرنا الى أن سيتى الأول قد استهل عهده باصلاح ما هدمته الأيام من دور العبادة ، كما أشرنا الى حرصه على البناء والتشييد بصفة عامة ، ودور العبادة بصفة خاصة ، ولعل ذلك كان اعترافا منه بفضل الآلهة الذين كان لهم الفضل الأول فى انتصاراته الحربية التى حققها ، ويذكر له فى هذا الشأن اتمامه لقاعة العمد التى شيدها رمسيس الأول وكان على سيتى الأول أن يزينها بالصور والنقوش البارزة التى ميزت عصره ، أما عمله الرائع الحقيقى فهو ذلك المعبد الجميل الذى شيده بالعرابة المدفونة بعدد من الأرباب لعبادة كل من حورس ، وايزة ، وأوزير ، وآمون رع ، وحور آختى ، وبتاح ، وظهرت ديمقراطية سيتى الأول فى وضعه هيكله فى الطرف الجنوبى من بهو الآلهة الثلاثة الأخيرة كما أقام معبدا على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا شرقى ادفو على الطريق الصحراوى المؤدى لمناجم الذهب القريبة من البحر الأحمر ، وهو معبد منحوت فى الصخر ويعرف باسم معبد الرديسية (معبد وادى عباد) ، كما شيد معبدا جنائزيا صغيرا تخليدا لذكرى والده رمسيس الأول بالقربة ، ولم يتمكن من اتمامه وأتمه خلفه رمسيس الثانى كالعديد من المنشآت الأخرى ، وقبل أن نختتم الحديث عما شيده سيتى من دور العبادة فلعل من الانصاف أن نذكر له المعبد الذى شيده فى « بيسان » فى فلسطين فى موقع له أهمية حربية واضحة اذ كان يربط بين نهر الأردن والأماكن التى تقع الى الشرق منه ·

وقد بلغت فنون النقش والتصوير والنحت فى عهده درجة عالية من الجمال المترف والذوق المبدع ولا سيما فى معبد شعائره فى أبيدوس ، ومناظر حروبه الخارجية ومناظر تقواه فى الكرنك حيث

صور فى اثنين وعشرين وضعا خاشعا يتعبد فيها لربه آمون رع ويتخذ فى كل وضع منها هيئة معينة ويدعو بدعاء خاص مختلف .

وكان من وجوه النشاط الداخلى فى عهد سيتى الأول اتساع استغلال مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ، وقد صور أحد مهندسيه خريطة على بردية (حاليا بمتحف تورين) لبعض مناجم وادى الحمامات ، لاسيما مناجم أم الفواخير ، حدد فيها مواقعها والطرق المؤدية اليها ، والطريق المؤدى منها الى البحر ، وموقع معبدها المحلى وموقع جبل بخن (جبل الشسبت) منها ، كما اتسع أيضا استغلال مناجم الفيروز فى سيناء ، التى عادت من جديد منذ عهد رمسيس الأول ، ومع الاهتمام بالمناجم اهتم سيتى بتعبيد الطرق وشق الآبار لسقاية البعثات حرصا على سلامتها فى الطريق ذهابا وايابا .

ويذكر لسيتى الأول أنه وضع أسس كتابة التاريخ الرسمى للأسرة الثامنة عشرة وصدر الأسرة التاسعة عشرة ، وذلك عندما صور فى معبده الجنازى بأبيدوس واقفا متعبدا أمام خراطيش الأجداد من الفراعنة الذين سبقوه ، وقد ضمت القائمة ستة وسبعين اسما تبدأ بالملك مينا لتنتهى عند الملك سيتى الأول ، ويلاحظ اغفال القائمة لملوك عصر العمارنة (اخناتون ، وسمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون ،وآى) كما أغفل اسم حتشبسوت التى اعتبرت مغتصبة للعرش ، ويلاحظ فى القائمة أنها سيعاد استخدامها كما هى حتى عهد رمسيس الثالث ولكن بعد اضافة من تلا سيتى الأول من ملوك .

وقبل أن تختتم الحديث عن عهد سيتى الأول فلعل من الخير أن نشير الى أسرته بشكل يوضح لنا كيف انتقل العرش من بعده الى رمسيس الثانى .. كان سيتى الأول قد تزوج سيدة تدعى « تويا » وأغلب الظن أنها لم تكن من أسرة مالكة وأغلب الظن أنها

عاشت مدة بعد وفاة زوجها ، ويعتقد « ماسبيرو » أنها كانت وصية على عرش ابنها رمسيس الثانى اثناء غيابه فى الحروب التى شنها على ختيا ، وأنجبت « تويا » لسيتى الأول عدة أولاد كان من بينهم الابن الأكبر « آمون نفر نب اف » الذى مات فى حياة أبيه ، فانتقلت ولاية العرش منه الى شقيقه « رمسيس الثانى » ٠

على أن من مظاهر الخلاف بين العلماء فى عهد سيتى الأول مدة الحكم التى قضاها على عرش مصر فهى بين أربعة عشر عاما وثمانية عشر عاما ، ولعل الفرق الممتد لسنوات أربع هذا يعود الى فترة الاشتراك فى الحكم بين سيتى الأول وابنه وخليفته فى الحكم رمسيس الثانى ، فقد كان نظام الاشتراك فى الحكم هذا سنة نشأت على ما يبدو من حرص الملوك الرعامسة الشديد على تجنب الوقوع فى مشاكل وراثة العرش التى قضت على الأسرة الثامنة عشرة ٠

على أى الأحوال فقد ودع سيتى الأول الحياة بعد أن حقق لمصر أجمل الذكريات ، فقد أفلح فى اعادة ما يقرب من نصف امبراطورية مصر فى آسيا ، كما أمن طرق المواصلات بين بلاده وفلسطين ، وأزال الخطر الذى كان يتهدد البلاد من ناحية ليبيا ، كما أنه حقق لها نهضة معمارية عظيمة بعد الخراب الذى لحق بها فى أعقاب ثورة العمارنة ، ودفن سيتى الأول بمقبرته التى عثر عليها بلزونى عام ١٨١٧ بوادى الملوك ، كما عثر على موميائه فى خبيئة الدير البحرى ، وهى الآن بمتحف القاهرة ٠

رمسيس الثانى

لم يكن رمسيس الثانى مجرد ملك من ملوك مصر القديمة فحسب ، بل انه اسم رفع وخلد فى التاريخ فوق أسماء الملوك ، وعلم رفيع من أعلام الشهرة الخالدة والصيت الذائع ، ولعله لا توجد أمة فى دنيا الناس تجهل اسمه ، بل اننا لا نظن أن دنيا الحكم والملك والسياسة والتاريخ والبطولة والمجد والحرب والشهرة وبعد الصيت سوف تنسى ذلك العلم الى آخر الدهر .

حقا فما كان الرجل اماما لفراعنة الوادى ولا زعيما لهم ، بل كان واحدا منهم ، بل أكثر من ذلك أنه من بين أسلافه وخلفائه من كان أشد منه بطشا وأقوى أثرا وأوفر مالا وأكثر جندا وأعز نفرا ، ولكن الدهر قد منح « رمسيس الثانى » من عطاء التاريخ بعض ما ليس له ، فسجل له شهرة واسعة عريضة ، ونسب اليه من أعمال البطولة والمجد والعظمة على حساب غيره ما لا يحصى ولا يوصف .

سبق أن أشرنا فى نهاية الحديث عن سيتى الأول أنه قد أشرك معه فى الحكم ولده وولى عهده رمسيس الثانى ، ولعل أمر اشتراكه فى الحكم هذا مع أبيه لم يعد ذا موضوع يستحق الدراسة أو التحقيق خاصة بعد نص الاهداء المسجل بمعبد أبيدوس الذى يشير فيه رمسيس الى أن والده قد رفع شأنه منذ كان طفلا وأنه

قد منحه الأرض وهو فى البيضة ، وقبل العظماء التراب أمام وجهه كما قدمت التقارير اليه عن حالة الأرضين بوصفه قائدا للمشاة ، وأنه توج ملكا وهو طفل ، ووضعت التيجان فوق رأسه والصل على جبينه ، ووالده على الأرض حى ، وكذلك نص « لوحة كوبان » والتى يمجده فيها رجال القصر فيصفونه بأنه كان يضع الخطط عندما كان طفلا ، وأنه كانت تلقى على كاهله أعباء الدولة حينما كان صبيا يزدان رأسه بذؤابة الصبا والامارة .

كل ذلك حدث على الرغم من أنه كما أسلفنا الذكر لم يكن – رمسيس الثانى – أكبر أبناء أبيه ولم يكتب له نظام الحكم والوراثة شيئا من الحق فى عرش هذا الوادى ، ولكن القدر كان يدخر له ذلك فأخلى له السبيل الى العرش بوفاة أخية الأكبر وصاحب الحق الأول فى ذلك العرش ، ثم مهده له برغبة أبيه الملحة فىالاحتفاظ بالعرش فتوجه فى حياته وجعله شريكا فى الحكم تأمينا لآماله فى بناء مجده وأسرته .

نشاطه الحربى :

ولابد ونحن بصدد دراسة الوقائع الحربية التى جرت أيام رمسيس الثانى أن نحاول التفرقة بين الحروب التى خاضها فعلا والمناظر التى نراها على دور العبادة ، والتى لا تعدو سوى أن تكون مناظر للتفاخر بقوة فرعون وبأسه وانتشار نفوذه فعلى لوحة مؤرخة بالعام الثانى من حكمه عثر عليها فى أسوان يتباهى رمسيس الثانى بأنه سحق الآسيويين والحيثيين وبابل وأجانب الشمال والتمحنو والنوبيين ، فأما حملة النوبة فمؤكدة وأما حملة ليبيا فيحيط بها الشك ، أما الحروب الأخرى المتعلقة بآسيا فلا وجود لها الا فى خيال الملك نفسه أو كاتبه الذى نسخ هذه اللوحة ، اذ أنه لم يحارب فى آسيا قبل السنة الرابعة من حكمه .

وتجدر الاشارة الى أنه قبل حروبه فى آسـيا قد خاض معركة مع الشروانيين الذين عاشوا فى جزر البحر المتوسط ، لأننا نجد بعد فترة قصيرة من بداية حكمه أسرى كثيرين منهم فى حرس الملك ، ثم سرعان ما جهز منهم الملك فيلقا فى جيشه الذى حارب به الحيثيين عند قادش ٠

وفى العام الرابع من حكمه قاد وحدات جيشه وسار بها على شاطىء فلسـطين الى الشمال حتى نهر الكلب على بعد قريب من وراء بيروت حيث أقـام لوحا تذكاريا هنـاك وقام بتـأمين طرق المواصـلات والاستيلاء على الموانىء مقلدا فى ذلك تحتمس الثالث وذلك ليتوغل فى البلاد دون أن يتعرض لضربات العدو من خلفـه ، ولعله من حملته هذه قد أراد أن يعيد النجاح الذى أحرزه والده فى الشمال ويؤكده ٠

وفى العام الخامس من حكمه خرج رمسيس الثانى بحملة ضد الحيثيين وتبعه جيش كبير مقسم الى أربع فرق أطلق على كل منها اسما لأحد الآلهة ، آمون ، ورع ، وبتاح ، وست ، وسار بهذا الجيش فى طريق يوازى الساحل الفينيقى نحو الشمال ، وكانت هناك فرق مساعدة تكونت من جنود مرتزقة من الشروانيين الذين أسرهم من معركته التى أسلفنا الذكر عنها خلال عامه الرابع ٠

كان رمسيس الثانى يرى فى الحيثيين عدوه الأكبر وكان ملكهم آنذاك هو مواتال الذى أعد العدة لغزو فلسـطين ، واستعان هو الآخر بفرق أجنبية ، ميزهم المصريون فى نقوشهم التى سجلوها على معابدهم عن الحيثيين بطريقة تصفيفهم لشعور رؤوسهم وذقونهم بل بآلاتهم الحربيـة التى استعملوها ، وليس هنـاك من شك فى أن هؤلاء القوم كانوا من الميتانيين الذين تحالفوا مع الحيثيين وخرجوا للحرب معهم ٠

وعرف الجانبان أهمية اشتراك العجلات الحربية فى المعارك فاعتمدوا عليها بحيث أصبحت هذه المعارك أقرب لموقعة حربية بالعجلات دون سواها ، ولعل الفرق الوحيد بينهما هو أن العربة المصرية يعتليها مقاتلان أحدهما يتولى قيادة الحصانين بينما ينهمك الثانى فى القتال ، أما العربة الحيثية فيعتليها ثلاثة من الرجال فى الأغلب .

ودارت المعركة بين المصريين والحيثيين عند قادش ، وهو حصن على نهر الأورونط فى سوريا ، وكان الملك يتقدم أولى الفرق الأربع التى سبق ذكرها عندما فوجىء بالعدو يداهمه ويخرب معسكر فرقة آمون الذى أقامته على مقربة من حصن قادش ، وبذلك انقطعت الصلة بينها وبين فرق الجيش الأخرى ، وحدث هذا نتيجة لمعلومات خاطئة وصلت الملك الذى أصبح فى موقف حرج يهدد حياته ، فاتجه بدعائه لالهه آمون يطلب منه النجدة ، وليس هناك من شك فى أن الملك استطاع بشجاعته وقوته أن يحول الموقف ويستبدل بالهزيمة الانتصار ، وألقى الرعب فى قلوب جيش العدو وأجبره على الفرار ، ويعتبر « ادوارد ماير » معركة قادش هذه انتصارا كبيرا للمصريين ، وذلك لأن رمسيس الثانى استطاع بهجومه الفردى أن يوقف تقدم الجيش الحيثى نحو الجنوب ، الا أن علماء الحيثيات يرون أن المعركة قد انتهت بانتصار الحيثيين ، والواقع أننا اذا ما أردنا أن نتخذ موقفا محايدا بين الطرفين كان علينا أن نؤكد أن المصريين قد انتصروا فوق أرض المعركة ، ولكن نصرهم المفاجىء هذا لم يعد عليهم بأى كسب حربى ، اذ أنهم لم يقوموا بالاستيلاء على حصن قادش ، كما أن هناك حقيقة أخرى تؤكد ذلك وهى أن الحدود بين الدولتين الحيثية والمصرية بقيت فى موقعها عند نهر الكلب فى فينيقيا تماما كما كانت قبل المعركة ، بل أكثر من هذا لم يستطع المصريون فيما بعد أن يمدوا سلطانهم الى ما وراء نهر الكلب سواء الى الشمال أو الى الشرق ، ولم

يحدث بالطبع ان اقتربوا من نهر الفرات بأى حال من الأحوال ، وحدثت ثورات جارفة فى كل من فلسطين وسوريا وذلك أثناء ارتداد الجيش المصرى ، ومعنى هـذا أن الملك اضطر لمهاجمـة كثير من الحصون لاستردادها من جديد ٠

ولعل هذه المعركة قد كانت فى نظر رمسيس الثـانى أعظم المـآثر الحربية التى وقعت فى عهده ، وسجلت وقائعها مرارا وتكرارا على جدران معابده المختلفة ، فدونت على الجدار الخـارجى لمعبد أبيدوس ، وفى ثلاثة مواضـع مختلفة : معبد آمون رع بالكرنك : فى الركن الشمالى الغربى من فناء الخبيئة ، والواجهة الغربيـة من الجدار الغربى من فنـاء الصرح التاسـع ، والنسخة المعـاد نقشها على السطح الخارجى من الجدار الجنوبى من بهو الأساطين ، كمـا سجلت مرتين فى معبد الأقصر : الأولى على سطح البرج الشـمالى من صرح المعبد ، والأخرى على جدران الفناء الأمامى ، كما دونت على برجى صرح الرامسيوم ، وأخيرا فى معبد أبو سمبل على الجدار الشمالى من القاعة الكبرى ٠

ويمكن ان نضيف الى ما سبق النسخ المدونـة على لفافات البردى ، وهى برديات : « ريفات » و « ساليبه ٢ » و « شستر بيلى ٣ » ، وهكذا يمكن القول بأن عدد ما وصلنا من روايات عن معركة قادش يبلغ حوالى ثلاث عشرة رواية حتى أصبحت هـذه الملحمة النموذج الأمثل لانتصـار المصريين على البلاد الأجنبية ٠ واستغرقت حروب رمسيس الثانى مع الحيثيين مدة العشرين سنة الأولى من حكمه تخللتها بعض الفترات القصيرة من الهدوء والسلام الى ان أدرك كل من المصريين والحيثيين أنه لا طائل من وراء افناء جهودهم فى حروبهم ، والأولى بهم أن يحتفظوا بها ليصـدوا اعتداءات شعوب البحر ، وفى النهاية أدرك كلا الجـانبين المصرى والحيثى أنه لابد من ابرام تحـالف أو معاهدة بينهما ٠

معاهــدة الســلام :

وقد تمت هذه المعاهدة فى العام الحادى والعشرين من حــكم رمسيس الثانى ، وكانت بمثابة معاهدة أمن طيب وأخوة ، كمـا اشتملت على تحالف دفاعى ٠

وقــد وصــل الى أيدينــا لحســن الحظ كل من النصــين الهيروغليفى والمسمارى لهذه المعاهدة ، وجاء فى النص المصرى أن الملك الحيثى خاتوسيل أرسل رســلا يطلبون الصــلح من رمسيس الثانى « ثور الحكام الذى جعل حده حيثما أراد فى كل بلد » ٠ فى حين ذكر النص الحيثى أن رمسيس الثانى هو الذى بدأ بالاتصال بخاتوسيل ، واقترح عمل معاهدة صلح بين البلدين ، أى أن كلا من البلدين احتفظ لنفســه بكرامته وذكر أنه وافق على طلب الآخر ، ومن المرجح أن المعاهدة حررت أولا فى العاصمة الحيثيــة بمعاونة السفراء المصريين ، وحملوا النص بعد ذلك الى مصر مكتوبا على لوح من الفضــة ، وربمــا كان رمسيس الثــانى أدخل بعض التعديلات التى رآها فى مصلحة بلاده ثم أعادوا كتابة النص الجديد على لوحين من الفضــة أخذوا واحدا منهمــا الى خيتا ووضعوه عند قدمى اله العاصمة الحيثى ، ووضعوا النسخة الأخرى عند قــدمى اله الشمس المصرى رع ، و فى كلتا الحــالتين أقسم الملك يمينا أمام الآلهة ، وبهذا أصبحت المعاهدة مؤمنة بالسلطة والموافقــة الآلهية ٠

وتعتبر محالفة السلم هذه بمثابة الأولى من نوعها التى وصلت الينا مسجلة ، ففى مصر نقشــت نصــوصها على جدران معبدى الكرنك والرامسيوم ومعنى هــذا أنها كتبت بأسلوب دينى ، وفى بوغاز كوى عثر على النسخة الحيثية المكتوبة بالخط المســمارى وكتبت بالأسلوب القــانونى ، أما النسخة الرسمية الأصلية التى نقشت فوق لوحة من الفضــة فلم يعثر عليها بطبيعة الحال ٠

ويمكننا أن نقسم المعـاهدة الى خمسة بنود أو أقسـام على النحو التـالى :

أولا ــ المقدمة التاريخية وتشير الى وجود حروب ومعاهدات بين مصر وخيتا ، وأن كلا الملكين الحاليين يريدان السـلام ، وتشير لتبادل اللوحين الفضيين المنقوش عليهما النص ·

ثانيـا ــ تأكيد متبادل بشأن عدم الاعتداء من قبل أى من الجانبين على الآخر ، ولابد أنه كان هناك خط حدودى معترف به يفصل بين حدود المملكتين ·

ثالثـا ــ حديث عن معاهدة تحالف دفاعى ضد أى عدو كبير يحاول تنازع خيتا أو مصر فى ممتلكاتهما ، وضد أى ثورات محليـة فى كلتا الامبراطوريتين ·

رابعـا ــ موضوع تسليم اللاجئين السياسـيين الى بلدهم سواء كانوا من ذوى النفوذ أو المواطنين العاديين ، كما تشترط المعاهدة فى هذا القسم حسن معاملة اللاجئين المرحلين لبلادهم ، فلا يقتل ، أو يشوه جسده ، أو يحرم من عائلته أو من منزله ·

خامسـا ــ وفى الجزء الأخير من المعاهدة شأنه شأن أى وثيقة قانونية قديمة ، نرى أسماء الشهود الذين شهدوا على توقيعهـا وهم هنا ليسوا من الأفراد العاديين بل من الآلهـة وتبدأ بآلهـة الشمس والصاعقة ثم تنتهى بباقى الآلهة والالهات ، والجبال ، وأنهار أرض مصر ، والسماء والأرض ، والبحر الكبير ··· الخ ، ولمـا كان كلا الملكين قد أقسم اليمين بشهادة تلك المجموعة الكبيرة من الشهود فان نقض المعاهدة يصبح أشنع الذنوب وأكبرها ·

ولعل أبرز وأهم ما فى هذه المعاهدة هو أن بنودها القانونية السالفة الذكر قد جاءت نتيجة لتجارب وقت طويل من العلاقات الدولية وصلوا فيه لمعرفة المساعدات العسكرية المتبادلة وتسليم اللاجئين السياسيين وحسن معاملتهم .

وكانت هذه المعاهدة هى باكورة عصر ساده الوئام والطمأنينة استمر طوال الفترة التالية من حكم رمسيس الثانى التى استغرقت حوالى خمسة وأربعين عاما ، لذلك فمن الخطأ أن نعتبر هذا الملك من المحبين للحروب بل ان شهرته تنصب على الأعمال الكبيرة والكثيرة التى أتمها أثناء فترة السلام هذه .

وامعانا فى تقوية أواصر المحبة والسلام بين مصر وختيا فقد تزوج الملك المصرى فى عامه الرابع والثلاثين من حكمه باحدى بنات الملك الحيثى خاتوسيل ، وجعلها الزوجة الأولى له وذلك خلافا لما كان يجرى فى الزيجات التى تمت بين فراعنة مصر والأميرات الميتانيات خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة .

نشاطه الداخلى :

اتجه رمسيس الثانى بعد ان أمن ظهره بمعاهدة مع الحيثيين الى البناء والانشاء ، وظهرت لمصر عاصمة سياسية جديدة ارتبطت شهرتها باسمه فسميت « بررعميس » أو دار رمسيس ، وأصبحت واحدة من أمهات العواصم فى الشرق القديم ، ويفهم من الجدل الطويل الذى دار حول تعيين مكانها ، أنها كانت تمتد وتضم بضياعها ما بين قنتير وصان الحجر الحاليتين فى شرق الدلتا ، على الفرع التانيسى للنيل (قرب عاصمة الهكسوس القديمة أواريس)، وكانت بهذا ذات موقع مناسب يتوسط دولة الرعامسة فى مصر والشام ، ويسمح بوجود احتياطى عسكرى كبير فيها يمكن أن ينجد

الحاميات الشمالية على وجه السرعة فى عصر اشتدت فيه أخطار الحيثيين وشعوب البحر ، وذلك فضلا عما توافر لها من استراتيجية حيوية ودفاعية مقبولة نظرا لاشرافها على الفرع التانيسى للدلتا وامكان وصول السفن البحرية الصغيرة اليها وامكان استغلال الفيضانات فى حمايتها من ناحية البر حين الضرورة ، وحماية ظهرها بمناقع الدلتا الشمالية من ناحية البحر ، وأضحت هذه العاصمة الجديدة تضج بالحياة الصاخبة وبالتجارة ، وتلتقى فيها ثقافات البلاد الأجنبية ، فكان يرد اليها خير ما تنتجه بلاد البحر المتوسط وممالك آسيا من صناعات ومحاصيل ، وشيد الملك كثيرا فى تلك المدينة ، وورد فى بعض القصص أن بنى اسرائيل كانوا فى الأسر ، وكانوا يبنون فى هذه المدينة ، مما يدل على وجود عصر ملىء بالنشاط هناك .

وعلى أية حال فلم ينل مجد العاصمة الجديدة كثيرا من أمجاد العاصمتين القديمتين منف وطيبة ، فاحتفظ الرعامسة بقصورهم فى منف وزادوا عمرانها ، كما ظلت معابد آمون رع تحظى بأكبر قسط من رعاية الدولة وثرائها .

وشيد رمسيس الثانى العديد من المعابد ، فبالاضافة الى بهو الأعمدة الكبير بالكرنك ، وما أضافه لمعبد الأقصر ، فقد شيد معبده الجنازى المعروف بالرامسيوم ، كما شيد العديد من المعابد بالنوبة لعل أهمها أبو سمبل ، وجرف حسين ، وبيت الوالى ، ووادى السبوع ، والدر ، واتسمت هذه المعابد بالضخامة التى تؤثر فى النفس دون اهتمام كاف بالنواحى الفنية ، وليس أدل على ذلك من وجود ذلك التمثال الضخم فى تانيس الذى كان يرتفع لتسعين قدما بحيث يصل وزنه الى ما يزيد على ألف طن، وبطبيعة الحال فلا وجود للملامح وسط هذه الضخامة ، ولم يكتف رمسيس الثانى بما شيده

من مبان فخمـة علت كل مبانى مصر بل استخدم دون حياء مبانى أجداده السابقين فاغتصب لنفسه مبانيهم وتماثيلهم باضافة اسمه عليها وهدم بعض منشآتهم السابقة ليستخدم أحجارها فى تشـييد مبانيه ، حتى أضحى بحق امام المدعين وزعيم المعتدين فى دنيا الملوك عموما وفى دنيا الفراعنة خصوصا .

وسارت سياسة الحكم الداخلى خـلال هذا العصر على نحو ما كانت عليه خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة دون جديد بالذكر .

على أية حال فقد عمر رمسيس الثانى ما يقرب من تسعين عاما ، ونعم بحكم طويل بلغ سبعة وستين عاما ، واستمتع فى حياته الخاصة بأكثر مما استمتع به الفراعنـة الذين سبقوه ، وتفوق على أمنحوتب الثالث المزواج فى عدد زوجاته وجواريه ومحظياته ، ونحن نعرف على أقل تقدير ثلاثا من زوجاته الرئيسيات من أميرات البيت المـالك لعل أولاهن وأشهرهن هى نفرتارى صاحبة المقبرة الجميلة بوادى الملكات والتى شيد لها معبد أبو سمبل الصغير بجوار معبده الكبير بالنوبة ، ثم الملكة است نفرت التى أنجب منهـا الأمـير « خع أم واست » ، ومرنبتاح ، ثم الملكة التى أطلق عليها اسـم ماعت نفرو رع وهى ابنة ملك خيتا ، وأنجب رمسيس الثانى عددا كبيرا من الأبناء قدر بعض المؤرخين عددهم ب ٥٩ بنتا و ٧٩ ولدا أو مائة ولد ، غير أن هذا التقدير لا يخلو من شـك كبير ، وقد تنقلت ولاية العهد فى أيام رمسيس بين ثلاثة عشر ولدا من صلبـه مات اثنا عشر منهم فى حياته ، وكان أشـهرهم على الاطـلاق الأمير خعمواس (خع أم واست) الذى اكتسب سمعة واسـعة فى عصره بعلمه الدينى فكان كاهنا وكبيرا للكهنة ثم انه كان المرمم الأول ، فكان يجوب البلاد من الجنوب الى الشـمال لترميم المعابد والمقاصير التى خلفها الأسلاف ، وهـذا يتنافى تماما مع ما كان يفعله والده

من اغتصاب لكل ما يقابله من هياكل أو تماثيل ، وأشرف كذلك على تنظيم الاحتفال بأعياد سد الخاصة بوالده رمسيس الثانى ، ونعرف أن رمسيس الثانى قد احتفل بهذا العيد أربع عشرة مرة أشرف خعمواس على تسع منها ، وودع رمسيس الثانى الدنيا تاركا عرش مصر لولى عهده الثالث عشر مرنبتاح ، وكانت عوامل الانحلال قد بدأت تتجمع فى الخارج والداخل لتضرب ضربتها فى مصر ، ودفن رمسيس الثانى بمقبرته (رقم ٧) بوادى الملوك ، وانتهى به المطاف لخبيئة الدير البحرى ، واحتفظ بمومياته المتحف المصرى بالقاهرة .

مرنبتـــاح

سبق أن أشرنا الى أن ترتيب مرنبتاح بين أبنـاء رمسيس الثانى من الذكور كان الثالث عشر ، وأن والده قد اختـار وليـا للعهد فى أعقاب وفاة شقيقه الأكبر خعمواس ، وذلك فى السـنة الخامسة والخمسين من حكمه ·

وكان مرنبتـاح قد وصـل الى مرتبة الكاهن الأعظم للاله « بتاح » ، وكان يقوم بالمراسم فى جبانـة السرابيوم بسقارة للعجل أبيس ·

وعلى أحد الجعارين التى عثر عليها شمالى فاقوس باسـم مرنبتاح كتب النص التالى :

« الأمير النائب عن « جب » اله الأرض (الملك) والابن الالهى الذى أنجبه الثور القوى ، ومن فى يده تجمع البلاد الأجنبيـة ، الكاتب الملـكى ، قائد الجيش الأعـلى ، الابن الملـكى مرنبتـاح المخلد أبدا » ·

ولا نزاع فى أن هذا النص يشير الى الأيام الأخيرة من حـكم رمسيس الثانى الذى اعتزل كل سياسة تؤدى الى الحرب ، فترك حراسة حدود امبراطوريته الواسـعة لابنه ، وأغلب الظن أن الذكرى

التى أراد بها مرنبتاح تخليدها كانت هى تنصيبه وليا للعهد وقائدا للجيش ٠

وتدل شواهد الأمور فى مصر نفسها على هدوء نسبى بعد تولية مرنبتاح مقاليد الحكم فى البلاد ، حتى أنه وجه اهتمامه فى سنى حكمه الأولى لتوطيد النظام فى ممتلكاته الآسيوية ، الا أن ذلك الهدوء لم يمتد طويلا فهددت مصر بعض الأخطار التى دقت أبوابها من الشرق والغرب ، الا أن الحروب الدامية أبعدتها عن مصر ولو الى حين ٠

نشاطه الحربى :

وترتبط أبرز أحداث عهد مرنبتاح فى أنه ظل يتمتع فى آسيا بنتائج المعاهدة التى عقدها رمسيس الثانى مع الحيثيين ، واحتفظت مصر بحامياتها فى مناطق سوريا وفلسطين ، ومع ذلك فقد اضطر مرنبتاح فى بداية حكمه الى أن يجرد حملة لسوريا ، كما سحق تمردا فى كوش ٠

على أننا لا نملك وثائق محددة عن حملته الى سوريا ، اللهم الا من الاعتقاد باندلاع ثورة عارمة هناك فى أعقاب وفاة والده ، فقاد الملك حملته الى هناك وأحرز نصرا سريعا مؤكدا أن مصر لم تفقد هيبتها بعد ، وعلى لوحة اسرائيل التى اغتصبها مرنبتاح من امنحوتب الثالث (بالمتحف المصرى بالقاهرة) والتى عثر عليها بالمعبد الجنائزى الخاص بمرنبتاح فى البر الغربى بطيبة ، جاء ذكر للقبائل التى قام الملك بقهرها ومعاقبتها من المدن الآسيوية مثل كنعان ، وعسقلان ، وجزر ، وينعام ، ثم تذكر اسرائيل على أنها قد قضى عليها الى الأبد ولن يكون لها نسل بعد اليوم ٠

ودعت هذه العبارة الأخيرة عن اسرائيل الى التساؤلات عن مدى ارتباط حملتها بطرد بنى اسرائيل من مصر ، وهل تم أيام مرنبتاح أو قبلها ؟ وهل مرنبتاح هو فرعون موسى او غيره ؟ ، ولكن لعله لم تتوافر حتى الآن أدلة كافية لاثبات خروج بنى اسرائيل فى عهده او فى عهد غيره ، ويبدو أن قرائن النفى فى ذلك اقوى من قرائن الاثبات فيه ، ومنها أن النص السالف الذكر قد اعتبرهم من قبائل أو نزلاء فلسطين ولم يذكر تتبع الملك لهم من مصر ، مما يعنى أنهم قد نزلوا فلسطين قبل عهده وخرجوا بالتالى قبل عهده ٠

ويلاحظ مع ذلك أن قصة غرق فرعون موسى لا تحل المشكلة ، فالقرآن الكريم يذكر أنه أنجي ببدنه بعد غرقه ليكون لمن خلفه آية ، أى أننا لن نستغرب عدم غياب جثته من بين جثث الفراعنة ، ولم يكتف المؤرخون بوضع احتمالات عهد مرنبتاح فى هذا الشأن الى جانب احتمالات عهد أبيه ، والى جانب ما روجه المؤرخ القديم يوسيفوس اليهودى عن الربط بين هجرة الهكسوس والعبرانيين وخروجهم معهم فى عهد أحمس ، وانما أضافوا الى ذلك فرضا آخر باحتمال خروجهم فى عهد تحتمس الثالث أو ولده أمنحوتب الثانى وذلك على أساس ذكر اسم العابيرو فى نصوصهما ، مع تقريبه الى اسم العبرانيين ، وما زالت القضية حائرة ومعلقة بغير حل مرض حتى الآن ٠

وفى العام الخامس من حكم مرنبتاح اندفع عدد من قبائل شمال افريقيا والصحراء الغربية نحو الحدود المصرية ، سواء كان ذلك نتيجة لزوال شخصية أبيه صاحب الشهرة والمجد ، أو تحت ضغط هجرات آرية جديدة نزلت سواحل افريقية الشمالية أو نتيجة لقحط محلى شديد ، فان من تزعمهم كان شيخا لقبيلة

» ربو « (لبيبيا) وضم اليه أعدادا من خمس جنسيات آرية مهاجرة، وهى جماعات : الأقوش ، والتورشــا ، واللوكى ، والشردانـا ، والشكاش ، واندفعوا جميعا بنسائهم وأولادهم وقطعانهم القليلة ، وطمعوا فى أن يعبروا البرارى الى الدلتا ويستقروا فى أرضها الخصبة، ووصفت المصادر المصرية تحركاتهم بأنهم ظلوا يهيمون خلال الحدود ويقاتلون فى سبيل ملء بطونهم يوما بيوم ثم وصـلوا مصر يتلمسون فيها طعاما لأفواههم ووصل هؤلاء المهاجرون حتى الفرع الكانوبى وكانوا فى أعداد كثـيرة فأعد لهم مرنبتـاح ما اسـتطاعه من قوة واستنصر ربه بتاح فأيده بالنصر ، ولم تستمر المعركة أكثر من ست ساعات وانتهت بأن أعلن المهاجرون الطاعة ، وكان المصريون يدركون حقيقة الفوضى التى يمـكن أن تحيق بأرضهم لو دخلهـا المهاجرون منتصرين ، ولمـا كانت معركتهم معهم من المعارك المعدودة التى دارت رحاها على مشارف أرضهم منذ طرد الهكسوس ، فقد كان لنبـأ النصر عندهم رنة عظيمـة ، فوصف شـاعر الملك أثر انتصار جيوشه بأنه شـمس بددت الغيوم التى كادت أن تغطى سماء مصر ، وأنه جعل مصر ترى أشعة كوكب الشمس ، وأنه كمن أزاح جبلا من النحاس من فوق أكتاف الناس ، ووهب نسمة الحياة لشعب كاد يختنق .

وجدير بالذكر أن محاربة المصريين لليبيين الجدد وحلفائهم فى هذا العهد ، لم تمنعهم فى الوقت نفسه من استخدام أهل الحدود الغربية الأصليين المسالمين فى حراسـة معاقلهم الصحراوية ، بل أكثر من ذلك أنها لم تمنعهم من استخدام بعض المهاجرين الآريين القدماء من المشاوش والقهق فى جيوشهم وفى مراقبـة المهاجرين الشرسين الجدد بأنفسهم .

نشـاطه الداخـلى :

كان حكم رمسيس الثانى طويلا للغاية ، وكان مستقلا جدا بالحكم ومستبدا بسلطانه حتى أنه لم يتبع العادة القديمـة بتسمية ولى عهده شريكا فى الحكم ، لذلك فعندما تولى مرنبتـاح الحكم فى البلاد خلفا لوالده كان رجلا مسنا وكان يناهز الستين من العمر ، وتزوج من أخته است نفرت ، وبما لتأكيد أحقيته فى عرش البلاد ، وعلى الرغم من أن مدة حكمه لا تكاد تصـل الى العشر السنوات ، وعلى الرغم من شيخوخته فقد استطاع أن يحـافظ على الهيبـة المتبقية للبلاد خلال فترة حكمه ، وليست الهيبة المقصـودة هنا مجرد خروجه على رأس حملة أو فى مقدمة معركة ، بل ان الهيبـة المقصودة هى الهيبة بمعناها الأشمل ، فكان لحفاظه على العهود وحرصه على المواثيق القديمـة أكبر الأثر فى رفع سمعة مصر الى عنان السماء ، وليس أدل على ذلك من امداد الحيثيين بشحنـات كبيرة من الحبوب والغـلال حينما خربت شعوب البحر أرضهم وأشاعت المجاعة فيها ، فلم يتنصل هنا من عهد سابق كان بين والده وملك الحيثيين .

ويذكر لمرنبتاح أنه أبقى على بررعمسيس عاصمـة لمصر ، على الرغم من تعاظم مكانة مدينـة منف فى عهده فشيد فيها قصرا ، ثم معبدا كرسه لاقامة الشعائر الجنائزية ، كما بدأ العمل فى بنـاء معبد للاله بتاح ، كما أقام معبدا صخريا فى جبل السلسلة ، وسار على درب أبيـه فى تسجيل اسمه على تماثيل ومنشآت أسلافه ، ولعل دافعـه الأكبر وراء ذلك كان رغبتـه فى الاسراع بتسجيـل ذكراه عن أقرب سبيل نظرا لكبره وتقدم العمر به ، فاغتصب على كل حال أوزيريون أبيدوس ، والمعبد الذى خصصه منتوحتب الثانى لحتحور فى دندرة ، كما شـيد لنفسه معبدا جنائزيا الى الشمال

من معبد أمنحوتب الثالث بطيبة الغربية واستحل أحجاره من معبد هذا الأخير ٠

على أية حال فان الأحوال كانت عند نهاية عهده لا تؤذن بالخير فكان الاضطراب يسـود الشرق القديم كله ، كما كانت الأحوال في الداخل مضطربة كنتيجة للمؤامرات الداخلية في البلاط ، ولوجود عدد ضخم من الأمراء والأميرات والمحظيـات ٠٠ وكلهم طامـع في تحقيق أمل من الآمال ، ولئن لم تظهر هذه المحـاولات في عهـده فقد تجلت في وضـوح قبيل وفاته ، حتى لنرى العرش يهتز من تحت خلفائه كنتيجة لذلك ، وحتى لنكاد نضـل في الوصـول الى حقيقة صاحب التاج من بعده ٠ وعندما توفى مرنبتاح لم تكن مقبرته في وادى الملوك قد انتهى العمل بها بعد ، ونهب قبره بمرور الزمان ونقلت جثته الى قبر أمنحوتب الثاني ، وعثر بمقبرته على الغطـاء الخارجي للتابوت الذى اتخذ هيئة الملك وصـورته ولا يزال محفوظا بالمقبرة حتى اليوم ٠

وبوفاة مرنبتاح تفجرت أزمة وراثة العرش ٠

نهاية الأسرة التاسعة عشرة
ومشكلة تتابع الملوك

سبقت الاشارة الى أن مصر قد تعرضت فى نهاية الأسرة التاسعة عشرة الى موجة من الاضطرابات والقلاقل الداخلية والمتاعب الخارجية وذلك فى أعقاب مرنبتاح حيث خلفه على العرش ثلاثة ملوك وملكة واحدة ، وكانوا ملوكا ضعافا حكموا مصر مددا قصيرة ثم ضمرت بعدهم شجرة الأسرة وانتقل الحكم الى أسرة جديدة أسسها ست نخت وهى الأسرة العشرون .

وتناول العلماء أمر تتابع هؤلاء الملوك وعلاقاتهم ببعضهم البعض وثار بينهم جدل طويل ، حتى نادى بعضهم بوجود مشكلة لوراثة العرش مثل مشكلة حتشبسوت والتحامسة ، وتقوم مرة أخرى على اثبات الخراطيش الملكية ومحوها نتيجة لولاء أو عداء لا نستطيع تقدير مدى أى منهما ، ونتيجة لذلك أصبح تعاقب الملوك الذين خلفوا مرنبتاح على العرش موضع جدل طويل بين العلماء وعلى أية حال فان نتيجة الدراسات التى قام بها كل من جاردنر ، والدريد ، وبيكارات قد انتهت الى ترتيب الملوك بعد مرنبتاح كالتالى :

أمنمس ، وسيتى الثانى وسبتاح (رمسيس ، وسبتاح ثم

مرنبتاح ، وسبتاح) ، وتاوسرت وصية على سبتاح أولا ثم منفردة بالحكم بعد ذلك ، وأخيرا فترة قدرها جاردنر بعشر سنوات استولى فيها على السلطة باى السورى (ارسو فى بردية هاريس) •

وهناك اشارات من هذه الفترة عن اضطراب داخلى شمل منطقة طيبة أراد أصحابه من أنصار آمون أن يعبروا به عن سخطهم على فراعين الرعامسة واستغل أمنمس هذا السخط ونادى بحقه فى العرش مكونا حكومة فى مصر العليا ، اعترف بها الطيبيون وان كان هذا غير مقبول الا بانقسام مصر الى دولتين فى هذه الفترة وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين ومع ذلك فهو يشير الى الفوضى التى سادت البلاد وقت ذلك ويبدو أن ضعف الملوك وقصر مدة حكم كل منهم قد أدى الى اضطراب الأمور وتعقيدها وزادت الحالة سوءا بالتدريج حتى آلت آخر الأمر الى فوضى شاملة وصفتها بردية هاريس •

على أى الأحوال فان كل هذه الأمور لم تعد ذات موضوع خاصة بعد أن قام أحد الباحثين باصدار رسالته عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة فى مصر واستطاع بعد أن عرض للآراء وحلل المصادر والنصوص أن يصل الى ترتيب أقوم وأوضح لترتيب الملوك الأواخر لهذه الأسرة •

فبعد وفاة مرنبتاح اعتلى عرش مصر ولده وولى عهده سيتى مرنبتاح (سيتى الثانى) الذى كان متزوجا من الملكة طاخعت ابنة رمسيس الثانى وأنجب منها أمونموس ثم تزوج سيتى أيضا من تاوسرت التى ربما كانت سليلة البيت المالك ، واما أن يكون قد أنجب منها سبتاح ، أو أن سيتى قد تزوج من زوجة أجنبية هى ام سبتاح •

وما أن توفى سيتى الثانى حتى بدأت بوادر النزاع حول

العرش حيث ساندت الملكة تاوسرت الملك الصغير السن سبتاح ، وساعدته فى الوصول للعرش خاصة بعد وفاة الابن الأكبر لسيتى الثانى المدعو سيتى مرنبتاح فى حياة أبيه ، ولكن اعتلاء سبتاح للعرش ووجود سيدة وصية عليه قد أغضب أمونمس الذى رأى أنه صاحب الحق الشرعى فى حكم مصر ولذا قام بثورته التى أسلفنا ذكرها ، والتى بدأها من الجنوب بمساعدة كهنة آمون كما يغلب على الظن ، ثم زحف الى الشمال وخلع سبتاح من على العرش ثم حكم مصر ، ولكن ثورته باءت بالفشل اذ تكاتف كل من سبتاح وتاوسرت ومعهما حامل الختم (ارسو) وبعض كبار رجال الدولة واستردوا العرش واكمل سبتاح سنى حكمه حتى وفاته ، وهنا سنحت الفرصة لتاوسرت كى تتوج نفسها ملكة على مصر شمالا وجنوبا قرابة العامين ٠

وما أن اختفت تاوسرت من على مسرح الأحداث حتى حاول باى (ارسو) أن يمسك زمام الأمور فى يده ويتولى السلطة فى البلاد . الا أنه دخل فى نزاع مع ست نخت استمر حوالى العام وانتهى لصالح ست نخت الذى أعلن تأسيس أسرة جديدة هى الأسرة العشرون ٠

وعلى هذا يكون الترتيب الأكثر ترجيحا لدى الباحث والذى نرى أن من الأجدى أن نأخذ به ونسير على هديه معتمدين على ما حلله من نصوص ووثائق فى ترتيب الملوك الأربعة الأواخر من الأسرة التاسعة عشرة هو كالتالى :

سيتى الثانى ، وسبتاح (أمونمس) وسبتاح ، وتاوسرت ٠

وأهم ما فى هذا الترتيب هو وضع أمونمس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى حكم مصر بعد وفاة أبيه الملك سيتى الثانى ، وليس أخاه غير الشقيق سبتاح الذى كان ابنا لزوجة ثانوية لذا فقد قام بثورته التى باءت بالفشل واسترد سبتاح العرش

وأكمل سنى حكمه ، وبذلك حسم الأمر فى وضـــع أمونمس فى قائمة ملوك هذه الأسرة على أنه مجرد محـــاولة اغتصاب للعرش واقصاء شقيقه من عليه ، الا أن شقيقه نجح فى استعادة عرشـــه مرة أخرى كما سلف الذكر •

وهكذا وقبل أن نفصـــل الحديث عن كل من الملوك الأربعـــة فلعل من الخير أن نوجز الأســـباب التى أدت الى انتهـــاء الأسرة التاسعة عشرة ، فكان بعض منها اقتصـــاديا نظرا لانخفاض موارد الدولة مما أثر على خزانتها وبالتالى يتضح لنا ذلك من قلة ما خلفه لنا ملوك هـــذه الفترة من منشآت ، وكان بعض من هذه الأسباب سياسيا تمثل فى ازدياد تحركات شعوب البحر نحو الحدود المصرية وكذلك تسلل القبائل الليبية الى غرب الدلتا (وهو أمر قد فصلناه عند الحديث عن أخريات عهد رمسيس الثانى وولده مرنبتاح) ، هذا فضلا عن ازدياد نفوذ الكهنة الذين ربما ساعدوا أمونمس فى الوصول للحكم ، وأخيرا فلعل من أهم هـــذه الأسباب التى أودت بالأسرة قد كان اجتماعيا يتمثل فى انتشار الرشـــوة والفساد وسوء الادارة وازدياد السرقات ، التى لم تسلم منها حتى مقابر الملوك ، وكذا ضياع هيبة الحكم والملك وعدم احترام الشعب لملكه فضـــلا عن تولى العديد من الأجانب المتمصرين لبعض المناصب الادارية العليا وكان بعضهم من غير الموالين الولاء الكامـــل لمصر أو فرعـــونهم ، ولعل أصدق دليل على ذلك هو نشوب الصراع بين البيت المـــالك وحامل الختم باى ذى الأصل الأجنبى •

الملك سيتى الثانى :

كان سيتى الثـــانى (سيتى مرنبتاح) هو الوريث الشرعى للملك مرنبتاح وخليفته المباشر الذى أنجبه من الملكة ايست نفرت احدى بنات الملك رمسيس الثانى ، وقد صور سيتى كأمير على

عدة تماثيل للملك مرنبتاح عثر عليها فى مناطق عديدة من مصر حيث كان وليا للعهد خـلال عهد أبيه ، كما حمل من الألقاب ما يشير الى تدرجه فى بعض المناصب العليـا كالأمير الوراثى ، وحـاكم الاقليم ورئيس الأرضين والقائد الأعلى للجيش ، فضـلا عن ابن الملك الأكبر ، وابن الملك من جسده وحامل المروحة على يمين الملك ، وولى العهد فى مكان جب على عرش جب وأخيرا مسئول الأرضين نيابة عن أبيه ، تجدر الاشـارة الى أن معظم هـذه الألقاب السالفة الذكر كانت تمنح للأمراء وأولياء العهد خـلال الدولة الحديثة ولا سـيما خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة ٠

أما عن تاريخ توليه العرش فلعلنـا لا نكاد نعرف عمره حين ذاك ، ففى حين يرى البعض أنه كان فى السادسة بعد الخمسين فان البعض الآخر من خـلال دراسـة المومياوات الملكية يرى أنه كان فى السابعة عشرة من العمر عند بداية حكمه كما يقدرون لعمره حدا أقصى هو خمس وستون عاما ويرى آخرون أن عمره لم يتجـاوز الواحدة بعد الستين على أنه بدراسة مومياء هذا الملك قد ثبت أنه كان رجلا فى منتصف العمر ، وعلى أى الأحوال فان الرأى الغالب أنه قد اعتلى عرش مصر كبيرا فى السن خاصة اذا أخذنا فى الاعتبار زواجه من الأميرة طاخعت فى العام الثالث والخمسين من عهد رمسيس الثـانى ٠

ونعرف لسيتى الثانى زوجتين على أقل تقدير هما طاخعت ، وتاوسرت ، هـذا بالاضافة الى زوجة ملكية تتبعه على احـدى اللوحات الحجرية المحفوظة بمتحف اللوفر تدعى سوتور ، وتبدو من اسمها أجنبية الأصل ٠

أما عن أبناء سيتى الثانى فلا نكاد نعرف منهم بصـورة مؤكدة سوى ابنه المدعو سيتى مرنبتاح ٠

حكم سيتى الثانى ما يقرب من ستة أعوام ، ولعله لم يخلف وراءه من المنشآت الكاملة مثل ما تركه أسلافه وذلك شأنه شأن سائر ملوك هذه الفترة كما أسلفنا الذكر ، الا مجموعة من النقوش واللوحات المتناثرة هنا وهناك ، ودفن سيتى الثانى بالمقبرة الملكية التى أعدت له بوادى الملوك والتى تحمل رقم ١٥ ٠

سبتاح :

تولى عرش مصر بعد سيتى الثانى الملك رمسيس سبتاح (مرنبتاح سبتاح فيما بعد) ، ويبدو أن انتقال العرش قد تم اليه فى هدوء ودون أى منازعات تذكر ويستدل على ذلك من أحد النصوص التى وردت على احدى الشقافات المحفوظة بمتحف القاهرة والتى تذكر أن الصقر قد طار الى السماء أى سيتى واعتلى آخر مكانه ٠

وقد تعددت الآراء واختلفت فى نسب هذا الملك ، وفيما اذا كان هو الأمير رمسيس سبتاح أم الأمير سبتاح ؟ !

حيث عثر لهما على آثار سابقة على عهد هذا الملك ومما لا شك فيه ان سبتاح كان ابنا لملك ما مما جعل حامل الختم باى يحمل لقب مثبت الملك على عرش أبيه ، وربما ذلك اشارة الى أنه قد ساعد سبتاح فى استعادة عرشه عقب اخماد ثورة أمونمس ، واعتقد البعض ان سبتاح كان أبنا لسيتى الثانى من زوجة أجنبية اعتقد البعض أنها سوتور ، واعتقد البعض الآخر أن والده هو مرنبتاح وأنه قد أنجبه فى أواخر عهد رمسيس الثانى ، افترض آخرون أنه ابن لسيتى الثانى من تاوسرت ، الا أن الباحث يرجح أن سبتاح كان ابنا لسيتى الثانى وأنه هو نفسه الأمير رمسيس سبتاح وأن أمه هى الملكة سوترر صاحبة نقش اللوفر التى كانت أغلب الظن زوجة ثانوية لسيتى الثانى ٠

وأغلب الظن أن تاوسرت ـ التي ربما لم يكن لها أولاد من سيتى الثانى ـ قد ساندت سبتاح فى اعتلائه العرش ضد آمون مصر صاحب الحق الشرعى فى العرش باعتبارة ابنا لزوجة رئيسية سليلة بيت ملكى هى الملكة طاخعت ابنة رمسيس الثانى ، لعل ذلك كان من أهم الأسباب التى دفعت آمون مصر للقيام بثورته ابان حكم الملك سبتاح الذى كان صغيرا فى السن وابنا لزوجة ثانوية ٠

أما عن ألقاب سبتاح حينما كان أميرا فلا نكاد نجد له غير لقب ابن الملك ، وابن الملك من جسده ، لعل ذلك يدلنا على أنه لم يتقلد أى وظائف عليا مثل التى تقلدها أبوه عندما كان أميرا أو كأخيه من أبيه سيتى مرنبتاح الذى كان وليا للعهد الذى توفى أغلب الظن فى حياة أبيه ، بل ان كل ذلك مما يعضد حداثة سن هذا الأمير رمسيس سبتاح التى منعته من أن يكلفه بأى مهام وظيفية ٠

وافترض البعض أن سبتاح عندما تولى الحكم كان عمره يتراوح بين سبع وتسع سنوات فى حين افترض البعض الآخر أنه كان يتراوح بين عشرة وتسعة عشر عاما ولعل ذلك الأقرب الى الصحة ٠

واتخذ سبتاح الألقاب الفرعونية المعتادة الا أنه اضطر الى تغيير اسمى الولادة والعرش فى السنة الثالثة وذلك بعد اخماد ثورة أمونمس ، فبالنسبة للاسم الشخصى كان اسمه رمسيس سبتاح (أى رع انجبه ابن بتاح) فى الفترة الأولى من حكمه أما فى الفترة الثانية فقد أصبح اسمه مرنبتاح سبتاح (محبوب بتاح ابن بتاح)٠

أما بالنسبة لاسم العرش فى فترة حكمه الأولى فكان « سخع بن رع ستب بن رع » « سخع بن رع مرى آمون » (أى

المتوج بواسطة رع محبوب آمون أو مصطفى رع) ، وفى فترة حكمه الثانية أصبح اسمه « آخ بن رع ستب بن رع » (أى مجد رع مصطفى رع) ٠

ولعله لم يعثر حتى الآن على ما يشير صراحـة الى وجود زوجة ملكيه أو أبناء لهذا الملك ، ما عدا العثور على صندوق من الألبستر لأوانى الأحشاء ذكرت عليه زوجة الملك تى ـ عا الا أن البعض فسرها على أنها أم الملك وليست زوجته ٠

ومع الأخذ فى الاعتبار الفترة التى قام فيها أمونمس بثورتـه خلال حكم سبتاح فقد ظل سبتاح على عرش مصر تحت وصاية تاوسرت ثم مساندة باى حتى السنة السادسة من بداية حكمه ، وودع سبتاح حياته تاركا عرش مصر ، ودفن بمقبرته الملكيـة بوادى الملوك رقـم ٤٧ ٠ دون أن يترك لنا من المنشـآت المعماريـة أو المخلفات الأثرية ما يمكن ذكره وذلك لنفس الأسباب التى ذكرت بالنسـبة لسـيتى الثـانى المتمثلة فى قلة موارد البـلاد وضعف خزائنهـا ٠

أمنمـوس :

لم تمط الآثار اللثام صراحة حتى الآن عن ترتيب هـذا الملك بين ملوك نهايـة الأسرة التاسـعة عشرة ، الا من ذلك الترتيب الذى انتهى اليه الباحث أحمد سعيد فى رسالته وأسلفنا ذكره من أن أمنموس قد ارتقى العرش لفترة محدودة خلال حكم سبتاح ، ومن المحتمل ظهور أسـم هـذا ضمن قائمـة مانيثيون باعتبـار اسمه الاسم قبل الأخير فى ملوك نهاية هذه الأسرة ٠

وفى حين يرى البعض أن هذا الملك ابن لسيتى الثانى والملكة تاخعت ابنة رمسيس الثانى وأنه قد اعتلى العرش بعد أبيه ، فان

البعض الآخر يرى أنه كان ابنا لرمسيس الثاني واعتلى العرش بعد مرنبتاح ، وأعتقد آخرون بأن أمنموس كان حفيدا لرمسيس الثاني من ابنته تاخعت التي دعمت أحقيته في العرش ، وربما كان أمنموس أحد نواب الملك في كلوش ولم يكن ابنا لأي ملك ولا تسري في عروقه أية دماء ملكية .

ولعل أقرب هذه الآراء للصواب هو كون أمنموس ابنا لسيتي الثاني من زوجته تاخعت باعتبارها « الزوجة الملكية العظمى تاخعت » التي صورت على تماثيل سيتي الثاني ، وأيضا هي نفسها « أم الاله وأم الملك تاخعت » التي ظهرت ضمن نقوش مقبرة أمنموس (رقم ١٠) بوادي الملوك ، اذ يحتمل أن أمنموس قد وجد أحقيته في العرش قد اغتصبها ابن صغير لأبيه وربما كانت أمه أجنبية ، ألا وهو سبتاح ، وربما ذلك قد تم بمساعدة الملكة تاوسرت بعد وفاة أمه تاخعت ، وبعد أن اطمأن لمعاضدة كهنة آمون قام بثورته حيث استقل بحكم الجنوب بل لعله زحف نحو الدلتا وتمكن من خلع سبتاح ، وهو ما لم تؤكده الآثار ، وانما يستدل عليه من اتخاذه لجميع الألقاب الفرعونية كملك للوجهين ، كما تفاخر فيما بعد حامل الختم باي بأنه « ثبت الملك سبتاح على عرش أبيه وذلك بعد أن تم اخماد ثورة أمنموس » .

ومن المحتمل أن عمر أمنموس خلال عهد سبتاح أكثر من عشرين عاما ، في حين يرى البعض أنه كان يناهز التاسعة والثلاثين عندما تولى العرش ابان عهد سبتاح .

أما عن فترة حكمه فافترض البعض أنه حكم أربع سنوات على الأكثر على اعتبار أنه حكم فترة مستقلة عقب مرنبتاح ، بينما افترض البعض أنه حكم سنة واحدة كسلف لسيتي الثاني ، كما

احتسب له البعض ثلاث سنوات تقريبا خلال عهد سيتى الثانى ، ويرجع اختلاف الآراء هنا الى آن الملك أمنموس لم يعثر له حتى الآن على آثار عليها نقوش مؤرخة بأى من السنين التى صاحبتها اسماؤه وألقابه صراحة ، وانتهى أحمد سعيد بعد عرض كل هـذه الفروض وغيرها الى أن فترة حكم أمنموس الفعلية قد بلغت حوالى سـنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما ٠

أما عن أسرة هذا الملك ففضـلا عن معرفتنا بأمه تاخعت التى أسلفنا الحديث عنها ، فاننا نعرف زوجته الملكية باكت ورنرو التى ظهرت لها نقوش عدة على جدران صـالة الأعمدة بمقبرته الملكيـة بوادى الملوك ٠

ولا نعرف حتى الآن ما اذا كان أمنموس قد مات ميتة طبيعيـة أم أنه قد قتل ، وهل دفن فى مقبرته بوادى الملوك ، أم أن عـدم العثور على موميائه يدل على أنه لم يدفن فيها ؟ لاسيما أن نقوش هـذه المقبرة قد محى معظمها عن عمد وربما تم ذلك بواسـطة أتباع الملك سبتاح خلال فترة حكمه الثانية ، هـذا فضـلا عن أنه لم يعثر على أثاث جنائزى فى هـذه المقبرة حتى الآن ، بل أكثر من ذلك أن هنـاك أجزاء معمارية منها لم يتم نحتها كاملا ٠

تاوســرت :

كان لتاوسرت مكانتها ودورها البارز فى نهاية الأسرة التاسعة عشرة على الرغم من أنها لم تكن تحمل لقب ابنة ملك على أى من آثارها المكتشفة حتى الآن ، ولعلها كانت ابنة لأحد الملكين رمسيس الثانى أو مرنبتاح ، ولعل هـذا ما دفعها الى اعتبار نفسها وريثة شرعية للعرش حيث اتخذت لقب الأميرة الوراثية ، ولعل جهلنا بأم تاوسرت يرجع الى عدم التأكد من والدها ٠

على أى الأحوال فقد بدأ نجمها يسطع فى الأفق منذ عهد زوجها سيتى الثانى حيث حملت لقب زوجة الملك العظمى ، ويعتقد البعض أنها قد بدأت فى بناء مقبرتها الملكية فى نهاية حكم زوجهـا ، وازداد نفوذ تاوسرت وقويت شـوكتها فى عهد ابن زوجها سبتاح حيث رفعته للعرش وأصبحت وصية عليه ، واتخذت فى عهده القـاب زوجة الاله ، سيدة الأرضين ، سيدة مصر العليا والسفلى ، وكان الدور الذى لعبته تاوسرت فى فترة حكم سبتاح الثانيـة أهم من الدور الذى قـامت به فى الفترة الأولى ، ولعـل ذلك كان أحـد العوامل التى ساعدتها على تبوؤ العرش بعد وفاة سبتاح ٠

وكل ذلك انما يدل على ما كانت تتمتع به هذه السيدة من حنكة سياسية اكتسبتها على الأرجح بحكم سنها ، ولعلها قد ارتقت عرش مصر فى الثامنـة والخمسـين من عمرهـا أو فى الحـادية والسبعين تبعا لاختـلاف الآراء فى سن وفاتها الذى يراه البعض الآخر فى الثالثة والسبعين ٠

وكان جلوس تاوسرت على العرش مجرد اقرار للواقع حيث كانت هى المسيرة لأمور البلاد بمساعدة باى ابان حكم سبتاح فلما توفى انفردت بالسلطة واتخذت ألقابها الملكية كفرعون لمصر وشرعت فى بناء معبدها الجنائزى واستبدلت بخراطيش سبتاح فى مقبرتها خراطيش زوجهـا سيتى الثـانى لتؤكد على امتداد حكمهـا منذ وفـاته ٠

ويرجع تاريخ انفرادها بالعرش فى السنة السادسـة من حكم سبتاح ٠ وعلى الرغم من أن مدة حكمهـا لم تتجاوز العامين فانها ضمت فى تاريخها فترة حكم سبتاح واعتبرت عهدها يبدأ منذ وفاة زوجها سيتي الثاني ولا نكاد نعرف كيف ماتت تاوسرت ، وربمـا

كانت ميتتها طبيعيـــة ، وربما أزيحت من على العرش أثر تدبير سـياسى محكم ربما من قبل باى الذى أمسك بزمام الأمور لمدة تقارب السـنة حتى أقصاه ست نخت مؤسس الأسرة العشرين ٠

سبق أن ذكرنا أن تاوسرت قد شرعت فى نحت مقبرتها بوادى الملوك (رقم ١٤) خلال حكم سـبتاح ، وقد اغتصبها ست نخت ووسع بها وغير الألقاب الملكية بما يناسبه ، كما عثر داخل تابوته على مومياء اعتقد أنها لتاوسرت بناء على أن ملكات هـذا العصر الأخريات دفن فى وادى الملكات ٠

الأســـرة العشـــرون

سبقت الاشارة الى تغير مقاليـد الأمور فى منطقـة الشرق الأدنى القديم بزوال بعض القوى وظهور قوى أخرى غيرها أكثر فتوة وشبابا وكان على مصر أن تراقب عالم البحر المتوسط وأن تحمى نفسها منه ، لذا لجـأت الى اقامة عاصمتها من قبل فى مصر السفلى، ولمـا أصبح المركز الادارى يقع فى أقصى الشمال ، فقد أصبحت مصر العليا مستقلة الى حد ما ، ونتيجة لذلك نجد أنها نزعت عن نفسها كل مقومات القوة فى انفصـال قطريها ومملكتها ، والى جانب هـذا العامل الذى لا يمكن تفاديه أو علاجه ، فقد ظهر عدم توازن آخر سـوف يزيد الأمر سوءا أيضـا فى أمرين ثانويين ولكن لا يمكن اغفال أثرهما بأى حال من الأحوال ، وهما :

١ ـ أن طيبة وكهنـة آمون أصبحوا يمتلكون الكثير من الهيبة فى نظر المصريين وظلت بالنسبة لأهل الشمال تمثل مركزا يجذب الجميع ويسبب المضايقـات نظرا لاقامة العاصمة الاداريـة القوية فى الدلتا ٠

٢ ـ عدم وجود رؤساء أو ملوك كبار يستطيعون بهيبتهم الشخصية أو بواسطة حسن تصرفهم أن يحتفظوا للبلاد بنوع من الوحدة أو شبه الوحدة فى ذلك الجسد الكبير المحطم ٠

وكان لهذين العاملين أكبر الأثر فى تفكك مصر وسقوطها السريع ، وأصبحت بلاد الملوك الكبار أمثال أمنمحات الأول ، وسنوسرت الثالث ، وتحتمس الثالث ، فريسة لمن يطمع فيها ويريد الاستيلاء عليها ، فموقعها الجغرافى المتميز جعلها باستمرار عرضة للأطماع ، ولكن خطر هذا الموقع لم يتضح الا عندما أصبح البحر المتوسط آهلا بالسكان ومتقدما فى الحضارة وأصبح مركزا للاشعاع الثقافى • وانتقال مركز التقاء حضارات العالم القديم فى الشمال ، جلب الكثير من النكبات على مصر ، اذ تطلع الجميع اليها ، وكل هذه المظاهر التاريخية التى تؤثر فى التوازن القديم للحضارات تجلب معها الانهيار لبعض أصحاب هذه الحضارات فى حين أنها تدفع بالبعض الآخر الى مكان الصدارة •

انتهى أمر الأسرة التاسعة عشرة كما أسلفنا الذكر بازاحة تاوسرت من على العرش بتدبير سياسى محكم ، أو بوفاتها وفاة طبيعية ، وامساك باى ــ أرسو بزمام الأمور والحكم فى البلاد لمدة تقارب العام • حتى تمكن أحد الأمراء المسنين المسمى « ست نخت » من عزل باى وتأسيس الأسرة العشرين ، ولعله قد اعتمد فى ذلك على رد فعل شعبى أو أنه قد نال تأييد كهنة آمون ، وعلى الرغم من طول فترة الفوضى التى تعرضت لها البلاد من قبل ، فان أسرته قد نجحت أيضا فى الحصول على بعض الهيبة لمصر فى الخارج •

وان كنا نجهل طبيعة العلاقة التى كانت تربطه بالبيت المالك السابق فان البعض يعتقد أنه أحد أبناء رمسيس الثانى الكثيرين ، واستمر حكم ست نخت عامين فقط ، ونجح فى اعادة النظام والهدوء بوجه عام فى البلاد دون أن يقترن ذلك بعنف يذكر •

وكان من الطبيعى أن يعتبر مؤسسو الأسرة الجديدة أنفسهم ساخطين منقذين موهوبين تخيرتهم الأقدار ، شأنهم فى ذلك شأن كل جماعة حاكمة جديدة ، وعندما صور دعاة هذه الأسرة رأيهم فيما مرت به مصر بين عهد مرنبتاح وعهد ست نخت قالوا : « وقعت مصر فريسة للاضطرابات وأصبح كل انسان فيها يقنن لنفسه ، ولم يكن لأهلها زعيم لسنوات عدة ، وكانت مجرد بلد ، موظفين وعمد ، يفتك الانسان فيها برفيقه كبيرا كان أم صغيرا ، وتلت ذلك سنوات فارغة ، ظهر بينهم فيها ارسو الخورى الذى اعتبر نفسه أميرا ، وحاول أن يخضع البلاد كلها لرأيه وألزمها بدفع الضرائب اليه ، وأصبح كل انسان يلتمس رفيقا يسايره فى طريقه خوفا من أن يعتدى أحد عليه ، وعوملت الأرباب معاملة البشر ، وامتنع هو عن تقديم القرابين فى المعابد ، وعندما شاء الأرباب أن يظهروا رحمتهم ويصححوا الأوضاع فى مصر ويعيدوها الى سيرتها الأولى ، نصبوا ولدهم الذى خرج من صلبهم « ست نخت » حاكما على البلاد كلها وجعلوه على عرشهم الكبير ، فتجلى على هيئة خبرى ست الغضوب وأعاد السلام الى الأرض القلقة وفتك بالغادرين فيها وطهر عرش مصر العظيم » •

ولعل ما جاء به هؤلاء الدعاة عن الفترة القلقة التى سبقت عصرهم الجديد صحيح ، وكذلك تمسحهم فى الدين وغضب الأرباب على الأمس وأملهم فى الغد مما أوحت به التقاليد ، أما تضخيمهم لشأن « ست نخت » فقد كان مسرفا بعض الشىء ، فالرجل الكهل الذى زكته للناس سنه وخبرته لم يعمر فى الحكم بالشكل أو الهيئة التى صوروه عليها ، ولعل ذلك هو الذى دفعه للقيام بما قام به رمسيس الأول فى ضمان الحكم لأسرته وتقديم ولده أمامه ليتم ما أراده هو ولم تسمح له به سنه •

وعلى الرغم من أن ست نخت كان ينتسب الى أسرة تعيش فى العاصمة بررمسيس فى شرق الدلتا ــ ودليلنا على ذلك احتواء المقطع الأول من اسمه على اسم الاله ست ــ فانه منذ أن ارتقى عرش الحكم فى البلاد فكر فى التو فى اقامة مقبرة له بوادى الملوك بطيبة الغربيـــة شأنه فى ذلك شأن من سبقوه أو لحقوا به من ملوك الدولة الحديثـــة ، الا أن العمال بعد أن أتموا حفر الممر على بعد قليل فى الصخر ، عثروا فجأة على المقبرة السرية لأمنموس التى لم يكن معروفا مكانها أو لأنها كانت بعيدة عن الأنظار خلال سنوات الاضطرابات الاثنتى عشرة بعد رحيله ، لذلك توقفت كل الأعمال فى نحت مقبرة ست نخت ، وعند وفاتـــه دفن بمقبرة الملكة تاوسرت بوادى الملوك بعد أن غيرت من أجل ذلك بعض النقوش والمناظر على الجـــدران ٠

الا أن هذه المقبرة فتحت فيما تلا ذلك بعدة أجيـــال وقـــام الكهنة باعادة النظـــام فى المقبرة التى لم يعثر فيها الا على مومياء الملكة ، فوضعوها فى التابوت الفارغ لست نخت الذى لم يعثر على موميائه حتى اليوم ٠

رمسيس الثالث

كان ست نخت كما أشرنا من قبل ملكا هماما ، لكنه لم يكد يتولى حتى مات ، ولحسن الحظ فان ابنه وخلفه فى الحكم رمسيس الثالث قد ورث همة أبيه الغريزية ، وكان حكمه الذى طال بما فيه الكفاية لاتمام عمل مفيد ، هو آخر حكم طويل فى الدولة الحديثة .

وأغلب الظن أن رمسيس الثالث قد اشترك مع أبيه فى الحكم بصفته وريثا للعرش ، ولعله يقترب من سن الأربعين عند توليه العرش ، لذلك لم يجد صعوبة فى ذلك ، ونظرا لأنه يحمل اسم رمسيس فلعله بذلك يكون قد ولد وسمى بهذا الاسم فى حياة رمسيس الثانى بالفعل ، ولعله يدل أيضا على أن والده ست نخت كان من العائلة المالكة ، وربما كان بالفعل أحد أبناء رمسيس الثانى ، لذا لم يكن من الضرورة عمل فاصل حقيقى بين الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ، وليس هناك ما يعطى مانثيون الحق فى أن يبدأ هنا أسرة جديدة ، ولكن يبدو أنه لجأ الى ذلك بعد سنوات الفوضى التى أعقب حكم سيتى الثانى .

على أية حال فقد سارت الأمور فى مجراها الطبيعى وتولى رمسيس الثالث مقاليد الحكم فى البلاد واعتبر بحق المؤسس الحقيقى للأسرة وسياستها وجعل من سميه وسلفه القديم رمسيس الثانى

مثله الأعلى ، فتلقب بأغلب ألقابه وكنياته ، واستطاع مثله أن يدفع بجيشه عن مصر أخطارا جسيمة ، كما خلف لنا من المنشآت المعمارية ما يحاكي سلفه ، ولكنه رغم ذلك قد اختلف عنه فى أنه كان الشخصية العظيمة الوحيدة فى أسرته الكبيرة ، وبدأ عهده ببداية مشرقة ثم انتهى الى خاتمة غير معهودة نؤجلها لحينها ٠

نشاطه الحربى :

كان هم رمسيس الثالث الأول هو اصلاح الادارة واعادة تنظيم الجيش وهذا التقويم الداخلى كان فى الواقع الشرط الضرورى للمحاولات التى يعتزم الملك القيام بها كى يعيد لمصر الدور الراجح الذى لعبته من قبل فى سياسة العالم الشرقى الخارجية حتى عادت مصر فى عهده للمرة الأخيرة تفرض نفوذها الأكيد على المنطقة ٠

وتحرج الموقف فى الخارج على غرار الموقف الذى واجهه « رمسيس الثانى » فالليبيون الذين تصدى لهم مرنبتاح من قبل وطردهم قد عاودوا الكرة وهاجموا غرب الدلتا ، وحاول رمسيس الثالث أن يحل مشكلاتهم بأن ولى عليهم شابا ليبيا من جنسهم تربى فى مصر فرفضوه ، ولعل ذلك أمر طبيعى أن يرفضوا مثل هذا الحاكم المصرى أو الموالى لمصر اذا سلمنا بكونه ليبيا فى الأصل ، ويغلب على الظن أن ذلك كان السبب الحقيقى وراء ثورتهم وزحفهم، خاصة وقد اشتدت عزائمهم بنزول هجرات جديدة عليهم من بنى عمومتهم الهندو آريين أو لعلهم على العكس من ذلك قد تخوفوا من نزولهم فرحلوا أمامهم الى حدود الدلتا ، ولاقتهم الجيوش المصرية فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث ، واكتفت بأن أضعفت شوكتهم وردتهم على أعقابهم ، وأبقت على مجموعات منهم كانت تستخدمهم فى جيشها ، وتذكر نصوص معبد هابو أن الملك قد

انتصر عليهم انتصارا بالغا وذبح الكثيرين منهم حتى ترك جثثهم أكداسا كالأهرام وقبض على العديد منهم كأسرى ، وتتباهى النصوص بأن ملكهم قد أباد شعوب البحر الى الأبد ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث بطبيعة الحال كما سنرى فيما بعد ٠

ونجد ضمن نصوص الحرب الليبية التى حدثت فى العام الخامس بعض تلميحات الى حرب آسيوية لابد أنها قد تمت بحكم المنطق قبل السنة الخامسة ، فتذكر النصوص : « أن رئيس آمور لم يعد الا رفاتا ولم يبق له بذر ، وكل قومه أخذوا أسرى ، وأحضر الأعداء الآسيويون والليبيون أسرى ، هؤلاء الذين خربوا مصر فيما مضى بحيث تركت البلاد فى حالة خراب تام » ٠٠ وكلها عبارات عامة ولعلها تشير لحرب السنة الثامنة ولا عجب فى أن نجد شيئا من عدم الدقة مع كثرة المعارك والنصوص التى سجلت وصورت على جدران معبد هابو ٠

وفى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث خاضت مصر معركتين كبيرتين مع شعوب البحر احداهما كانت برية والأخرى بحرية ، أما الأولى فكانت مع هؤلاء المهاجرين الذين وصلوا الشام عبر آسيا الصغرى وانتشروا فى أرض آمور ثم نزحوا على أرض كنعان عن طريق البر ، وأما الثانية فكانت مع من اندفعوا بمراكبهم الى شواطىء جنوب سوريا ووصلوا حتى مصبات النيل عن طريق البحر، ووصفت النصوص المصرية تحركات هؤلاء المهاجرين وخيبة مسعاهم وصفا شائقا على لسان الملك نفسه : « تآمرت شعوب أجنبية فى جزرها ، وسريعا ما أزالت بلادا وشردت الحرب أهلها ولم يستطع بلد أن يثبت أمام أسلحتهم ، وابتداء من خاتى وقدى وقرقميش ، وأزاوروا الى آلاسيا فى آن واحد، واجتمع عسكرهم فى بقعة واحدة بأرض آمور ، فشردوا أهلها وأصبحت الأرض كأنها لم تكن ، ثم تقدموا

نحو مصر ، ولكن النار كانت على استعداد للقائهم ، وتألف حلفهم من البلستي والنكر والشكلش والدانيين ، والوشاوش ، واتحدوا جميعا ووضعوا أيديهم على البلاد فى مدار الأرض كلها فاستبشروا وملأتهم الثقة بأنفسهم وقالوا : سـوف تنجح مشاريعنا ، ولكن قلب الاله كان واعيـا وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور ، وهـكذا نظمت حدودى فى جاهى وأعددت أمامهم الأمراء وقادة الحاميـات وأمرت بتحصين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير وزودتها بسفن وزوارق وناقلات للجنود ، وامتلأت جميعها بمحاربين مهرة مسلحين، وتألفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر ، وكانوا أشبه بالأسود ، وتألفت فرق الفرسان من عداءين مهرة وقادة قادرين ، ومن كل فارس عربة متين ، وهزت الخيول أعطافها وسحقت الشعوب الأجنبيـة تحت حوافرها ، وكنت منتو المقتدر ، أقف على رأسهم ، ليشهدوا بأنفسهم ما تفعله يداى ، أما من بلغوا حدودى فلم يبق منهم باقية وانمحت قلوبهم وأرواحهم الى الأبد .. وأما من أتوا بجموعهم معا عن طريق البحر ، فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهـار ، وأحاط بهم على البر سـد من الحراب ، واستدرجوا الى الداخل وحوصروا وألقوا على وجوههم على الشاطىء ، ثم قتلوا ومزقوا اربا من القـدم الى الرأس ، وغرقت سـفنهم وأمتعتهم فى البحر » ،

وعلى نحو أمتع الكاتب فى وصف حال شعوب البحر ومصيرهم، أبدع الفنانون فى تصـوير هزيمتهم على جدران معابد طيبة ولاسيما هابو ، فصـوروهم يفرون على البر بعربات تشبه الصناديق تجر كل عربة منها أربعة ثيران ، وصوروا ساحـة الحرب بعد الحرب خرابا اجتث أهلها من فوق الأرض كما اجتث شجرها سـواء بسواء وعندما صـور الفنانون قتال البحر صوروا سفن الفريقين وقد طوت أشرعتها ، ورمى المصريون أعداءهم بالنبال ثم صادموهم بالمراكب

وقاتلوهم وجها لوجه بالسيوف والخناجر حتى انتهت المعـركة بانتصار المصريين ٠

واستحق رمسيس الثالث لقب قاهر جميع البلاد الأجنبيـة دون مغالاة ، وذلك لأنه أنقذ البلاد من خطر أبشـع بكثير من خطر الهكسوس ، واستطاعت مصر أن تنقذ نفسها وجيرانها من غزو كثيف حطم ممالك عدة قبلها ولكنه تحطم عند أرضهـا وعلى شـواطيء بحرهـا ٠

وتجددت مشكلات المهاجرين على حدود مصر الغربية فى العام الحـادى عشر من حـكم رمسيس الثالث ، ولم يكن قـد مضى على هزيمتهم الأولى فى العام الخامس غير ست سـنوات ، حتى عاودوا شغبهم على الحدود من جديد ، ولعلهم لم يحمدوا للملك مصر أنه سمح لهم بالمعيشـة قربها ما داموا أعلنوا السلم والطاعة ، وظهرت بينهم هـذه المرة جماعات جديدة واستجاب لهم عدد من بنى جلدتهم الذين عاشوا فى غرب الدلتا وعاونوهم وتزعمهم هـذه المرة زعماء قبـائل الليبو والمشـاوش ، ولكن القوات المصريـة اشتدت عليهم واحبطت مشاريعهم وكسرت شوكتهم ، وبذلك انتهت محاولاتهم لدخول مصر عن طريق العنف ، وبدأوا يتسللون اليها تسللا سلميا بطيئا وتسامح رمسيس الثالث معهم باسم مصر كما تسـامح مع أسراهم من قبل ، وهذا التسـاهل النسبى يعتبر مكرمة للخـلق المصرى فى جملته ، الا أنه جر على مصر بعد ذلك شرورا كثيرة كانت فى غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها ٠

وبعد انزال الهزيمة بالقبائل الليبية وحلفائها حاول رمسيس الثالث استعادة السياسة التقليدية لمصر فى آسيا ، فاضطر للقيام بحملة الى سوريا فى نفس العام للقضاء على ثورة هنـاك ، واستطاع

ان يقضى بذلك على جماعة من البدو كانوا يتنقلون فى الصحراء جنوب فلسطين ، ولم تكن هذه الحملة سوى مجرد غارة لم تتكرر ثانية ، اذ أنه لم يتعرض بعد ذلك الأية مضايقات وعاشت مصر فى سلام تام من قبل ما تبقى من مستعمراتها الآسيوية .

وأصبح لرمسيس الثالث شهرة كبيرة ، وفى كل مكان حيث كان يخشى اسمه ، وكان جيشه وأسطوله الدعامة الأساسية لتأكيد تلك السيطرة المصرية لعدة سنوات ، وأصبحت حدوده وشواطئه آمنة وغدت سفنه التجارية تستطيع التجوال بين شواطىء مصر وفينيقيا دون التعرض لأى خطر .

نشاطه الداخلى :

وحاولت مصر أن تنعم بفترة من الرخاء والسلام بعد انتصاراتها المتعددة ، وبعد أن أكدت ثقتها بنفسها وتدفقت الثروات عليها من غنائم الحروب والجزية وكذا من عودة الأمن الى مسالك التجارة الخارجية ، وكالعادة كان أكثر المصريين استفادة من هذه الحال الجديد هو فرعونهم وبطانته من حاشية القصر وكبار رجال الجيش فضلا عن رجال الدين . فتميز عهد رمسيس الثالث بنهضة معمارية جدد بها الملك عهد العمائر التى شهدناها على أيام رمسيس الثانى من كثرة وضخامة واتساع لا حد لها . ولعل من أروع ما شيد مهندسوه من عمائر معبدين وبقايا قصرين ، أما المعبدان فأحدهما ضخم شاهق خصص لاقامة شعائره وشعائر الاله آمون وبقية الأرباب فى غرب طيبة وقد اقامه على غرار معبد سلفه العظيم رمسيس الثانى والمعروف بالرامسيوم فى تخطيطه العام وأعمدته الأوزيرية ، وكذلك فى احتواء كل منهما على فناءين ، كما تتشابه كذلك ملحقات المعبدين كالقصر الملاصق للجدار الجنوبى للفناء الأول ، وكذلك مبانى الموظفين والكهنة والمخازن المحيطة بالقصر ، هذا فضلا

عن أن كثيرا من نقوش المعبدين حربية ، وان تميزت نقوش رمسيس الثالث بأنها أقل مغالاة من نقوش سلفه ، وكذلك تسجيل مراحل (عيد خروج الاله مين) وخاصـــة اطلاق أربعة طيور الى أركان العالم الأربعة لاعلان نبأ الاحتفال بالعيد .

ومع ذلك فان من مميزات معبد رمسيس الثالث أنه المعبـد الوحيد المحصن فى مصر ، وكذلك نقوشه الغائرة وخاصـــة اسـم الفرعون حتى لا تتعرض للمحو أو كتابة أسماء أخرى بدله ، كما تتميز نقوشه بالحركة وخاصة مناظر صيد الثيران البرية ، حيث صور الفنان حركة الثيران العنيفة وهى تندفع بين الأشجار بطريقة تثير الاعجاب ، وتنفى عن الفنان المصرى القديم صفة الجمود الى حد كبير ، وأخيرا فان نقوش هـذا المعبد قد صورت أقدم وأجمـل تصوير لمعركة بحرية بين مصر وشعوب البحر بلا نزاع ، حيث جاء التصوير حيا جديرا بكل اعجاب .

وأما المعبد الآخر فهو معبد صغير ولكنه ممتع خصص لاحتفالات يوبيله وأعياد ربة آمون فى رحاب الكرنك ، ويقع الى اليمين خلف الصرح الأول ، ولا يزال كلا المعبدين يعتبر من أكمل المعابد المصرية الباقية فى عناصره المعمارية وفى لوحاته المنقوشة .

ولم يقف نشاط رمسيس الثالث المعمارى ــ ولاسيما فى بناء المعابد ـــ على مصر فحسب بل تعداها الى آسيا ، حيث احتفظت الأيام بذكرى معبد لآمون فى كنعان أجرى عليه رمسيس خراج تسع مدن (أو قرى) فى منطقته ، وكذلك معبد آخر فى عسقلان شـيد باسم الاله بتاح .

ونعود الى مصر لنرى مقصـــورته بتل اليهودية الى جانب هياكله وآثاره القليلة الأخرى على امتداد الوادى من منف الى الكـــاب .

وتشير النصوص الى حى جميل شاده لآمون فى بر رمسيس ، فضلا عن مدينة جديدة أنشئت فى عهده فى شمال غرب الدلتا ، تشير أغلب الآراء الى أنها نا آمون رع بمنطقة نا آمون التى كانت فى عهد رمسيس الثانى منطقة كروم .

وكان من حق رمسيس الثالث وحق زمانه أن يفخرا معا بنشاطه الواسع أيام السلام ، فجهز حملة بعث بها عن طريق البر والبحر الى مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء ، فعاد رجالها بما وجدوا من نحاس حملوه يومئذ الى طيبة ، ولما عرض تحت نوافذ القصر وشرفاته أخذ يتلألأ فينبعث منه بريق يشبه بريق الذهب فيثير اعجاب الناظرين .

كما بعث الملك بأسطول الى بونت لاحضار البخور والعطور الى معابد الوادى كما فعلت حتشبسوت من قبل ، وتلك حملات تجارية لا صلة لها بأعمال الحروب على كل حال .

وطال عهد رمسيس الثالث نحو واحد وثلاثين عاما ، استمتع فى أغلبها بما دلت عليه ضخامة منشآته من ثراء ومجد ونعيم ، ثم تحولت أموره وأمور بلده من حال الى حال ، وكانت عوامل هذا التحول أربعة وهى :

تزايد أعداد الأجانب المتمصرين فى البلاط والجيش .

تزايد أعداد الأرقاء الأجانب فى القصور والمعابد .

مؤامرات النساء فى القصر الفرعونى .

ضيق الطبقات العاملة بحرمانها من مجهود يمينها ، ومما نعم به الكهان وأهل البلاط .

وقد سبقت الاشارة الى أن مصر قد فتحت حدودها وتقبلت أعدادا من الوافدين ، وكيف تقبلت الجيوش المصرية أعدادا من الأجانب باعتبارهم مرتزقة أو من الأسرى أو نسلهم ، ورفع رمسيس الثالث بعض هؤلاء الأجانب الى مناصب القيادة فى البلاط ، وزاد نصيب القصر الفرعونى من الزيجات الأجنبية ، كما تقبل أعدادا أكثر من الجوارى ، وقلدت قصور الأثرياء قصور الفراعنة فى هذا السبيل لظروف الحرب وكثرة سباياها ، أو حبا فى ملاحة الشماليات ودفء الجنوبيات .

أما المعابد فكان نصيبها من الأرقاء والأسرى الأجانب والمتمصرين أضخم ، وذكرت النصوص أن رمسيس الثالث قد خصص ٢٦٠٧ من أسراه لأملاك آمون ، و ٢٠٩٣ لأملاك رع ، لكى يعملوا بأسماء هذه المعابد فى المزارع والمحاجر والمناجم ، بل شئون العبادة نفسها .

ولم يكن هناك بأس فيما جرت عليه مصر فى استقبال أبناء جيرانها وأسرها والمرتزقة المسالمين ما دامت قوية يقظة وما دامت يدها اليد العليا ، ولكن الخطر كل الخطر فى أن يتمصر هؤلاء النزلاء بمظهرهم فقط وليس فى مخبرهم ، وأن يظل بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألمت بها نكبة وما أكثر فرص النكبات فى ذلك العهد ! . وكشفت عن حال حريم رمسيس الثالث وأوضاع الأجانب فى بلاطه ، مؤامرة من احدى ملكات الملك — من الطبقة المتوسطة غالبا وهى تى — بعد أن أحست برغبة الملك فى اقصاء ولدها بنتاور عن ولاية العهد باختياره لأحد أولاده المسمى رمسيس (الرابع فيما بعد) لهذه الولاية فتآمرت مع بعض سقاة البلاط ونسائه وحرسه وخدمه من المصريين والنزلاء المتمصرين ، واستعان المتآمرون بأعمال السحر ، وكان الهدف من

المؤامرة احداث انقلاب داخل القصر فى نفس الوقت الذى تشتعل فيه ثورة فى المدينة ، ولكن المؤامرة انكشف أمرها ، وتولى التحقيق فيها بأمر الملك أربعة عشر قاضيا كان بينهم أربعة من الأجانب ، وقبل انتهاء التحقيق تمكن بعض أقارب المتهمين أن يرشـوا ثلاثة من القضاة وضابطين ، انكشف أمرهم وتحولوا الى متهمين ، وحكمت المحكمة على بنتاور وثلاثة من شركائه بالاعدام ، وتركت لهم مهمـة ازهاقهم لأرواحهم بأنفسهم ، وحكمت على متهمين آخرين بالجلد والسجن ، وعلى البعض الآخر بجدع الأنف وصم الأذنين ، وكان من بين هؤلاء القاضيان والضابطـان الذين ثبتت ادانتهم من قبل ، أما القاضى الثالث فعزت عليه نفسـه أو صحـا ضميره فانتحر ، أما ما أصاب رمسيس الثالث من هذه المؤامرة ، واسم الملك الذى تمت المحاكمـة فى عهـده ، ان كان هو نفسـه أو ولده رمسيس الرابع ، فكلاهما موضع جدل حتى الآن .

والى جانب هـذه المؤامرة فقد وقعت فى اقـليم أتريب ثورة أو أزمة عزل على اثرها الوزير من منصبه .

وسـاءت الحالة الاقتصـادية فى البلاد حتى اضطر عمـال الجبانة فى طيبة الى الاضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك ، فتوقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم لحـالتهم دون جدوى ، وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخـازن الرامسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون وعندئذ اضطر كبـار الموظفين لمحـاولة تهدئتهم ، وتكرر الاضراب بعد ذلك مرات عديدة حتى اضطر الوزير للتدخل لاعطائهم ما يستحقونه ، وتعطينا هـذه البردية فكرة عما آلت اليه حالة البلاد من فوضى ، كما تعطينا فكرة عن كهنة المعابد الذين كانوا أول من يسمع صياح العمال من الجوع دون أن تتحرك فيهم ذرة من

عطف وذلك فى الوقت الذى كانت فيه مخازن المعابد مكدسة بكل أنواع الحبوب وأكوام الذهب ، بل اننا نعرف من هذه البردية كيف ان رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء ، ففى أحد الأيام تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » وتصادف مرور عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل اليهم كمية من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم . ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ بدون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ووصف كبير الكهنة عمله « أن ما فعله جريمة كبرى » .

وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم، والملك لا يحرك ساكنا ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة .

والواقع أن هذه البردية التى أسلفنا ذكرها تبرز لنا وجهين وجها يعيب الفراعنة بصفة عامة وسياستهم ، ووجها آخرا يرحب به التاريخ لأنه يكشف عن حقيقة روح شعبية مصرية لم تكن تهضم الضيم ولا تأبى أن تعارضه رغم أنف التقاليد وأذناب الحكام ، على عكس ما ألصقه بها كثير من المؤرخين من صفات الاستكانة واللامبالاة والتسليم المطلق بما يقضى به الرؤساء ، وان اقتصرت هذه الصورة فى حالتنا هذه على العاملين فى الجبانات الملكية بطيبة الغربية ، فانه ليس هناك ما يمنع اطلاقا من اعتبارها نموذجا لما كان يجرى فى مناطق كثيرة غيرها مما لم يبق من أخبارها شىء مدون .

وهكذا يبدو أن القدر لم يكافىء رمسيس الثالث على بطولاته وأمجاده ، أو نشاطه وأعماله بما يجب ، فجاءت أخريات أيامه على

النحو الذى ذكرناه آنفا ، ولا ندرى هل أتم رمسيس الثالث محاكمة من كشفتهم مؤامرة الحريم فى حياته ، أو أكملها خلفــه رمسيس الرابع ؟ على أى الأحوال فقد ودع رمسيس الثالث حياته بعد أن بلغ السبعين من عمره ، وقبل أن يكمل عامه الثانى بعد الثلاثين على عرش مصر ، ودفن بمقبرته بوادى الملوك ، تلك المقبرة التى كانت فى بادىء الأمر للملك « ست نخت » الذى هجرها حين رأى أنها تداخلت فى مقبرة أمنموس ، ومن ثم كان على رمسيس الثالث أن يغير فى بنائها حتى يتجنب العيوب التى دفعت أباه الى هجرها ، ونجح فى اضافة بعض الممرات والقاعات حتى عمق ١٣٠مترا ، وتمتاز رسوم هذه المقبرة بالمنظر الشهير الخــاص بطهى الطعام ، وكذلك منظر عازف القيثارة المشهور ، أما التابوت الحجرى الجرانيتى الخاص بالملك فاحتفظ به متحف اللوفر ، واحتفظ بغطــاء التابوت فى كمبردج ، أما موميــاء الملك فكانت من نصــيب المتحف المصرى بالقــاهرة .

نهايـــة الأسرة العشرين

بعد وفاة رمسيس الثالث بدأت سطوة الملك وقوته تنهـار بسرعة فائقة ، وتولى عرش مصر من بعده ثمانيـة ملوك تسـموا جميعا باسم رمسيس (من الرابع الى الحادى عشر) ، وحكموا فترة ثمـانين عامـا ، وبقيت عاصمـة البـلاد فى شرق الدلتـا (بررعمسيس) التى سميت فيما بعد تانيس ، واستمر التقليد القديم فى دفن الملوك فى مقابر وادى الملوك بطيبة وأعدت لكل من هؤلاء الملوك مقبرة متسعة مزينة بالنقوش والمناظر هناك ، وكما مضى عصر هؤلاء الملوك دون حدوث ما يسترعى النظر تاريخيـا فانهم لم يخلفوا وراءهم آثارا تستحق الذكر ، وتضاءلت أملاك مصر خارج حدودها بحيث فقدت كل مناطق فلسطين .

وتشابه كل هؤلاء الملوك الرعامسة فى ضعفهم وفى خضـوعهم لسلطان الكهنـة ، وفى عجزهم عن التغلب على الأزمة الاقتصـادية التى بدأت تطحن البلاد ، كما تشابهوا أيضـا فى عدم استطاعتهم وقف الفوضى والانحـلال فى جميـع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة .

وعاش هؤلاء الملوك فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين ادارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هنـاك وزير آخر فى طيبة ورغم

ذلك فقد كانت السلطة الحقيقية فى يد كهنة آمون ،. كما بقيت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها وأمدتنا وثائقها من البردى أو الأوستراكا بالقبس الذى ينير لنا جزءا من الطريق فى هذا العصر المظلم تاريخيا وحضاريا .

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو الاصلاح ، لذا فلم نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم اشارات عابرة مثل التى تحدثت بها بردية هاريس عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من اصلاحات وانشاءات فى المعابد ، أو تلك التى صورت تصميم مقبرته والمحفوظة بمتحف تورين ، الا أن أهم ما جاء من عهده هو تلك البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والانحلال فى البلاد ، والسرقات والرشاوى فى ايرادات الدولة على السواء ، وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيرا من سلفه ، وأهم ما وصل الينا من عهده بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدرا مهما لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام ، وتلاه رمسيس السادس الذى حكم أربع سنوات فقط ورغم ذلك فقد ترك اسمه فى أنحاء البلاد من الشمال الى شمالى السودان ، وتلاه كل من رمسيس السابع فالثامن فالتاسع وكانت أيامهم جميعا أياما سوداء فى تاريخ مصر ، وان كان رمسيس التاسع أشهرهم فان ذلك بسبب برديات سرقات المقابر الملكية فى عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن الوصول اليه من اضطراب الأمور .

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاما رمسيس آخر ، وهو العاشر فى قائمة الرعامسة ، ثم تلاه رمسيس الحادى‌عشر الذى طالت أيامه على غير العادة فى نهاية هذه الأسرة حتى وصلت الى ثلاثين عاما على عرش البلاد ، وحاول الرجل أن يقوم بنهضة

ما فى البلاد ، وربما كان من أوحى اليه بها هم كهنة آمون ، وبدأت هذه النهضة فى السنة التاسعة عشرة من حكمه لكنها لم تدم أكثر من تسع سنوات اذ أننا نجد فى نهايتها أن حريحور كبير الكهنة قد أصبح ملكا على مصر ٠

وبوفاة رمسيس الحادى عشر انقسمت البلاد الى دولتين احداهما تجمعت حول العاصمة الشمالية تانيس حيث حكم سمندس ، والثانية فى العاصمة الجنوبية طيبة حيث حكم حريحور وكان ذلك ايذانا ببداية عصر جديد وأسرة جديدة هى الأسرة الحادية والعشرون ؛

الأسرة الحـــادية والعشرون

بدأت هذه الأسرة ولايتها لمصر عقب وفاة رمسيس الحــادى عشر ، ومن عجب أن مصر أصبحت تحكم من عاصمتين منفصلتين طيبة فى الجنوب بزعامة كهان آمون من خلفــاء حريحور واعتمدوا فى تدعيم سلطتهم على مكانة طيبة العريقة ، وعلى ســلطان آمون القــاهر ، وتانيس فى الشــمال كانت تسيطر على مصر الوسطى والدلتا وحكم فيها سمندس ، وأعتبر ملوكها أنفسهم الورثة الشرعيين للأسرة العشرين بحكم قرابتهم أو مصــاهرتهم لها ، وذلك طبقــا للرأى القــائل بأن ســمندس بعد ولايتــه للعرش قــد تزوج من « موت نجمت » احدى الأميرات الملكيــات من بيت الرعامســة ، وساند ملوك هذه الأسرة حكمهم بثراء كانوا يحصلون عليه من تجارة مصر الخارجية ، ولعل من الغريب أن نعرف أن العلاقات بين شقى الوادى كانت ودية تعاونية ٠

وتتكون هذه الأسرة طبقــا لرأى مانيثون من سبعة ملوك حكموا من تانيس التى لم تكن موطنا أصليا لهم ، وقد جاء ذكر خمسة منهم على الآثار أما السادس فيجد العلمــاء صعوبــة فى توحيده مع نظيره على الآثار ٠

وقد طال عهد نس بانب جده (سمندس) بعد وفاة رمسيس الحادى عشر ٢٦ عاما ، ثم تتابع بعده الملوك : آمون منيسو لفترة

٤ سنوات ، وباسبا خع منى (بسوسينس الأول) وطال حكمه ٤٦ أو ٤٨ عاما ، وأمنموبه (امنمؤبى) وقد شارك سلفه عامين ثم استقل بالعرش نحو ٩ سنوات ، وأسوخوز الذى اشترك مع سلفه ثلاث سنين ثم انفرد بالحكم ست سنوات ، وسا آمون لفترة ١٧ أو ١٩ عاما ، وباسباخع منى الثانى (بسوسينس الثانى) ٢٤ عاما ، وذلك مع بعض الشك فى أسبقية الملك الثالث فى قائمة هؤلاء الملوك للملك الثانى منهم ، مع ملاحظة حرصهم للانتساب لآمون رب طيبة ضمن اسمائهم .

وفى سبيل تحقيق الوفاق مع سلطات طيبة الدينية ، ومن أجل تزكية امتداد نفوذهم فيها فى الوقت نفسه زوج بعض أولئك الملوك بناتهم لكبار كهنة آمون الذين تتابع منهم بعد حريحور وولده بى عنخ ستة أو سبعة وهم : بى نجم الأول ، وماساحرتا ، وحبج خنسف عنخ ، ومن خبر رع ، ونس بانجد (سمندس الثانى) ، وبى نجم الثانى ، وباسبا خع سنو (بسوسينس الثالث) .

وعلى الرغم من المعروف من انحلال هذا العصر وتدهور كل شىء فيه ، فان الأشياء التى عثر عليها وبخاصة الحلى الذهبية قد أثبتت أن الذوق الفنى والمهارة فى صناعة الحلى لم تتدهور كثيرا فى مصر ، كما أن كميات الذهب والفضة التى دفنت مع هؤلاء الملوك تثبت غناهم الكبير ، ويكفى لزائر المتحف المصرى أن يدخل قاعة تانيس ويرى ما عثر عليه فى هذه المقابر ليقف على الكثير مما يذهله ويحمله على الاعجاب بها .

الباب الرابع

العصور المتأخرة
٩٤٥ - ٣٣٢ ق.م

أ.د. محمد ابراهيم بكر

الأسرة الثانيـــة والعشرون

بدأت بعد انهيار عصر الأسرة الحادية والعشرين عصور امتدت من النصف الثاني للقرن العاشر ق٠م حتى نهاية التاريخ الفرعوني ، وجرى الاصطلاح على تسميتها باسم العصور المتأخرة ، المتأخرة من حيث الزمن أساسا ، ومن حيث الحضارة ضمنا ٠

وبدأت هذه العصور بداية اضطرارية بعهود حكام ذوى أصول مهجنة لم يكونوا أغرابا تماما عن مصر ، ولم يفتحوا البلاد عنوة ، وانما كانوا من قبائل خليطة من أهل الواحات والصحراء الغربية الأقدمين (التحنو ، والتمحو) ، وفئات من شعوب (أمثال المشاوش ، الشردانة ، الاقوش ، التورشا ، الربو ٠٠ الخ) الذين أسلفنا أنهم نزلوا السواحل الغربية والليبية وعجزوا عن دخول مصر بالقوة أكثر من مرة ، فاكتفوا بالتسلل اليها مرتزقة فى جيشها أحيانا ومدنيين رعاة وتجارا ورقيقا أحيانا أخرى ، واستقرت قبائلهم على حوافها الزراعية وفى واحاتها وحول حصونها الحدودية منذ أواخر عهد رمسيس الثالث ، ثم ما لبثوا أن تمصروا اختيارا أو خضوعا للأمر الواقع (خلال فترات أسرهم) ودانوا بدين المصريين وعبدوا أربابهم ، فاطمأن الفراعنة اليهم ووزعوهم فى حاميات متفرقة وأقطعوهم أراضى زراعية واسعة كمرتبات دائمة ، ومع كل ذلك فلم ينس المصريون لهم أصولهم الأجنبية بسهولة ٠

٣٠٩١

وقد جرت أغلب المؤلفات الحديثة على تسمية العناصر الحاكمة في هذه الأسر وملاتلاها حتى الأسرة الرابعة والعشرين بالليبيين ، الا أن وصفهم بالمهجنين أصح لعدة أسباب :

أولهـا ـ أنهم لم يكونوا من عنصر واحد تصدق عليهم تسمية واحدة .

ثانيـا ـ غلبت عليهم سمات المشاوش وقلت فيهم سمة الربو أو الليبيين .

وذلك على الرغم من الاعتراف بأن أسماء ملوك هذه الأسرة امثال شاشانق ، وأوسركون ، أو تكرتي وما اليها هي أسماء ذات جرس غريب عن الأسماء المصرية المألوفة وتصعب ترجمة مدلولاتها ، الا أن كلا منهم قد جرى في صياغة ألقابه الملكية الأربعة الأخرى على نسق الطابع المصري الموروث .

واستمرت عهود الحكام ذوي الأصول المهجنة أكثر من قرنين من الزمان تناسوا فيها أصلهم الغريب نوعا ، واعتبروا أنفسهم فراعنة مصريين ودانوا بديانة مصر ، ثم حاربوا باسمها خارج حدودها ، وحاولوا أن يستعيدوا لها بعض سمعتها الدولية القديمة ، لذلك لم يعتبرهم التاريخ أغرابا بقدر ما اعتبرهم متمصرين مغتصبين ، ولم يؤثروا في الروح المصرية بقدر ما تأثروا بها ، ولم يمنع اغتصابهم لعرش البلاد من أن يظهر بينهم حكام مصلحون ، ولم تمنعهم أصولهم المهجنة من الاخلاص لسمعة مصر واستقلالها ولم يرض أهل البلاد بحكمهم بقدر ما قبلوه على مضض ومرارة .

وقد رتب كتشن ملوك هذه الأسرة على النحو التالي :

شاشانق الأول ، وأوسركون الأول ، وتكلوت الأول ، وأوسركون الثاني ، وتكلوت الثاني ، وشاشانق الثالث ، وبمبباي وشاشانق الخامس ، وأوسركون الرابع .

واتخذ ملوك هذه الأسرة عاصمتهم فى شرق الدلتا فى مدينة تل بسطة الحالية بالقرب من الزقازيق الحالية .

وهكذا نجد أن شاشانق الأول مؤسس هذه الأسرة لم يجد صعوبة فى الاستيلاء على الملك فى الشمال ، وان لم يوحب كهنة آمون فى طيبة بهذا التغيير الذى وجدوا فيه تهديدا لمركزهم وثروتهم، ولم يمض وقت غير طويل حتى حدث الصدام بينهما ، ففر الكثير من هؤلاء الكهنة الى السودان واستقروا بها مؤسسين أسرة هناك ، كما نفى بعض منهم الى الواحات الخارجية ، وأخذ شاشانق الأول بعد ذلك يوطد من سلطته ويصلح ما استطاع من الاصلاح لتوحيد البلاد وتنقية ادارتها من نفوذ كهنة آمون ، وبعد أن استقرت له الأحوال الداخلية أخذ الملك يحاول استعادة فلسطين للحكم المصرى وورد ذكر لهذه الحملة التى أرسلها الملك فى السنة الخامسة من حكمه الى فلسطين مكتوبا ا الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الأول من العهد القديم ، ومن هذا النص القصير نعرف أن الملك الذى كان يحكم فى أورشليم هو رحبعام من يهوذا كان معاصرا لشاشانق الأول ، ويبدو أن هدف هذه الحملة لم يزد على السلب والنهب على نطاق واسع ، وذلك لملء خزائن مصر التى كانت خاوية ، أما شاشانق الأول فقد سجل انتصاراته فى حملة فلسطين على أحد حوائط الكرنك ، وأخذ يعدد فى هذا النص أسماء المدن التى احتلها مغاليا فى ذلك كل المغالاة ، وعلى كل حال يعتبر هذ النص الأخير من نوعه الذى يسجل لنا انتصارات تاريخية ، ولو أنه لم يبرز هذا الانتصار العسكرى فى لوحات واسعة المدى كتلك التى عرفناها فى عصر الرعامسة ، ويبدو أن هذه الحملة قد وصلت فى زحفها الى مناطق تبعد عن فلسطين شمالا اذ عثر على بعض الآثار لملوك هذه الأسرة فى جبلين ، وهى المدينة التى تفتن أميرها فى اذلال ون آمون مبعوث مصر فى الأسرة الحادية والعشرين ، وأغلب الظن ان هذه الآثار قد وصلت الى هناك كهدايا ملكية .

وأقام شاشانق الأول مدخلا الى فناء المعبد الرئيسي في الكرنك مستمرا الى غرب الجدار الجنوبي لبهو الأعمدة الكبير ، وهكذا حصرت البوابة البوباسطية كما تسمى عادة بين الصرح الثاني ومعبد رمسيس الثالث في طريق البهو الأول الذى كان شاشانق الأول قد صممه منذ البداية والذى لم يقدر له أن يتمه .

ولم يهمل شاشانق الأول وظيفة رئيس كهنة آمون فعين فيها ابنه أبوت فكان كاهنا أعظم وحمل في الوقت نفسه لقب « الرئيس العظيم لما » أو « رئيس الجيوش الكبير » وظل ابوت في هذا المنصب طيلة أيام حكم أبيه فلما مات شاشانق الأول بعد أن حكم واحدا وعشرين عاما خلفه على العرش ابنه أوسركون ، فكان أول أعماله وضع ابنه — الذى كان شاشانق أيضا — في هذا المنصب لأنه خاف من أخيه لئلا يترتب على وجوده ووجود أبنائه على عرش كهنة طيبة أسرة أخرى كهنوتية تنافسه في حكم البلاد .

وهكذا غدت وظيفة كبير كهنة آمون من نصيب ابن الملك أما وظيفة الكاهن الثانى فكان يحتفظ بها الأبناء الأمراء أو لأحد أزواج الأميرات ، بينما خصصت وظيفتا الكاهن الثالث والرابع لأبناء الأسرة النبيلة التى تنتمي لسلالة المشاوش ، وهكذا ارتبطت الكهانة بالملكية حتى وصلت الأمور في أخريات أيام الأسرة الى مرحلة تعقدت الأمور فيها حتى بات من الصعب التفرقة بين العملين لارتباط الواحد منهما بالآخر ، كما كان كبير كهنة آمون يحمل كذلك لقب « رئيس الجيش » ، « الرئيس الأعظم » وزاد ابوت بن شاشانق الأول على ذلك لقب « الذى على رأس الجيش العظيم للجنوب كله » وأضافت المصادر المتأخرة الى ذلك لقب « حاكم مصر العليا » .

وكعادة الحكام ذوى الأصل الخليط فقد أظهر ملوك العصر اهتماما مفرطا بالدين ومعابده وأربابه ، وخصصت أغلب عمائرهم

الدينية لاله الدولة آمون شأنهم فى ذلك شأن سابقيهم ، غير أن ذلك كله لم يمنع طيبة من الثورات ضد أولئك المتسيطرين الجدد بين كل حين وآخر ، فقد ثار أهلها عدة مرات فى عهد أوسركون الكاهن الأكبر ابن الملك تكلوت الثانى الذى سجلت باسـمه نصـوص كثيرة على البوابة البوباسطية ، ثم فى عهد ابنه شاشانق الثالث ، واشتد الملوك فى اخماد ثورات طيبة حرصـا على مصـالحهم وهيبة سلطانهم فيها ، بحيث ألقوا بعض زعمائها فى النار أحيانا .

ولمـا طال الأمد بالحكام ذوى الأصل المهجن وتشعبت أسرهم ومصالحها ، تفرقت وحدتهم ، وانتهى الأمر بأن ادعى الملك فيهم ثلاثة بيوتات ، بيتان مالكان فى شرق الدلتا فى تانيس وتل بسطة ، وبيت ثالث فى سايس (صان الحجر على فرع رشيد بغرب الدلتا)، هـذا فضـلا عن عدد من الأمراء الاقطـاعيين فى مصر الوسـطى والصعيـد .

الأسرة الثالثــة والعشرون

انقسمت مصر على نفسـها من أثر الثورات المتتاليـة التى أسلفنا ذكرها وضعفت سلطة الملوك وضاعت هيبة الكهـان وقويت سلطة أمراء الأقاليم اذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشـية من سطوة جاره ، أو طمعا فى توسيع رقعة ملكه ، ولهذا لم يجد « بادى باست » الذى اعتبره مانيثون رأس هـذه الأسرة كثيرا من المقاومة عندما أراد خلق عائلة مالكة جديدة ، ويظهر أن بادى باست قد حكم جزءا كبيرا من غربى الدلتا (صان الحجر) وحصل على معونة كهنة طيبة بينما ظل كهنة منف على ولائهم للبيت المـالك القديم الذين ظل لهم النفوذ على شرقى الدلتا ومصر الوسطى .

وعلى أية حال فاننا نعرف تماما أن الأسرة الثانيـة والعشرين ظلت على العرش لمدة سبعة وأربعين عاما بعد ظهور بادى باست ، ويظهر أن البيتين المـالكين تقاتلا فى البداية ثم اصطلحا فيما بينهما ، وقبل كل منهما الأمر الواقع وصار فى مصر أسرتان ملكيتان تحكمان فى وقت واحد ، وان لم يكن لأى من هـذين البيتين حـكم كامل على البلاد التى يحكمها أمراؤها ، اذ أن هؤلاء الأمراء كانوا يعيشون شبه مستقلين وكان لكل منهم جيشه الخـاص وبلاطه .

واذا رجعنا الى عرش كهنـة طيبـة فاننا نرى أن الكاهن حورسا ايسى قد أصبح له الحق هو الآخر فى كتابة اسـمه داخل خانة ملكيـة ، وقبل أن ينتهى حـكم بادى باسـت انتهت أيـام حورسا ايسى فى طيبة وخلفـه على العرش الكهنوتى شخص آخر يسمى تكلوت ، أرخ بعض آثاره بالسنة السادسة من حكم شاشانق الرابع الذى يلوح أنه قد جاء بعد الملك بادى باست ثم جاء بعد ذلك أوسركون الثالث وغيرهما .

والواقع أن تاريخ مصر وتوالى الأحداث فيها فى هذه الفترة غامض ومرتبك ، وبالرغم من حفـائر صـان الحجر فانه ما زال ينقصنا الكثير من المعلومات لنستطيع تحديد تولى الملوك فى كل من الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أو تحديد الصـلة بينهما أو بين أحد هذين الفرعين الحاكمين وكهنة آمون .

وقد رتب كتشن ملوك هذه الأسرة على النحو التالى :

بادى باست ، وابوت الأول ، وشاشانق الرابع ، وأوسركون الثالث ، ونكلوت الثالث ، وورود آمون ، وابوت الثانى ، وشاشانق السادس .

وقد ترك ملوك هذه الأسرة بعض الآثار فى مصر العليا وبخاصة طيبة ، وامتـاز عصر أوسركون الثالث بحادثين مهمين أولهما حدوث فيضان عال جدا فى الأقصر حطم الرصيف الأمامى وتدفقت الميـاه الى معبد الأقصر وأتلفت كثيرا فيه فأمر الملك بترميم ما تهدم وبناء رصيف آخر أما ثانى الحـادثين فهو أن الملك أوسركون الثالث لم يتبع ما اتبعه آباؤه من قبل بوضـع أحد أبنائهم كبيرا لكهنـة آمون ، بل زاد على ذلك أن وضـع ابنته « شمب آن أوبت » فى

هذه المكانة الكهنوتية باسم (زوجة آمون الالهية) أو (الزوجة أو الحرم المقدس لآمون) ، ولم يمض غير قليل حتى زاد نفوذ الزوجات الالهيات لآمون وغطى على نفوذ كبار الكهنة وكانت « شب آن أوبت » أولى سلسلة هذه السيدات اللاتى استمر نفوذهن لمدة قرنين من الزمان .

ومن طرائف التاريخ أن مانيثون قد ذكر للملك ذكره باسم بادى باست الذى اعتبره رأس هذه الأسرة أنه قد عاصر أول أولمبياد عرفها الاغريق حوالى عام ٧٧٦ ق.م .

الأسرة الرابعـــة والعشرون

وصلت الحالة الداخلية فى البلاد الى الحضيض ، ولم يقتصر الأمر على وجود بيتين مالكين فقط بل ادعى آخرون الملك ، فلما توفى شاشانق الخامس ادعى أكثر من أمير من الأمراء أنه أحق بالملك وأعلن استيلاءه على العرش الى جانب الفرع القديم فى تل بسطة ، وكان أهم هؤلاء جميعا أمير مدينة (صان الحجر) فى غربى الدلتا ، الذى أسس بيتا مالكا جديدا وهو الأسرة الرابعة والعشرون ، وكان هــذا الأمير يسمى « نف نخت » الذى وجد أن هنــاك ملكا آخر ينافسه فى أهناسيا وآخر فى الأشمونين وثالثا فى تل بسطة ورابعــا فى تانيس .. الخ ، ولكن رغم كل ذلك فقد بقيت طيبة على شىء من الهدوء النسبى يحكمها كهنتها .

وامتاز تف نخت عن غيره من الأمراء جميعا بالكثير من القوة والطموح ولهذا أراد أن يكون لقبه الذى وضعه أمام اســمه حقيقة واقعة وصمم على اعادة وحدة البلاد الى ما كانت عليه وأن تكون مصر بأسرها مملكة واحدة كما كانت من قبل فى أوج عظمتها .

وتيسر لتف نخت اخضــاع جميع أقاليم غربى الدلتا ثم ثنى بشرقى الدلتا حتى تم له اخضــاع الدلتا بأكملها ، ووجه عنايته بعد ذلك الى مصر الوسطى ولكن الأمور كانت تسير ســيرا آخر

اذ أن الحالة السيئة التي دفعت بتف نخت الى إنقاذ مصر دفعت أيضا غيره للتقدم لانقاذها ، ولم يكن هذا المنقذ الا الملك بيعنخى الذي تقدم من شمالي السودان لتخليص البلاد مما وصلت اليه من فوضى ، وهكذا قدر لجيوش بيعنخى أن تصطدم بجيوش تف نخت ثم بجيوش ابنه « باك ان رنف » وانتهى الصراع لصالح جيوش الجنوب وتأسيس أسرة جديدة هي الخامسة والعشرون .

والغريب حقا أن مانيثون لم يذكر شيئا عن تف نخت بل انه ذكر لنا من ملوك هذه الأسرة ملكا واحدا يدعى بوخوريس حكم لست سنوات وأغلب الظن أن هذا الملك هو الذى أخبرنا عنه مانيثون بأنه ظهر اسمه على احدى لوحات سرابيوم منف باسم « باك آن رنف » ، وهى اللوحة التى سجلت دفن أحد العجول فى عامه السادس ومن المرجح أنها السنة الأخيرة من حكمه ، أما الآثار فتؤكد أن رأس الأسرة هو نف نخت وخليفته هو « باك آن رنف ».

الأسرة الخامسة والعشرون
الاثيوبيــة (النوبيــة)

سبق ان ذكرنا عند الحديث عن الأسرة الثانية والعشرين أن كهنة آمون قد هاجروا ابتداء من عصر هذه الأسرة الى بلاد كوش ، وأخذوا يتجمعون فى مملكة مستقلة ، واتخذوا من نباتا عاصمة لهم .

وخــلال عصــور حــكم الأســرات ذات الأصــول المهجنــة (٢٢ ــ ٢٤) تطورت الأمور فى نباتا ، وخاصة بالقرب من الجبل المقدس (جبل برقل) حيث تكونت مملكة متحدة قوية اعتنق ملوكها الديانة المصرية ، وشــيدوا فوق جبلهم المقدس معبدا لآمون زينت جدرانه بمناظر لا تختلف فى شىء عن المناظر فى المعابد المصرية .

ومنذ هاجرت العنــاصر المصرية واستقرت فى بلاد النوبــة ، اندمجت بالتأكيد مع السكان الســودانيين ، لذلك فان بيعنخى الذى كان يحكم هــذه المملكة السالفة الذكر عند نباتا كان يحكم شعبا من أصل نوبى وســودانى نقى ، ولهذا فقد أطلق العلمــاء على الأسرة التى أسسها بيعنخى اسم الأسرة الأثيوبيــة ، وهو ان كان لا يدين بأى شىء على الاطلاق لمصر فانه قد طبق فى بلاطه كل نظم الحكم الفرعونى .

بيعنخى :

كان بيعنخى على درجة كبيرة من الثقافة ، وكان جيشه يماثل الجيش المصرى فى فترات عصر الدولة الحديثة ، وكان بين قواته بعض القوات الزنجية ، وقد أثرى نتيجة لاستغلاله مناجم الذهب فى الصحراء الجنوبية الشرقية ، وبفضل تجارته مع مصر التى جلبت عليه الرخاء الكبير وطبعت حياة مجتمعه بالطابع المصرى.

وبعد أن حكم بيعنخى لمدة عشرين عاما فى نباتا ، فانه فى العام الحادى والعشرين من حكمه بدأ يتدخل فى شئون مصر ، وكانت الظروف متاحة له كى يوسع نفوذه ولكى يظهر بمظهر المنقذ لطيبة مدينة آمون رع المقدسة .

وكان تف نخت رأس الأسرة الرابعة والعشرين قد شرع فى لم شمل ممالك الشمال وضم الى صفوفه هرموبوليس وهيراكليوبوليس ، وبعد أن قويت شوكته بما ناله من تأييد وتعضيد بدأ يستولى على الجنوب ، ولكن سرعان ما تدخل بيعنخى وهزم هذه القوات المتحالفة وسرد لنا هذه المعارك على لوحة بمعبد آمون بجبل برقل ، صورت نصوصها بيعنخى كأنه الفرعون المصرى الحاكم دون منازع .

وعاود تف نخت جمع ملوك وأمراء الشمال تحت قيادته ثانية وتركهم بيعنخى يزحفون حتى استولوا على هيراكليوبوليس وهنا أمر فيلقه المرابط بطيبة بالتصدى لهم عند الاقليم الخامس عشر ، كما أرسل التعزيزات العسكرية ، وحاصرت الفصائل النوبية (الأثيوبية) القوات المتحالفة وأجبرتها على خوض المعركة وبعد هزيمتهم لجأ رجال تف نخت الى هرموبوليس التى ضرب حولها الحصار من قبل قوات بيعنخى الذى توجه بنفسه فى ذلك

الوقت الى مسرح العمليات ، ولم يكن فى عجلة من الأمر ، فتوقف لبعض الوقت للاحتفال بالعام الجديد وبعيد أوبت فى الكرنك ، وكان هدفه من الزيارة مزدوجا : اذ أراد أن يعلن على الملأ اعتراف آمون به ملكا ، كما استهدف اضعاف القوات المحاصرة باطالة مدة الحصار المضروب حولها ، واستسلمت المدينة للملك الظافر كما استسلم الملوك والأمراء المتحالفون ٠

ثم تقدم بيعنخى نحو الشمال واستولى دون مقاومة على القلعة التى شيدها أوسركون الأول لمراقبة مدخل الفيوم كما استسلمت ميدوم واللشت كما حاصر منف واستولى عليها واتجه بعد ذلك الى هليوبوليس وأقام الشعائر الخاصة برع ثم أعاد مراسم تتويجه ، وحتى تكتمل صورة الاحتفال الذى أخذ مظهر اليوبيل حضر أوسركون الرابع ملك تانيس معلنا الولاء للملك الجديد ، كما جاء أمير أتريب ليضع أملاكه تحت تصرف بيعنخى اقرارا بتبعيته له وحذا حذوه باقى الزعماء المتحالفين عدا تف نخت الذى فر من منف الى شمال الدلتا ليعيد تنظيم قواته ٠

ثم عاد بيعنخى الى نباتا مفضلا ألا يحكم البلاد شخصيا ، ربما لأنه اعتبر نباتا عاصمته الحقيقية ، أو لأنه أدرك فائدة التقسيم السياسى للبلاد فحافظ عليه بكل عناية واكتفى بالاشراف عامة وبالاشراف الفعلى على طيبة والدروب الغربية حتى الواحة الداخلة بصفة خاصة ، ونجحت هذه السياسة فى مصر الوسطى بالشكل الذى رسمه بيعنخى ، وخاصة فى هرموبوليس وهيراكليوبوليس وعلى الرغم من ذلك فان بيعنخى لم يتردد فى تأكيد دوره كموحد لمصر على سطوح المنشآت التى شيدها أو زخرفها ، فهو حورس سماتاوى الذى وحد الأرضين ، الذى تم تتويجه فى طيبة ، وكان يعلن انتسابه الى الملكين العظيمين تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ٠

وامتثلت طيبة لسيطرته تماما ، فتولت شين أويت الأولى ، وأمنارديس الأولى معا قيادة كهنة آمون ٠

أما فى الشمال فقد ظلت فاعلية سياسته هذه محدودة بشكل واضـــح ٠

وكان نجم آشور قد صعد ولاح فى سماء الشرق الأدنى القديم كقوة لا يمكن الاستهانة بها ، وضم ملكهـــا تيجلات بيلاصر الثالث دمشق وغزا اسرائيل واجتاح أراضيها وخضع له هوشع الذى اعتلى عرش السامرة قبل وقت قصير ، وكان هذا الخضــوع ظاهريا فقط اذ أجرى اتصــالات مع « سو ــ ملك مصر » حسبما ذكر سفر الملوك (١٧ : ٤) واتفق أغلب العلماء أن هذا الملك هو اختصار لاســم أوسركون وليس تف نخت ٠

وجاء الاســتيلاء الآشورى على الســامرة ليحقق انقــلابا فى التحالفات الدولية آنذاك ، فوثق المصريون روابطهم مع « اليلستى » وأصبح أعداء الأمس حلفاء اليوم ، ولعلهم كانوا أفضــل من يتصدى للتهديد الآشورى ٠ الذى أخذ يقترب من مصر أكثر فأكثر ، وتتوالى الأحداث ويتولى سرجون الثانى التصــدى للتحالفات الدولية ضد آشور ، وفى هذه الأثناء حرض ملك حماة سكان دمشق على التمرد، وثار ملك غزة بمساعدة فرقة عسكرية مصرية ولكن الآشــوريين ظلوا ســادة الموقف وضموا حماة الى امبراطوريتهم بصفة نهائيــة واجتاحوا غزة ورفيح ٠

وتدخلت آشور فى الأردن مرة أخرى واستطاعت الوصــول الى العريش ، ولم يعد يفصلها عن حدود مصر الشرقيــة ســوى « سيللا » وهنا انتهج « أوسركون الرابع » نهجا دبلوماسيا جديدا اذ قدم لسرجون الثانى هدية عبارة عن اثنى عشر جوادا من خيرة جياد مصر ليأمن جانبه ٠

وفى نفس هذا العام توفى بيعنخى بعد حكم طويل دام واحدا وثلاثين عاما على عرش نباتا ومصر ، ودفن بهرمه الذى أقامه لنفسه فى جبانة « الكرو » ، وعلى مقربة منه دفنت خمس من ملكاته واثنتان من بناتـــه ٠

وكانت فكرة العودة الى الهرم كدفنة ملكية متفقة مع محـــاولة العودة للأصـــول القديمة ، وان بقيت أهرام نباتا بعيدة عن النماذج الأصلية فى منف ٠

شـــباكا :

بعد وفاة بيعنخى اعتلى أخوه شباكا عرش البلاد وقرر أن يباشر شئون الحكم فى وادى النيل ، فوصـــل الى منف فى السنة الثانية من حكمه ، وسار على نفس الخط الذى استهله بيعنخى بالعودة الى القيم التقليدية القديمة ، وظهر ذلك واضحا فى ألقابـــه التى اتخذها عند تتويجه ، ومنذ البداية حرص شباكا على أن ينهى حكم « باك ان رنف » ، وتأمينه واحـــكام سيطرته على الواحـــات والصحراء الغربية ، ولعله قد نصب حاكما أثيوبيا (نوبيـــا) على سايس ، كما فرض هيمنته الكاملة على شئون الشمال ٠

وخلال هذه الأحداث ثارت احـــدى المدن الفلسطينية على آشور ، فأرسل سرجون الثانى قواته لاستعادة المدينة ، ونجحت قواته فى ذلك ، ولكن عمدة المدينـــة تمكن من الهروب ولجـــأ الى مصر ، وهنا تروى المصـــادر الآشورية : « أن فرعون مصر التى أصبحت تابعة لكوش قد سلم المتمرد مكبلا فى الســـلاسل والأصفاد والأربطة الحديدية » ٠

وأغلب الظن أن الفرعون المقصود هنا هو شباكا الذى كان حريصا أغلب الظن على تجنب المجازفة بالدخول فى مواجهـــة أكبر

من قدراته مع سرجون الثانى ، ولعله قد حاول بذلك الوصول الى اتفاقية أو معاهدة عدم اعتداء بينهما .

وكان شباكا رجلا شديد التقوى والورع حتى انه كان يأبى عادة الحكم بالاعدام على المتهمين ، وقد عبر عن اهتمام نشط بالآلهة فى أتريب ومنف ودندرة واسنا وادفو ، كما بدأ حكمه بترميم مقبرة العجل آبيس فى منف ، أما طيبة فكانت محور اهتمامه فأجرى توسعات بمعبد الأسرة الثامنة عشرة فى مدينة هابو ، وفى الكرنك أقام ما يعرف اصطلاحا « بكنز شباكا » الواقع بين الآخ مينو والسور الشمالى لحرم ال « ايت سوت » .

ولم يكتف شباكا بنشاطه الانشائى فى طيبة بل رد الاعتبار الى منصب كبير كهنة آمون بعد أن طواه النسيان ، وعين ابنه « حور ام آخت » فى هذا المنصب الذى احتفظ بالسلطة الروحية فقط فى حين احتفظت بالسلطة الدنيوية « عابدة الاله » أو « الزوجة الآلهية لآمون » التى كانت تشغلها زوجته أمناردیس الأولى .

وتوفى شباكا بعد أن حكم خمسة عشر عاما ودفن مثل أخيه فى الكرو .

شبتاكا :

بعد وفاة شباكا تولى عرش مصر ولدا بيعنخى شبتاكا ثم طهرقا ، وجلس الأول منهما على العرش بعد أن شارك عمه شباكا فى الحكم مدة سنتين ، وبذلك تصبح مدة حكمه حوالى اثنى عشر عاما اتصفت فى مجملها بعدم الاستقرار لعدم استطاعته توحيد البلاد من جديد باستمرار الصراع فى الدلتا ، فضلا عن اختياره خطا متشددا فى سياسته الخارجية تجاه آشور التى اتسمت

مواقفه معها بالعدوانية ، وقد ساعدته الظروف نسبيا فى التشجيع على الثورة ضد آشـور فى فلسطين ، وقد استجاب شبتاكا الى طلب المساعدة الذى تقدم به حزقيا الذى كان حاكما على مملكة يهوذا ، وأرسل حملة عسكرية بقيـادة أخيه طهرقا بينما كان الملك الآشورى « سنحريب » يزحف على عسقلان ، ولكن طهرقا انسحب بجيشـه وعاد الى مصر خوفا على رجاله الذين وجد أنهم ليسـوا من القدرة والكفاءة للصمود أمام الآشـوريين ، كما انسحب جيش سنحريب ولم يواصل تقدمه الى مصر لتفشى الوباء بين جنوده ٠

واصـل شبتاكا الأعمـال التى بدأها عمه فى منف والأقصر والكرنك حيث شيد هيكلا جنوب البحيرة المقدسة ، وفى عهده تبنت أمنارديس الأولى ابنتهما شبن أوبت الثانيـة فى أعقـاب وفـاة شبن أوبت الأولى ٠

طهرقـا :

تولى العرش فى أعقاب وفاة شبتاكا شقيقه طهرقا ، وخلافـا لمـا كان عليه سلفه لم يشاركه فى الحكم قبل وفاته ، وكان يبلغ من العمر حينذاك خمسة وأربعين عاما ، ودام حكمه ستة وعشرين عاما ، بلغت مصر خلالها أزهى ما عرفتـه من ازدهار طوال عصر هـذه الأسـرة ٠

كان طهرقا متمصرا كلية فهو لم يترك مصر منذ بلوغه سـن العشرين ، ومنذ البداية اتخذ من شرق الدلتا مقرا لحكمـه ، وذلك بعد أن أدرك أنه لا يمكن مراقبـة التهديد الآشورى من عاصمته البعيدة فى الجنوب ، وقد حكم طهرقا أثنـاء الخمسـة عشر عاما الأولى من حكمه فى سـلام تام قام خلالها بعدة أعمال معماريـة مهمة فى تانيس ومنف وطيبة ، ولعل أهمها جميعـا هو ذلك البهو

الضخم من الأعمدة الذى أقيم وسط الفناء الكبير الأول بالكرنك ، كما نجده قد خرج عن التقاليد السابقة ولم يترك على الاطلاق كل السلطة فى الجنوب لكهنة آمون ، ولكنه جعل السلطة الدينية فى يد العابدة الالهية ، وجعل السلطة السياسية أو الفعلية فى يد أمير طيبة وحاكم الجنوب « منتومحات » ٠

وعلى الجانب الآشورى نرى أن « أسرحدون » الذى تولى بعد سنحريب بعد أن توصل الى توازن نسبى على جميع الجبهات المشتعلة ضده فى آسيا وفلسطين استطاع أن يتفرغ لمصر التى كانت بمثابة المحرض الأكبر على الثورات ضده ، ووقعت المجابهة بين الطرفين فى العام السابع عشر من حكم طهرقا ، ولكن الآشوريين اضطروا الى التقهقر أمام ضغط المصريين ، ولكن سرعان ما اشتبك الطرفان قبل أن تمر ثلاث سنوات ، ودارت الدائرة لصالح أسرحدون هذه المرة ، فهزم طهرقا واستولى على منف وأسر ولى العهد والعديد من أفراد البيت المالك ، وانسحب طهرقا الى الجنوب الذى ظل مسيطرا عليه على ما يبدو ، وقدم الآشوريون كل تعضيد لمنافسيه الشماليين وعلى رأسهم الصاويون من أهل سايس٠

وتوفى أسرحدون وتولى من بعده ولده آشور بانيبال الذى أرسل حملة عسكرية هزمت طهرقا عند منف وفر الى طيبة ٠

وأخيرا جمع الملك الآشورى قواته وأنصاره وتوغلوا فى أقاصى الصعيد دون أن ينجحوا فى القبض على طهرقا الذى فر هاربا الى مملكته فى نباتا ، وسيطرت آشور على الوجه القبلى ودان الموظفون لها بالولاء أمثال منتومحات وامتد سلطانهم الى أسوان على الأرجح ٠

واستحال على الآشوريين البقاء فى بلد يعتمدون فيه على عملاء من أبناء الوطن المحتل فعادوا لبلادهم ، وهنا بدأ ملوك الشمال يفاوضون طهرقا فاعتقل منهم آشور بانيبال من اعتقل وأعدم من أعدم . ولم يبق الا على حياة واحد منهم هو « تكاو الأول » ملك سايس ، وأقام على رأس مملكة أتريب القديمة ابنه بسمتك الأول ، وهكذا تيسر للصاويين الوصول لحكم مصر بمساعدة الغزاة المحتلين وبرضاهم ٠

وفى العام التالى لهذه الأحداث توفى طهرقا ودفن بمقبرته فى نباتا ، وكان قد أشرك معه قبل وفاته ابن عمه تانوت آمون، ولعل دافعه الأكبر وراء ذلك كان كامنا فى كبر سنه الذى بلغ حوالى السبعين عاما ٠

تانوت آمون :

توج تانوت آمون كفرعون على كل من نباتا وطيبة ، ولم يتردد فى الذهاب للاقامة فى طيبة لكى يعاود محاولة لم شمل البلاد من الجنوب الى الشمال ٠

وبالفعل قام تانوت آمون بشن حملة وصل فيها الى منف فاستولى عليها عنوة وسحق متمردى الشمال ، وأقام الشعائر للآلهة بتاح وبتاح سوكر وسخمت ، واحتفى بهذا النصر فى نباتا ٠

وكان من الطبيعى أن يتقدم آشور بانيبال لتأديب أعوانه الشماليين الذين أيدوا تانوت آمون ، وبالفعل تقدم بجيشه نحو مصر دون أن يقوم بمعركة فعلية وفر تانوت آمون الى طيبة ولكن آشور بانيبال أراد أن يعاقب عدوه بشدة فتتبعه حتى طيبة واستولى

على المدينـــة التى نهبها ودمرها وأشعلوا النار فيها وعاثوا فيهـــا فسادا ، وسطوا على الكنوز التى تراكمت فى المعـــابد على امتداد قرون طويلة بدافع من الورع والتقوى ، وجاء ســـلب ونهب طيبة ليضع حدا للسيطرة الأثيوبية التى أضحت مجرد سيطرة نظرية ليس أكثر ، خاصـــة بعد أن فر تانوت آمون الى نباتا وبقى بها حتى مات ودفن فى جبانة الكرو ، وهكذا انتهت الأسرة الخامسة والعشرون وانهارت الا من بقاياها التى ظلت فى مملكتهم القديمـــة نباتا بعيدا عن مصر شعبا وأرضا ٠

الأسرة السادسة والعشرون

((الصاوية))

وينسب هذا العصر الى اسم عاصمته ((صان الحجر)) فى غرب الدلتا ، وهى المدينة التى ذكرتها النصوص المصرية القديمة باسم ((ساو)) ، وعرفها الاغريق باسم ((سايس)) ، والتى خرجت منها من قبل الأسرة الرابعة والعشرون ،ولما قضى عليها ظل أمراؤها يجاهدون فى سبيل كيانهم خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين ، ثم جامل الفاتح الآشورى زعيمهم نيكاو رغبة فى استغلال عداء أسرته التقليدى للبيت النوبى المصرى خصيم الطرفين ، وعندما اختفى شبح تانوت آمون وريث هذا البيت الأخير كان أكبر المستفيدين من فراغ جو السياسة المصرية هو بسماتيك بن نيكاو بعد أن أنس الملك الآشورى اليه كما أنس الى أبيه ، فاستغل هذا الوضع الإضطرارى من أجل يوم لاحق يؤسس فيه دولة ويستعيد فيه لبلده استقلالها وكرامتها .

بسماتيك الأول

ولم تكن مهمة بسماتيك فى اقامة دولته يسيرة سهلة ، ولعله قد مهد لمشروعه هذا بمحاولة تجميع السلطة الداخلية فى يديه على غفلة من الآشوريين ، واستطاع بالفعل أن يسيطر على غرب الدلتا

بأكمله وعلى مملكتي أتريب وهليوبوليس ، واستعان بسماتيك فى ذلك بأحلاف من اهناسيا فى مصر الوسطى أعانوه بقواتهم البرية والملاحية ، آثابهم بعد ذلك بحكم ثلاثة أقاليم من الصعيد وجعل لهم الاشراف على الملاحة النهرية فى الصعيد كله ، وعندما ضعف شأن طيبة بانتهاء حلفها مع نباتا وتدمير الآشوريين لها استفاد بسماتيك من الفراغ القائم فيها ففاوض أميرها منتومحات على أن يبقى له ادارتها المدنية ، كما فاوض كبير كاهناتها على أن يدعها فى منصبها بشرط أن تتبنى ابنته نيت اقرت (نيتوكريس) ، ونجح فى ذلك وضمن لابنته الاشراف الروحى على معابد آمون ، والاشراف المادى على ثروات طيبة ، وجعل لها حاشية كبيرة تشبه حاشيات الملكات وتخير رؤوسها من رجال الدلتا ، ثم عهد باقليم ادفو وأسوان الى أحد أنصاره ، وبهذه الاجراءات المتتابعة رأى بسماتيك أنه حقق التوازن بين أولياء السلطة فى مملكته المرتقبة ، فالصعيد قسم سلطاته بين ثلاث سلطات حاكمة ، والدلتا أغرى بعض كبارها بمناصب فى الصعيد ، وابنته أشرفت باسمه على كهنوت آمون وأملاكه .

وكما جرت العادة غالبا ما كان المنعم عليهم يعهد اليهم بوظائف كهنوتية كي يستفيدوا من مخصصاتها ، ويقللوا من تضخم ثرواتها دون أن يثقلوا فى الوقت نفسه على ميزانية الدولة بأعباء مالية كبيرة ، فقد استمر بسماتيك فى هذا النهج بالنسبة لرجاله وكبار دولته .

وهكذا استطاع بسماتيك أن يحقق التوازن الادارى من وجهة نظره ، واعتقد كذلك أنه يمكنه تحقيق التوازن فى الجيش أيضا بالاستعانة بمرتزقة من الاغريق يقفون فى مواجهة المجندين والمرتزقة التقليديين من النوبيين والليبيين وغيرهم ، وكان هؤلاء المرتزقة

الاغريق قد أخذوا يعرضـون مهاراتهم العسكرية فى سـوق الشرق الأدنى القديم الذى كانت تمزقه الحروب الداخليـة والذى يزخر بالفرص التى لا تعوض ، واتخذ بسماتيك من هؤلاء المرتزقة الاغريق قوة يعضد بها قوته ضـد رعاياه المقربين ، فكان لهم الفضـل المباشر فى اعادة تنظيم القوة العسـكرية ضد الآسـيويين وتزويد الجيش المصرى بدماء جديدة ، حتى الأسطول المصرى قد أعيد تنظيمـه على غرار النظـام الاغريقى ، وحتى النظام الاقتصـادى الداخلى نفسه للبلاد تعرض للتغيير بسبب قيام المستعمرات اليونانيـة ، فكانت سياسة الملك تقوم على اقامة علاقات تجارية معهم وتوطيد أواصر الصداقة مع هـذه الشعوب ، ولمـا أصبح المرتزقة الاغريق يمثلون القاعدة الرئيسية فى جيشه أراد أن يمنع أى صـدام بينهم وبين القوات المصرية فحدد لهم منطقتين مميزتين لاقامتهم ، احداهما فى شرق الدلتا والأخرى فى أطراف عاصمته سايس ، ولذلك تركزت القوات الاغريقية الرئيسية فى دفنة (تل الدفنة على الفرع الدمياطى للنيل) ، وهكذا نشطت التجـارة مع المدن الاغريقية وكان المرتزقة الاغريق يعودون لبلادهم وهم يروجون لفنها وصناعتها وديانتهـا حتى ان الرحالة الاغريق بدأوا يتوافدون على مصر وبدأ الطلبـة الاغريق فى الاختلاط فى الجامعات المصرية ، وهكذا نرى أنه عندما بدأت مصر تتخلى عن تقاليدها الموروثة استطاعت أن تتكيف مع مطالب الحياة الجديدة للعالم القديم .

وتطلع بسماتيك بعد ذلك الى الخارج ، وكانت الظروف مواتية ، فقد واصلت آشور نضالا عنيفا حينذاك مع منافستها اللدود عيلام ، كما واصلت انتقاما عنيفا من أختها اللدود بابل وحلفائها ، وواجهت كذلك عدة ثورات فى الشام ، واشتبكت مع دولة ليديا فى آسـيا الصغرى ، فحالف بسماتيك « جيجيس » ملك ليديا على أن ينجد أحدهما الآخر حين الحاجة ، وكانت الشقة بعيدة بين الحليفين ولكن

قرب بينهما عداؤهما لآشور ، وعدم خوف أحدهما من أطماع الآخر ، وتقدير الاغريق لمصر على الرغم من النكبات التى حلت بها ، ومعرفة المصريين بالاغريق من قبل تجارا ومرتزقة وملاحين مهرة ، وفى هذه الظروف تخلص بسماتيك وأعوانه من النفوذ الآشورى ، وان كنا لا ندرى للأسف الشديد تفاصيل كفاحهم المسلح ضده ولا كيفيه اجلائهم الحاميات الآشورية عن مصر .

وتفرغ بسماتيك لتأمين مركزه وبلده ، وسلك فى ذلك سبل السياسة والقوة معا فآثر السلام مع نباتا وأوفد سفارة اليها عادت بالهدايا ، ولم يستمر فى عدائه الصريح مع آشور بعد أن خلص بلاده من نفوذها ولعله قد هادنهم وهادنوه حتى يفرغوا من متاعبهم ، فاستفاد من هذه الهدنة وسعى برجاله لضمان الخطوط الأمامية فى فلسطين ، وحدث حينذاك أن وصلت الى جنوب الشام طلائع هجرات السكيثيين (وهى جزء من هجرات خرجت من أواسط آسيا وهددت آشور وخربت آسيا الصغرى وتسرب بعضها جنوبا الى فلسطين ، وكانوا غزاة جوابين غير مستقرين) فاستغلت مصر هذه الصفة فيهم دون أن تستهلك قوتها الحربية معهم فأرضتهم بالعطايا حتى عادوا الى آسيا . ومضى بسماتيك بعد ذلك حتى أتم فتح مدينة أشدود الحصينة ، وأصبح سيد الموقف فى بلاده وعلى حدوده ، بل أكثر من ذلك أن مصر بدأت تمد يد العون للآشوريين فى نكباتهم المتلاحقة أمام البابليين والماذيين دفعا لخطر هذين الأخيرين على الوضع القائم فى الشرق الأدنى .

طال عهد بسماتيك أربعة وخمسين عاما شغلت أغلبها فرحة التحرر من الغزو الآشورى واستعادة وحدة البلاد وعودة الأمن لأراضيها ، فاشتدت الاشادة بالقومية وبعراقة الأصول ، وسار بسماتيك قدما فى الطريق الذى بدأه الأثيوبيون بتأكيد الشكل

القومى لنزعة العودة الى ينابيع الدولة القديمة والوسطى ، وذلك ابرازا للتصميم الرافض للاحتلال الآشورى وتزايد وجود العناصر الأجنبية التى لم تعش دائما فى صفاء وود مع المصريين خلال هذا العصر ٠

وفى ظل التأثير الواضح للصاويين لم تعد النبرة العليا لطيبة فى الفن واللاهوت هى السائدة فى المجتمع ، بل سادت التقاليد المنفية بعد العودة اليها واحيائها فقلد الفنانون أفضل النماذج لفن النحت فى الأسرتين الرابعة والخامسة ، وكذلك فى فن النقش والتصوير ، وأبقى الكتاب على اللغة الكلاسيكية فى النصوص الرسمية وتأثرت بصيغ وألقاب الدولة القديمة ، أما الديموطيقية التى شاعت كخط شعبى وحلت محل الهيراطيقية فقد انحسر استخدامها فى مصر العليا واقتصرت على الكتابات غير الأدبية ٠

وأبقى بسماتيك المقر الملكى وجبانة البيت المالك فى مدينة سايس ، الا أنه نقل العاصمة الى منف فاستردت بذلك دورها كمركز سياسى وادارى ، ولن ننسى أنها احتفظت الى حد ما على مر الزمان بمركز الصدارة فى شئون اللاهوت ٠

وعلى الرغم من جهود بسماتيك فى اصلاح ما خربه الآشوريون فى معابد طيبة ، فان المدينة لم تحظ بأى حال من الأحوال بشىء مما كان لها من قبل ، وكان نصيب مدن الوجه البحرى ومعابده وآلهته من تجديدات العصر اكثر من نصيب الصعيد بأكمله ، وذلك بحكم وجود عاصمة الدولة فيه ، ونشطت الاشادة بأربابه ولا سيما نيت ربة سايس ، وبتاح رب منف ، ورمزه الحيوانى أبيس ٠

وتوسع بسماتيك فى سرابيوم منف ، وطغت سمعة هؤلاء الأرباب على أرباب الصعيد ، خلا آمون الذى احتفظ بمكان الصدارة كاله للدولة ٠

ويعتبر هـذا العصر دون جدال عصر ازدهار ورخاء وظلت مصر دولة قوية يعتد بها ، الا أنهـا لم تعتمد فى ذلك على قوتهـا وازدهارها بمواردها الخاصة بقدر ما اعتمدت واستغلت أفول نجم آشور لاثبـات وجودها بين بلدان الشرق الأدنى لحين ظهور قوة جديدة تبدد ما استردته من طموحات ٠

وبقى لعصر بسـماتيك الأول أن يفخر بحده من تضخم ثراء الاقطاعيين الجدد من مدنيين ودينيين وكانت هذه سنة استنها وأتبعها خلفاؤه من بعده وهى الايحـاء الى كبار أولئك الاقطاعيين بالتبرع بجانب من ثرواتهم العقارية للمعابد التى تحتضنها الدولة ، وكأن هؤلاء الملوك قد اشعروا الاقطاعيين المتبرعين بأن حكومتهم لا تبتغى أن تقاسمهم ثرواتهم لصالحها الخاص وانما لصـالح الأرباب ٠

ويعاب على بسماتيك ظنـه بتحقيـق التوازن فى جيشـه بالاستعانـة بالمرتزقـة الاغـريق أصحـاب العزائم الجديدة التى لا يخشى من استغلالها لوضعهم فى جيشه ، وكأنه أراد بذلك تزويد جيشه بدماء جديدة بعد أن استرخت همم المجنـدين والمرتزقـة الليبيين والنوبيين وأمثالهم واسـتناموا الى أراضـيهم الزراعيـة ومرتباتهم التى خصصتها الدولة لهم ولكنه أخطـأ التقدير وعالج الخطأ بخطأ آخر واتخذ من خطئه الجديد حرسـا خاصا وحاميات للحدود كما أسلفنا الذكر ٠

على أنه كان من حسن الطالع أن توافد فى أعقاب هؤلاء المرتزقة التجار الاغريق الذين عملوا لحسـابهم حينا ووسـطاء بين مصر وبلادهم حينا آخر ، ويذكر لبسماتيك أنه أوصى بتكوين طائفة من التراجمة لتيسير التفاهم بين الوافدين الاغريق وهيئـات الجيش والبلاط والتجـارة فضـلا عن أغراض الزيارة ، وكان نواتها عددا مختارا من الشبان المصريين النابهين ليكونوا مرآة لمصر فى وجـه الزائرين الأغراب ٠

نيكاو الثاني :

مات بسماتيك تاركا لابنه نيكاو الثانى مهمة استكمال ما بدأه من أعمال وحافظ نيكاو الثانى على التزامات مصر تجاه ما تبقى من مملكة آشور الشرعية ، فخرج نيكاو الثانى بجيشه الى فلسطين وسلك طريقه دون معارضة تذكر ، وعندما اعترضه حاكم أورشليم اليهودى يوشيا أنذره بالحسنى ولكنه لم يتعظ ففتك به عند مجدو ، ثم تابع مسيرته الى شمال سوريا ، وأحرز نجاحا ضد البابليين على ضفاف الفرات قرب قورقميش ، وبهذا استعاد الاشراف المصرى على أجزاء واسعة من الهلال الخصيب ، وعاقب نيكاو الثانى أورشليم مرة أخرى فعزل حاكمها وعين غيره يهويواقيم ليكون تابعه ، وألزمه بدفع الجزية •

ولكن المقادير بدأت تسلك وجهة أخرى منذ عهد الملك البابلى « نابوبولاسر » الذى عهد بجيشه الى ولده وولى عهده نبوخذ نصر ، وكان كفئا لمواجهة الأزمة من وجهة النظر البابلية ، الا أن نيكاو الثانى تجاهل هذه الحقيقة وركبه الغرور ، فترك المبادرة وتوقف بجيشه طويلا عند نهر الكلب ليسجل له رجاله أخبار نصره وآيات تمجيده فكانت فرصة لولى العهد البابلى دعم فيها جيشه وتخير موضع معركته فتيسر له النصر عند قرقميش ، وحينئذ تخلى نيكاو الثانى عن شمال سوريا كارها واحتفظ بجنوبها لوقت غير طويل ، اذ تابع نبوخذ نصر مسيرته بعد وفاة والده واقراره للأمور فتابع طريقه بجيشه الى فلسطين حيث أعلن له يهويواقيم اليهودى الطاعة، وكان آخر ما استطاع نيكاو الثانى تحقيقه هو صده لهجوم شنته القوات البابلية على حدوده الشرقية ونجح فى الاستيلاء على غزة ، التى لم يتجاوز المصريون حدودها حتى نهاية عهده •

وتجمدت سياسة مصر الحربية فى بقية عهد نيكاو الثانى سواء نتيجة لعقد معاهدة عدم اعتداء بينه وبين بابل ، أو لاتمام عملية مصاهرة بينهما وهو ما لم يتأكد بعد ، أو نتيجة لانشغال نيكاو الثانى بحدوده الجنوبية ، أو لرغبته فى الاتجاه لاحراز سيادة بحرية لأغراض التجارة وأغراض الحرب وحماية السواحل معا .

وواصل نيكاو الثانى سياسة الانفتاح على العالم الاغريقى ، وحاول بناء أسطول مصرى يمكن أن ينافس به خصومه فى البحر المتوسط وفى البحر الأحمر على حد سواء ، ويذكر له محاولة ربط الدلتا بالبحر الأحمر بطريق مائى ، وذلك بشق قناة تجرى من فرع الدلتا البوبسطى القديم حتى البحر قرب الاسماعيلية الحالية ، وأسس نيكاو الثانى مدينة جديدة لتكون بمثابة مركز لعبور القوافل وكانت تقع عند تل المسخوطة حاليا .

وهكذا تمكن الرجل من بناء أسطول طيب لمصر ولكنه رغم ذلك لم يمكنه من منافسة أساطيل خصومه منافسة حقيقية ، ولكنه فتح الطريق أمام الملاحين الفينيقيين الذين حضروا بناء على طلبه للقيام برحلاتهم الافريقية التى ظلت أهم انجازات عصره وكان الغرض منها الكشف والمعرفة واظهار المهارة وفتح أسواق جديدة للتجارة فى آن واحد .

وخلف نيكاو الثانى عند وفاته ابنا ذكرا وثلاث بنات ، وتربع الابن على عرش مصر خلفا لوالده .

بسماتيك الثانى :

ترك نيكاو الثانى العرش لابنه بسماتيك الثانى الذى لم يدم حكمه ، ولا نكاد نعلم عن مدة حكمه التى لم تزد على الست السنوات

ألا بالقليل ، وكانت كوش تتبع سياسة أكثر حذرا ، ولكن يبدو أن الظروف قد ساءت بالشكل الذى دعا بسماتيك الثانى لايفاد حملة اشترك فيها مع المصريين جماعة من الاغريق والكيريين والليبيين وربما اليهود كذلك ، وعبرت الحملة النوبة العليا والشلال الثانى ووصلوا الى نباتا ، وربما تتبعوا العدو حتى الشلال الرابع وسجلت أخبار هذه الحملة على لوحتين عثر عليهما فى تانيس والكرنك ، وأغلب الظن أن هذه الحملة قد عادت بخيرات كثيرة على مصر سمحت لفرعونها بكثير من الانعامات على أعضائها وبمزيد من الانشاءات الدينية ٠

والغريب حقا أنه بعد هذه الحملة قد سادت موجة لازالة ملوك **الأسرة الخامسة والعشرين (الأسرة الأثيوبية) من على سطوح** العمائر والمنشآت ، وكأن بسماتيك الثانى قد أراد بفعلته هذه أن يلغى ذكرى هؤلاء الملوك ويمحو أى أثر لخصوم أسرته القدامى الذين ناصبوها العداء من قبل ٠

وكان البحث عن العظمة على رأس اهتمامات بسماتيك الثانى الذى كان ذا نشاط موفور يبرر حبه لمقارنة نفسه بجده العظيم ٠

وفى عهده خرجت بعثة حبية من مصر الى سوريا صحبها عدد من الكهنة اختيروا من معابد مختلفة ، ومن طريف ما سجله كهنة آمون بهذه المناسبة أنهم أجمعوا رأيهم على كاهن منهم يدعى بادى ايسه وقالوا له : « لقد اخترت للذهاب الى بلاد خارو مع الفرعون وما من أحد فى هذه المدينة يمكن أن يقوم بهذا عداك ، وراع أنك كاتب دار الحياة وما من شيء تسأل عنه لن تجد له الجواب الملائم » ٠ وظلت مصر على سياستها الشمالية السلمية تستقبل اللائذين بها من أهل الشام ومن اليهود الفارين من وجه البابليين ٠

ويذكر لبسماتيك الثانى أنه طلب من عابدة الاله « نيت اقرت » ، أن تتبنى ابنته التى أنجبها من الملكة « تاخوت » واسمها « عنخ نس نفر ايب رع » ، وبالفعل حلت محل نيت اقرت وظلت تشغل هذا المنصب حتى الغزو الفارسى ·

واح ايب رع « ابريس » :

توفى بسماتيك الثانى تاركا لولده واح ايب رع (ابريس عند الاغريق) أن يواجه الموقف الناشىء عن ثورة صدقيا فى أورشليم ، وكانت مصر وفينيقيا مشاركتين فيها ، فزحف نبوخذ نصر الثانى علىأورشليم وضرب الحصار حولها لمدة سنتين ، واستولى على صيدا ليضمن سيطرته على فينيقيا ، ولكنه فشل فى الاستيلاء على مدينة صور التى ظل ابريس يمدها بالمؤن عن طريق البحر ليثبت جدوى وأهمية أسطوله الجديد الذى سمح لصور بالصمود ، وكان المصريون أقل توفيقا فى المعارك البرية ، اذ حاولوا أن يقدموا يد العون لصدقيا ولكنهم اضطروا للانسحاب ، وسقطت أورشليم بعد ذلك وألقى القبض على صدقيا الذى شهد تنفيذ حكم الاعدام فى ابنه اجبارا ، ثم أرسل الى الأسر بعد أن فقئت عيناه ، ولم يقنع حزب الحرب بالهزيمة فقام أنصار ارميا باغتيال الحاكم البابلى الذى عينه الملك الظافر ثم ولوا هاربين مع زعيمهم الى مصر قبل أن تجهز أعمال القمع والتنكيل ·

ولم يكد ابريس ينتهى من هذه الحرب حتى ثارت حامية الفنتين فور بلوغها نبأ هزيمة الجيش المصرى أمام نبوخذ نصر الثانى ، واستطاع القائد « نسى حور » أن يسحق التمرد ·

ونشب صراع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية وجماعة من الاغريق الذين استعمروا برقة وما حولها

استعمارا تجاريا تحول الى استعمار سياسى أصبحوا به سادة البلد ، واتخذوا من مدينة قورنية عاصمة لهم ، وشيئا فشيئا ازدادت أعدادهم بالمهاجرين ، وازداد ضدهم فى الوقت نفسه ضيق الليبيين لمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم وتعاليهم عليهم ، وطلب هؤلاء الآخرون عون مصر فأعانتهم عسكريا ، ولكن جيشها وقع فى كمين ولم يعد منه غير القليل ، فثار المواطنون ضد ابريس فى مصر واتهموه بأنه دبر هذه الحملة للتخلص من المصريين فى الجيش حتى يزداد تسلطا على بلدهم ، وأنه أسرف فى احتضان الاغريق على حسابهم ، وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة .

ولعل مما ازاد التذمر ضده ضيق الكهنة فى عهده من اسرافه فى منح مناصب المعابد لموظفيه المدنيين .

وندب ابريس قائده المصرى أحمس ، للتفاوض مع الثوار ، ولكنهم اجتذبوه الى صفوفهم ، وعهدوا اليه بزعامتهم ، فهاجم بهم ملكه ابريس وأنصاره ، وأسره ويبدو أنه أجبره على اشراكه فى الحكم معه ، ولكن تجدد القتال بينهما وقتل ابريس على أيدى الثوار أو اغتيل بأيدى أعوانه ، ودفن فى سايس داخل سور معبد الالهة نيت ، بعد أن حكم حوالى تسعة عشر عاما .

احمس الثانى (أمازيس) :

تولى أحمس الثانى السلطة بتعضيد من القوى الوطنية ومؤازرتها ، وكانت مشكلة الاغريق مع المصريين كبيرة للغاية ، ردها هيرودوت الى اختلاف العقائد بين الطرفين ، وردها غيره من المحدثين الى اختلاف حضارتى الفريقين ، والى اختلاف نظرة كل منهما فى الأخذ بأمور النظافة المادية والمعنوية (وروى هيرودوت فى ذلك كيف ان المصريين كانوا يأنفون من تقبيل الاغريق أو استعمال

أذواتهم الخاصــة ، كما أبدى عجبه من اسراف المتدينين المصريين فى نظافتهم) ، ولكل هذا صحته بطبيعة الحال ، ولكن دون استبعاد العامل القومى فى القضية ، وتقدير مرارة المصريين من انتقــال مقاليد الحرب والاقتصاد فى بلدهم الى أيدى دخلاء يسهل تقبلهم على الرحب والسعة ان كانوا قلة أو رضوا بالقليل ، ولكن الاغريق غدوا كثرة ينعمون بالكثير ويتبادلون النفع والانتفــاع مع الحكام ، ولا سبيل الى اســتهلاك تقاليدهم الاغريقيــة فى المحيط المصرى بسهولة ، وكان على أحمس الثانى أن يحل المشكلة بعد أن ولته مصر عرشها ، وكان أميل الى السلم والسياســة ، مرحا ذكيــا ساخرا محبا للشراب يميل الى الدعابة الشعبية على عــادة أغلب المصريين • فجمع هؤلاء الاغريق الأجانب فى مدينــة نقراطيس ، جنوب شرق الموقع الذى أقيمت عليه مدينة الاسكندرية فيما بعد ، ومنح هؤلاء المستوطنين مزايا اقتصــادية وتجارية ذات شــأن ، فأقر للمدينة بحق اقامة وكالاتها التجارية ، وأماكن للعبادة ليمارس فيها السكان شــعائرهم الخاصة ، وأزدهرت منطقــة نقراطيس بأسرها وأسهمت فى رخاء البلاد بأكملها ، وقد بلغ هــذا الازدهار شأوا عظيما فى أيام حكمــه ، واستمر أحمس الثــانى فى توثيــق علاقات الود بالاغريق الخارجيين ، فعقد حلفــا مع قرنيه ، وذكر هيرودوت أنه تزوج منها ، وتزوج من كريتيــه ، وهادى المعــابد الاغريقية ، واعتبره المؤرخون الاغريق أكثر الملوك الصاويين حنكة وحصافة ، كما أشادوا بنجاحه فى تحقيق السلم الداخلى بين المصريين والاغريق فى ظروف عسيرة ودون التضحية بمصــالح اقتصــادية أو عسكرية •

ويذكر لأحمس الثانى أنه قد استن قانونا بفرض ضريبــة على الكسب للحد من البطالة والتواكل بين الشعب •

على أية حال فان روح السلام وحب الأمن الداخلى عند أحمس الثانى كلاهما لم يوقف طموحه ، ولم تمنعه مجاملة الاغريق من منافستهم فى البحر المتوسط فاستولى على جزيرة قبرص .

وعقدت مصر سلسلة من المعاهدات اتقاء للخطر الفارسى المرتقب ، فتحالف أحمس الثانى مع كرويسوس ملك ليديا العظيم ، وبوليكراتيس طاغية ساموس ، وثمة فرض باحتمال امتداد الحلف الى اسبرطة وبابل أيضا .

وبدأ قورش ملك الفرس بليديا التى انهارت بسرعة ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على حلفائها من المصريين ، وعقب قورش ببابل فابتلعها ، وآثرت ساموس الخضوع ، وتبعها الفينيقيون ، وبقيت مصر وحدها .

وقبل أن يتجه الغول الفارسى اليها توفى أحمس الثانى بعد حكم دام أربعة واربعين عاما ، ففقدت مصر به ركنا له كفايته وله شعبيته .

بسماتيك الثالث :

خلف أحمس الثانى على عرش مصر ولده بسماتيك الثالث الذى توج فى الوقت المناسب لكى يحاول أن يوقف الغزو المرتقب الذى لا يمكن تجنبه بقيادة قمبيز خليفة قورش .

ترك أحمس الثانى لولده بسماتيك الثالث بلدا يفيض بالرخاء والخير ، ولكن كانت المخاطر تلوح فى الأفق ، فبعد وقت طويل من توليه العرش هاجمه قمبيز ، وخانه المرتزقة الاغريق ، وهزم الجيش المصرى فى بلوزيوم ، ولجأ الملك الى منف على الرغم من

مقاومة المصريين بقوة ، وولى بسماتيك الأدبار بما تبقى له من قوات قبل أن يقع فى الأسر ويرسل الى سوسة مكبلا بالأغلال ، فى حين يعتقد البعض الآخر أنه حكم عليه بالاعدام ، وهكذا توج قمبيز ملكا على مصر وخضع له الليبيون وأهل برقة وأصبحت مصر مقاطعة فارسية كما خضع غيرها من أمم الشرق القديم ، وسوف تنتفض مصر مرات عديدة سعيا وراء الاستقلال ، ولكن هذه الانتفاضات لن تعدو أن تكون فسحة من الوقت بين تسلط قوة غازية وأخرى •

الأسرة السابعة والعشرون

تحددت مقادير الشرق القديم بمولد الدولة الفارسية فى منتصف القرن السادس ق٠م ، وهى دولة أراد زعماؤها أن يثبتوا لمواطنيهم بعقليتهم القبلية الجبلية أنهم يفوقون أسلافهم ذوى الميراث الحضارى الطويل من عيلاميين وماذيين ، قوة واقتدارا فى الداخل والخارج معا ، وصمموا على بسط نفوذهم فى الاتجاهات الأربعة ، مستغلين فتوتهم وشيخوخة جيرانهم ، فخرجوا بحملات مسعورة ، ولكنها منظمة وقوية ، تحت قيادة ملكهم قورش ، حتى بلغوا آسيا الصغرى واكتسحوا دولة ليديا ، ثم طووا بابل ذات التراث المجيد ، وأدركوا بعد ذلك سهولة اخضاع العالم المحيط بهم ، والذى مزقته المنافسات والحروب المتصلة لحكومة عالمية واحدة ، هى حكومتهم بطبيعة الحال ، ومات زعيمهم قورش قبل أن يحقق حلمه بفتح مصر ، وتولى تحقيق هذا الأمل ولده قمبيز ٠

وعندما بدأ قمبيز مشروعه لغزو مصر من حدودها الشمالية الشرقية عاونته الظروف ، فاستسلمت له بلاد الشام بدويلاتها الكثيرة ، ووضعت فينيقيا أسطولها الكبير تحت طاعته ، وتخلت قبرص عن التعاون مع مصر ، فى الوقت الذى فقدت فيه مصر ملكها المحنك أحمس الثانى وخلفه على عرشها ملك سيىء الطالع هو بسماتيك الثالث ، وكان من كبار قادة جيشه قائد من المرتزقة

الاغريق خانه وهرب الى قمبيز وقاد له جيشه عبر مسالك الصحراء المؤدية اليها مستعينا فى ذلك بالبدو ، المعارضين التقليديين ، وكذلك بمن كانوا فيها من اليهود الذين اعتبروا أباه قورش مسيحهم المنتظر بعد أن فك أسر اليهود المنفيين فى بابل وما حولها ، وأعادهم الى أورشليم وعمرها من أجلهم ، فكانوا لذلك على استعداد لتذليل أى صعاب فى سبيله ، ورغم هذه الظروف قاومت مصر جهد الاستطاعة وخاضت بقيادة ملكها التعيس بسماتيك الثالث معركة عنيفة ضد الفرس فى الفرما (بلوزيوم) على الحدود الشمالية الشرقية ، ولكن كل ذلك لم يغن عنه شيئا أمام الطوفان الفارسى الذى امتاز بكثرة عدده وحسن تنظيمه ، فضلا عن تمرسه على فنون القتال .

واستمرت المعركة من الفجر حتى الغروب ، وانكسر جناح المصريين عند الغروب ، وحمل الملك بعيدا ، وتراجع المصريون الى منف ، وتقدم قمبيز داخل الدلتا وأحكم الحصار حول هليوبوليس حتى استسلمت ، وقاوم بسماتيك بجيشه ولكن قمبيز تبعه ودارت معركة أخرى انتهت بسقوط منف ، ووقع بسماتيك أسيرا فى أيدى الفرس الذين سخروا منه فى البداية ، ولكن قمبيز أفرج عنه بعد ذلك ومنحه ما يستحق من توقير يتفق ومركزه الملكى ، غير أن الملك المصرى لم يكن يرضى الهوان ، فأعلن الثورة حين أخلى سبيله ، واختلفت الآراء حول مصيره ، فهناك من قال ان قمبيز قتله ، وقال آخرون انه بقى أسيرا فى بلاد الفرس ، كما أن هناك من قال ان بسماتيك قد أنهى حياته بنفسه ، أما سايس عاصمة الأسرة السادسة والعشرين فهناك رواية تذهب الى أن قبطان البحر « وجاحررسنت » قد سهل أمر الاستيلاء عليها .

على أية حال فان اختفاء بسماتيك الثالث من مسرح الأحداث قد قضى على الشعور المتأجج فى مدن الدلتا ضد الفرس ، أما الصعيد

فلم يقبل أبناؤه الذين لم يكتب عليهم حتى هـذه المرحلة هوان المذلة فلم يعترفوا بسلطان الفرس عليهم ٠

وبلغ من تقدير قمبيز لضخامة البلد الذى سيطر عليه أن اقام فى مصر ثلاث سنوات صحبها فى بدايتها ما يتأتى عادة من الغزاة من تخريب ونهب ومصـادرات وغرامات ، ولم تسلم المعابد من كل ذلك فخرب أغلبها وأنقصت مخصصاتها الى النصف وعسكر فيها جنود الاحتـلال ، ثم هدأت عاصفة الغزاة وتفتحت أمام قمبيز فى مصر آمال جديدة فى الغرب والجنوب ، فاتجه الى طيبة ومن هناك استطاع أن يصـل الى الواحة الخارجة ويستولى عليها ، وخطط قمبيز لثلاثة مشروعات بعد ذلك فشلت جميعها ، فمهد لغزو قرطاجة الفينيقية الأصـل ذات الشهرة التجارية ، وأراد أن يستعين بالأسطول الفينيقى على فتحها ، ولكنه لم يجد الاخلاص والاستجابة من أبناء عمومتها الفينيقيين ٠

وأرسل قمبيز حملة الى سيوة مقر آمون ووحيه ليتم بهـا فتح الواحات ويفتح بها طريقا الى ما بعدها ، فابتلعت حملتـه العواصف الرملية الكثيفة ٠ وقاد قمبيز حملة الى نباتا طمعـا فى ذهب النوبة وليفتح بها طريقا الى السودان ولكنهـا فشلت هى الأخرى بسبب الاهمـال فى اعدادها وقلة الزاد وصعوبة الطريق ومقاومة أهل نباتا ٠

وكان من الطبيعى أن يرى المصريون فى هـذا الفشل المثلث انتقاما من السماء ، وأحاطوه بأساطير وجدت آذانا صاغيـة عند الاغريق أعداء الفرس ، فروى هيرودوت أن الـبيل أصابته لوثة من فشله وانه عندما رجع من حملة النوبة بخفى حنين يجر أذيال الخيبة بعد أن فقد الجزء الأكبر من جيشه ، وجد المصريين يحتفلون بمولد أبيس جديد فظنها فرحة الشماتة به فقتل كبارهم ، وطعن أبيس

بخنجره غير أن العجل المقدس لم يلق حتفه ، لأن طعنة اليد المرتعشة لم تصب منه مقتلا ، ثم أمر بعد ذلك فبعثرت القبور وأخرجت جثة الملك أحمس الثانى (أمازيس الصـاوى) حبيب قومه واستنزل اللعنات عليها ثم أمر بحرقها ، وامتد عبثه بعد ذلك الى الديانـة المصرية نفسها فهدم المعابد وأنقص مخصصاتها الى النصف واتخذ من بعضها مخيمـا يقيم فيه جنده مثلمـا فعل نابليون فى العصر الحديث بالأزهر الشريف •

وقيل ان ما أثار حفيظة قمبيز على واحة سيوة هو أن وحى آمون فيها ، كان قد تنبـأ بفشله سـلفا ، ثم روى هيرودوت أن الرجل جن ، لا سيما بعد أن بلغه نبأ مؤامرة فارسية للاستيلاء على عرشه ، فسارع بالعودة الى بلده ، وهنا كان لا يزال للانتقـام الالهى بقية ، فحدث خلال سفره أن وخز نفسه بسـلاحه فى فخذه ، وفى نفس الموضـع الذى طعن فيه أبيس المقدس فتسمم الجرح وأودى به ، وقد تكون أمثال هذه الأساطير التى تتمسح فى القدر وفى انتقام الآلهـة هى حيلة الشـعوب المغلوبة على أمرها ولكن الخسارة الحقيقية لقمبيز كانت هى انتقال عرشـه من فرعـه الى فرع آخر من أسرته •

على أية حال فقد كان قمبيز دون شك ذلك الغاصب الذى احتل أرض الكنانة واستعان فى ذلك بكل الوسـائل دنيئها وشريفها لتحقيق أطماعه الاستعمارية فى مصر ، لذا فقد شعر المصريون بارتياح كبير عندما غادر قمبيز بلدهم وعهد بحكم مصر الى « أرياندس » احد أقربائه الذى استقر فى منف •

دارا الأول :

خلف قمبيز دارا الأول الذى حكم مصر بدون صعوبة ، وقـد توج دارا الأول فرعونا عن طريق التفويض ، وعند مجيئه الي مصر

استقبل بحفاوة كبيرة ، فوصـل الى منف واسـتطاع أن يستميل الشعب اليه ، وذلك بأن سارع فور وصوله الى مصر فى تخفيف القيود الصارمة التى كان قد فرضها قمبيز على البلاد من قبل .

ولعله اضطر فى بداية حكمه الى ارسال حملة للقضـاء على ثورة قامت فى برقـة « ليبيا » بقيادة واليه على مصر « أرياندس »، واتهم هـذا الأخير بأنه تسبب فى كارثة حربية كادت تودى بهيبة الامبراطورية الفارسية بسبب أغراضـه الشخصية ، واذا أضفنا الى ذلك اتهام دارا الأول له بالخيانة لقيامه بسك عملة ينافس بها عملة دارا الذهبيـة ، أو لقيامه بصهر النقود الذهبية المضروبـة باسم دارا لبيعها سبائك ، فقد كان من الطبيعى أن يتهمه دارا الأول بعدم الولاء ويأمر باعدامه ، وعلى أية حـال فقد كان اعدامـه خيرا على مصر وعلى المصريين بعد سنوات عجاف من الظلم والقهر والتعذيب ، وحاول دارا بعدها محـاولة كسب ود المصريين ، فضمد الجراح الدفينة ، وأوقف عمليات القهر ، كما حاول أن يمحو من الأذهان قسوة قمبيز وبطشه فأمر بدفن العجل أبيس على الطريقة التى كان يتبعها الفراعنـة من قبل مما جعل المصريين يفتحون له قلوبهم ويقدرون فهمه للأمور .

وتابع دارا الأول استكمال وتنفيذ مشروعات الأسرة الصاوية ولعله الوحيد من بين ملوك الفرس الذى تابع عمليـات التشييد فى المعابد المصرية ، فاليه ينسب اقامة أو اكمال المعبد الذى أقامه أحمس الثانى لآمون رع فى واحة الخارجة ، كمـا أعطى أوامره بترميم المعابد ، وسار على سنة الفراعنة فى اقامة المعابد وارسـال البعثات لقطع الأحجار من وادى الحمامات ، وتذكر نقوش الوادى أن مهندسـا مصريا كان يدعى « خنوم ايب رع » كان مشرفا على الأعمال فى الأرض قاطبة فى عهد دارا الأول قد قام بترميم معابد الآلهة

مين ، وجور ، وايزة فى قفط خلال عهد دارا ، فضلا عن معابد آمون موت ، وخونسو فى طيبة ، بالاضافة الى معبد نيت فى سايس ، هذا وقد شيد دارا هيكلا للاله حور فى ادفو ، الى جانب عدة آثار له فى أبو صير ، وليس من شك فى أن هذا كله انما يكشف عن الطريقة المستنيرة التى مارس بها دارا واجباته كملك على مصر ، فهو لم يكن مجرد طاغية تواق للسلطان يرضى بأن يترك شئون ولايته فى أيدى ولاته ٠

وأدرك دارا الأول أن البلد لن تستقر الا فى ظل قوانينها الخاصة ، فألغى تنظيمات سلفه المتعسف ، ودعا للعودة الى ما كانت الأمور عليه فى ظل التشريع الصاوى ، وأمر باختيار لجنة من حكماء البلاد عسكريين وكهنة وكتبة لجمع التشريعات المصرية المعمول بها حتى العام الرابع والأربعين من حكم أحمس الثانى واعادة تدوينها بكل من الكتابتين المصرية والمسمارية ، وهو عمل خدر الناس به وشغل به أصحابه نحو أربع أو خمس سنوات ٠

وحاول دارا الأول انعاش الأوضاع الاقتصادية لمصلحته بطبيعة الحال ، فأمر باعادة شق ما طمسه الطمى والرمال من قناة نيكاو المؤدية للبحر الأحمر ، مع نقش النصب التى أشادت بهذا العمل بكل من الهيروغليفية والمسمارية ، وكان من دوافع هذا المشروع تيسير وصول سفن الجزية الى فارس ، والتقليل من النشاط التجارى الملاحى المتجه الى اغريق نقراطيس غرب الدلتا ، ثم اعتبار القناة مرحلة من مراحل استغلال التجارة البحرية مع الهند ٠

وهكذا كما ذكرنا من قبل فقد ظهرت العملة فى مصر مع الفرس ، فسكت عملة ذهبية فى عهد دارا الأول ، ونسب الى أول

ولأتهم فى مصر أنه سك عملة من الفضة الخالصة دليلا على ثرائه ٠

وبالاضافة الى الكتابة المصرية ، المسمارية فقد استخدمت اللغة الأرامية مع أتباعهم الساميين واليهود ، كما توسع الكتبة المصريون فى استخدام الخط الديموطيقى المختصر ٠

وكعادة مصر والبلاد المتحضرة تقهر قاهريها بحضارتها ، فسمى بعض الفرس المقيمين فى مصر أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا بدعواتهم للأرباب المصريين ٠

ولم يخل الأمر من منتفعين من أهل البلد أنفسهم ، ظنوا حسن السياسة فى التسليم بالأمر الواقع لانقاذ ما يمكن انقاذه بالتقية والمداراة ، وكان من هؤلاء رجل من سايس يدعى أوجا حور رسنت، كان من المشرفين على الأسطول فى نهاية العصر الصاوى ، ثم ظهر عالما بالدين والتقاليد ، خبيرا بالطب ، مشجعا للثقافات العالية ، راعيا لاقليمه ، فى بداية العصر الفارسى ، وروى أنه قابل قمبيز وأطلعه على ما أساء به رجاله الى معابد سايس ، ودعاه الى تقوى اربابها ، فاستجاب له وزار معبد نيت فيها وركع أمامها ٠٠ ، ثم كان أكثر نجاحا من وجهة نظره فى عهد دارا الأول الذى استصحبه معه الى فارس بعد زيارته لمصر ثم أعاده منها بما رد على سايس اعتبارها وسمح له باصلاح قاعة دار الحياة (المتعلقة بالطب) بعد ان تخربت ، وكانت دور الحياة أشبه بمعاهد الثقافات العالية فى مصر القديمة ، وأضاف أنه زود هذه الدار بكل دارسيها من علية القوم دون أن يكون بينهم ابن وضيع ، وجعلهم تحت اشراف كل ذى معرفة حتى يتعلموا منهم فنونهم جميعا ، ثم زودهم بكل نافع لهم وبكل مهماتهم التى كانت مدونة لهم وفق ما كانوا عليه من قبل ٠

وهبت خلال العصر الفارسى أربع ثورات على أقل تقدير ، ارتبطت أغلبها بمصائر الفرس فى نزاعهم الطويل مع الاغريق ، فبعد هزيمة الفرس فى ماراثون أمام الأثينيين ، هبت فى مصر أولى هذه الثورات ، وكان وقعها شديدا على دارا الأول الذى ظن أن الشرق طوع يمينه ·

وتعود الأسباب الحقيقية لهذه الثورة الى أن الهدف الأساسى من السياسة التى أتبعها دارا كانت تهدف الى انتزاع أكبر ايراد ممكن من تلك المستعمرة الغنية ، واستغلال الفلاحين فى اعادة حفر القناة ، وتسخير العمال فى قطع الأحجار من وادى الحمامات ، بالاضافة لفداحة الضرائب الباهظة ، فضلا عن ترحيل العمال المهرة الى المدينة الفارسية « سوسا » ·

كما تعددت العوامل التى أدت لهذه الثورة ، وكان منها ضعف العرش الفارسى من ناحية وظهور قوة الاغريق من ناحية أخرى ، وانصراف الملك الفارسى الى الانتقام من الاثينيين ، فضلا عن ظهور القائد الذى يطمئن اليه القوم ويستطيع قيادتهم ، وأخيرا فقد كانت هزيمة الفرس فى ماراثون بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ، فهبت ثورة عارمة فى الدلتا بقيادة « خباش » الذى يرى فيه البعض الفرعون « سهر ايب رع » ، فى حين يرى فيه آخرون أميرا من أمراء الدلتا ، وسببت الثورة للفرس خسائر كثيرة ، واحتل الثوار منف وسايس ، وأظهر الاغريق فرحة الشماتة بالفرس ، وأراد دارا سحق المصريين والاغريق ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك ·

اكسركسيس :

وجاء بعد دارا ولده اكسركسيس ووقع عليه عبء اخماد الثورة المصرية ونجح فى ذلك فى العام الثانى من حكمه ، وكان عنيفا أكثر من سلفه قمبيز ، فاشتط فى الانتقام والاستغلال ، وهجر

عددا كبيرا من أهل الحرف الى فارس ، كما فرض على مصر أعداد مائتى سفينة استغلها فى قتاله مع الاغريق ؛ وشدد الحاميات هنا وهناك واستعان فيها باليهود ، ثم عين أخاه واليا على مصر حتى ينفذ سياسته فيها ، ولكن منذ ذلك الحين اهتزت السيطرة الفارسية ولم تكتمل حلقاتها مرة أخرى .

وعندما حم قضاء اكسركسيس وخلفه أخوه ارتاكسركسيس هبت ثورة أعنف من سابقتها وتزعمها أمير مصرى من الدلتا هو ارتن حر ارو بن بسماتيك (أو اناروس كما سماه الاغريق) واتخذ من مريوط مركزا لمقاومته بعيدا بعض الشىء عن حاميات الفرس وتغلب الثوار على جزء من الجيش الفارسى وقتلوا قائده والى مصر وشقيق ملك الفرس وأجبروا بقيته على التراجع الى منف ، ثم خرج زعيم الثورة بالمقاومة من نطاقها الاقليمى فحالف أثينا التى استغلت الفرصة لزيادة وارداتها من الغلال المصرية ، ولمضايقة عدوها الفارسى الذى كان ينافسها فى قبرص فأمدت الثوار بأسطول كبير ، ونجح الحلف فى استرجاع أغلب حصون منف من أيدى الفرس .

ولكن الملك الفارسى جند كل امكانياته لخنق الثورة ، فوجه لهذا الغرض جيشا ضخما ، وأغرى اسبرطة عدوة أثينا اللدود بمقادير كبيرة من الفضة لتشغل أثينا بالحرب وتصرفها عن مساعدة المصريين ، وبالفعل تم له ما أراد وهزم الفرس الأحلاف وأسروا زعيم الثورة ثم أعدموه فى عاصمتهم .

ولكن الثورة المصرية لم تمت وتسلم رايتها أمير سايس آمون حور (أو أمير يتايوس كما سماه الاغريق) أكبر أعوان الزعيم المقتول لبضع سنوات واستدعى بدوره الأثينيين من جديد لمعاونته

وتحركت ستون سفينة من سفنهم فعلا غير أن موت القائد الاغريقى فى قبرص كان سببا فى عودتها ثم سرعان ما أعلنت الهدنة وعقدت أثينا مع الفرس معاهدة كالياس وتناست حليفتها مصر مما أضعف الثورة وان لم يقض على بذورها ٠

وجرب الفرس سياسة المسالمة مع المصريين ، ولكن هـذا لم يؤد الغرض منه فحـاول أحد ابنى زعيم الثورة (وهو بسماتيك أو آمون حور الثانى) استئناف النضـال ، وفاوض الاثينيين بعد صلحهم المؤقت مع اسبرطة على أن يمدهم بالغـلال مقابل نجدة عسكرية ، ويبدو أن الغلال وصلت الى أثينا ولكن نجدتها لم تصل الى مصر ٠

وفى هـذه الأثناء اغتيل ارتاكسركسيس فجـأة بيد أخيه ، وتوج دارا الثـانى فرعونا على مصر ، ولم ينجح فى اعـادة الهدوء النسبى الا عندما طبق سياسة أكثر مرونة تجاه المصريين ، وتجددت نيران الثورة الوطنية من جديد بزعامة آمون حور الثـانى وامتد لهيبهـا الى مصر كلها وتكللت بالنجـاح بعد ست سنوات حيث تنسمت مصر الحرية وتمتعت بالاستقرار النسبى تحت حكم آمون حور الثانى وتكونت الأسرة الثامنة والعشرون ٠

الأسرة الثامنة والعشرون

وهكذا واصل آمون الثانى مقاومته للفرس فى الخفاء ثم جاهر بثورته التى لا ندرى شيئا عن تفاصيلها الا أنهـا انتهت بخلوص حكم مصر لأهلها،ومن هنا بدا المؤرخ مانيثون الأسرة الثامنة والعشرين وقصرها على ملك واحد ، وهو زعيم الثورة آمون حور الثـانى الذى استعاد ألقاب الفراعنة ، وتوج ملكا على مصر بأكملها فى نفس عام وفاة دارا الثانى وساعده على الاستقرار قليلا انشغال الفرس فى مشكلة وراثة العرش فى أعقاب وفـاة دارا الثـانى ، ولم يستمر آمون حور الثانى على عرش مصر أكثر من ست سـنوات ، ولم يحفظ لنا الزمن أيا من منشآته ، كما أننا لا نكاد نعرف من الناحية العملية شيئا عن حكمـه ، وأغلب الظن أنه قد اتخذ من سايس عاصمة له ، ومات دون أن يخلفه ولده على عرش البلاد ، وبررت بردية ديموطيقية هـذا المصير من وجهة نظرها الدينية بأنه قـد تجاوز نصـوص الشريعة ، ولهذا عاقبه الأرباب بحرمان ولده من عرشه ولم يشفع له عندهم نضاله فى سبيل تحرير بلده ، ولا ندرى هل عنت بمخالفتـه للشريعة اعتداءه بصـورة ما على حرمات الدين والمعابد ، أو أنها عنت بذلك خطيئة أكبر وهى احتمال اتجاهه الى مصانعة الملك الفارسى عدو الأمس الذى بدأ يهدد الاغريق من جديد ؟ وهو اتجـاه ان صح فقد كان من وجهـة نظر آمون حور

الثانى سياسة لا تضره بعد أن استمتع باستقلاله ، بينما كان من وجهة نظر الوطنيين المتطرفين خيانة استحق من أجلها أن يحرم ولده من عرشه ٠

وعلى أية حال فقد كان لكل من الجاليتين الكبيرتين فى مصر ، الاغريق واليهود مصير مختلف وسط هذه الأحداث ، أما الاغريق فقد تفتحت أمام تجـارهم الأسواق المحلية من جديد وعوضتهم عما خسروه من منافسة قناة نيكاو لتجارتهم فى نقراطيس ، وأما اليهود الذين آوتهم مصر منذ اضطهاد الآشوريين لهم وسمحت لهم بنشاط تجارى وحرية العقيدة فيها فقد كافأوها على ذلك بمعاونتهم للفرس ضدها ، ولمـا امتدت الثورة المصرية فى مرحلتها الأخـيرة للصعيد ادبهم أهل أسوان وكهنة خنوم وخربوا معبدهم فأخذوا يصرخون فى رسائلهم الى يهود القدس والسامرة والى ملك فارس ، ولكن لم يهتم بهم أحد من بنى جلدتهم فتفرقوا فى مصر ووسعهم تسامحها ٠

الأسرة التاسعة والعشرون

وتعاقبت على عرش مصر خلال هذه السنوات أسرتان حاكمتان من شرق الدلتا صحت عزائم أصحاب الشخصيات القوية من ملوكها على النهوض بعد النكسة واستعادة المجد القديم ، ونشأت أولى الأسرتين وهى التاسعة والعشرون فى مدينة منديس (تمى الأمديد وتل الربع شمال شرق السنبلاوين) ، ولم تستمر أكثر من عشرين أو واحد وعشرين عاما ، تعاقب فيها أربعة ملوك أو خمسة ، كان أهمهم نايف عاورود الأول ثم ثالث ملوكها هكر ٠

وقد جرى كل منهما على سنة الأسرة السابقة فى التعاون مع العالم الاغريقى لمضايقة الفرس أعداء الطرفين ٠

ولعلنا نجهل المناصب التى شغلها من قبل مؤسس الأسرة نايف عاورود الأول (نفرتيس الأول) ، وربما كان من القادة العسكريين ، وكانت منديس مسقط رأسه ، ولهذا اعتبر أجداده من الليبيين ، ولا نعرف على وجه التحديد الظروف التى لازمت الانتقال الى أسرة جديدة ، ولا يوجد دليل على انتشار العنف عبر البلاد ، الا من العثور على بردية باللغة الآرامية محفوظة حاليا بمتحف بروكلن ، ويفهم منها أن صراعا مكشوفا قد اندلع بين مؤسس هذه الأسرة وسلفه ، كان من نتيجته قيام نايف عاورود

الأول باعتقال سلفه أولا ثم اعدامه فى منف بعد ذلك ، على أية حال فقد أقام نايف عاصمة البلاد فى مسقط رأسه منديس ، ويبدو أن اختيار هذا المكان كان مقبولا ومعقولا ، لاسيما أن حفائر متحف بروكلن قد أثبتت وجود نشاط معماري لنايف عاورود الأول فى هذا الموقع ، وذلك على الرغم من عدم العثور على الجبانة الملكية التى يفترض وجودها فى هذا المكان بعد ٠

وربما جرت مراسم تتويجه فى منف أو سايس لأسباب سياسية ، مثلما حدث مع مؤسس الأسرة التالية فى زمن لاحق ٠

وقد أعلن نايف عاورود الأول من خلال ما اختاره من ألقاب عن تصميمه ، شأنه شأن سلفه آمون حور الثانى ، على خطة عمل وطنى تستند الى نشاط ملوك الأسرة الصاوية بهدف الحفاظ على استقلال مصر والدفاع عن حريتها ، وقد حكم نايف طبقا لرواية مانيثون حوالى ست سنوات ٠

واستغل الفرس قلقلة انتقال العرش المصرى ، وحشدوا جيشا وأسطولا كبيرين فى فينيقيا لغزو مصر ، ولكن صرفهم عن اتمام خطتهم مشاكل عرشهم وثورة آسيا الصغرى وجزرها ضدهم ، وخاصة بعد أن أيدتهم أسبرطة صاحبة أقوى الجيوش البرية فى اليونان ، ورحبت أسبرطة بمحالفة مصر ، وأمدتها مصر بالمال والغلال فضلا عن تجهيز مائة سفينة مقاتلة ولكن هذا المدد الذى تحملته مصر حطمه قائد أثينى كان يخدم الفرس عند رودس ، وبعد سنوات عقدت أسبرطة الصلح مع الفرس وبقيت مصر وحدها ، وهنا اكتفى نايف عاورود الأول بالعناية بشئون مصر الداخلية ، وقد عثر على اسمه منقوشا على بعض الآثار فى الكرنك ومنديس وتانيس ٠

وجاء بعد نايف عاورود الأول بساموتيس الذى لم يدم حكمه أكثر من عام واحد ، وجاء بعده أخوريس (هكر) الذى محا فترة حكم سلفه وضمها الى سنى حكمه ، وأدرك أن التحالف مع أسبرطة عديم الجدوى ، ولبت مصر فى عهده دعوتين أخيرتين لمناوأة الفرس ، احداهما من أثينا ، والأخرى من افاجوراس ملك قبرص ، فأعانت هذا الأخير بخمسين سفينة ومدد من الغلال ، وأخذ كل منهما يكافح الفرس من ناحية ، مصر تكافحهم على حدودها ، وقبرص تكافحهم فى جزيرتها وعلى سواحل فينيقيا ، وبدأ الفرس بمعاقبة مصر ولكنها نجحت فى كسر جيوشهم وناضلتهم برجالها وبمرتزقة من الاغريق كان على رأسهم خابرياس الأثينى ، مرة ثانية ، وطال حكم هكر الى ثلاثة عشر عاما ، فكان بذلك أطول ملوك هذه الأسرة حكما فى هذا العصر القلق ، وعللت بردية الأيام الديموطيقية استقراره النسبى بسخائه على المعابد ، ولكن ما لبث أن تخلى عنه الحظ على حد قولها لمخالفته الشريعة ولأنه جافى اخوته ، فاكفهر الجو من حوله وتبعه نايف عاورود الثانى الذى لم يجلس على العرش أكثر من بضعة شهور انتقل العرش بعدها فى ظروف قلقة الى أسرة جديدة من سمنود هى الأسرة الثلاثون ٠

الأســرة الثــلاثون

أسس هذه الأسرة نختنبو الأول ، وتعد آخر الأسرات المصرية المستقلة ، وتولى نختنبو الأول عرش مصر بعد أن قضى على نايف عاورود الثانى ، وحكم حوالى ثمانيــة عشر عاما طبقا لروايــة مانيثون ، وكان ينتمى الى عائلة يرجع أصلها الى مدينة سمندس فى وسط الدلتا ، وربما كان أصلا أحد أبناء أمراء هذه المدينــة ، وقد توج ملكا فى سايس ، فى معبد الالهة نيت ، ولعله قد اســتعان بمساعدات المعابد ، وبتأييد كهنة سايس على تدعيم ملكه ، ثم رد لهم الفضــل مضاعفا ، فأحال ضريبــة العشر المفروضــة على منتجات رواردات وصادرات نقراطيس مركز التجارة الاغريقية الى صالح معابد نيت فى سايس .

اعتلى نختنبو الأول العرش فى الوقت الذى غزا فيه الفرس قبرص ، وكان عليه أن يتيقظ لغدر الفرس بما يمكن الاستعانة بهم ، لولا أن أحلاف الأمس وهم الاغريق أصبحوا يعملون لمن يجزل العطاء لهم ، حتى ضد بعضهم البعض ، وهكذا عوضا عن أن تتعاون أثينا معه خضعت لضغط الفرس ، فاستدعت قائدها خابرياس الذى يعمل بأعوانه فى جيشه ، وساهمت فى اعداد عشرين ألفا من المرتزقة لمعاونة الفرس ضده ، وكان فوق طاقة مصر أن ترد بســهولة جيوش الفرس والاغريق الغفيرة العدد ، وعندما تحــركت هــذه القوات

الضخمة ووصلوا الى بلوزيوم أدركوا أن الهجوم من هذه الناحية لا طائل من ورائه ، وأن واحدا من مصبات النيل الأقل تحصنا قد يؤدى الى الهدف المطلوب ، واستقر الرأى على ذلك وأمكن كسر الاستحكامات على الفرع المنديسى ، ثم اندفع العدو بقواته نحو منف ، وفى منف نجح نختنبو الأول فى أن يلم شمل قواته وأن يحيط بالغزاة المحاصرين من جميع الجهات والذين كانوا قد فقدوا ثقلهم العسكرى فى هذه التحركات الفاشلة ، وجاء فيضان النيل حليفا الهيا مسعدا مساعدا فدهمتهم مياهه وأشاعت الفشل فيهم فتراجعوا أمامها وأمام هجمات المصريين .

ونعمت مصر بعد انقشاع الغمة بفترة سلم ، ازدهر فيها الفن وتقدمت التجارة الخارجية ونشط العمران فى المعابد من شمال الدلتا الى جزيرة فيلة جنوبى أسوان .

فأقام نختنبو الأول مقصورة للالهة ايزة جنوب جزيرة فيلة ، وفى طيبة فقد أقام بعض البوابات فى معبد الالهة ماعت ، ومعبد مونتو فى الكرنك ، وأضاف طريق كباش على هيئة أبو الهول الرابض برأس آدمى أمام معبد الأقصر حتى معبد خونسو بالكرنك كما شيد بوابة فى الفناء الأول لمعبد هابو ، فضلا عن اقامة معبد صغير فى دندرة ، وبوابة فى معبد آمون بالخارجة ، وفى الدلتا شيد مقصورة فى صفط الحنة ، ومقصورتين للالهة نيت واحدة فى دمنهور ، والأخرى فى سايس ، كما عثر له على آثار فى بهبيت الحجر ، وتل المسخوطة وسمنود ، وأخيرا فهناك من عصره مسلة فى تركيا من الجرانيت الأحمر .

وهكذا نجح نختنبو فى كسب ود الكهنة وظل يمثل فى نظرهم الملك الوفى الورع ، ولكن كل هذه الأعمال كانت فوق طاقة

وقدرة مصر الاقتصادية حينذاك ، خاصة مع عدم وجود جيش قوى يملك قوة الردع والصمود أمام جحافل الفرس ·

وأشرك نختنبو الأول معه فى الحكم ولده « جدحر » أو « تاخوس » كما دعاه الاغريق ، وكان « جدحر » يفيض حماسة ويقظة ، وكان على غير رأى أبيه فى الاغريق اذ أنه أقر ضرورة التحالف معهم ، خاصة أن المصريين لم يصبحوا بعد أقوياء بالقدر المناسب لكى يقاوموا الفرس بمفردهم ، فبذل جهدا كبيرا واستعاد خابرياس الأثينى الى خدمته هو وعشرة آلاف من قومه ، كما فاوض أجيسيلاوس ملك اسبرطة العجوز على أن يستعين بخبرته ، فانضم اليه بألف من رجاله ، وكانت مصر قد أسلفت العون له بمددها الذى غرق عند رودس ، هذا فضلا عن حوالى ثمانين ألفا من المصريين والليبيين الذين جندهم جدحر ، كما قام باعداد ما بين مائتين وثلاثمائة سفينة ، وتأهب للخروج بهم عبر الحدود لضرب جيوش الفرس خارج بلاده ليحرمهم من خيرات سوريا ومراكز تجمعاتهم فيها ، ولكن الأمور لم تكن هينة أمامه ، فقد تنافس القائد الأثينى والملك الاسبرطى على القيادة العليا ، فحل جدحر هذه المشكلة بأن تولى هو القيادة العليا ، وعهد بقيادة المرتزقة كلهم الى الاسبرطى العجوز ، كما عهد بقيادة الأسطول الى الأثينى المغرور ، وان لم يستطع أن ينزع الحقد من قلب أحدهما تجاه الآخر أو تجاهه هو بالاضافة الى قيامه بوضع ابن أخيه نختنبو الثانى على رأس الجنود الوطنيين ·

ولتموين هذا الجيش الضخم ، ولارضاء المرتزقة الذين أبوا ان يتسلموا أجورا عينيه كالعادة ، ففى مقابل دفع أجورهم بالنقود ، فقد اضطر جدحر الى فرض تضحيات اقتصادية على شعبه طوال فترة الحرب ، وفى سبيل هدف أسمى ، فأمر بمصادرة كثير من

المعادن الثمينة في مصر من أجل أن يسك نقودا فضية ، كما حض الكهنة على التبرع بجانب من ممتلكاتهم الخاصة والاكتفاء بانفاق عشر المخصصات المرصودة للمعابد وتحويل بقيتها لخزائن الدولة لحين انتهاء الحرب ، كما حض كل مواطن على التطوع بجانب من مدخراته ، فضلا عن قيامه بفرض الضرائب على المحاصيل وزيادة الضرائب على الواردات وتعميم ضريبة العشر على الأرباح ومصادر الدخل المختلفة ٠

وكل هذا أمر طيب اذا كان الهدف أسمى من كل هذه التضحيات ، وكل هذا يهون أمام عودة مصر ومكانتها في المجتمع الدولي آنذاك الى ما كانت عليه أيام الدولة الحديثة ، ولكن التاريخ لم يكافيء جدحر بما يستحقه ، وسوف نرى بعد قليل كيف كان هدفه الأسمى هذا سببا في التعجيل بنهايته ٠

فقد خرج هذا الجيش العظيم الضخم تحت قيادة الفرعون الى بلاد الشام لضرب الفرس فيها ، فأعاد الى الأذهان ذكريات جيوش الدولة الحديثة وأمجادها ، فأحرز انتصارات لا بأس بها فاحتل فينيقيا وبدات مخاوف الفرس تزداد ، واصبح أمر استعادة الامبراطورية المصرية في غربي آسيا وشيك التحقيق ، لولا ان أتاه الأذى من مأمنه في مصر وسوريا معا ، ففي مصر انقلب على جدحر أخوه ونائبه الذى كان يتولى ادارة البلاد منتهزا فرصة غضب المصريين عليه لفرض الضرائب الباهظة ، واستعان كذلك بتذمر الكهنة المتضررين من الضرائب الجديدة ، التي رأوها تنصرف الى المرتزقة الأجانب أكثر مما تصل الى مواطنيهم ، ولما كان هذا الأخ شيخا استدعى ولده من جيش عمه ليقود الانقلاب بدلا عنه ٠

وفي سوريا أحدثت أخبار الانقلاب انشقاقا في صفوف الجيش بطبيعة الحال ، واختار المرتزقة صوالحهم ، فانسحب خابرياس

الأثيني بجنوده ، وانضم اجيسيلاوس الاسبرطي بجماعته الى ابن الأخ المطالب بالعرش ، وعاد معه الى مصر ليلقى منه ومن أبيه جزاء تأييده لهما ٠

وهنا وجد جدحر نفسه وحيدا كسيرا فلجأ الى صيدا ، وروى مناقسوه أنه طلب حق اللجوء السياسى بعد ذلك من الفرس فمنحوه اياه وعاش هناك ومات فى منفاه الذى اختاره بنفسه وفرضته عليه الأيام ٠

وهكذا أتت نهاية جدحر على غير ما أراده لنفسه وانتهت معركته الى غير ما أمله فيها لشعبه وبلده ، وبقى أن يذكر له أنه خلال حكمه القصير قد قام بترميم معبد خونسو بالكرنك كما عثر على اسمه فى طرة والجيزة والمطرية وأتريب ، كما ظهرت فى عهده أول عملة مصرية ٠

وهكذا عاد نختنبو الثانى الى مصر وتوج بالفعل فرعونا وهو يعتبر آخر الفراعنة المصريين ، وطالت مدة حكمه الى ثمانية عشر عاما ، غير أن الثورات قد اشتعلت ضده فى كل مكان ، ويبدو أن واحدا من سلالة الأسرة التاسعة والعشرين كان وراء هذه الثورات ، ولعل نزوة الحكم قد دفعته الى أن يستغل الظروف ليسترد عرش أسلافه ، ثم سرعان ما انتشرت الثورة بين الموالين لعمه الفرعون السابق جدحر ، وهكذا كادت الثورة أن تقضى على نختنبو الثانى حتى أنه حوصر فى مدن مسورة ، ولكنه سرعان ما أخرس هذه الأصوات الباقية على الولاء لعمه ، وأرضى الكهنة المتذمرين ، كما أعاد الأسبرطيين بالهدايا ، وقد مات قائدهم العجوز فى الطريق ، ثم رد بالجيش المصرى هجوما استغل الفرس له تفرق الكلمة فى بلده وترتب على انتصاره عليهم أن انقلبت مدن

فينيقيا ضـــدهم وتزعمتها صيدا التي لجـأ اليها من قبل جدحر ، وبهذا ظن نختنبو أن زمانه صفا له وتحقق له الأمن فى الداخــل والخارج ، فكثرت عمائره الدينية تعبيرا عن الشكر المعتاد للأرباب وتخليدا لذكراه واظهارا لتقواه ، فعثر له على آثار كثيرة فى بهبيت الحجر وصفط الحنة كما أقام صـــالة كبيرة فى تل بسطة ومقصورة فى سمنود ، وأخرى فى منديس ، فضلا عن عدة مسلات فى تل البقلية ولوحة فى المعصرة وفى السرابيوم ، كما شـــيد معبدا فى بلبيس وآخر فى أبو صير الملق ، فضـــلا عن اضافات فى معبد بتاح فى منف ، كما شيد معبدا فى أرمنت وآخر فى واحة سيوة للاله أمون ، وبوابة فى معبد الواحة الخارجة ، كما كان لمعبد الكرنك نصيب كبير من اهتمامه ، فشيد معبدا على مقربة من معبد موت ، كمـــا خصص مقصورة بمعبد ادفو للاله حور ، فضـــلا عن قيامه بعمل مقيـــاس للنيل قرب البحيرة المقدسة بمعبد هابو •

على أية حال فقد بدأت السحب تتجمع فى غربى آســـيا فى السنوات الأخيرة من حكم نختنبو الثانى ، ذلك لأن الثورات ضـــد الفرس قد انتشرت فى كل مكان ، وكانت فينيقيا وقبرص فى مقدمة الثـــائرين ، وكانت مصر على الرغم من ذلك هى أهم ما يتطـــلع الفرس اليه ، وذلك لذهبها وحبوبها التى كانت تستطيع أن تقدمها فى وفرة ، ومع ذلك كان يجب الانتهاء من فينيقيا وفلســـطين أولا ، وكانت صيدا هى أعظم من وجه ضربة عنيفة للفرس ، كما طردت تسع مدن فينيقية رئيسية الفرس وأعلنت استقلالها ، وأدرك الملك الفارسى أوخوس أن الأمر أخطر من أن يسكت عليه فخرج على رأس جيش ضخم كبير ، وهنا طلبت صيدا معونة مصر فأمدتها بفرقة يونانية واستبسل أهل صيدا حتى أبيدوا جميعا •

وكان نختنبو قد جمع فى هذه الأثناء جيشا قوامه مائة ألف ، ستون ألفا منهم من المصريين ، وأربعون ألفا من مرتزقـــة الاغريق

والليبيين ، وعندما هاجم الملك الفارسى مصر كانت بلوزيوم اول مدينة مصرية تتعرض للهجوم ، ولم يستغل نختنبو الثانى هـذه الفرصة لبدء المقاومة ، فضـلا عن التحصينات القوية ، بل انه تردد وانساق وراء رؤيا رأى فيها اله الحرب يعده بانقاذ مصر بالفيضان كما فعل فى المرة الأولى وكان فى هـذا التردد فرصـة للفرس ، وما لبث الاغريق أن انضموا اليهم بعد أن أحسوا بأن الكفـة تميل لصالحهم ، فتراجع نختنبو الثانى الى منف واستعد للتحصـن بها على أمل اطالة وقوف الأعداء عندها حتى يتحقق وعد ربه ، ثم أيقن عقم المقاومة وتراجع الى أقصى الصعيد واحتفظ به نحو عامين ثم اختفى أثره ٠

ونشر الأخطبوط الفارسى سلطانه على ما دون ذلك من أجزاء الوادى وبدأ استعماره الثـانى ، وهو استعمار لم يطل غير عشر سنوات ، ولكنه بدأ بانتقام عنيف ، وهنا وصفت بردية الأيـام الديموطيقية كيف فقدت بيوت المصريين رجالها وسكنهـا الفرس وروى ديودور الصقلى كيف دمر الملك الفـارسى أسـوار المـدن الرئيسية ونهب كنوز المعابد وامتهن ديانتها وأمر بنقل تماثيلهـا الثمينة الى فارس وتاجر أعوانه بوثائقها النادرة ، ثم كافأ الاغريق الذين عاونوه وأعادهم لبلادهم وعين واليا فارسـيا على مصر وعاد بجيشه الى بابل ٠

وفى هذه الأثناء لم تطأطىء مصر هامتها لهذه المحنة الجديدة ، ولم يقبل رجالها الخضوع للفرس ، وطبقـا لرواية كبير عائلات الأشمونين بتوزريس فقد كان الصعيد فى قلق ، والدلتا فى ثورة انتهت بتنصيب خباش ملكا على مصر ، وسرعان ما اعترف به كهان منف وكثير من أهل الصعيد فرعونا ، وهنـاك تابوت لأبيس مؤرخ بالعام الثانى من حكمه ، فضلا عن بعض الآثار الأخرى التى تدل على أن المصريين ظلوا فى ثورات طيلة أيام الحكم الفارسى الجديد ٠

وعلى أية حال ففى هذه الأثناء ظهر الاسكندر المقدونى فى حملاته الموفقة على آسيا وبعد انتصاره على دارا الثالث فى موقعة ايسوس اتجه الى سوريا ثم وصل الى مصر عام ٣٣٢ ق٠م حيث استسلم له الوالى الفارسى دون مقاومة ، ثم أسرع الاسكندر نحو منف وقدم الأضاحى الى العجل أبيس واعترف به فرعونا ، ثم عاد الى شاطىء البحر وقام بتخطيط مدينته التى حملت اسمه (الاسكندرية) ، ثم أسرع بعد ذلك الى واحة سيوة مقر وحى آمون ، وادعى البنوة له واستلهم وحيه فاعترف كهنته بالأمر الواقع وبشروا الاسكندر بما أراد أن يبشروه به من وحى ربهم ، ثم أشاع خلفاؤهم لارضاء قوميتهم المغلوبة على أمرها أن الاسكندر لم يكن غريبا عن الأرض التى نزل فيها ، وأن ملكهم القومى الأخير نختنبو الثانى الذى خفى أمره ، كان قد نزح الى مقدونيا تتلبسه روح آمون وشغف بملكتها أولمبياس وأنجب منها الاسكندر ٠

على أية حال فلسنا ندرى مدى تصديق المصريين لهذا الهراء ، ولكن الغريب حقا أنه على الرغم من كثرة ما ادعاه الاسكندر من البنوة للأرباب آخرين فقد ظلت بنوته لآمون لاصقة به لصوق بنوته لزيوس ، حتى قال له رجاله عندما اختصموا معه فى الهند « اذهب انت وأبوك آمون فقاتلا » ٠

وعندما دخل الاسكندر مصر باعتباره منقذا لها من الفرس لم يكن أعوانه أغرابا عنها ، فطالما عملوا مرتزقة فى جيشها وشاركوها فى معاداة الفرس ، وعلى نحو ما عمل اغريق نقراطيس وسطاء فى التجارة بينها وبين الاغريق عملوا كذلك وسطاء بينها وبين الاسكندر ، ولكن فات مصر أن اغريق اليوم غير اغريق الأمس ، وأنهم أتوها يعملون لحسابهم الخاص ، مستعمرين وليسوا مأجورين ، سادة وليسوا مرتزقة ٠

وعلى الرغم من احترام الاسكندر لتقاليد البلاد ، واحترامه لأربابها ، فقد كان فتحه لمصر ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، فكان كارثة كبرى ومأساة فادحة فى تاريخ مصر الخـالدة ذلك لأن هـذا الغزو كان بداية لعصر من الاحتلال اليونانى والرومانى عم المنطقة المحيطة بها حوالى ألف عام من الأعوام العجـاف ، ضاعت فيهـا شخصيتها ، وامتهنت كرامتها ، وفقدت القدرة على أن تعمل من أجل مصلحتها ، رغم ثوراتها المتكررة ، بل انها بقيت فى أحسن الأحوال مجرد مزرعة لأوربا تجنى ثمارها وتقطف الطيب من خيراتها .

الباب الخامس

العصر البطلمي

د. ابراهيم نصحي

الفصـــل الأول

مصر فى عصر البطالمــة

١ ـ المصـــادر :

مصادر تاريخ مصر فى عصر البطالمـة هى مؤلفـات أغلبهـا بالاغريقية وبعضها باللاتينية صاغها الكتاب القدماء من مؤرخـين وجغرافيين وشعراء ، والوثائق البردية والنقوش وكسر الفخـار والنوميات والمخلفات الأثرية · ونستقى جل معلوماتنا عن تاريخ مصر الخـارجى من الكتـاب القدماء ، لكن هذه المعلومات غير وافيـة ولا متواصلة ولا هى بقدر واحد سواء عن مختلف فترات هـذا العصر أو عن مختلف جوانب تاريخ مصر الخارجى فى خلاله · واكثر هذه الشوائب تعتور مصـادرنا الأخرى · وآية ذلك أن الوثائق البردية التى هى أهم مصـادر تاريخ مصر الداخلى فى هـذا العصر ، برغم الأعداد الهائلة التى نشرت منها حتى الآن ، فان الضـوء الذى تلقيه على هذا التاريخ موزع توزيعا شـديد الاضطراب على أنحاء مصر المختلفة ، وعلى نواحى الحياة فيها ، وعلى القرون الثلاثة تقريبا التى عمرتها دولة البطالمـة · وأغلب الوثائق البردية التى نشرت حتى الآن وثائق اغريقيـة من عهود بطلميوس الثـانى والثـالث والسادس والثامن (يورجيتيس الثانى) ، وهى ذات صبغة محلية

وتتناول موضوعات متفرقة لا رابط بينها • وكثير من هذه الوثائق رسمي أو شبه رسمي ويصور علاقات السلطتين المركزية والمحلية بالموظفين وبمختلف طبقات السكان • ومثل ذلك الأوامر الملكية ، وتعليمات الوزراء الى مرءوسيهم ، ومختلف الوثائق الرسمية الخاصة بشئون الضرائب وادارة موارد الدولة ، والشكاوى والالتماسات الموجهة الى الملك والوزراء وحكام الأقاليم ، وايصالات الضرائب ونحو ذلك • ولا يقل عددا عن هذا النوع من الوثائق تلك الوثائق الخاصة بالمعاملات بين الأفراد ولاسيما العقود المتعددة الأنواع • وفضلا عن ذلك فان الوثائق تتضمن عددا كبيرا من الخطابات الخاصة •

ويزداد باطراد عدد الوثائق الديموطيقية التي يكشف عنها في مصر • ولحسن الحظ أن الاهتمام الآن يزداد يوما عن يوم بدراسة الوثائق الديموطيقية المتكدسة في المؤسسات المختلفة في مصر وخارجها • ولاشك في أن نشر هذه الوثائق سيزيد معلوماتنا كثيرا عن عصر البطالمة •

٢ ـ الفتح المقدوني :

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق في عصبة قورنثة ومشروع محاربة الفرس بزعامة مقدونيا • ولما كان الفرس ينعمون بسيادة البحار ، فان الاسكندر قرر أن يقضي على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسي • وتبعا لذلك فانه بعد انتصاره على القوات الفارسية التي تصدت له بمجرد بلوغه آسيا الصغرى قرر أن يستولي على شواطئ آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا ومصر وقورينايئة (برقة) • ومن ثم فانه عندما دحر الاسكندر الملك الفارسي في موقعة اسوس (٣٣٣ ق.م)

لم يقتنف أثره الى بابل ، وانما آثر أن يفتح أولا فينيقيا ومصر وقورينايئة • وما أن استولى على صور وغزة حتى يمم وجهه شطر مصر فبلغها فى نوفمبر ٣٣٢ • وبمجرد وصوله الى منف سارع الى تقديم القرابين للآلهة المصرية ، ويرجح أنه توج نفسه فى معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء • وبعد ذلك وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون فى واحة سيوة عن طريق مرسى مطروح حيث وافاه سفراء قورينايئة ليقدموا له فروض الطاعة •

وبعد عودة الاسكندر من سيوة وضع لحكم مصر نظاما أبرز مظاهره توزيع السلطة بين أربعة حكام ــ اثنان منهم مصريان ــ لتفادى خطر انفراد حاكم واحد بالسلطة • ومع ذلك فان أحد هؤلاء الحكام وهو قليومنيس النقراطيسى لم يلبث أن جمع فى قبضته كل السلطات وكذلك ثروة طائلة • وفى ربيع ٣٣١ رحل الاسكندر عن مصر • وبعد أن توغل فى أواسط آسيا حتى البنجاب للاستيلاء على الولايات الفارسية ، عاد الى بابل حيث توفى فى ليلة ١١/١٢ من يونية ٣٢٣ •

وبوفاة الاسكندر يبدأ فى العالم الاغريقى العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته العصر الهلينيسى وعلى أنه ينتهى بموقعة اقتيوم (٣١ ق•م) • وغداة وفاة الاسكندر عقد قواده مؤتمرا فى بابل ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية • وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على :

أولا ــ أن يرتقى العرش أخو الاسكندر وابنه بمثابة شريكين تحت الوصاية •

ثانيا ــ تعيين برديقاس قائدا عاما للجيش وقراتروس وصيا على الملكية ، لكن برديقاس لم يلبث أن أغتصب الوصاية لنفسه •

ثالثـا ــ تعيين قـواد الاسـكندر حـكاما لمختلف ولايـات الامبراطورية . ولـما كانت تراود برديقاس وأولئك القواد أطماع شخصية متضاربة ، فان ذلك كان نذيرا بالصراع العنيف الذى نشب بين خلفاء الاسكندر فى عام ٣٢١ ودام حتى ٢٨٠ وتمخض عن قيام ثلاث ممالك على أنقاض امبراطورية الاسكندر .

٣ ــ نشأة دولة البطالمـة :

وكانت مصر من نصيب بطلميوس بن لاجوس ، وكان قائدا بارعا وسياسيا حصيفا ورجلا طموحا ، أدرك صلاحية مصر لاقامة صرح دولة يحمل صولجانهـا أحفاده على تعاقب الأجيـال ، فمـا وصل الى مصر حتى عمل على دعم مركزه فيها فأعدم قليومنيس واستخدم الثروة التى جمعها فى بناء قوات جديدة . وانتهز فرصة قيام ثورة فى قوريناية وقام بفتح هذا الاقليم لتأمين حدود مصر الغربية ، ودبر نقل رفـات الاسـكندر لدفنهـا فى مصر بدلا من مقدونيا . وكانت هذه التصرفات شاهدا قويا على أن بطلميوس لا ينوى أن يسلسلس القيادة لبرديقاس ، فقرر تأديبه . وهكذا وجد بطلميوس نفسه على الفور منهمكا فى صراع مرير من أجل الفوز باستقلاله . وهذا يقتضى أن نبدأ الحديث عن دولة البطالـمة بالقاء نظرة عاجلة على سياستهم الخارجيـة ولا سيما أن هذه السياسة أثرت الى حد بعيد فى النظم التى وضعوها لحكم مصر .

٤ ــ سياسة البطالمـة الخارجية :

ويرجح أن هذه السياسة كانت لا تستهدف انشاء امبراطورية عالمية وانما استقلال مصر سياسـيا واقتصاديا ، وضمان هـذا الاستقلال بانشاء امبراطورية بحرية فى شرق البحر المتوسط . ولـما كان استقلال مصر يقتضى فصم عرى الامبراطورية المقدونية ،

ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها ، فان بطلميوس الأول شارك فى عدة مخالفات كانت أهمها ثلاثا ، احداها ضد برديقاس الذى قضى عليه عندما حاول غزو مصر فى عام ٣٢١ ٠ وكانت المحالفتان الأخريان ضد انتيجونوس الذى أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين منذ عام ٣١٦ حتى قضى عليه فى عام ٣٠١ ٠

وحين كان بطلميوس معنيا بالفوز باستقلاله ثم بالذود عنه استولى على :

١ ـ قورينايئة لحماية مصر الغربية ٠

٢ ـ فينيقيا وجوف سوريا وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية ، وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على الأخشاب والمعادن التى كانت مصر تفتقر اليها ، والسيطرة على بعض منافذ التجارة الشرقية ٠

٣ ـ عصبة جزر بحر ايجة للفوز بسيادة بحر ايجة وبالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ٠

وقد سار بطلميوس الثانى والثالث على نهج السياسة الخارجية التى وضع بطلميوس الأول أساسها ، ومضى بها كل منهما الى نتيجتها المنطقية ، فوصلت امبراطورية البطالمة البحرية الى أقصى اتساعها فى عهد بطلميوس الثالث فقد كانت تشمل عندئذ أغلب الأقاليم الساحلية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ابتداء من قورينايئة حتى مارونيا فى تراقيا ، فضلا عن قبرص وكريت وبعض الجزر الأخرى ٠ غير أن مقدونيا قاسمت مصر عندئذ السيطرة على بحر ايجة نتيجة لاستيلائها على عصبة جزره ٠ وبعد النشاط الجم الذى أبداه بطلميوس الثالث فى مستهل عهده جنح الى السلم بل ترك جيشه وأسطوله يستغرقان فى التراخى والضعف حتى أنه عندما توفى لم تعد مصر قوة حربية يخشى بأسها ٠

وعندما حاول الملك السلوقى أنطيوخوس الثالث الاستيلاء على جوف سوريا ، أعاد بطلميوس الرابع تنظيم جيشه وأدمج للمرة الأولى فى القوات البطلمية المحاربة ۲۰۰ر۰۰۰ محارب مصرى دربوا وسلحوا وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة وكان لهم فضل الانتصار فى موقعة رفح عام ۲۱۷ على جيش أنطيوخوس ، فنشبت الثورات القومية ضد البطالمة والاغريق ٠

وكان من شأن اضطراب الأوضاع فى مصر فى عهد بطلميوس الخامس أن فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث اتفقا على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، ففقدت مصر هذه الممتلكات ولم يبق لها منها سوى قبرص وقورينايئة ٠ وقد انبرت روما لمحاربة فيليب وأنطوخوس وهزمتهما الواحد بعد الآخر ، وخرجت من هذا الصراع صاحبة الكلمة العليا فى شرق البحر المتوسط ٠

ولم تلبث الأحداث أن مهدت السبيل أمام روما لتغلغل نفوذها فى مصر ٠ ويعزى ذلك الى عاملين ، أحداهما هو اقدام أنطيوخوس الرابع على غزو مصر مرتين والاستيلاء على قبرص ٠ ولم ينقذ عرش البطالمة من براثنه الا تدخل روما فقد أرغمته على الانسحاب من مصر وقبرص ٠ والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر واتخاذهما روما حكما فيصلا فى هذا النزاع الأسرى الذى ابتليت به دولة البطالمة منذ ذلك الوقت وظل يتكرر فيما بعد واستغلته روما لتحقيق أغراضها ٠ ولا أدل على مدى نفوذ روما فى مصر من اتفاقية عام ١٦٣ التى قسمت روما بمقتضاها دولة البطالمة بين بطلميوس السادس (مصر وقبرص) وأخيه (قورينايئة) ، ومن دور روما فى اقامة بطلميوس الصغير ملك قورينايئة ملكا على مصر (١٤٦/١٤٥) ، ومن توريث قورينايئة لروما بمقتضى وصية بطلميوس آبيون (٩٦) ، ومن تنصيب

بطلميوس الحادي عشر (اسكندر الثاني) ملكا على مصر بأمر من صبلا دكتاتور روما (٨١/٨٠) • ومن أنه منذ ذلك العام أصبح مصير مصر متعلقا على مصير الصراع الحزبي في روما فقضى بطلميوس الثاني عشر (الزمار) حوالي العشرين عاما للحصول على اعتراف روما به ملكا على مصر (٥٩) ولكنها في العام التالي سطت على قبرص •

وفي عام ٥١ ارتقت عرش مصر كليوباترة السابعة وكانت فتاة جذابة بارعة الذكاء أوقعتها الظروف القاهرة مرتين في قبضة ذئب نساء كاسر ، كان في وقته أقوى شخصية في العالم ، أراد افتراسها لكنها تمكنت من ترويضه واستغلاله لتنفيذ أطماعها • ذلك أنه عندما جاء قيصر الى مصر وأمرها بالمثول بين يديه لفض النزاع بينها وبين أخيها ولبت الأمر ، سيطرت على قيصر منذ الوهلة الأولى الى حد أنه أصبح شبه مؤكد أنه عندما يقيم قيصر نفسه ملكا على روما سيعلن زواجه رسميا من كليوباترة فتشاركه سلطانه الواسع • لكن الجمهوريين أجهزوا مؤقتا على آمال كليوباترة عندما أجهزوا على قيصر (٤٤) •

ولما كانت كليوباترة قد اتخذت موقف الحياد في الصراع الذي نشب بين أنصار قيصر والجمهوريين ، فانه عندما هزم الجمهوريون وقدم أنطونيوس الى آسيا الصغرى استدعى كليوباترة والحكام الآخرين الذين حامت الشبهات حول تصرفاتهم في أثناء هذه الحرب • وما أن قابلت كليوباترة أنطونيوس في طارسوس حتى وقع أسير هواها • وفي عام ٣٧ أعلن أنطونيوس زواجه رسميا من كليوباترة ، وبعد ذلك قسم بينها وبين أولادهما كل الولايات الرومانية في النصف الشرقي من الامبراطورية • ولما كانت

كليوباترة لم تقنــع بذلك ، فانها دفعت انطونيوس الى منــازلة اوقتافيانوس من أجل الفوز بالنصف الغربى أيضا وحكم العالم الرومانى بأسره ، بيد انه لم يكن مقدرا لكليوباترة أن تحقق أحلامها فقد بدد أوقتافيانوس هذه الأحلام بانتصاره فى موقعة أقتيوم (٣١) وزحفه على مصر فى العام التالى ودخوله الاسكندرية فى أول أغسطس عام ٣٠ وضم مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ٠

الفصل الثانى

أجهزة الحكم

أولا ـ السلطة المركزية

١ ـ الملك :

ولما كان البطالمة قد اعتبروا مصر ضيعة آلت اليهم بحق الارث عن الاسكندر وحق الفتح ، وكانوا قد نصبوا أنفسهم آلهة لرعاياهم المصريين والاغريق وبذلك أصبح سلطانهم يستند أيضا الى حق الملوك الالهى ، فان الملك البطلمى أصبح صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . وتبعا لذلك كان الملك الرئيسى الأعلى لأجهزة الحكم وكبير القضاة والقائد الأعلى للجيس والأسطول ، ومصدر القوانين التى يخضع لها جميع السكان ، وكذلك مصدر دساتير المدن الاغريقية والجاليات الأجنبية التى تكونت خارج تلك المدن .

٢ ـ الوزراء :

وكان يساعد الملك على مباشرة سلطاته الواسعة عدد من الوزراء كان ارفعهم مقاما وأخطرهم شأنا وزير المالية (ديويقيتيس) وكان يليه فى الأهمية الوزير الذى كان لقبه « ارخيديقاستيس » ومعناه كبير القضاة . ويرجح أنه على الأقل فى عهد البطالمة الأوائل كان يوجد وزير للأشغال ووزير للحروب .

٣ ـ الأداة الحكومية :

ولم يكن فى وسع الملك ووزرائه النهوض بشئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة فى بلاد غنية متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين • ويعتبر من أجل أعمال البطالمة نجاحهم فى انشاء هذه الأداة الحكومية فى بلد أجنبى من عناصر لم تتوافر لديها المؤهلات اللازمة لمثل هذه الأعمال • ولاشك فى أن هذه الأداة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضى لكنها غدت فى مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤساؤها ومديرو مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة ، سواء فى الجهاز المركزى أو فى فروعه المحلية ، من الاغريق • وقد حالف التوفيق هذه الأداة الحكومية فى عهد البطالمة الأوائل ، لكنها فسدت فى عهد البطالمة الأواخر وأصبح كل همها ارهاق الأهالى وابتزاز الأموال •

ثانيا ـ المدن الاغريقية

كان يوجد فى مصر ابان عصر البطالمة ثلاث مدن اغريقية وهى نقراطيس التى أسست فى عهد ابسماتيك الأول : والاسكندرية التى أسسها الاسكندر الأكبر ، وبطرليميس التى أسسها بطلميوس الأول • وكانت المدينة الاغريقية أصلا تؤلف دولة مستقلة ذات سيادة ، لكنه بما أن المدن السالف ذكرها أنشئت فى مملكة على رأسها ملك مطلق السلطة ، فان هذه المدن شاركت المدن والقرى المصرية فى الخضوع للملك ، وتبعا لذلك فقدت المدن الاغريقية فى مصر سيادتها الا أنها احتفظت بحق تمتعها باستقلال ذاتى يعطى مواطنيها حق حكم أنفسهم •

١ ـ نقراطيس :

(كوم جعيف بمحافظة البحيرة) وتدل أعمال الحفر والتنقيب على أن هذه المدينة كانت مثل أى بلد مصرى تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة • وتشير القرائن الى أنه كان لنقراطيس دستور يمتاز بمجلس أوستقراطى ، والى أن نقراطيس احتفظت بدستورها فى عصر البطالمة ، غير أنه مهما كان حظ هذه المدينة والمدينتين الاغريقيتين الأخريين فى مصر من الاستقلال الذاتى ، فانها كانت جميعا تخضع لسلطة الملك • ولضمان ذلك اتخذت وسائل شتى كان من بينها فى حالة نقراطيس وضع حامية فيها •

٢ ـ الاسكندرية :

ويبدو أن الاسكندر اختار الموقع الذى أقيمت عليه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل القانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب اليه ، وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه • فقد كانت هذه البحيرة تتصل بالنيل وتهيىء للمدينة ميناء يربطها بداخلية البلاد ، كما أنه بمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يصبح للمدينة مرفآن على البحر • وأغلب معالم المدينة القديمة لا يزال مدفونا تحت مبانى المدينة الحديثة مما يفسر قلة معلوماتنا بوجه عام عن هذه العاصمة الجليلة • ويعزى الى استرابوى أغلب الفضل فيما نعرفه من معالمها • وكانت المدينة مستطيلة الشكل يمتد جانباها الطوليان فى محاذاة البحر وبحيرة مريوط • وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها وتمتد موازية بوجه عام للشارعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب قانوب (أبو قير) فى الشمال الشرقى الى باب الغرب فى الجنوب الغربى • واما الشارع الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مريوط

فى الجنوب الشرقى الى باب القمر فى مكان ما شرقى جسر البتاستاديون الذى أنشىء لربط جزيرة فاروس بالبر . وكانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من أول حروف الهجاء الاغريقية . وكان أهم هذه الأحياء جميعا حى القصور الملكية ، وكان يطل على الميناء الكبير ويشغل ربع أو ثلث المدينة تقريبا ، ويحتوى على أهم معالم المدينة . ذلك أنه كانت توجد فيه القصور والحدائق الملكية ودار العلم والمكتبة الكبرى والجومنازيوم ودار القضاء ومدافن الاسكندر والبطالمة .

وفى مواجهة حى القصور الملكية وعلى صخرة شرقى جزيرة فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة ، وكانت احدى عجائب العالم القديم ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يتخللها درج ويعلوها المصباح الذى أقيم فوق قبته تمثال لعله كان تمثال يوسيدون اله البحار الاغريقى .

ومنذ أوائل تاريخ الاسكندرية لم يتألف سكانها من الاغريق والمقدونيين فقط . وفى ضوء معلوماتنا الراهنة عن سكان الاسكندرية يتعذر الذهاب الى أبعد من أمرين ، أحدهما هو أنهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتى . والأمر الآخر هو أنهم كانوا ينقسمون طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة المواطنين الكاملى الأهلية ، وكان أفراد هذه الطبقة ينقسمون الى قبائل وأحياء ووحدات .

وتوحى القرائن والشواهد أنه فى عهد البطالمة الأوائل كان لهذه الطبقة جمعية شعبية ومجلس شورى . ويبدو أن أحد البطالمة الأواخر ألغى هاتين المنظمتين اللتين كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة فى المدن الاغريقية . ولما كانت الاسكندرية تتمتع بالاستقلال الذاتى فانه كانت لها محاكم مستقلة غير المحاكم الملكية ،

كمـــا كان لها حكامهـــا المحليون الذين ينتخبهم المواطنون الكاملو الأهليـــة • ومما يجدر بالملاحظة أن نشاط الجمعية الشعبية ومجلس الشورى كان مقصورا على الشئون المحلية دون غيرها • ويوحى ما سنراه عند الحديث عن مدينة بطوليميس بأن الملك كان لا يترك هذا النشاط حرا دون تدخل من جانبه •

٣ ـ بطوليميس (المنشاة بمحافظة سوهاج) :

انشأ بطلميوس الأول هذه المدينـــة فى قلب الصعيد لتكون مركزا لاشعاع الحضارة الاغريقية فى الوجه القبلى • وقد اختفت معـــالم بطوليميس تماما ، لكنـــه يحتمل أن تكون قد خططت مثل الاسكندرية وفقا للنظام الشبكى • ولا تدع الوثائق مجالا للشـــك فى أنه كان لها مجلس شـــورى وجمعية شعبية ومحكمة مستقلة وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين الكاملى الأهلية ، وكانوا ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات ، ويتوافر لديهم ما كانوا يستمتعون به فى بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح •

ونتبين من نقش من القرن الثالث قبل الميلاد حدوث تعديل جذرى فى دستور بطوليميس قضى بانتخاب أعضاء مجلس البولى وهيئة المحكمـــة من قائمة منتقاة من المواطنين • ويرجح الباحثون أن هذا التعديل الدستورى كان بايعاز من الملك ، وأن الاجراء المتبع أصلا كان استخدام القرعة فى عمليـــة الانتخاب • ويوحى فحوى هذا النقش بأن الحكام كانوا ينتخبون منذ البدايـــة من قائمـــة المواطنين • وهل كان هذا التعديل فى دستور بطوليميس انعكاســـا لتعديل مماثل فى دستور الاسكندرية وهى التى نعرف أنها شهدت تعديلات دستورية عديدة دون أن نعرف ماهيتها ؟ وهل كان حكام الاسكندرية أيضا ينتخبون من قائمة منتقاة من مواطنيها ؟ هـــذا كله غير مستبعد •

ثالثا ـ نظام الادارة خارج المدن الاغريقية

أخذ البطالمة عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد الى وحدات ادارية رئيسية . فقد قسموا مصر السفلى ومصر العليا ـ عدا المناطق التى خصصت للمدن الاغريقية ـ الى محافظات يختلف عددها من مصدر الى آخر ولم يحتفظ البطالمة بالأسماء القديمة للمحافظات ، ففى بعض الحالات حرف البطالمة أسماءها بحيث تتلاءم مع الذوق الاغريقى ، وفى البعض الآخر أطلقوا عليها أسماء جديدة نتيجة لتشبيه آلهتها المحلية بآلهة أغريقية .

وعندما فتح الاسكندر مصر كان يحكم كل محافظة نومارخ . وقد أبقى الاسكندر المحافظين المصريين فى مناصبهم ، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، اذ أن الرأى السائد هو أنه منذ أوائل عصر البطالمة أصبحت كل محافظة منطقة عسكرية أقيم عليها الى جانب المحافظ قائد اغريقى أو مقدونى ، وأصبح منصب المحافظ (نومارخ) يسند عادة الى اغريقى أو مقدونى . واذ أصبح القائد حاكم المحافظة المدنى والعسكرى ويمتد سلطانه الى كل فروع الادارة هبطت مكانة المحافظ ، وبمضى الزمن أصبحت اختصاصاته أكثر اتصالا بالشئون الاقتصادية منها بالادارية ، وكان يوجد فى كل محافظة رئيس لشرطتها وممثلو الادارة المالية . وكانت كل محافظة تنقسم الى عدد متفاوت من الأقاليم (توبوى) . وكما كانت لكل محافظة عاصمتها كان كذلك لكل اقليم عاصمته حيث كانت تتركز ادارته ممثلة فى الحاكم الادارى (ابيستاتيس) والعمدة (توبارخ) ورئيس الشرطة وموظفى الادارة المالية . وكان كل مركز يضم عددا من القرى ، كان لكل منها حاكمها الادارى (ابيستاتيس) وعمدتها (قومارخ) ورئيس شرطتها وموظفو الادارة المالية .

ومما يجدر بالملاحظة أمران : أحدهما هو أنه منذ حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت محافظة الفيوم تنقسم الى ثلاثة أقسام (مريدمس) ، وكانت الأقسام تنقسم الى نومارخيات والنومارخيات الى مراكز ، والمراكز الى قرى . والأمر الآخر هو أن المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمحافظة هرموبوليس (الجزء الجنوبى لمحافظة المنيا) حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأنه منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت هذه المنطقة تحت امرة حاكم عام ولكنها بقيت مقسمة الى محافظات ، أسندت ادارة كل عدد منها الى قائد يعتقد أنه كان له نائب (ابيستاتيس) على رأس كل محافظة تقع فى نطاق اختصاصه .

الفصـــل الثـــالث

سياســة البطالمــة الدينيــة

مر بنـا أن البطالمـة كانوا يعتبرون انفســهم ســادة مصر وأصحابها بحق الارث عن الاسكندر وحق الفتح ، بيد أنه ليكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يستغلوا معتقدات رعاياهم الدينية مع احترام هذه المعتقدات ، ولذلك فان التسامح الدينى كان أبرز سمات سياسة البطالمـة الدينية •

أولا ــ سياسة البطالمـة الدينية ازاء المصريين

١ ــ اتخاذ صفات الفراعنة :

وفقا لمعتقدات المصريين الدينية كان فرعون واهب الحيـاة والنعم ومالك الأرض والسيد المطلق لأهليها • وقد كان من أصـالة الرأى أن يستغل البطالمـة هذه المعتقدات ، وأن يتخذوا صفـات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقـة ، ويكسبوا ولاء المصريين ، ولا سيما أن الاسكندر الأكبر رسم نفسه فرعونا فى منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التى درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن • وتشـير الوثائق الى أن البطالمـة

أتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج . ذلك أنه ليس فى الوثائق ما يدل على أن البطالمة الثلاثة الأوائل رسموا فراعنة ، وان كان يوجد ما يدل على أن بطلميوس الأول حمل لقبين من ألقاب الفراعنة الخمسة وعلى أن كلا من بطلميوس الثاني والثالث حمل الألقاب الخمسة جميعا ، وذلك فى الوثائق المصرية دون الاغريقية . أما منذ موقعة رفح فى عهد بطلميوس الرابع فان البطالمة أصبحوا يثبتون الألقاب الفرعونية جميعا فى الوثائق المصرية والاغريقية على السواء . واذا كان هناك شك فى رسامة بطلميوس الرابع فرعونا فلا سبيل الى الشك فى ذلك فيما يخص بطلميوس الخامس . وازاء ضعف البطالمة الأواخر وحرصهم على ممالأة المصريين يبدو انهم جميعا حذوا حذو بطلميوس الخامس .

٢ ــ احترام الديانة المصرية :

ولما كان شائعا معروفا أن من أهم الأسباب التى أثارت المصريين على الفرس انتهاكهم حرمة الديانة المصرية ، فان الاسكندر والبطالمة جميعا وضعوا نصب أعينهم الاعتراف بالديانة المصرية دينا رسميا ، مما كان ينطوى على السماح للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة ، واتباع وسائل شتى لاظهار اجلالهم واحترامهم لهذه الديانة . وكان فى مقدمة هذه الوسائل تقديم القرابين للآلهة المصرية واقامة المعابد لها . ومنشآت البطالمة الدينية شملت كل أرجاء البلاد لكن أعظمها كان فى جزيرة فيلة وأسوان واسنا وكوم اومبو وادفو ودندرة .

٣ ــ البطالمة ورجال الدين المصريون :

وجد البطالمة أن رجال الدين المصريين يؤلفون فى كل أرجاء البلاد جماعات دينية منظمة تنظيما دقيقا ، وتتمتع بمنزلة رفيعة

ونفوذ كبير وتتحكم فى ثروة طائلة . فخشى البطالمة جانبهم ولذلك عمد أوائلهم الى تقييد رجال الدين المصريين بأغلال من القوانين أخضعتهم لسلطتهم وكسرت شوكتهم مدة طويلة . ويبدو أن العامل المادى كان من أهم الوسائل التى استخدمها البطالمة للحصول على طاعة الكهنة . ذلك أن البطالمة الأوائل قرروا اعطاء المعابد منحا كبيرة وفى الوقت نفسه أسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة (ابومويرا) التى كانت المعابد تجبيها من زارعى الكروم والفاكهة والبقول ، وألغوا احتكار المعابد صناعتى الزيت والمنسوجات . ويبدو أن تضييق الخناق على الكهنة كان من العوامل المهمة فى اندلاع لهيب الثورة فى عهد البطالمة الأواخر ، مما حدا بهم الى محاولة اكتساب ود الكهنة بتحريرهم تدريجا من أغلب القيود التى فرضها البطالمة الأوائل . وازاء الخلافات التقليدية بين أتباع الآلهة المختلفة ، وفيما يبدو عمق البطالمة هذه الخلافات ، يبدو أن الكهنة عجزوا عن تكوين جبهة موحدة لمقاومة سياسة البطالمة نحوهم .

ثانيا ـ سياسة البطالمة الدينية ازاء الاغريق

١ ـ تأليه البطالمة تأليها اغريقيا :

وكما عنى البطالمة بكسب ولاء المصريين وودهم ، عنوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعطفهم ولا سيما أن أغلبهم كانوا رجالا أحرارا نشأوا فى جمهوريات اعتادوا على الاشتراك فى حكمها ، فى حين أن مصر فى عصر البطالمة كانت ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق . ولما كانت سلطة الآلهة لا تحد ، فان البطالمة لجأوا لتسرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة اغريقية رسمية عامة فى الدولة .

ويكتنف انشاء هذه العبادة غموض شديد لكننا نستطيع أن نتبين من الوثائق ملامح أربع خطوات اتخذ أولاها بطلميوس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا عاما فى مصر ، له كاهن مقدونى أو اغريقى يعينه الملك سنويا وتؤرخ باسمه كافة الوثائق الاغريقية والمصرية • ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر فى حكم مصر ، فانه بعد تأليه الاسكندر أصبحت سلطة بطلميوس مستمدة من مصدر الهى ، وتبعا لذلك أصبح يحق له التمتع بالسلطة الشاملة فى مملكته •

وتشير الدلائل جميعا الى أن بطلميوس الثانى هو الذى اتخذ الخطوة الثانية فى هذه العبادة ، فهو أولا أله أباه وأمه بعد وفاتهما (الآلهين المنقذين ، سوتيرس) • وثانيا رفع نفسه وزوجته أرسينوى الى مصاف الآلهة باسم الالهين الأخوين (ادلفوى) وقرن عبادتهما بعبادة الاسكندر الاغريقية الرسمية العامة فأصبح لقب كاهن هذه العبادة « كاهن الاسكندر والالهين الأخوين » • وثالثا ، عندما توفيت أرسينوى أنشأ لها عبادة رسمية باسم الالهة فيلادلفوس (المحبة لأخيها) •

وقد اتخذ بطلميوس الثالث الخطوة الثالثة بسماحه باستمرار قرن الالهين الأخوين فى العبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما • ولذلك فانه عندما اقتفى أثر أبيه ورفع نفسه وزوجته فى حياتهما الى مصاف الآلهة باسم الالهين الخيرين (يورجيتاى) قرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر • ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة أن كل بطلميوس وزوجته يرتقيان العرش يؤلهان ويخلع عليهما لقب الهى مميز ، وتقرن عبادتهما بعبادة أسلافهما وعبادة الاسكندر ويحتفظان بالوهيتهما فى الممات •

وقد خطا بطلميوس الرابع الخطوة الأخيرة فى تحويل هــذه العبادة الى عبــادة أسرية بوضع الالهين المنقذين على سلســلة البطالمــة المؤلهين الذين يقرنون فى العبادة مع الاسكندر ٠

والى جانب هــذه العبادة الاغريقية الرسمية العامة التى كان مقرها فى الاسكندرية ومكان الصــدارة فيها للاسكندر الأكبر ، كان البطالمــة محور عبادتين اغريقيتين أخريين ، كانت احداهمــا عبــادة رسميــة محليــة مقرها فى بطوليميس ومكان الصــدارة فيهـــا لبطلميوس الأول ٠ ومنذ عهد بطلميوس الرابع أصبح الملك الحاكم يقرن فى العبادة مع بطلميوس الأول الاله المنقذ ، وأصبحت وثائق بطوليميس وكل منطقة طيبة تؤرخ بكهنة العبادة الاغريقية العامة وكذلك هذه العبادة المحلية ٠ وكانت العبادة الأخرى عبادة اغريقية خاصة يقيم الأفراد شعائرها ٠

٢ ــ البطالمــة والديانة الاغريقية :

وكان البطالمــة اغريقــا فى ثقافتهم وفى ديانتهم ، بل انهم ادعوا انحدارهم من ســلالة الآلهة الاغريقية ٠ وازاء ذلك وازاء حاجتهم الملحة الى رجال ورؤوس أموال من بلاد الاغريق لتحقيــق مشروعاتهم الداخلية والخارجية ، فان البطالمــة اعترفوا بالديانــة الاغريقية دينا رسميا فى مصر ، وشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضياع لمعابدها ، وسمحوا للاغريق بحريــة اقامة شــعائرها ، وأقاموا مواصلات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة فى بلاد الاغريق ، وأنشأوا حفــلات دينيــة على نمط الحفــلات الدينية الأوليمبيــة وكان أشهر هــذه الحفلات حفل البطوليمابيا الذى أنشأه بطلميوس الثانى اجلالا لأبيه المؤله ٠

وعند وفود الاغريق الى مصر أحضروا معهم آلهتهم ومذاهبهم الدينية ٠ ولمــا كان الاغريق ينزلون اما فى المدن الاغريقية الثلاث ،

واما فى أنحاء مصر الأخرى حيث كانوا عادة يكونون جاليـات خاصة بهم ينشئون فيها المعابد للآلهة التى اعتادوا على عبادتها فى بلادهم الأصلية ، ويؤلفون جمعيات بعضها دينى وبعضها دنيوى ومع ذلك له نشاط دينى ، فانه كان طبيعيـا أن يستمر الاغريق فى عبـادة آلهتهم واقامة شـعائر مذاهبهم ، كما كان طبيعيـا أن تكون المدن الاغريقية فى مصر أهم مراكز العبادة الاغريقية ٠

وازاء ما أقامه البطالمـة والأفراد والجماعات من معابد للآلهة الاغريقية ، قد يبدو عجيبا أن المعابد والآلهة الاغريقية لا تظهر فى الوثائق بكثرة وافية ٠ ولعل ذلك يرجع الى حقيقة مهمة تتلخص فى أنه منذ عهد هيرودوتوس درج الاغريق على تشبيه آلهتهم بالآلهة المصرية حتى أصبح من العسير فى ضـوء معلوماتنا الحالية الجزم فى حالات كثيرة ، هل المقصود اله اغريقى ومعبد اغريقى أم اله مصرى ومعبد مصرى ؟ وعلى كل حال فانه يبدو أن تشبيه الآلهة الاغريقية بالآلهة المصرية لم يكن الا تشبيها سطحيـا لم ينفذ الى أعمـاق وجدان الاغريق الدينى بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهـة الاغريقية عندهم ٠ ومع ذلك فان الأدلة متوافرة على أن كثيرين من الاغريق لم يروا غضاضـة فى التقرب الى الآلهة المصرية واظهـار اجلالهم لها ٠ ومرد ذلك الى أن الديانة المصرية تركت فى نفوس الاغريق أثرا عميقا بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها ، والى ما درج الاغريق عليـه من تشبيه آلهتهم بالآلهة المصرية ، والى أنهم اعتادوا على اظهـار اجلالهم لآلهة البلاد الأجنبية التى كانوا ينزلون فيها ٠ ونحن نستطيع أن نتصـور أنه كلما أصبح الاغريق أكثر الفة بآلهة المصريين نتيجة لاختلاطهم بأهـالى البلاد أو تزاوجهم معهم أو طول استقرارهم بينهم ، كثر تقربهم الى هـذه الآلهـة بتقديم القرابين ومختلف أنواع الاهداءات ٠ بيد أنه لما كان أكثر الاغريق ينزلون فى المدن الاغريقية أو يعيشون فى جاليات قومية حيث

كانت تتوافر كل الأسباب التى تيسر متابعة عبادة آلهتهم ، فانه يبدو أنه اذا كان كثير من الاغريق يتقربون فى بعض الأحيان الى الآلهة المصرية ، فان الاغريق بوجه عام لم ينقطعوا عن عبادة آلهتهم الاغريقية وظلوا مستمسكين بديانتهم باعتبارها من أهم مظاهر حضارتهم وهى التى كانوا يعتزون بها أشد الاعتزاز ويعتبرونها أسمى الحضارات ٠

ثالثا ـ سياسة البطالمة الدينية ازاء العناصر الأجنبية الأخرى

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق فى دولة البطالمة ٠ وباستثناء بطلميوس الرابع ، اتبع البطالمة معهم سياسة التسامح الدينى التى اتبعوها مع سائر العناصر الأجنبية الأخرى مثل الفرس ، والتراقيين ، والفروجيين ، والسوريين ، والفينيقيين ، والعرب ٠

رابعا ـ الثالوث المقدس

يبدو أن بطلميوس الأول رأى ثروة مصر تتوقف على اسهام المصريين والاغريق معا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وأن ذلك كان يقتضى ازالة ما بينهم من نفور دينى بانشاء ديانة جديدة يتعبد الى آلهتها الفريقان على النحو الذى درج عليه كل منهما ،وتبعا لذلك شكلت لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق ، واستقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سرابيس وايزيس وحاربوقراطيس ٠ ولا خلاف على أن ايزيس وحاربوقراطيس كانا الهين مصريين ، وأما سرابيس، كبير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأى

السائد اليوم هو أنه كان أصــلا الاله المصرى أوزيريس أبيس ، اله العــالم الآخر فى منف • ومما يجدر بالملاحظــة وله دلالته وأثره أن آلهة الثالوث قدمت للاغريق فى شكل اغريقى وللمصريين فى شكل مصرى • وقد كانت الاسكندرية المقر الأول للعبادة الجديدة ، ومنف مقرها الثانى ، وأبودوس (البلينا) مقرها الثالث • واذا كان بطلميوس الأول هو الذى أنشأ العبــادة الجديدة ، فان الأدلة الأثريــة تثبت أن بطلميوس الثالث هو الذى شــيد لسرابيس بمنطقة كوم الشقافة فى الاســكندرية معبــدا كبيرا لم تبق منه الا أطــلاله •

وقد نجحت الديانة الجديدة من حيث فوزها بعدد كبير من الأتباع ، ولكن نجاحها الحقيقى يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت فى تأدية الهدف المنشود من اقامتها وهو ازالة الفوارق الدينيــة أو على الأقل تضييق شقة الخلاف بين المعتقدات الدينية لكل من المصريين والاغريق • ولاشك فى أن الديانة الجديدة تمتعت بأهميــة عظمى بفضل رعاية الملوك لها ، بيد أنه لم يكن مقدرا لها النجاح فى تحقيق الهدف من اقامتها ، ولا ســيما أن الوسيلة التى أتبعت لتنفيذ الفكرة كفلت لها فشلا محققا • ذلك أنه كان من شــأن تقديم الآلهة نفسها للاغريق فى صورة اغريقية وللمصريين فى صورة مصرية توكيد الخلافات القائمة بين معتقدات الفريقين ، وبخاصــة أن الاختلاف فى الصورة كان مرده الى اختلاف جوهرى فى العقيدة • وعلى كل حال فانه لا يجوز الاقلال من أهميــة الفوارق الدينية مهما تكن يسيرة ، ولا من خطورة النتائج المترتبة عليها • وحسبنا دليلا على ذلك أحوال الصراع بين أتباع الديانات السماوية ، بل بين طوائف كل ديانة منهما •

الفصل الرابع
سياسة البطالمة الاقتصادية

ان تحقيق أهداف السياسة الخارجية الطموح التى اتبعها البطالمة الثلاثة الأوائل يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل ، فضلا عن شراء ود الدول ورجال السياسة • وكان أولئك البطالمة فى حاجة الى وفرة المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية • ولكى يستطيعوا بناء قواتهم المحاربة على غرار قوات منافسيهم ، والافادة من أصحاب المواهب وكذلك أصحاب رؤوس الأموال فى اعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق مصر الاقتصادية ، عملوا على اجتذاب أعداد كبيرة من الاغريق وأشباههم للوفود على مصر والاستقرار فيها • ولما كان يتعين سد حاجة هؤلاء المستوطنين الى جانب احتياجات أهل البلاد ، فقد ازدادت المطالب الواجب مواجهتها • وقد رأى البطالمة الأوائل أن الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضى استخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة فى استغلال جميع موارد الثروة فى مصر الى أقصى حد ممكن تحت اشراف ادارة مالية يقظة تسهر على تنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، ورفع مستوى المنتجات ، وتصدير الفائض منها عن احتياجات البلاد ، وتنشيطا للتعامل عنى البطالمة بتشجيع استخدام النقود على نطاق واسع وانشاء المصارف المالية فى كافة أنحاء البلاد •

١ ــ الزراعـــة :

وفى مجال الزراعة عنى البطالمــة الأوائل بتنظيم وســـائل الرى والصرف ، وادخال وسيلتين حديثتين لرفع الميــاه وهما الطنبور والساقية ، وبزيادة رقعة الأرض المنزرعة باستصلاح مساحات من الأراضى وبخاصـــة فى الفيوم ، وبتنظيم دورة زراعية ، وبانتقــاء البذور ، وبادخال أصناف جديدة من المزروعات ، وبنشر غرس مختلف أنواع الأشجار • وكانت أهم الحاصــلات الزراعيــة هى الحبوب الغذائية والحبوب الزيتية والكروم والفاكهة والبردى • وأبدى البطالمــة الأوائل عناية كبيرة بتربيــة المــاشية والأغنــام والطيور والنحل •

وقد كان أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية فى القرن الثالث قبل الميلاد ازدهار الزراعة ، وأما أظهر سمات هــذه الحياة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث فقد كان تدهور الزراعة الذى سار قدما فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، وكان يرجع قبل كل شيء الى ذلك النظــام المــالي والاقتصادى الكريه الذى يعزى الى بطلميوس الثانى • ذلك أن هذا النظام أبهظ كاهل الأهالى مما دفعهم الى الفرار من مزارعهم أو التراخى فى أداء عملهم بل الى الثورة فى وجه الحكومة التى أمعنت فى ارهاقهم بشتى التكاليف • وزاد الطين بلة أنه وسط الثورات القوميــة والاضطرابات المترتبة على الصراعات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمــة لم تهمل وســـائل الرى والصرف فحسب بل عمد الأهالى الى تخريبها • وفضلا عن ذلك فان غزوتى أنطيوخوس الرابع تمخضتا عن كثير من الخراب والدمار • وقد ترتب على ذلك كله نقص مساحة الأرض المنزرعة ونقص عدد سكان الريف وقلة المــاشية ، وتبعا لذلك كله نقص الانتاج • حقا ان

الحكومة حاولت معالجة هـذه الأوضـاع ، وأن جهودهـا كللت بالنجاح فى بعض الأحيان ، لكنها لم تفلح بوجه عام فى وقف تيـار التدهور الاقتصادى ٠

٢ ـ الصناعـة :

واجه البطالمـة الأوائل فى مجال الصناعـة مشـاكل مماثلة لما واجهوه فى ميدان الزراعة ، وهى توفير سبل العيش لسـكان البلاد وقد ازداد عددهم بنزوح كثرة من المهـاجرين اليها ، وكان أغلبهم ممن لهم ميول وعادات اغريقية ٠ وفى الوقت الذى ازدادت فيه وتنوعت مطالب السوق المحليـة ، ازدادت القوة الشرائيـة لدى الدول الهلينيسية ، كما ازداد اقبال هـذه الدول على المنتجات المصرية ٠ ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تفتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجارى فى صالحها ، اهتم البطالمـة الأوائل بتنشيط الصناعة اهتماما لم يسبق له مثيل ، فانشأوا مصانع كثيرة، واحتكروا انتاج بعض الصناعات ، وأشرفوا على انتـاج بعضها الآخر ، وعملوا أيضا علي زيادة الانتاج وتحسين صنفه ومراعـاة أذواق المستهلكين ٠

وقد استجابت مصر الى كل مطالب الصناعة بفضـل مهارة المصريين ومواهب الاغريق ووفرة رؤوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، وازدهار الزراعـة ورواج التجارة ، واهتمـام الملوك بمختلف شئون الصناعة ٠ وكانت أهم الصناعات فى عصر البطالمـة صناعة المنسوجات المختلفـة من كتـان وصـوف وقطن وحرير ، وصناعات الورق والزيت والنبيذ والأخشاب والآنيـة الفخاريـة والمعدنية والزجاجيـة ٠ وكان من بين نتـائج ازدهار الصـناعة فى المدن نزوح الكثـيرين من الريف اليهـا ، وكانت الاسـكندرية فى مقدمـة المدن التى هرعت اليهـا أعـداد كبـيرة من الصـناع

والعمـــال • وعلى عـكس الحـال فى بـلاد الاغـريق ، لم يكن للعبيــد دور ملحوظ فى حيـاة مصر الاقتصــادية قبـل الفتح المقدونى • ولا يبعد أنه فى المدن الاغريقيــة فى مصر ، وبخاصــة فى الاسكندرية . كانت توجد مصانع يعمل فيها العبيد • أما خارج المدن الاغريقية فانه لا يوجد ما يستدل منه على استخدام العبيد فى الزراعة أو الصناعة •

وقد كان من شأن العوامل التى سبقت الاشارة اليها ازدهار الصناعة فى القرن الثالث قبل الميلاد • ولمـا كانت أغلب الصناعات المصريــة صناعات زراعيــة ، فان تدهور الزراعــة من أواخر عهد بطلميوس الثالث استتبع حتما تدهور الصناعــة ، ولا سيما أن النظام المـالى الاقتصادى لم يكن أخف وطأة على العمال والصناع منه على الزراع • وخير شاهد على ذلك أن العمال والصناع ، شأنهم شأن الزراع ، لعبوا دورا كبيرا فى الثورات القومية والاضطرابات التى صاحبت الصراعات بين البطالمـة • ولم يكن لمـا أصـدره البطالمـة المتأخرون من قرارات العفو المتكررة ، بما ينطوى عليــه من اعفاءات ومنح وضمانات لمختلف العمال والصناع ، أثر يذكر فى أغراض الصناعة ثانية •

٣ ـ التجــارة :

وكان طبيعيا أن يعنى البطالمـة الأوائل برواج تجارة مصر الخارجية لتصريف منتجات مصر واستيراد ما كانت مصر تفتقر اليه من المواد مثل الأخشاب والمعادن والخيول والقطران بحيث يكون الميزان التجـارى فى صالح مصر ، ليضمنوا الثراء العريض الذى كانوا يقيمون عليــه دعـائم قوتهم ونفوذهم فى مصر وفى العــالم المتمـدن •

وقد كانت لهؤلاء البطالمة علاقات تجارية نشيطة ليس مع ممتلكاتهم التجارية فحسب بل أيضا مع بحر ايجة والبحر الأسود ومع الغرب والشمال الغربى وكذلك مع الجنوب والشرق ۰ وازاء ازدهار الزراعة والصناعة وتداول النقود واتساع ملك البطالمة الأوائل وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية ، وانشاء العلاقات مع مختلف الدول فى الجنوب وفى الشمال وفى غرب البحر المتوسط ، راجت تجارة مصر الخارجية رواجا كبيرا فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ۰ وكان طبيعيا أن يصحب تدهور الزراعة والصناعة تدهور التجارة الخارجية أيضا ۰ وقد أسهم نشوب الحرب البونية الثانية فى شل علاقات مصر التجارية مع الأسواق الغربية ۰ هذا الى أن اضطراب أحوال مصر والضعف الذى انتاب البطالمة منذ رابعهم لم يسمحا بالمحافظة على سيادة مصر البحرية ولا على ممتلكاتهم فى بحر ايجة ، ولا بمتابعة سياسة تجارية نشيطة ، ففقدت مصر مكانتها الأولى فى تجارة بحر ايجة ۰ ومع ذلك فان المخلفات الأثرية توحى بوجود علاقات تجارية نشيطة بين رودس والاسكندرية منذ القرن الثالث حتى القرن الأول قبل الميلاد ۰ وفضلا عن ذلك فانه عندما أصبحت ديلوس فى النصف الثانى من القرن قبل الميلاد أهم مراكز التجارة فى بحر ايجه نشطت العلاقات التجارية بين ديلوس والاسكندرية ۰ ويبدو أنه عندما انتهت الحرب البونية الثانية أخذت تنشط ثانية تجارة مصر مع الأسواق الغربية ۰

وفى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، حين كانت مصر تسيطر على أهم منافذ التجارة الشرقية الواقعة فى ممتلكاتها الخارجية ، كانت مصر تحصل على كميات كبيرة من سلع هذه التجارة وتصدر جانبا كبيرا منها اما فى شكلها الخام واما بعد تصنيعها ، لكن

بعد أن فقدت مصر ممتلكاتها الخارجيـة وسيطر السلوقيون على تجارة القوافل تأثرت تجارة مصر الشرقية الى حد كبير ٠ وازاء ذلك عمد البطالمـة منذ عهد بطلميوس السادس الى توجيه اهتمامهم نحو البحر الأحمر فأخذت تجـارة مصر الشرقية تنتعش ثانية ٠

واذا كانت القرائن تشير الى نشاط تجارة مصر الخارجيـة فى مختلف الميادين فى عهد البطالمـة الأواخر ، فانه بسبب ضـياع سيادة مصر البحرية وتدهور زراعتها وصناعتها واضطراب أحوالها الداخلية كان هذا النشاط محدودا بالقيـاس الى نشـاط القرن الثالث قبل الميلاد ٠

الفصـــل الخـــامس

النظـام المـالى والاقتصـادى

أولا ـ الادارة المـالية

كانت الادارة المـالية تشرف على اقتصـاديات البـــلاد ، وتختص بحسابات الدخل والخرج ، وتسمى « خزانة الملك » ، مما ينهض دليلا على السلطة الشاملة المطلقة التى كان البطالمـة يمارسونها • وكان مدير خزانة الملك هو المهيمن عل كل اقتصاديات الدولة ورئيس الادارة المـالية فيها ، ولذلك يدعوه المؤرخون « وزير المـالية » لكن البطالمـة كانوا يدعونه « ديويقيتيس » • وهـذه التسمية تحمل معنى مدير الضيعة ، وهى ذات دلالة بالغة ، اذ أن البطالمـة استنادا الى حق الارث عن الاسكندرية وحق الفتح وحق الملوك الالهى اعتبروا مصر ضيعتهم ، وأسـندوا الى وزير المـالية ادارة هذه الضيعة • وكان أبولونيوس أشهر وزراء المـالية فى عصر البطالمـة •

وكان لوزير المـالية مساعدون رئيسيون يدعون مسـاعدى الديويقيتيس ، ويرجح أن كـلا منهم كان يختص بالاشراف على شئون منطقة بعينها • وكان يمثل الادارة المـالية المركزية فى كل

محافظـة موظفون كان أكثرهم نشاطا وأوسعهم اختصاصا موظف يدعى « أويقونوموس » ، فقد كان مسئولا عن كل شئون الزراعـة والصناعة والتجارة والنقل • وكان هو الذى يختار ملتزمى موارد الدولة المختلفـة ، وبخاصة ملتزمى الضرائب ، ويتعاقد معهم ويراقب اعمالهم ويحاسبهم شهريا • وكان بين موظفى الادارة المـالية مديرو الخزائن والمخـازن الملكية • وكان كاتب القرية فى أسفل سلك أولئك الكتـاب الذين كانت الادارة المـالية تستقى منهم كافـة المعلومات التى تحتاج اليها ، وكان يعلوه فى المرتبة كاتب المركز ثم يأتى فى المقدمة الكاتب الملكى فى عاصمة المحافظـة • ولمـا كان يوجد الى جانب وزير المـالية وتحت اشرافه مراجع عام للحسابات ، فانه كان لهذا المراجع ممثلون فى كل المحافظات •

وقد شهد القرن الثانى قبل الميلاد تغييرات كثيرة كان أغلبها فى الادارة المـالية المحليـة ، وأهمهـا اثنـان هما : أولا انشـاء وظيفة المشرف على الدخل فى كل محافظـة ، وثانيا تقسيم المهام التى كان ينهض بها فى المـاضى أويقونوموس واحد فى كل عاصمة من عواصم المحافظات بين اثنين هما : الأويقونوموس المشرف على موارد الدولة النقدية ، والأويقونوموس المشرف على موارد الدولة النوعيـة •

ثانيـا ـ نظـام الأراضى

لمـا كان البطالمـة يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة ، فانه ترتب على ذلك أن الملك كان المـالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم فانه يمكن تقسيم أرض مصر فى عصر البطالمـة قسمين رئيسيين وهما أرض الملك وأرض العطاء •

١ ــ أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التى كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها بالمزاد العلنى للمزارعين • وكانت علاقة هؤلاء المزارعين بالملك ترتكز على عقود كانت لمدد قصيرة فى القرن الثالث لكن مدة العقد أطيلت عندما تدهورت الحالة الزراعية وأخذ المزارعون يفرون من أراضيهم • ومع أن مزارعى الملك كانوا أحرارا فانه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التى استأجروها وفقا لتعليمات الحكومة وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا للملك جميع التزاماتهم قبله ، وكانت تشمل الايجار وفوائد اقتراض البذور واستخدام أدوات الملك وماشيته وسلسلة طويلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول •

وازاء تدهور الزراعة ازدادت حال مزارعى الملك سوءا فلم يجد الكثيرون منهم منفذا أمامهم الا ترك الأرض والهرب • وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، لجأت الى الاكراه لتحقيق بغيتها • ولم يكن من شأن ذلك الا استفحال داء هروب المزارعين •

٢ ــ أرض العطاء :

وهى الأرض التى نزل الملك عن حق استثمارها لغيره • ويتبين أنه لم يكن لعبارة أرض العطاء مدلول متفق عليه دوما حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد عندما أصبحت تشمل الأنواع التالية من الأرض :

(أ) الأرض المقدسة :

وكانت ثروة المعابد نوعين ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة ، وكان عبارة عن الأرض التى دأب الملوك على منحها لمختلف الآلهة منذ غابر الزمن حتى أصبحت لأولئك الآلهة ممتلكات واسعة • أما النوع الثانى من ثروة المعابد فكان عبارة عن الموارد الموقوفة على بعض مناصب الكهنة لتدر دخلا معينا على شاغلى تلك المناصب• ويبدو أنه قبل عصر البطالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف فى دخل هذه الموارد بالبيع والتوريث ، لكن البطالمة جعلوا الحكومة هى التى تبيع المناصب وما يتبعها من موارد دون أن تعطى المشترين حق التصرف فى تلك الموارد •

(ب) الاقطاعات العسكرية :

مر بنا أن البطالمة اعتمدوا الى حد كبير على متطوعين من الأجانب فى بناء قواتهم المحاربة • وكان البطالمة يمنحون أولئك المتطوعين اقطاعات تعتبر بمثابة مرتباتهم فى وقت السلم • وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ونوع الفرقة التى ينتمى اليها •

وقد كان الاقطاع ملكا للتاج ، فقد كان الملك يستطيع استرداده اذا توفى رب الاقطاع أو أهمل فى اداء واجباته أو لم يؤد الضرائب المفروضة عليه • واذا كانت حيازة الاقطاع قد أصبحت منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد منحة لرب الاقطاع وسلالته ، فانه عند وفاة رب الاقطاع كانت الدولة تضع يدها مؤقتا على الاقطاع ودخله الى أن يسجل الابن نفسه وفقا للقانون باعتباره رب الاقطاع الجديد • ومعنى ذلك ان الاقطاع ظل دائما ملكا للتاج •

والى جانب الاقطاع كان الجنود يمنحون مسكنا ، ففى القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم بيوتا ، أما فى المدن والقرى القديمة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن فى بيوت الأهالى ، مما كان يؤدى الى منازعات كثيرة بسبب ميل الجنود الى اساءة استخدام حقهم •

(ج) أرض الهبات :

وكانت هذه الأرض نوعين : أحدهما عبارة عن أرض يعتبر دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الأرض • والنوع الآخر كان عبارة عن الضياع الكبيرة التى أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين •

(د) أرض الامتلاك الخاص :

يرى بعض الباحثين أنه عند أواخر القرن الثانى قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة فى الأرض التى هجرت بسبب جفافها أو طغيان المياه عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما ، وانه لا يبعد أن هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضا •

ونتبين من الوثائق أنه كانت توجد فى جهات متفرقة وخاصة فى الوجه القبلى مساحات من الأرض تزرع حبوبا غذائية ويمكن التصرف فيها والشراء والرهن والتوريث • ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكا حرا لأربابها لعدة أسباب أهمها أن أرباب هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها ايجارا للتاج ، وأن الملك كان يستطيع استرداد هذه الأرض • وازاء ذلك لا يبعد أن أرباب هذه الأرض

كانوا لا يمالكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف فى هـذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالأرض الممتلكة امتلاكا حرا ٠

ثالثـا ـ نظـام الصناعات والحرف

توافر لدى البطالمـة العاملان الأساسيان لاستدرار أربـاح وفيرة من الصناعة ، وهما كميات هائلة من المواد الخـام وأعـداد كبيرة من الصناع المهرة ٠ وقد أفضى استغلال هذين العاملين استغلالا منظما دقيقا الى ما يعرف باحتكارات البطالمـة ٠ فقد كان البطالمـة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا مثل استخراج الزيت والملح ، ويشرفون على البعض الآخر ويحتكرونه احتكارا جزئيـا مثل صناعة النسيج والورق ٠ وسنكتفى فى هذا المقام بالكلام عن صناعتى الزيت والنسيج ٠

١ ـ صناعة الزيت :

كانت صناعة مهمة منذ زمن طويل لكنهـا ازدادت فى عصر البطالمـة نتيجة زراعة مساحات واسـعة من الأرض المستصلحـة نباتات زيتية ، واحتكار البطالمـة هـذه الصناعة احتكارا كليـا وتنظيمها تنظيما دقيقا ٠ ويتبين من القانون الخاص بتنظيم هـذا الاحتـكار أن الملك كان يسـتهدف أولا قصر انتـاج الزيت على الملتزمين الذين اشتروا من الحكومة حق التزام صناعة الزيت من السمسم او الخروع أو القرطم ٠ وثانيا الا يستخرج أحد الزيت خفيـة والا قدم للمحاكمـة وفرضت عليـه عقوبات صارمـة ٠ وثالثـا أن تتوافر المـادة الخام والأيدى العاملة والمصانع اللازمة تحت امرة ملتزمى هذه الصناعة ٠ فقد كانت الحكومة تحدد كل

عام مساحة الأرض الواجب زرعها نباتات زيتية وتفرض على الأهالى بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت فى المنطقة ، وتحظر على عمال صناعة الزيت مبارحة المحافظة الى محافظة أخرى ، وتوفر المصانع اللازمة وتضعها تحت اشراف الملتزمين ومندوبى الأويقونوموى ومراقبى الحسابات .

ولكى يستفيد الملك الى أقصى حد من احتكار الزيت ، حظر استيراد الزيت الأجنبى للمتاجرة فيه أو أكثر من الاستهلاك الشخصى لمدة ثلاثة أيام مع دفع ضريبة تقرب من نصف سعره فى الخارج .

٢ ــ صناعة النسيج :

كانت الحكومة تحدد مساحة الأرض الواجب زرعها كتانا ، وتحتم أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تعنى بأن يزاول النسيج فى كل محافظة أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل محافظة أن تقدم للحكومة كمية معينة من الأقمشة والملابس التى أنتجتها . وفى حالة العجز عن السداد كان يتعين دفع ثمن المنسوجات والملابس بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك فى حالة هبوط الانتاج عن المستوى كانت تفرض غرامة . هذا الى أنه كان على الناسجين أن يؤدوا ضريبة لعلها كانت ضريبة الترخيص بمزاولة المهنة .

حيث ان الحكومة كانت لا تشترى كل محصول الكتان ، ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل انتاجهم ، فانه يتبين من ذلك أن الحكومة كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وان كانت تشرف عليها فضلا عن أنها كانت تسهم فيها ، اذ من الجلى أن الكتان الذى كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع فى مصانع ملكية غير مصانع الأهالى .

رابعـا ـ نظـام التجـارة

١ ـ التجارة الداخلية :

كانت تجارة الحبوب الغذائية حرة فيما عدا الكميات التى كان الملك يقضى ببيعها له بسعر معين ليستبد بها فيما يبدو حاجة المحافظات والمدن التى كانت تفتقر الى ما يكفيها منها • أما الحبوب الزيتية فان الحكومة كانت تحتم بيع المحصـول كله بسعر محدد لملتزمى صناعة الزيت • وكان حق بيع الزيت يبـاع لملتزمى البيع • وقد عرفنا أن الحكومة كانت تحتم بيع مقدار معين لها من محصول الكتان بسعر معين ، أما بقيةالمحصـول فلم يكن الاتجـار فيهـا خاضعا لأى قيد • وبعد سداد نصيب الحكومة من انتاج النساجين يبدو أنهم لم يكونوا أحرارا فى بيع باقى انتاجهم خاضعا لأى سعر وانما بالسعر الذى تحدده اللوائح وذلك تفاديا لمنافسـة نصيب الملك وانتاج المصـانع الملكية • وفى حالة السلع التى كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم اعطاءها نصيبا معينا منها كان يوجد ملتزمون للبيع ، ونتبين فى حالة الزيت أن تجـار التجزئة كانوا يساعدون على ذلك • ويرجح أن كل أصحاب الحوانيت كانـوا يضطرون الى الحصـول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ، والى اعطاء الحكومة فى مقابل ذلك جانبا كبيرا من أرباحهم •

ونتبين من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميـلاد أن وزير المـالية كان يقسم السلع قسمين : أحدهما السلع التى حددت الحكومة أسعارها وكانت فيما يبدو منتجات الصناعات التى كانت الحكومة تحتكرها كليـا أو جزئيـا مثل الزيت والمنسـوجات • أما القسم الثـانى فكان يشمل السـلع التى لم تحدد الحـكومة أسعارها وكان يبيعها أولئك الذين اشتروا من الحكومة حق انتاجها وبيعها مثل الجعة ، أو حق البيع وحده مثل اللحوم والعدس المطهى•

ولاشك فى أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، والكيلا يغالوا فى أرباحهم طلب وزير المالية من وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة . ومعنى ذلك أنه حتى فى حالة السلع التى كانت الحكومة لا تحدد رسميا أسعارها لم يكن الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد .

٢ ـ التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد البحر المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية قسمين كان أحدهما يتألف من المواد التى كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول . ويرجح أن استيراد هذه المواد أو الجانب الأكبر منها كان وقفا على الملك ، وأنه كان لا يدفع عنها الا مكوسا جمركية طفيفة . أما القسم الآخر فانه كان يشمل السلع التى تنتج مصر مثيلاتها ، ولذلك فان الملك كان يفرض عليها مكوسا مرتفعة ، وكان التجار هم الذين يجلبون هذه السلع . ونتبين من وثيقة من عهد بطلميوس الثانى أن البضائع المستوردة من الخارج كانت أربع فئات بحسب المكوس التى تجبى عنها . وكانت هذه الفئات على التوالى : ٥٠٪ و ٣٣⅓٪ ، ٢٥٪ ، ٢٠٪ . واذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس الجمركية التى كانت تجبى فى باقى بلاد البحر المتوسط ، فان هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد المماثلة . فقد كانت ضريبتا ال ٥٠٪ و ال ٣٣⅓٪ اللتان يدفعهما مستوردو نوعين من النبيذ الاغريقى تقابلان ضريبتى النصف والثلث المفروضتين على زارعى الكروم فى مصر ، وكذلك كانت ضريبة ال ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبى وأيضا على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على كل من النحالين وصائدى الأسماك المحليين .

أما عن واردات مصر من الجنوب والشرق ، فانه يرجح أن الملك كان يحتكر شراء هذه السلع بسعر محدد عندما كان التجار ينقلونها الى مصر وممتلكاتها . ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة فى شكلها الخام بل تحول الى روائح ومساحيق وأدوية . ولا يبعد أن البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة وكذلك تصدير هذه السلع فى شكلها الخام وأيضا بعد تصنيعها .

وقد كانت أهم صادرات مصر هى الحبوب الغذائية والمنسوجات والورق والعطور والبخور . ويرجح أن البطالمة كانوا يحتكرون التجارة الخارجية فى هذه السلع وغيرها من صادراتهم عن طريق ملتزمين أو متعهدين مثل أبولونيوس وغيره من كبار تجار الاسكندرية وهم الذين يعزى اليهم فضل السيادة التجارية التى اكتسبتها الاسكندرية فى البحر المتوسط ، لأنه بفضل مجهوداتهم أقصى الاثينيون من الميدان ونجحت الاسكندرية فى منافسة رودس وميليتوس . ولم يقتصر نشاط هؤلاء التجار على البحر المتوسط بل يمموا وجوههم شطر شواطىء بلاد العرب وافريقيا ووصلوا فى النصف الثانى من عصر البطالمة حتى موانىء الهند .

خامسا ـ نظام جباية الضرائب

استخدم البطالمة نظام الالتزام فى جباية الضرائب نوعية كانت أو نقدية . وكان الملتزمون يضمنون للملك الحصول مما التزموه من ضرائب على قدر معين من المال أو المواد . وكانوا لا يقومون بجباية الضرائب فقد كان يتولى أمر ذلك موظفون حكوميون تحت اشراف الملتزمين ومراقبين مختلفين . وكان يشهر سنويا فى المزاد دخل كل ضريبة على حدة فى منطقة لم تزد اطلاقا على محافظة واحدة . وكان المزاد يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة

ممكنة من ضريبة بعينها . وكان على الملتزم الذى يرسو عليه المزاد أن يقدم أشخاصا يضمنون الوفاء بالقدر الذى تم التعاقد عليه مضافا اليه ضريبة شراء حق الالتزام . وكان على الملتزم وضامنيه تقديم ممتلكاتهم رهنا للوفاء بما تم التعاقد عليه . وكان ما يجمعه الجباة يودع لحساب الملتزم فى المخازن أو الخزائن الملكية . واذا تبين بعد الحساب الختامى فى آخر العام وجود زيادة فى حصيلة الضريبة، فانها كانت تؤول الى الملتزم وضامنيه . اما اذا وجد عجز فانه كان يتعين على الملتزم وضامنيه سداده . ويتفق المؤرخون على أن البطالمة قد حموا مصالحهم حماية فعالة باتباع نظام الالتزام فى جباية الضرائب . وقد كان نظام الالتزام ومسئولية الموظفين الضمانين الرئيسيين اللذين لم يكن للبطالمة غنى عنهما فى نظامهم المالى والاقتصادى حيث كانوا يخشون أن يتعرض دخلهم لأية خسارة .

الفصـــل الســـادس

النظـــام القضـــائى

ولما كانت لمصر عاداتها وقوانينها منذ أمد بعيد ، وكان للاغريق كذلك عاداتهم وقوانينهم ، فانه كانت تطبق على المصريين قوانين مصرية فى جوهرها وعلى الاغريق قوانين اغريقية فى جوهرها . ومع ذلك فانه ازاء تشابك مصالح الفريقين ومعيشتهما جنبا الى جنب فى قطر واحد يهيمن عليه ملك واحد يقبض على كل مصادر السلطة فيه ، لم يكن هنـاك مفر من أن يتسرب الى قوانين كل من الفريقين بعض مظاهر قوانين الفريق الآخر . ويمكن تبين بعض الفوارق بين القانون المصرى والقانون الاغريقى وكذلك بعض ظواهر التفاعل بينهما اذا تناولنا فى ايجاز شديد النواحى الرئيسية فى كليهما .

أولا ـ القـــانون المـدنى

١ ـ الأحوال الشخصية :

ونرى مثلا واضحا للفوارق بين التشريعين المصرى والاغريقى فى نظرة كل منهما الى المرأة . ذلك أنه وفقا للقانون المصرى كانت المرأة تستطيع التصرف فى نفسها وفيما تملك دون قيد أو شرط ،

فى حين أنه فى نظر القانون الاغريقى كانت المرأة قاصرا فى حاجة الى وصى شرعى عليها فى كل تصرفاتها • ولم يلبث البطالمة أن ساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية بالهبوط بالأولى الى مستوى الثانية •

ويرى كثيرون من الباحثين أن القانون المصرى كان يعترف بنوعين من الزواج يدعو الباحثون أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المتعة أو التجربة » • والفارق بين النوعين أن النوع الأول كان رابطة مقدسة لها طابع الدوام وتترتب عليها التزامات دائمة تجاه الزوجة والأولاد ، على عكس النوع الثانى الذى كان يحدد أمده بفترة معينة دون أن تترتب عليه أية التزامات دائمة •

أما عن زواج الاغريق فانهم فى الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحررون عقدين أحدهما مدنى والآخر دينى • وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و «عقود المعاشرة » • وكان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين واثبات حقوق الأولاد •

ووفقا للقانون المصرى والاغريقى كان لكل من الطرفين حق الطلاق • وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيهما أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر •

ونلمس أثر القانون الاغريقى فى القانون المصرى فى وضع المرأة وفى بعض الشئون الخاصة بالميراث • ومن ناحية أخرى أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة باثبات كل المسائل المالية والقواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما وبعض أحكام الميراث •

٢ ـ الأحوال العينية :

ولضمان تنفيذ العقود بأمانة كان المصريون والاغريق يضعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة في القانون الاغريقي مثل ارغـام المدين الذي لا يسدد دينه على دفع غرامة معينة للادارة المـالية أو معاملته معاملة المدين لهـذه الادارة أي حبسـه ، مما يدل على أمرين : أحدهما هو أن قانون الدين الاغريقي قد طبق في مصر على المصريين والاغريق منذ بداية عصر البطالمـة • والأمر الآخر هو أنه لابد أن يكون قد سـبق ذلك الغاء قانون الملك المصري بوكخوريس الذي لا يسمح بحبس المدين أو استعباده • ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصري والاغريقي يعترفان بوسـائل أخرى ، احداهـا تشبه ما نسميه اليـوم برهن الحيـازة ، وأخرى تشبه ما نعرفه بالرهن الضماني ، وثالثة تماثل ما نعرفه بالبيع الوفائي ، وقد حدد أمر ملكي من منتصف القرن الثالث السعر الرسمي للفائدة على القروض الخاصـة بمقدار ٢٤٪ في السنة • وفي أغلب الحالات كان ينص في العقد على الفائدة وعلى الزام المدين بدفع الدين مضافا اليه ٥٠٪ منه في حالة عدم الوفـاء به في الموعد المحدد • وفي بعض الحالات كان لا ينص في العقد على الفائدة وانما تدمج في رأس المـال الواجب سداده •

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحرر عقدان يطلق على أحدهما « عقد المـال » وعلى الآخر « عقد التنازل » • وكان يحرر لصفقات البيع الاغريقية عقد بيع ينص فيه على الضمانات التي كان القانون الاغريقي يفرضها على الضامنين والوسطاء • وفي بعض الأحيان كان عقد البيع يقرن بعقد تنازل • وحوالي آخر القرن الأول قبل الميلاد كانت تستخدم صيغة تجمـع في عقد واحد بين نصوص عقدي البيع والتنازل •

ثانيا ـ القانون الجنائى

ويتبين من استقراء الوثائق أن القانون الجنائى البطلمى كان يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهى :

أولا ـ الجرائم ضد مصالح الخزانة العامة ٠

ثانيا ـ الجرائم ضد الأفراد ٠

ثالثا ـ الخيانة العظمى ٠

رابعا ـ سوء استخدام الحقوق ٠

خامسا ـ الجرائم الدينية ٠

وكانت تفرض عقوبات تناسب كل نوع من أنواع هذه الجرائم ، فقد كانت العقوبات تتراوح بين التوبيخ والغرامة ، ومصادرة الأملاك ، والسجن ، والاعدام ٠ وفى ضوء معلوماتنا الحالية لا نستطيع الجزم بطابع القانون الجنائى البطلمى ، ولا الى أى مدى احتفظ بالقانون الجنائى المصرى أو عدل فيه فى خلال عصر البطالمة ، أو اذا كان كل من المصريين والأجانب يخضع لقانون جنائى خاص به ٠

ثالثا ـ الهيئات القضائية

ونحن نميل الى الرأى القائل بأنه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الجنائى ، ولذلك نرجح أن سائر المحاكم المصرية والاغريقية كانت تنظر فى القضايا المدنية وكذلك فى القضايا الجنائية العادية مثل الاعتداء على الأشخاص أو على أموالهم ، أما الجرائم الخطيرة ، مثل الخيانة العظمى والقتل ، فلا يبعد أنها

كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما تدعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » ٠

وكان الملك يعتبر كبير القضاة فى البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل فى المنازعات بين رعاياه ٠ ويمكن تقسيم الهيئات القضائية فى عصر البطالمة أربعة أنواع وهى :

١ ــ محاكم القضاة المصريين وكانت تختص أساسا بالفصل فى قضايا المصريين ، وتتألف كل محكمة منها من ثلاثة كهنة وكذلك منذ القرن الثانى على الأقل من مدع عام يتضح من لقبه أن وظيفته قد اقتبست من النظام الاغريقى ٠

٢ ــ محاكم القضاة الاغريق ، وكانت محاكم ملكية متنقلة للفصل فى قضايا الاغريق من غير مواطنى المدن الاغريقية ، فقد كانت لكل مدينة منها محاكمها الخاصة بها ٠ وكانت كل محكمة تتألف من ثلاثة قضاة ومدع عام وكاتب ومحضر ٠

٣ ــ وكان يوجد فى القرن الثالث قبل الميلاد محكمة مختلطة للفصل فى القضايا التى يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين ٠ ويبدو أنه لم يعد لهذه المحكمة وجود منذ القرن الثانى قبل الميلاد ٠

٤ ــ القضاء الخاص ، وكان يدخل فى نطاقه الشكاوى الموجهة ضد موظفى الادارة وعمال المالية والقضايا التى تتأثر بها موارد الملك ، والقضايا المدنية والجنائية التى تمس أشخاصا يخدمون هذه الموارد ٠ وكان يفصل فى هذه القضايا الملك وكبار رجال الادارة والموظفون المشرفون على دخل الدولة ٠ ويبدو أنه على الأقل فى القرن الثالث قبل الميلاد كانت توجد محاكم خاصة لرجال الجيش ، وكانت هيئة كل محكمة منها تتألف من عشرة أشخاص لا يبعد أنهم كانوا ضباطا فى الجيش ٠

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

أولا ـ الاغريق

مر بنا أن البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا فى حاجة ملحة الى الاغريق لتكوين جيش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا • وازاء ذلك كله فتح البطالمة أبواب مصر على مصاريعها للاغريق وأجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزا ممتازا فى وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام • ذلك أن البطالمة اتخذوا من الاغريق شركاءهم فى حكم البلاد ومنحوهم الضياع والاقطاعات وهيأوا لهم البيئة الملائمة لمعيشتهم بما أولوه من اهتمام للمدن الاغريقية فى مصر • أما الاغريق الذين ضاقت بهم هذه المدن فانهم تفرقوا بين جنبات الوادى حيث كانوا يؤلفون جماعات قومية تتكون كل منها ممن ينتمون الى قومية بعينها • وقد كان لكل جماعة منتدياتها ومجموعة قوانينها الاغريقية فى مكان معين ، ونوعان من النشاط أحدهما سياسى بمعنى أنها كانت تصدر قرارات وتنتخب كهنتها ورؤساءها وحكامها الذين

يديرون شئونها • والنشاط الآخر دينى ، فقد كان لكل جماعة آلهتها القومية وهيكلها وكهنتها وطقوسها الدينية • وهكذا يتبين أن هذه الجماعات كانت منظمة على نمط المدن الاغريقية وتتمتع بقدر من الحكم الذاتى • وأغلب الظن أن البطالمة اعترفوا بالجماعات القومية وأعطوها رعايتهم • وكانت تلى تلك الجماعات فى الأهمية جمعيات رجال الجومنازيوم ، فقد كان الاغريق ، حيثما نزلوا ، ينشئون هذه المعاهد الجليلة الشأن التى كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية فى بلاد الاغريق منذ أقدم العصور • وكانت تأتى بعد ذلك فى الأهمية جمعيات اغريقية ذات طابع دينى أو اجتماعى •

ان أولئك الأجانب الذين وفدوا على مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد كانوا يكونون طبقة عليا تفصلها فوارق شاسعة عن أهل البلاد • ذلك أن الاغريق أحضروا معهم ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكانوا يعيشون عادة فى أوساط اغريقية ، ويعتزون أشد الاعتزاز بحضارتهم التى كان يساعد على تجديد روحها وفود أفواج من الاغريق باستمرار طوال القرن الثالث • وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يقبضون على أرفع المناصب ويستمتعون بخيرات مصر • فى حين أن المصريين كانوا يؤلفون الطبقة السفلى المكبلة بالتبعات والالتزامات فكان يحز فى نفوسهم ضياع استقلالهم وسلب كرامتهم وحرمانهم خيرات بلادهم • وفى كنف تلك الظروف حافظ الاغريق على ديانتهم وثقافتهم وحضارتهم ، وكان التزاوج بين المصريين والاغريق أمرا بعيد الاحتمال •

واذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل اشراك الاغريق فى حكم البلاد واستغلالها والسيطرة على المصريين ، فانه منذ عهد بطلميوس الرابع أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة

المصريين تنطوى على افساح المجـال لهم الى جانب الاغريق ، أملا فى كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمـة لم يذهبوا اطلاقا الى حد مساواة المصريين بالاغريق • وقد واكب هـذا التغير فى سياسـة البطالمـة تأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الاغريق وانقطـاع وفود الاغريق على مصر ، ونجم عن هـذه الظواهر حدوث شيء من التقارب بين العنصرين المصرى والاغريقى ، فنشأ عن ذلك حدوث تزاوج أغلب الظن انه كان بين المتأغرقين والمتمصرين ، ويستدل على هذه الظـاهرة انه يرد فى الوثائق ذكر كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية واغريقية • ولذلك لم يعد الاسم منذ القرن الثـانى قبل الميلاد دلالة على الجنسية • ومع أننا نرى أن الجمع بين الأسـماء المصرية والاغريقية لا يدل حتما فى كل حالة على التزاوج ، فقد يكون ذلك نتيجة التأغرق أو التأقلم ، لا نستبعد حدوث تزاوج بين المصريين والاغريق فى الشطر الثانى من عصر البطالمـة ، وان كنا نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التى يتوهمها البعض •

وقد كان من شأن انقطاع وفود أفواج جديدة من الاغريق منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد اضعاف الروح الاغريقية تدريجـا بين اغريق مدن مصر الاغريقية • ومع ذلك فان اغريق هـذه المدن بقوا اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين فى هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية فى متابعة نشاطها •

وقد كان لانقطاع وفود أفواج جديدة من الاغريق أثر أقوى خارج مدن مصر الاغريقية ولا سيما أنه واكب ذلك حدوث شيء من التقارب بين العنصرين المصرى والاغريقى وحدوث تزاوج بينهما ، غير أنه لمـا كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا

مهما كانت جنسيته ، فانه لا يستبعد أن غالبية الاغريق استمسكوا بحضارتهم الاغريقية • ويبدو أنه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كثيرا عن الاغريق القدماء ، فان أغلبهم بقوا اغريقـا خالصين ، وذلك بفضـل أثر المدن الاغريقية فى مصر وجماعاتهم القومية ، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التى كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضـل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة فى البلاد •

ويمكن تقسيم الاغريق المقيمين فى مصر ابان عصر البطالمـة أربع طبقات : طبقة الموظفين المدنيين والعسكريين وطبقة أرباب المهن الفنية ، وطبقة رجال الأعمال ، وطبقة أرباب الحرف اليدوية •

ثانيـا ـ المصـريون

ولم يكن الأجانب سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى ملايين المصريين • وقبل عصر البطالمـة كانت تأتى فى مقدمة المصريين الطبقة الارستقراطية بشقيهـا الدنيوى والدينى • ويبدو أن بطلميوس الأول سمح لبعض عناصر الارستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بممتلكاتها ومناصبها الادارية ، لكننـا لا نعود نسمع شيئا عن هذه الارستقراطية فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يوحى بأنه منذ أواخر عهـد بطلميوس الأول عمل البطالمـة على حرمـان هـذه الارستقراطية أملاكها ومناصبها الادارية • ولعله لم يبق من هذه الارستقراطية الا أفرادهـا الذين كانوا يتولون مناصب فى الفرق المصرية فى الجيش • ذلك أننا عندما نسمع عن هذه الارستقراطية ثانية فى الشـطر الثانى من عصر البطالمـة نراها ممثلة فى أشخاص لهم صفة حربية مثل ديونوسيوس بتوسرابيس الذى تولى زعامة

الثورة فى عهد بطلميوس السادس ، ومثل باوس الذى تولى اخضاع مناهضى بطلميوس الثانى فى منطقة طيبة •

وقد مر بنا أن الارستقراطية الدينية كانت تتمتع فى بداية عصر البطالمة بثروة عريضة ونفوذ كبير ، مما حدا بالبطالمة الى العمل على تقليم أظافرها • بيد أنه بعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية التى تزعمها الكهنة بوصفهم زعماء المصريين الروحيين اضطر البطالمة الى اتباع سياسة جديدة فى معاملة الكهنة حررتهم بالتدريج من القيود التى فرضها عليهم البطالمة الأوائل حتى ليبدو أنه لم يبق من تلك القيود الا خضوع كل معبد لمراقب ، واستيلاء الحكومة على دخل ضريبة الأبومويرا ، واحتفاظها بحق بيع المناصب الدينية المهمة للذين يتولونها • ومع ذلك فانه يبدو من تجديد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه أن الكهنة لم يفلحوا فى أن يستردوا فعلا جل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة • ذلك أنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الأداة الحكومية ، كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها ، ولذلك كثيرا ما أصبحت تلك القرارات قصاصات لا قيمة لها •

وقبل عصر البطالمة كانت تلى الارستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى طبقة المحاربين المصريين • وقد فقدت هذه الطبقة مكانتها الممتازة فى عهد البطالمة الأوائل بسبب اعتماد أولئك البطالمة على العناصر الأجنبية فى تكوين قواتهم المقاتلة ، وعدم استخدام المحاربين المصريين حتى موقعة رفح الا فى أعمال الجيش الثانوية ، ومنحهم اقطاعات ضئيلة بالنسبة الى اقطاعات الجنود الأجانب • فلا عجب اذن أن المحاربين المصريين ، شأنهم شأن غيرهم من سائر طبقات المصريين ، شعروا بذل الاحتلال الأجنبى ، فأسهموا فى

الثورات القومية حتى بعد ما منحوه من الامتيازات عقب موقعة رفح • ولاشك فى أن حال هذه الطبقة قد تحسنت فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، لكنه كان تحسنا نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه قبل ذلك ، اذ أن الجنود الأجانب كانوا لا يزالون يكونون الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، وكانوا لا يزالون يتمتعون بأكبر الاقطاعات وأخصبها •

وكانت طبقة الموظفين تلى هذه الطبقة ، وكانت تتألف من كتبة متفاوتى الدرجات • ويبدو أن فئاتهم العليا اختفت تدريجا ، ولم يبق فى خدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة وهم الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية ونظم العمل الجديدة • ولم تكن المناصب الحكومية التى يستطيع المصريون توليها فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد مثل مناصب عمد القرى وكتابها مصدر خير عميم ، فقد كانت مسئولياتها عادة أكثر من نفعها • وقد كان أشقى الموظفين المصريين عملا واكثرهم مسئولية ، أولئك التاعسون الذين كانوا يرغمون على القيام بمختلف أنواع الحراسة المتصلة بالشئون الاقتصادية ، فقد كان ذلك ينطوى على مسئوليات شخصية ومادية ، ولذلك فان الأهالى كانوا ينفرون من اداء هذه الأعمال ويحاولون جاهدين الفرار منها • بيد أن القرائن توحى بأن حال الموظفين المصريين بوجه عام كانت أفضل من حال غالبية مواطنيهم ولاسيما فى الشطر الثانى من عصر البطالمة عندما تدهورت مرافق البلاد الاقتصادية وضعفت السلطة المركزية وشاعت الرشوة فى الأداة الحكومية • وفى الشطر الثانى من عصر البطالمة سمح لمصريين بتولى مناصب رئيسية فى الادارة المحلية ، غير أن عددهم كان محدودا بالقياس الى الأجانب الذين كانوا يشغلون مثل هذه المناصب •

وكانت تأتى فى مؤخرة الطبقات الاجتماعية غالبية المصريين من زراع وصناع وتجار ، وكانوا عماد حياة البلاد الاقتصادية ،

ولذلك كانوا أكثر من غيرهم تأثروا بالنظام المالى الكريه الذى وضعه البطالمة للبلاد ، وكان يهدف أساسا الى جعل الملك غنيا • ذلك أنه كان يتعين على هذه الغالبية أن تخدم موارد الملك بطريقة أو أخرى ، زراعا فى أرض الملك ، أو عمالا فى مصانعه ، أو فى مصانع تعمل لحسابه أو تؤدى له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من نتاجها ، أو تجار تجزئة أو صيادين أو رعاة يدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم •

وهكذا نرى انه لم تنج من بطش البطالمة فئة واحدة من فئات المصريين • ومع ذلك فانهم استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، ريعبدون آلهتهم ، ويخضعون الى حد كبير لقوانينهم الفرعونية ، ويلتقون فى أندية جمعياتهم أو فى بيوت أعيانهم أو فى المعابد •

ويبدو أنه كان عند المصريين فى عصر البطالمة ثلاث مراحل تعليمية : أولية ووسطى وعالية ، وأن أهم مدارس المرحلتين الأولى والثانية كانت ملحقة بالمعابد ، وأن مدارس المرحلة العالية كانت وثيقة الاتصال بمعابد العواصم الكبرى • واذا كانت الأمية فاشية فى أزهى عصور الفراعنة ، فانه لا يمكن أن نتصور أن البطالمة عملوا على محو الأمية بين المصريين • واذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم فى أزهى عصور ملوكها الوطنيين ، عندما لم تكن مرهقة بمثل ما أرهقت به فى عصر البطالمة من التكاليف والالتزامات ، فان من المستبعد أنها وجهت أية عناية تذكر الى التعليم عندما كانت فريسة البؤس والفاقة فى عصر طغاتها الأجانب •

وقد عرفنا كيف ان البطالمة الأوائل عملوا على تضييق الخناق على رجال الدين المصريين لكسر شوكتهم • ولا شك فى أنه كانت لهذه الظروف آثار سيئة فى نفوس رجال الدين المصريين،

ومع ذلك فان من الاسراف فى الرأى أن نتصــور أنه ترتب على ذلك القضاء على دور المعابد فى مجال التعليم • ذلك أنه كانت هناك حاجة ملحة مستمرة الى عناصر جديدة من الكهنة ، ومن محررى العقود ، ومن محترفى الاشتغال برسـم أو بحفر المناظر والنقوش الدينية على جدران المعابد والمقابر والتوابيت والأنصاب ، ولا جدال فى أن مدارس المعابد فى مرحلتيها الأولى والوسطى كانت خير مكان لاعداد كل هؤلاء • ونكاد نجزم بأن مدارس المعابد فى مختلف مراحل التعليم أوصدت أبوابها دون لغة الاغريق وثقافتهم ، ذلك أن هذه المدارس كانت المعاقل الحصينة للثقافـة المصريـة ، واشـتهرت باستمساكها بتقاليدها على مر العصور • ومرد ذلك الى أن القائمين بالتدريس فيها كانوا رجال الدين وهم الذين كانوا أقطاب الثقافة المصرية ويعتبرون تراث المـاضى أمانة فى أعناقهم •

ويبدو أن معـاهد العلم المصرية العالية كانت أكبر ضحيـة للسياسة العامة التى اتبعها البطالمـة الأوائل ، ذلك أنه حين بطش أولئك الملوك بكافة الطبقات المصريـة عامة وبطبقة رجـال الدين المصريين خاصة ــ وهم الذين كان منهم العلماء البارزون ــ وقبض أولئك البطالمـة بيد من حديد على موارد البلاد جميعها ، وكانت من أهمها موارد المعابد المصرية ، لم يأل أولئك البطالمـة جهدا فى اجتذاب الاغريق الى مصر واشراكهم فى حكمها وفى التمتع بخيراتهـا ولا فى اظهـار اعتزازهم بالحضارة الاغريقية ، ولا فى رعاية هـذه الحضـارة باجزال العطـاء بسخاء للعلمـاء والأدباء والفلاسـفة والفنانين الاغريق الذين استقدموا الى الاسكندرية • حقا ان لدينا من الشواهد ما يدل على أن المعاهد المصرية العالية ظلت تمارس فى عصر البطالمـة نشاطا علميـا ، لكن جل هـذا النشاط ان لم يكن كله كان مقصورا على صيانة ترات المـاضى من طغيـان الثقافة الاغريقية عليه • ويبدو أن النتيجة المنطقية لانصراف العلماء المصريين

الى الحفاظ على تراث الماضى ، والمزج بين الدين والعلم ، كانت انحدار مستواهم ومستوى معاهدهم انحدارا شديدا مطردا ضاعت فى ركابه أهميــة هؤلاء وهؤلاء ، فى الوقت الذى اتسمت فيه جامعة الاسكندرية بقفزاتها الرائعة فى الدرس والبحث ونتائجها المثيرة فى مجالات الآداب والعلوم والطب والجراحة ٠

ولمـا كانت الأمية فاشـية بين المصريين ، وكانت المدارس المصرية قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الاغريقية ، فاننا نستطيع أن نوقن أن أغلب المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظـاهر الحضارة الاغريقية ٠ ومع ذلك لا شـك فى أن المصريين الذين شغلوا وظائف فى الحكومة قد اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ٠ ولعل الطبقة العليا من المصريين رأت فى تعلم الاغريقية والنهل من موارد الثقافة الجديدة استكمالا لمؤهلات أفرادها ولعل ذلك كان أيضـا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهـد البطالمـة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغـة اغريقية طمعـا فى الفوز بمركز يعـادل مركز الاغريق ٠ بيد أنه لمـا كانت الطبقة العليا وكذلك فئة الوصوليين قليلتى العدد ، وكان حظ أكثر موظفى الحكومة المصريين من الثقافة الاغريقيـة تافها ، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، فلابد اذن من ان تغلغل الثقافة الاغريقية بين المصريين كان محدودا ٠

وقد مر بنا أنه فى الشطر الثانى من عصر البطالمـة تمصر بعض الاغريق وتأغرق بعض المصريين ، وحدث تزاوج بين العنصرين وانتشرت الأسماء المختلطـة ٠ ولابد من أنه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثيابا اغريقية ٠ بيد أنه اذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئا من اللغـة الاغريقية وآدابها ، وأنهم لم يتزاوجوا مع الاغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الاغريق ، فلابد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسـماء

اغريقية ولا ثيابا اغريقيـــة ، ومن أنهم فى مجموعهم بقوا مصريين خالصين . ولعل أهم سبب لاحتفاظ المصريين بوجه عام بحضارتهم كان تمسكهم بديانتهم وهى التى كانت قوام حضارتهم وجوهرها .

وان من اليسير أن نتصور شقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالمـــة استقلالهم ، ووضعوا أيديهم على كل موارد البلاد وأثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة ، وبطشوا بمختلف طبقاتهم ، فى حين أنهم وفروا للاغريق أســباب الحياة التى كانوا يألفونها فى بلادهم ، ومنحوهم أرفع المناصـــب وأخصـــب الضـــياع وأوســع الاقطاعات . ولم يتحمل المصريون كل ما لقوه من عنف وعسف فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين الذين يعتنقون المعتقدات الدينية نفسها ويتكلمون اللغة نفسها ويحبون الحياة نفسها ، وانما فى ســبيل ملوك أجانب وجنس أجنبى بأسره اصطفاه أولئـك الملوك لمشاركتهم فى حكم البلاد وارغام أبنائها على بذل أقصى الجهد فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . فكان طبيعيا أن قلوب المصريين نبضت بكراهيـــة الأجانب ، وأن مرجل غضبهم انفجر فى وجـــه مغتصبى بلادهم ، فقد تضـــافرت فى اشعال لهيب الثورات القومية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل زمان ومكان ، وهى العامل الدينى والعامل القومى والعامل الاقتصادى .

وقد صبر المصريون على بلائهم كارهين الى أن تبين لهم من انتصارهم فى موقعة رفح أن تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وأنهم على الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعوهم بطشا واستغلالا . وتبعا لذلك فانه ما كاد الجيش يعود من رفح حتى هب المصريون ثائرين فى وجه البطالمـــة والاغريق . وقد تعددت هـــذه الثورات منذ عام ٢١٦ ق.م ، حتى اواخر عصر البطالمـــة فأضعفت قوتهم وشلت حركتهم فى الخارج وعجلت بالقضاء على دولتهم .

الفصـــل الثـــامن

الآداب والعـلوم والفنـون

أولا ــ الآداب

١ ــ دار العلم والمكتبة الكبرى :

ويرجح أن بطلميوس الأول هو الذى خطا الخطوة الأولى فى سبيل انشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة الكبرى ، حين أخـذ يدعو فحول شعراء الاغريق وأدباءهم وعلماءهم وفلاسفتهم وفنانيهم الى الاسكندرية حيث كان يستضيفهم على نفقته فضـلا عما كان يجريه عليهم من المرتبات ليتفرغوا للبحث والدرس • وكانت دار العلم جزءا من الحى الملكى وتتألف من متنزه وأروقـة ومبنى واحد أو مجموعة مبان تضم قاعات للبحوث العلميـة فضلا عن قاعة عامة للأكل ، ومن الجائز أيضا أماكن لاقامة العلماء أعضاء الدار • وقد كانت دار العلم أساسا معهدا للبحث العلمى وليست مركزا للتعليم ومع ذلك فان العلماء كانوا يلقون المحـاضرات العامة فى المدينة ، ويسمحون لعدد محدود من الطلاب بالتتلمذ عليهم • ويبدو فى الدور الذى قامت به الاسكندرية فى الحركة العلميـة أن كل فروع البحث العلمى كانت ممثلة فى جامعتها •

ولكي يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهمتهم أنشئت المكتبة الكبرى ، وهي التي تولى بطلميوس الثاني رعايتها حتى غدت أعظم دور الكتب في العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة التي كانت تكون جزءا من معبد السرابيوم .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات جليلة للأدب الاغريقي عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة ، وحققوا أصول كثير من المؤلفات القديمة .

٢ ـ الشعر :

ان كافة انواع الشعر الاغريقي ما عدا الكوميديا قد تأثرت في خلال العصر الهلينيسي بالشعر الاسكندري . وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب الاسكندريين الشعر القصصي والمراثي والشعر الغنائي والمقطوعات القصيرة . ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندري أنه كان :

١ ـ يخلو من العواطف السياسية المتأججة .

٢ ـ يفتقر الى المشاعر الدينية العميقة نحو الآلهة القديمة .

٣ ـ كان كلفا بمسايرة ركب التقدم العلمي الذي شهدته الاسكندرية من حيث الدراسة العميقة لأصول وجوانب الموضوعات التي يعالجها .

٤ ـ كان يتجنب الموضوعات الشائعة المبتذلة .

٥ ـ كان يميل ميلا شديدا الى البساطة الرشيقة في الأوزان

ويعتبر قاليماخوس أبرز شعراء الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ٠ وكان صاحب مدرسة القصائد القصيرة المصقولة ، فى حين أن منافسه أبولونيوس كان يفضل القصائد المطولة ، فاحتدم بينهما نزاع أدبى مشهور ٠ وكان من أشهر شعراء القرن الثالث تيوقريتوس السراقوسى الذى عاش فترة فى الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثانى ٠ واذا كان العصر الذهبى للشعر الاسكندرى لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالى عام ٩٠ ، حتى عام ٢٤٠ ق٠م ٠ فان الشعر الذى يصور حياة الريف بقى منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد ٠

٣ ـ النثر :

ولم يكن للاسكندرية فى النثر الهلينيسى من الأثر ما كان لها فى الشعر ٠ وقد تأثر النثر فى هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه ٠ العامل الأول هو أثر المشائين ، وكانوا مغرمين بجمع المعلومات كما هى مما أفضى الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أى تمييز بينها ٠ وكان العامل الثانى هو أثر أيسقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع ليكون أثرها فى النفس عميقا ، أو يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر ٠ ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخى الاسكندرية الذين تأثروا بالمشائين ، وقلايتارخوس أبرز مثل لمؤرخى الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة أيسقراط ٠

بيد أنه من ناحية أخرى وجد أشخاص يميلون الى الحقيقة وشاركوا فعلا فى الأحداث التى كتبوا عنها مثل بطلميوس الأول الذى استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان كتابه فريدا فى بابه يومئذ ، لكن لم يصلنا الا بعضه عن طريق أريانوس ٠ فى عهد بطلميوس

الأول كتب هقاتايوس من ابديرا عن تاريخ مصر من وجهـــة نظر الاغريق ، وفى عهد بطلميوس الثانى اعتمــد مانثون كبير كهنــة هليوبوليس على المصادر الهيروغليفية فى كتابة تاريخ مصر ٠

واذا كان التــاريخ يحتــل مكان الصـــــدارة فى نثر العصر الهلينيسى ، فقد كان للجغرافيا مكان مهم فيه الى حد أن ما كتبه العالم الجغرافى اراتوستنيس يعتبر أعظم مثل للنثر الاسكندرى ٠

ثانيــا ــ العـــلوم

١ ــ الطب والجراحة :

بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا فى العصر الهلينيسى ٠ وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا ٠ وكان أبرز علماء الطب فى الاسكندرية هيروفيلوس العالم فى التشريح واراسيستراتوس العالم فى وظــائف الأعضــاء ٠ وكان طبيعيا أن يؤدى تقدم التشريح الى تقدم الجراحة ٠ وحوالى عام ٢٨٠ ق٠م أسس فيلينوس مدرســة طب جديدة فى الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية ٠

٢ ــ علماء الحيوان والنبات :

وكان على رأس المشتغلين بدراسة علمى الحيوان والنبات فى العصر الهلينيسى عالمــان بارزان كان أحدهما يدعى تيوفراسطوس الذى فشل بطلميوس الأول فى اجتذابه الى الاسكندرية ، وكان الآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثانى٠

٣ ــ العلوم الرياضية :

وتحتل الهندسة مكانة مرموقة بين رياضيات العصر الهلينيسى، فقد فاقت فى تقدمها سائر فروع العلم الأخرى ٠ ولا يمكن المبالغة

فى تقدير الخدمات التى أسداها اقليديس الى الرياضيات • فقد أسس فى الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثيرون من الرياضيين البارزين ويقرن اسمه بأشهر مؤلفاته وهو كتاب الهندسة المعروف باسم « العناصر » •

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا • وقد كان اعظم علماء الفلك فى الاسكندرية وفى العالم القديم قاطبة يعيش فى القرن الثانى قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس • وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعى والخريفى وتقدير متوسط طول الشهر القمرى تقديرا يبعث على الدهشة لأنه لا يقل الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم • وكان أوخميديس السراقوسى أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق •

ثالثا ـ الفنون

سنقصر الكلام هنا عن فنى المعمار والنحت لأن معلوماتنا محدودة جدا عن فنى الموسيقى والتصوير فى عصر البطالمة •

١ ـ فن المعمار :

أقسام هذا الفن هى المقابر والمنازل والمعابد عند كل من الاغريق والمصريين •

(أ) المقابر :

استخدم اغريق مصر مقابر من ثلاثة أنواع ، كان أحدها عبارة عن حفر تنحت فى الصخر أو تحفر فى الأرض • وأهم مظاهر النوع الثانى الدفن فى فجوات مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت فى جوانب

دهليز أو غرفة · والنوع الثالث يسمى مقابر الأرائك لأن الدفن كان يتم فى تابوت على شكل الأريكة ويوضع فى غرفة الدفن · وقد تطورت هذه المقابر من مقبرة ذات أريكة ، الى مقبرة ذات أريكة وفجوات حيث استخدمت الأريكة والفجوات فى الدفن ، الى مقبرة فجوات وأريكة حيث استخدمت الفجوات فقط فى الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأخيرا الى مقبرة ذات فجوات ومحاريب حيث اختفت الأريكة تماما ، وكان الموتى يدفنون فى الفجوات وفى توابيت كانت توضع فى المحاريب ، واذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك أيضا كانت حال النصب الجنائزية ·

اما المصريون ، فانهم سواء أكانوا يعيشون فى الاسكندرية أم فى المدن والقرى المصرية قد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية ، فكانوا يدفنون موتاهم اما فى مقابر قديمة أعادوا استخدامها ، واما فى مقابر جديدة يمكن تقسيمها قسمين ، كان القسم الأول يتألف من نوعين : كان أحدهما شائعا جدا وبسيطا يتألف من بئر أنشئت فى قاعها فجوة للدفن · وكان مقابر النوع الثانى تتألف من هيكل جنائزى صغير حفرت فى أرضيته بئر كان الميت يدفن فى قاعها · وكان القسم الثانى أيضا من نوعين : كانت مقابر أحدهما تنحت فى الصخر وتتكون عادة من عدد من الدرج أو ممر منحدر يؤدى الى غرفة واحدة أو غرفتين · وكان النوع الآخر مبنيا من اللبن ويتألف من بئر عند قاعها باب يؤدى الى دهليز وغرفتين صغيرتين على محور واحد ·

وباستثناء مقبرة بنوسيريس التى اختلط فى زخرفة أجزائها الطراز المصرى والطراز الاغريقى ، كانت المقابر البطلمية المصرية مصرية خاصة فى عمارتها وزخرفتها ونصبها الجنازية ·

(ب) المنـــازل :

ومع أنه لم يعثر الا فى الفيوم على عدد من بقايا المنازل الاغريقية والمصرية التى ترجع الى عصر البطالمـة ، فانه بفضـل معلوماتنـا عن المنـازل الاغريقيـة فى بلاد أخرى ، وبفضـل المعلومـات التى نستمدها من سرادق بطلميوس الثانى ، ومن القصر العـائم الذى شيده بطلميوس الرابع ، ومن مقابر الاسكندرية بوجه خاص ، ومن بقايا المنازل القليلة التى وجدت فى الفيوم ومن الاشارات العابرة فى الوثائق البردية ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية استخدموا نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذى كان شائعـا فى براينى بالأناضول فى القرن الثالث قبل الميلاد • أما النوع الثانى فيشبه ذلك النوع من المنازل الذى اشتهرت به جزيرة ديلوس فى القرن الثانى قبل الميلاد • وتشير القرائن الى أنه كانت توجد منازل اغريقية فى بطوليميس وبعض مدن الفيوم ومن المحتمل أيضـا فى نقراطيس • أما فيما عدا ذلك فيتبين أن الاغريق وكذلك المصريين كانوا ينزلون فى منازل مصرية لم تكن الا استمرارا لأنواع المنازل التى كشفت عنها الحفـائر فى تل العمارنة • وتوحى القرائن بأن طابع عمارة المنازل وزخرفتها كان بوجه عام مصريا خالصا أو اغريقيا خالصـا •

(ج) المعـــابد :

لم تكشف الحفائر حتى الآن عن معبد اغريقى كبير ، وان كانت قد كشـفت عن بقايا معبد دورى صغـير يبين أن طرازه الاغريقى لا تشوبه أية تأثيرات مصرية ، كما كشفت عن كل بقايا طرز العمارة الاغريقية • واذا كانت هـذه البقايا تمتاز بطابعها الاسكندرى ، فان أغلبها اغريقى بحت • ومع ذلك فقد عثر على تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، الا أنه يستبعد أنها كانت

مستخدمة فى معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه العمائر الدينية تتصف دائما بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد ٠

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التى أقيمت فى هذا العصر للآلهة المصرية ، وهى مصرية صميمة فى تخطيطها وعمارتها وزخرفتها، بدليل أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخا صحيحا قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة ، وتمتاز هذه المعابد بظاهرتين ، هما :

أولا ــ كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التى تدعى رؤوسها الرؤوس المركبة ، ونعتقد أن المصريين ابتكروها فى أثناء نهضة العصر الصاوى ٠

ثانيا ــ كثرة ما استخدم فى صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة نجد أمثلة لها فى معابد الدولة الحديثة ٠

٢ ــ فن النحت :

وتشير الدلائل الى أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الاغريقى ذات مميزات خاصة انفردت بها دون سائر مدارس النحت الهلينيسية ، وأخص هذه المميزات عدم ابراز عظام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلا شديدا ٠ وعندما ابتكرت الاسكندرية فرعا جديدا من فن النحت هو دراسة الأجناس وطباع الناس وحرفهم وخصائصهم الشخصية ، ابتكرت طرازا واقعيا يلائم هذا النوع من الفن ٠

وتدل المخلفات الأثرية على أن الفنان الاغريقى لم يحتكر فن النحت فى مصر فى عصر البطالمة ، فقد استمر الفنان المصرى يزاول

نشاطه على جدران المعابد وأنصبة الموتى وفى شتى المجـالات التى كان يألفها أسلافه ووفقا للطراز الذى استقى منذ غابر الزمن وأصبح علما على الفن المصرى ٠

وتتكشف دراسة فن النحت فى عصر البطالمـة عن :

أولا ـ أن أكثر النقود التى سكها البطالمـة وأغلب قطع النحت التى ابتكرتها مدرسـة الاسكندرية اغريقية فى طرازها وعناصرهـا وصنعتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحت فى طرازهـا وصنعتها ومظهرها وجوهرها ٠

ثانيـا ـ أن الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيهـا العناصر دون الطرز مثل تصـوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالمـة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فان طراز تلك النقود اغريقى ٠ ومثل تمثال يصـور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمـة بطراز مصرى ٠ ولمـا كان المقيـاس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز لأنه أبرز صـورة لأفكار الفنان وطابع حضارته ، فان اختلاط العناصر لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصرى والاغريقى وتبعـا لذلك على امتزاج هاتين الحضارتين وتفاعلهما ٠

ثالثـا ـ أن فى عدد قليل من قطع النحت محاولات ظاهرة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى ، لكن قلة عدد هذه القطع وتواضـع قيمتها الفنية يدلان على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفنى الرفيع عبث مثل هذه المحاولات لبعد الشقة بين الطرازين ٠

المراجـــع

ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمـة ، ٤ أجزاء ، الطبعة الخامسة ١٩٨١/٨٠ ، القاهرة ٠

Bevan, E., History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927.

Jouguet, P., L'imperialisme macédonien et l'hellenisation de l'Orient, Paris, 1926, Eng. Translation by Ogden, London 1928.

Tarn A., Hellenistie. Civilisation, 3rd, 1952.

Skeat, The Reigns of the Ptolemies, Muench. Beitr. Z. Papypusforschung, 39, 1954, Muenchen.

Fraser, Ptolemaic Alexandria, 3 Vols., 1972.

البـــاب الســـادس

العصـــر الرومـــانى

أ. د. فاروق القــاضى

١ ـ معالم التاريخ السياسى .

٢ ـ النظم الاداريــة .

٣ ـ الحيــاة الاجتماعية .

٤ ـ السياســة الاقتصــادية .

٥ ـ الديانــات والعقــائد .

٦ ـ الحياة العلمية والثقافية فى مدينة الاسكندرية .

— ١ —

معـالم التـاريخ السـياسى

نهاية مملكة البطالمـة ودخول مصر فى حوزة الرومان :

فى صيف عام ٣٠ قبل الميلاد ، سقطت مدينة الاسكندرية فى يد القائد الرومانى الظـافر أوكتـافيوس • وبعد عدة أيـام من سقوطها ، قضت ملكة مصر البطلمية كليوباترة السابقة نحبها مؤثرة أن تنهى حياتها بيدها بلدغة من أفعى الكوبرا المقدسة • وكانت الملكة قد استيأست من جدوى مفاوضاتها مع أوكتافيوس ، وفطنت آخر الأمر الى بعض نواياه فى أن يظفر بها على قيد الحياة ليحملها معه الى روما أسيرة ويعرضها مع السبى فى موكب نصره • وبوفاة كليوباترة فى العاشر من أغسطس من العام المذكور انتهى حـكم البطالمـة الذى دام فى مصر نحوا من ثلاثة قرون ، ودخلت مصر فى حوزة الرومان بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمان قبل سقوطها محل اهتمام سياستهم ثم محط أطماع ساستهم • وكان مقدرا لهذه البلاد ذات التاريخ العتيق والحضـارة العريقة والموارد الفنية أن ترزح تحت حكمهم قرابة سبعة قرون •

والواقع أن فترة القرن الأخير من حكم البطالمـة فى مصر (وهو ما يوافق زمنيا فترة القرن الأخير أيضـا من عصر الجمهورية فى

روما) قد شهدت تصاعدا مطردا لأطماع الرومان فى مصر • ولاشك أن تغلغل نفوذ روما واستمرار تدخل ساستها السافر المتعمد فى شئون البطالمة الداخلية قد أدى الى وصول سلطة الملك البطلمى الى الحضيض ، وبات قدر مصر بوصفها مملكة مستقلة معلقا بمجريات أحداث الصراع الحزبى الذى احتدم فى روما بين الحزب الأرستقراطى والحزب الشعبى ، وأصبح رضاء من يملك زمام السلطة فى روما متطلبا أساسيا لبقاء الملك الحاكم فى الاسكندرية على عرشه • بل جاء وقت عاد فيه ملك بطلمى الى هذا العرش فى ظل الحراب الرومانية بعد أن اضطره رعاياه الثائرون عليه الى الفرار من عاصمته فلاذ بحماية الرومان أو تمسح بأعتابهم • وكان هذا الملك نفسه هو والد كليوباترة السابقة التى مارست لعبة السياسة بذكاء وبراعة واقتدار مع الساسة الرومان ، والتى يمثل عهدها انتفاضة قوية ضد سيطرة السياسة الرومانية على مقدرات مملكتها فى مصر ، فجاء هذا العهد أشبه بلمعة شهاب خاطفة وسط الظلام قبل أن يؤول ملكها وملك آبائها الى زوال •

ومن المؤكد أن نشاط كليوباترة وخططها وطموحاتها قد أثارت كثيرا من مشاعر الخوف والجزع فى نفس الرومان الذين ظلوا يرقبون بقلوب واجفة ذلك الصراع المرير الذى دار بين أوكتافيوس وأنطونيوس الذى ملكت عليه كليوباترة كل أمره فأسلم لها قياده حبا مما عرض روما لمخاطر جسيمة • كذلك فان مصر بوصفها أحد مصادر القمح الرئيسية فى العالم القديم كانت فى حد ذاتها ذات أهمية بالغة من الناحية الاقتصادية • ومن أجل هذا كله جاء سقوط مملكة البطالمة فى أيدى الرومان حدثا بالغ الأهمية اقترن فيه شعور الارتياح لزوال خطر داهم بشعور الفرح لاستحواذهم على تلك الغنيمة الكبرى التى طال اشتهاؤهم اياها • وقد تجلى ذلك فى عدة أمور منها القرار الذى أصدره مجلس

الشيوخ (السناتو) الرومانى باعتبار يوم سقوط الاسكندرية عيدا وطنيا فى روما وبداية التقويم المحلى فى مصر ، وصدور تلك العملة التذكارية التى حملت صورة التمساح أحد المعبودات المصرية الشهيرة الرامزة الى نيل مصر وتحتها عبارة لاتينية معناها « فتح مصر » ، ومنها ما أثبته أوكتافيوس (أوغسطس) فيما بعد فى بعض وثائقه من أنه يوم دخل الاسكندرية خلص الدولة (الرومانية) من خطر جسيم ، وما أورده فى سجل أعماله الذى تضمنته تلك الوثيقة المشهورة المعروفة « بنصب أنقرة » من قول يحمل فى السياق العام من النص معنى الزهو والمباهاة بتحقيق انجاز كبير بضم مصر « الى سلطان الشعب الرومانى » ، وأخيرا فهناك ما تعكسه شواهد الشعر اللاتينى المعاصر لتلك الأحداث ، ونعنى قصائد فرجيليوس وهوراتيوس وبروبرتيوس وأوفيدوس الذين تولوا الدعاية السياسية لأوغسطس العاهل الرومانى المنتصر فأشبعوه مدحا وتمجيدا وأوسعوا ملكة مصر فى الوقت نفسه مقتا وهجاء وصل بعضه الى درجة من الفحش واسفاف القول ، لكن هذا الهجاء المقذع يفضح ما انتاب الرومان المعاصرين من جانب كليوباترة من ذعر ·

غير أنه بالرغم من مشاعر الحقد على كليوباترة والغضب على شعب الاسكندرية ، فان أوكتافيوس لم يبح المدينة المقهورة لجنوده ليعبثوا فيها نهبا وتخريبا ، وانما عفا عنها وعن مواطنيها عفوا مشوبا بالازدراء وتعمد الاهانة · ولعل عفوه هذا كان صادرا عن احترام لمؤسسها الاسكندر الأكبر الذى كان أوكتافيوس يجل ذكراه، والذى تحدثنا المصادر أنه وضع على جثمانه بالاسكندرية تاجا من الذهب ونثر عليه الزهور ، وقد يكون فى العفو رعاية لأحد معلميه وهو صديقه الفيلسوف اليونانى الاسكندرى أريوس الذى كان فى معيته عند دخوله الاسكندرية · وأخيرا فلعل القائد الرومانى قد

رضى نفسا بعد أن تأكد من الحصــول على كنوز البطالمــة الذائعة الصيت التى كان يعلق عليها الكثير من الآمال ، وكان يخشى أن تعمد كليوباترة فى محنتها الأخيرة الى تدميرها • وقد ألقى أوكتافيوس على الاسكندريين خطابا قصــيرا باللغة اليونانية أعلن فيه ذلك العفو ، لكنــه لم يخف شعوره بالاحتقــار ، بل تعمد أن يجرح كبرياءهم ليكسر شوكتهم ويجعلهم يدركون منذ البداية أنه لم يعد لمدينتهم ذلك الوضــع المتميز بوصفها عاصمة لمملكة مستقلة كانت لها أيام وأمجــاد ، وانما صارت مجرد مركز للحكم تدار منه ولاية مصر الخاضعة لسلطان روما •

وثمة أمر أثار حنق الاســـكندريين على أوكتافيوس ، وهو رفضه الاستجابة لمطلب عزيز لديهم هو اعــادة مجلس الشـــورى Boule الذى تشــير الدلائــل الى أنه كان موجودا فى دســـتور مدينتهم على عهد البطالمــة الأوائــل ثم ألغى فى عهــد أحد ملوكهم المتأخرين • حقا ان هذا المجلس لم يكن له فى دساتير المدن الاغريقية فى مصر البطلمية الأهميــة ذاتها التى كانت له فى المدن الاغريقيــة قبل العصر الهلنستى ، وعلى أساس أن البطالمــة ــ وسائر ملوك ذلك العصر ــ ألقوا بظل سلطتهم المطلقة على المؤسسات السياسية لهذه المدن فى ممالكهم ، حتى أصبحت مجــالس الشورى فى تلك المدن أشبه بالمجالس المحلية التى فقدت كل مضمون استقلال المدينة ، غير أن الغاء المجلس آنذاك كان لطمة أصابت كبرياء الاسكندريين السياسى ، ولقد خامر أفكارهم أمل فى أن يعيد اليهم أوكتــافيوس مجلسهم المعطل خاصــة أنهم رأوه يبقى لليهود المقيمين فى المدينــة على كل امتيازاتهم التى تمتعوا بها فى ظل الحكم البطلمى ، ومنها تعيين زعيم طائفتهم القومى Ethnarchos ومجلس شيوخهم Gerousia ، لــكن أوكتــافيوس وعــد بالنظــر فى الأمــر فى المستقبل ، وفهم الاسكندريون أنه يرفض طلبهم رفضا رقيقا ،

فاضمروا للحكم الرومانى منذ البداية مشاعر العداوة والبغضاء ، كما امتلأت نفوسهم احتقارا لصنائع هذا الحكم من اليهود .

ويبدو رفض أوكتافيوس اعادة مجلس الشورى الى الاسكندرية امرا منطقيا من وجهة نظره السياسية ، فقد كان يدرك من غير شك طبيعة مواطنى الاسكندرية الذين كانوا يعتدون بمدينتهم الشامخة ويميلون الى اثارة المتاعب فى وجوه الحكام . وكم عانى البطالمة منهم وكم لقوا من ضروب السخرية والهوان ، فكيف يكون حال أولئك الاسكندريين مع الحكم الرومانى الجديد الذى اعتبروه مغتصبا لحريتهم السياسية اذا ما عاد الى مدينتهم مجلس الشورى ؟ ألا يكون ذلك مدعاة لاثارة النزعة الاستقلالية بل النعرة الاستعلائية فى وقت كان يسعى أوكتافيوس فيه بكل السبل لكبح جماح الاسكندريين تحقيقا للهدوء فى الولاية الغنية العزيزة ؟ أما ابقاء الامتيازات لليهود فكان فى وجه من وجوهه مكافأة لهم على اظهار مشاعر الولاء للرومان منذ أمد طويل ، ولم يكن ثمة ما يخشى من منحهم الحق فى مجلس الشيوخ والزعيم القومى خاصة انهم يعيشون حياة طيبة متميزة فى مدينة يعلمون أنها ليست مدينتهم ، وهذا أدعى الى أن يستمروا فى أداء دورهم المرسوم عملاء للرومان .

تنظيمات أوكتافيوس فى مصر :

لم يكن أكتافيوس يستطيع أن يمكث فى الاسكندرية وقتا طويلا لينظم كافة شئون ولاية مصر . كان عليه أن يسارع بالعودة الى روما ليتصدى لمشكلات عديدة تراكمت عبر سنوات طويلة من الحروب الأهلية ، وأولها مشكلة اعادة بناء الدولة فى ظل نظام سياسى وادارى جديد ، اذ أن النظام الجمهورى القديم كان قد

تفسخ بعد أن انهار الدستور تحت وطـأة سلسلة مستمرة من الانتهاكات التى تعرض لها فى غضون تلك الحروب • كذلك كانت هناك مشكلة تنظيم الولايات التى كانت أكثر حكوماتها قد فسدت، هذا فضـلا عن مشكلة الانهيار الخلقي والاجتماعى العـام فى روما • غير أنه كان على أوكتافيوس فى خلال الوقت الذى كان متاحا له للبقاء فى مصر أن يتخذ اجراءات تنظيمية محددة لمواجهة الاحتياجات العاجلة للولاية ، وبالرغم من افتقارنا الى المعلومات الكافيـة عن تلك الاجراءات العاجلة ، فلسنا نشك فى أنها صـدرت عن سياسة محددة الأهداف فى احكام الدفاع عن مصر واقرار الأمن فيهـا على نحو يضمن بقاءها فى حوزة الرومان ، واقامة حكومة قوية قـادرة على نشر الأمن وانعاش الموارد الاقتصادية تحقيقا لأكبر عائد يمكن أن تجود به هـذه الموارد على روما • وقد اكتملت صـورة هذه السياسة فى السنوات التالية من حكم أوكتافيوس (الذى حمل بعد سنوات قليلة من عودته الى روما لقب أوغسطس) بحيث أصبحت سياسـة ثابتة نحو مصر سار عليها طوال سنى حكمه الطويل ، كما أنها أرست قواعد السياسة التى اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الرومان ازاء ولاية مصر ردحا طويلا من الزمان • بل ان هؤلاء اتبعوا سـنة أوغسطس فى تدبير بالغ الخصوصية بالنسبة لسياسته فى مصر ، وهى القاعدة التى تقرر بمقتضاها الا يزور مصر أحد من رجـال السناتو أو رجل من طبقة الفرسان « ذائع الصيت » ذو نصاب مالى يصـل الى نصاب طبقـة السـناتو الا باذن خـاص من الامبراطور •

ولعل هـذه القاعدة تكفى لبيان مدى تأثير عقدة الخـوف من ضياع ولاية مصر على أوغسطس ، وهو ما حمله على اتخاذ طائفـة من الاجراءات والتدابير الاستثنائية الأخرى فى مجال الدفاع وتنظيم أداة الحكم بحيث تبدو لنا هذه الولاية ذات طابع فريد حقا بين

ولايات الامبراطورية • وقد أثارت هــذه التدابير الاستثنائية جدلا دام وقتا طويلا حول ما اذا كان أوغسطس قد اعتبر مصر ولايــة امبراطورية كسائر الولايات التى تقرر منذ تسوية عام ٢٧ ق٠م • بينه وبين السناتو أن تكون تابعة له مباشرة ، أم أنه اعتبر مصر ملكا خاصا له • وليس ثمة ما يدعو الى الخوض هنا فى تلك القضية الخلافية التى نرى أن القائلين فيها بأن أوغسطس كان مالكا لمصر بالغوا فى تفسير تلك التدابير الصارمة التى اتخذها للحفاظ على ولاية غنية بالغة الأهمية ، وأسرفوا فى تأويل السياق العام لبعض النصوص ومنها ذلك النقش المشهور الذى سبقت الاشــارة اليه وهو «نصب أنقرة» ، وأن صفوة القول فى المسألة هى أن مصر كانت ولاية امبراطورية عادية يتولى الامبراطور ادارتها لصــالح الشعب الرومانى ويذهب دخلها الوفير الى الخزانة العامة فى روما ، لكنها اتخذت وضعا فريدا فى نظمها بفضل ما كان يعلق عليها من أهميــة •

وليس من شك فى أن مشكلة الدفــاع عن مصر واقرار الأمن الداخلى فيها هى أولى المشــكلات التى كان على أوكتافيوس أن يتدبرها قبل مغادرة مصر • ويبدو البعد الأول لهذه المشــكلة فيما ذكره المؤرخ الرومانى تاكيتوس من أن مصر بلد يسهل الدفاع عنه بالنسبة الى من يسيطر عليه من الداخل ، اذ كان يكفى احكام الدفاع عن النقطتين الرئيسيتين برا وبحرا وهما بلوزيون (الفرما) فى الشرق ، وفاروس (الاســكندرية) فى الغــرب ، ولم يكن من الميسور أن تصل القوات الرومانية الى مصر عن طريق البحر الا من ميناء الاسكندرية ، كما أن اقتحام هذه القوات ســواء من الصحراء الشرقية أو الصحراء الغربية كان ينطوى على مخــاطر كثيرة • وفى الوقت نفسه كان أمن مصر الداخلى يشغل تفكير أوغسطس ، فسكان الاسكندرية كانوا يؤلفون خليطا غير متجــانس ويميلون الى

اثارة الاضطرابات أمام الحكام ، وهم عندئذ أحرى بأن يكونوا أكثر عنفا مع الحاكم الرومانى الجديد الذى انتقص كثيرا من استقلال مدينتهم بل أذل كبرياءهم وحابى اليهود على حسابهم . وبعض أقاليم مصر كانت تشجر بينها منازعات ترددت أصداؤها فى بعض المصادر القديمة فكان لابد لها من ادارة أمن حازمة . وأخيرا وليس آخرا كان هناك اقليم طيبة معقل الثورات القومية ضد الحكم البطلمى والذى كاد أن ينفصل عن سلطة البطالمة المركزية حتى لقد اضطروا فى أواخر عهودهم الى أن يعينوا لحكمه موظفا له اختصاص عسكرى وصلاحيات واسعة جعلته أشبه بنائب الملك ونعنى به الابستراتيجوس Epistrategos . وكان من الطبيعى أن يهتم أوغسطس بأمر هذا الاقليم ، لأن أمنه كان فى الواقع تأمينا لحدود مصر الجنوبية التى كانت فى الوقت نفسه حدود الامبراطورية الرومانية الجنوبية .

وضمانا لاحكام الدفاع عن مصر ترك أوغسطس فيها حامية كبيرة نسبيا ، لعلها كانت أكبر كثيرا مما تتطلبه احتياجات هذا الدفاع . فقد ذكر استرابون أن أوغسطس ترك فى مصر ثلاث فرق Legiones وتسع كتائب مساعدة Cohortes وثلاث وحدات من الفرسان . ويعنى هذا أن جيش الاحتلال كان يربو على اثنين وعشرين ألفا ، أو فى تقرير آخر على أساس الحد الأدنى للكتيبة الرومانية ، كان هذا الجيش يزيد على ثمانية عشر ألفا . كذلك حدد استربون أكثر النقاط التى تمركزت فيها الفرق والكتائب . فقد رابطت احدى الفرق الثلاث فى شرقى مدينة الاسكندرية عند تلك الضاحية التى أمر أوكتافيوس بانشائها تخليدا لذكرى انتصاره على أنطونيوس وكليوباترة وأطلق عليها اسم « مدينة النصر » Nicopolis (وموضعها الآن قرب معسكر مصطفى كامل برمل الاسكندرية) ، وعززت هذه الفرقة بثلاث من

الكتائب المساعدة • ورابطت فرقة ثانية فى منطقة طيبة تعززها أيضا ثلاث كتائب وضعت عند سيينى Syene (أسوان) • أما الفرقة الثالثة فيبين أنها وضعت عند بابليون) قصر الشمع بمصر القديمة (أى فى مكان غير بعيد من منف عاصمة الفراعنة العريقة وذات الموقع الممتاز عند رأس مثلث الدلتا حيث تسيطر على طريق المواصلات بينها وبين مصر العليا • أما الكتائب المساعدة الثلاث الباقية ووحدات الفرسان فقد رابطت فى أماكن لا يصعب علينا تحديدها اذ أن المفهوم أنها مواضع دفاعية متميزة بالنسبة الى مصر الوسطى والحدود الشرقية على ساحل البحر الأحمر والطرق التى تصل الوادى به •

وفيما يخص تنظيم أداة الحكم ، اتجه أوكتافيوس الى التشدد فى المركزية لايجاد جهاز حكم قوى يضمن احكام السيطرة على مصر بهدف التحكم فى كل موارد الانتاج • وقد وجد أوكتافيوس بين يديه نظم البطالمة الادارية التى كانت كفيلة بأن تحقق له أهدافه تلك ، فلم تكن ثمة حاجة الى ادخال نظام ادارى جديد • وسنرى فى موضع تال الى أى حد تأثرت نظمه الادارية بنظم البطالمة • لكن الأمر الذى كان يحتاج منه الى تدبير هو تحديد هوية من يرأس السلطة المركزية فى مصر نائبا عنه ، وتعيين حدود سلطاته واختصاصاته فى ولاية ذات وضع مهم بل حساس •

وقد اختار أوكتافيوس لادارة هذه الولاية وتولى السلطة العليا فيها موظفا من طبقة الفرسان وليس من طبقة السناتو تمشيا مع سياسته العامة التى توخت ابعاد السناتو كلية عن شئون مصر • ولم يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام الولايات الرومانية لقب نائب الامبراطور Legatus Augusti ، أو لقب قائم مقام القنصل Proconsul أو قائم مقام البريطور Proporaetor ولكنه

حمل لقبا من ألقاب طبقة الفرسان وهو بريفكتوس Praehectus أى الحاكم العام أو الوالى . وكان لقبه الرسمى الكامل يرد فى الوثائق على أنه « والى الاسكندرية ومصر » Praefectus Alexandriae et Aegypti ، لأن الرومان — كأسلافهم البطالمة — لم يعتبروا الاسكندرية جزءا من مصر بل « متاخمة لها » Alexandria ad Aegyptum . وقد منح هذا الوالى سلطة الامبريوم Imperium التى تخول حق ممارسة كل السلطات فى مصر بما فيها حق قيادة الفرق الرومانية الأساسية Legiones التى سلف القول بأن الحامية الرومانية فى مصر كانت تضم ثلاثا منها . وقد تركزت فى يد الوالى كل السلطات ، فكان هو الرئيس الأعلى للادارة والقاضى الأعلى فى كافة القضايا وقائد الحامية ، بما جعله يحتل من الناحية الفعلية مركز الملك البطلمى ، ويبدو ذلك مصداقا لتلك العبارات التى ترددت عند استرابون وتاكيتوس واميانوس ماركلينوس من أن ولاة مصر كان لهم مقام الملوك ومنزلتهم .

غير أن سلطان الوالى المطلق فى مصر كان فى اطار تبعيته ومسئوليته المباشرة أمام أوغسطس تحده ارادة الامبراطور الذى يعينه ويعزله كما يشاء ، والذى يحدد للولاية كافة نظمها من خلال قرارات أو فتاوى أو رسائل . وعلى سبيل المثال كان من سلطة الوالى أن يحرر العبيد ، لكن لم يكن من سلطته أن يمنح أحدا حق المواطنة فى مدينةالاسكندرية اذ كان ذلك من سلطة الامبراطور نفسه . كذلك كان لابد للوالى من الرجوع الى الامبراطور اذا ما لزمه اتخاذ قرار فى أمر عارض يجاوز حدود سلطته . ولم يكن أوغسطس ليسمح لوالى مصر أن يجاوز تلك الحدود بما يستثير الطموح الشخصى لديه ، وذلك من منطلق خوفه على مصر من أن يخرج بها خارج عن طاعته . وقد لقن ولاة مصر درسا فوريا من مصير

أوليم كورنيليوس جالوس صديق أوكتافيوس وساعده الأيمن فى فتح مصر وسفيره لمراوغة كليوباترة حتى النهاية • فقد عينه أول وال على الاسكندرية ومصر مكافأة على كل الخدمات التى أسداها له • لكنه عندما لاح من واليه بوادر الاحساس بالمجد الشخصى بعد نجاحه فى بعض الأعمال العسكرية فى جنوب مصر ، ورأى فى ذلك تجاوزا للحدود ينذر بالخطر ، لم يتوان عن عزل الرجل وتدمير مستقبله السياسى كله ، مما دفع به الى أن ينهى حياته بيده •

وثمة مشكلة ثالثة كان لابد أن يسارع أوكتافيوس بعلاجها وهى تدهور أداة الانتاج الأساسية فى مصر وهى الزراعة التى كان قد لحقها فى عهود البطالمة الأواخر تدهور كبير تجلى فى تحول جزء كبير من الأراضى الزراعية الى أراض بور من جراء اهمال الحكومة فى أوقات الاضطرابات السياسية لنظام الرى الذى تقوم على أساسه الزراعة المصرية • ولما كان عائد الانتاج المصرى هو بيت القصيد من كل التنظيمات الرومانية ، فان اصلاح نظام الرى بتطهير القنوات واصلاح الجسور والسدود كان متطلبا عاجلا أساسيا • كذلك كان لابد من انتهاج سياسة جديدة ازاء نظام الملكية الزراعية يجتذب الأفراد القادرين الى استصلاح الأراضى البور • وسنرى فى موضع آخر أنه استخدم قوات جيش الاحتلال فى اصلاح نظام الرى ، وشجع نظام الملكية الشخصية وبيع الأراضى بفترات سماح ، وكيف آتت هذه السياسة ثمارها بعد أعوام من بداية حكمه •

تأمين الحدود الجنوبية والاهتمام بالتجارة الشرقية :

تلك هى الخطوط العامة التى وجهت سياسة الرومان ازاء مصر منذ البداية • ولم تلبث مشكلة أمن مصر الداخلى أن فرضت نفسها سريعا على نشاط كورنيليوس جالوس أول الولاة الرومان

ونسمع أن جالوس تمكن فى مستهل ولايته من اخضـاع ثورة على الرومان فى هيرونوبوليس (تل المسخوطة قرب خليج السـويس) وكانت هذه المدينة ذات أهمية لوقوعها على الطريق عبر سـيناء شمالا • لكن الخطر الحقيقى سرعان ما انبعث من ناحية الجنوب ، اذ لم يكد يمضى عـام واحد على دخول الرومان مصر حتى اندلعت الثورة ضدهم فى اقليم طيبة معقل الحمية القومية فى مصر • وقد بلغ من عنف هـذه الثورة أن الوالى كورنيليوس جالوس اضطر الى أن يقود القوات الرومانيـة بنفسه لاخضاعها • وقد وصلت الينا أنباء قمع هذه الثورة فى نقش مهم عثر عليه فى جزيرة فيـلة مكتوبا باللغات اللاتينية واليونانيـة والمصرية ، وجاء فيه أن الوالي اخضع طيبة « مصدر الذعر لجميع الملوك » ، وأنه استقبل عند فيلة سـفراء ملك الاثيوبيين (النوبيين) الذين قبلوا الدخول فى حماية الرومان ، اذ أن جالوس عين الملك النوبى حاكما تحت حمايته على المنطقة الواقعة بين حدود مصر عند سيينى (أسوان) وحدود النوبـة أى ما بين الشـلال الأول والشـلال الثـانى (نحو ٣٣٠ كيلو مترا) •

غير أن حملة جالوس هذه لم تكن كافية لتأمين منطقة الحدود الجنوبية ، اذ لم يلبث النوبيون أن هاجموا الحاميـة الرومانية عند أسوان منتهزين فرصـة انسحاب جزء من القوات الرومانيـة فى مصر للاشتراك فى تلك الحملة التى وجهها اوغسطس بقيادة آبليوس جـالوس (ثانى ولاة مصر) لمد النفوذ الرومـانى على سـاحل بلاد العرب الغربى واليمن • وقد تمكن النوبيون عندئذ من التغلب على الحامية الرومانية ونهبوا فيلة والفانتين وأسـوان ، مما اضطر ثالث الولاة بترونيوس (٢٤ ــ ٢١ ق•م•) الى قيـادة حملة وصلت به حتى ناباتا عاصمة النوبة الشماليـة • وعـاد بترونيوس الى الاسكندرية بعد أن وضع حامية فى النوبة عند ابريم ، لكنه اضطر

الى معاودة العمل العسكرى فى المنطقة عندما عاود النوبيون الهجوم بعد عامين حيث نجح فى التوصل الى اتفاق مع الملكة النوبية كنداكى احتل الرومان بمقتضاه المنطقة النوبية الواقعة بين أسوان والمحرقة (هيراسيكامينوس) حيث أنشأوا عدة استحكامات قوية كان لها الفضل فى اقرار الأمن هناك منذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن الثالث الميلادى ٠

ومن ناحية أخرى وجه أوغسطس اهتمامه الى طرق التجارة الشرقية ، وقد سلفت الاشارة الى تلك الحملة التى وجهها بقيادة أيليوس جالوس والى مصر فيما بين عامى ٢٥ و ٢٤ ق٠م٠ الى اليمن والساحل الغربى للجزيرة العربية بقصد مد النفوذ الرومانى الى هذه المناطق تحقيقا للسيطرة التجارية ٠ لكن يبدو أن الحملة أعدت دون تخطيط سليم على أساس معرفة جيدة بأحوال الملاحة فى البحر الأحمر وطبيعة حروب الصحراء فكان أن تكبد الرومان خسائر مادية وبشرية فادحة واستدعى أيليوس جالوس الى روما وعزل عن ولاية مصر ٠ غير أنه بالرغم من هذا الفشل العسكرى ، فقد نجحت الحملة فى اشعار عرب الجنوب بقوة الرومان ، ومهدت السبيل لنشاط تجارى رومانى كبير عبر الطريق من مصر الى الهند ووسط افريقيا وشرقها ٠ وشيئا فشيئا تحولت الأهمية التجارية من موانىء البحر الأحمر الشرقية الى موانئه الغربية على الساحل المصرى ، فضلا عن احراز الرومان بعد ذلك وجودا قويا فى ميناء عدن المهم ٠ كذلك قامت العلاقات الودية بين الرومان وكثير من أمراء اليمن وشيوخ القبائل العربية ٠ وقد اهتم ولاة مصر الأوائل على التوالى بتأمين طرق التجارة بين النيل والبحر الأحمر وأقاموا خزانات المياه على طولها ، وأصبحت التجارة الشرقية بعد أعوام من بداية حكم أوغسطس موردا اقتصاديا عظيم الأهميه ٠

كسر شوكة الكهنة وفرض « ضريبة الرأس » :

وضح أسلوب أوغسطس فى قمع العنصر المصرى الوطنى من موقفه من رجال الدين المصريين الذين كانوا يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهالى . والواقع أن نفوذ الكهنة المصريين تضخم ابان عهود البطالمة الأواخر الذين أعادوا اليهم أكثر امتيازاتهم القديمة وأهمها الاعفاءات المتتالية من الضرائب ومنحهم امتياز الانتاج فى أراضى المعابد وكذلك حق ايواء المعابد للمستجيرين بها Assglam . وقد وضح دور المعبد المصرى وزعامة الكهنة فى بعث الروح القومية المصرية ضد الحكم البطلمى . ولابد أن أوغسطس فطن الى هذا الخطر فعمد الى تجريد الزعامة الدينية من الأساس المادى لسطوتها ، فأصدر أمره الى واليه بترونيوس بالاستيلاء على الجانب الأكبر من أراضى المعابد ونقلها الى ملكية الدولة واعتبارها جزءا من أراضى الامبراطور . ولم يسمح للكهنة الا بزراعة جزء من الأراضى يكفى لسد حاجة المعبد . ومن المحتمل أنه أسند شئون الاشراف على حسابات المعابد فى مصر كلها الى سلطة مركزية تمثلت فى موظف مالى كبير حمل اسم الايديوس لوجوس أو « مدير الحساب الخاص » . ذلك أن هذا الموظف ذا الاختصاص المالى الصرف عرف بلقب « الكاهن الأعلى للاسكندرية وسائر مصر » وهو لقب لا يبدو مفهوما فى ضوء اشرافه على شئون المعابد المالية . وقد كان كل معبد مكلفا بأن يرسل الى مدير الاقليم الذى يقع فيه تقريرا سنويا يضم قائمة بأسماء كهنته وممتلكاته وحساباته .

وفرض أوغسطس على سائر المصريين جزية سنوية عرفت بضريبة الرأس لأنها كانت تعنى بالتأكيد علامة خضوع المصريين لروما ، وهى بهذه الصفة الواضحة تقابل فى المصطلح الرومانى تعبير

Tributum Capitis ، وكانت هـذه الجزيـة تجبى بمقدار ثابت كل سنة وان اختلف مقدارها من اقليم الى آخر بل أحيانا من بلد الى آخر فى الاقليم الواحد مراعاة ــ فيما يبدو ــ لتفاوت مستوى المعيشـة فى مختلف المواقع • وكانت الضريبـة تقع على الذكور فحسب اعتبارا من سن الرابعة عشرة التى اعتبرتها السلطات الرومانية سن القدرة على العمل والكسب وتسقط عند بلوغ سن الستين (وان امتدت الى ما بعد هـذا السن فى بعض الحالات) • ومن المؤكد أن هذه الضريبـة لم تكن جديدة على المصريين الذين عرفوها فى العصر البطلمى ، لكنها اتخذت منذ بداية الحكم الرومانى وضعا مغايرا ، ذلك أنه الى جانب احتمال زيادة معدلها وشمولها دائرة أوسـع من دافعى الضرائب ، قد جاوزت حدود كونها مصدرا مهما من مصـادر دخل الخزانة الرومانيـة الى اتخاذها معيـارا للتمايز الاجتماعى بين الطبقات • ففى حين دفعها سائر المصريين كاملة ، أعفيت فئات منها اعفاء تاما ، ودفعت فئات أخرى بمعدل منخفض • وهـذا التمايز الطبقى بالنسبة لأداء هـذه الضريبـة يحمل دليلا ضمنيا على أنها اعتبرت من وجهة نظر الرومان علامـة حطة للعنصر الوطنى وخضوعه •

سياسة الأباطرة بعد أوغسطس ازاء مصر :

تلك هى الخطوط الرئيسية لسياسة أوغسطس فى حكم ولاية مصر ، وهى سياسة وضحت معالمها فى الفترة القصيرة التى مكثهـا فيها عقب غزوها ، واستكملت ملامحها فى سـنوات حكمه الأولى بعد تقلده منصب الامبراطور • وقد سار خلفاء أوغسطس على نهجه فى ادارة الولاية لصـالح روما ادارة الضيعة أو صومعة الغـلال ، يتفاوتون فى استغلالها قسوة وعنفا أو رفقا واعتدالا ، ولكن فى اطار تلك السياسـة المرسومة ، ولم يحدث تغيير جذرى فى نظم الادارة

والحكم فى أواخر القرن الثانى الميلادى على عهد الامبراطور سبتيميوس سفيروس ٠

ونواصل عرضنا لأبرز الأحداث السياسية التى وقعت بمصر وتطور أحوالها عبر عهود الأباطرة ، وهى أحداث وأحوال لا تخرج عن اطار ردود الفعل من جانب الولاية على اختلاف عناصر السكان فيها ازاء ممارسات السياسة الرومانية ، أو مواقف الولاة من تقلبات الصراع على الحكم فى روما ، وهو أمر بدت فيه مصر عنصرا مؤثرا له ثقله على مدى قرن تقريبا من بعد أوغسطس ٠

تنظيمات أوغسطس تؤتى ثمارها الى حين :

تشير الدلائل الى استتباب الأمن وانتعاش الاقتصاد المصرى فى عهد خليفة أوغسطس الامبراطور تيبيريوس (١٤ ــ ٣٧ م) وقد اتصف هذا الامبراطور بالعناية بشئون الولايات ، والحرص على التحقيق فى دعاوى الابتزاز والحزم مع الولاة المتعسفين ٠ وتروى عنه فى هذا الصدد عبارته المأثورة التى لام بها أحد ولاة مصر فى عهده وهو أيميليوس دكتوس وكان قد أرسل الى روما جزية زادت على المقدر لها فأرسل له الامبراطور يقول : ريد للغنم ان يجز شعرها لا أن تسلخ جلودها ، وهى عبارة تظهر الرحمة بقدر ما تنطوى على الحكمة ٠ ولعل خير دليل على استتباب الأمن الداخلى فى مصر قرار تيبيريوس بسحب احدى الفرق الثلاث من الحامية فى مصر حين رأى أن الأمر لم يعد يقتضى بقاءها هناك ، كذلك فان ما يشير الى انتعاش اقتصاد مصر هو اصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربع دراخمات من دار السكة بالاسكندرية ٠ وكان أوغسطس قد أوقف اصدار هذه العملة مكتفيا بأن تصدر هذه الدار عملة برونزية تحدد قيمتها بالنسبة للدينار الرومانى الذى كانت الجزية السنوية من مصر تقدر على أساسه ٠ ونستطيع أن نلمح من وراء

قرار أوغسطس هـذا رغبته فى ابقاء مصر فى مكانها المتفرد بعيدا عن بقية الولايات · لكن تيبيريوس أدرك ما فى نظام النقد المصرى من تعقيد فقرر أن تستأنف الاسكندرية سك العملة الفضية المذكورة التى نلاحظ فيها زيادة وزنها وزيادة نسبة الفضة فيها حتى أصبحت تعادل نسبة الفضة فى الدينار الرومانى توطئة لمعادلة التتراخما الاسكندرية به · وفضلا عما يشير اليه ذلك من رخاء اقتصادى ، فانه باصدار هذه العملة نظم تيبيريوس علاقة مصر الاقتصادية بالامبراطورية ، وأصبح من السهل بعد معادلة العملة الاسكندرية بالدينار تحديد الجزية السنوية وجمعها كما أصبح هناك أساس ثابت للتبادل التجارى بين مصر والعالم الرومانى مما أدى الى انتشار التجارة الاسكندرية ·

وتذكر المصادر حادثة متعلقة بمصر أدت الى أزمة فى البيت الامبراطورى فى عهد تيبيريوس ولا بأس من ذكرها لدلالتها على استمساك خلفاء أوغسطس بالقاعدة التى وضعها بألا يزور مصر أحد من أعضاء السناتو الا باذن من الامبراطور · فقد حدث أن انتهز جرمانيكوس ولى عهد الامبراطور فرصة ايفاده الى الشرق فى مهمة من قبل عمه فزار مصر للتمتع بمشاهدة آثارها العظيمة ولكن بدون اذن من الامبراطور ، وقد لقى جرمانيكوس فى مصر ترحيبا عظيما لا ريب أنه أثار تيبيريوس عليه فهاجمه هجوما شديدا أمام السناتو متخذا لغضبه ذريعة هى أن جرمانيكوس خرق قاعدة من وضع أوغسطس · وقد غادر جرمانيكوس مصر على عجل الى سوريا حيث قضى نحبه فى ظروف غامضة كانت محلا لتحقيق ·

٢ ـ تفجر الصراع بين الاغريق واليهود :

وشهد عهد الامبراطور جايوس (كاليجولا) اندلاع نار الفتنة فى الاسكندرية بين اليهود والاغريق فكانت فاتحة لسلسلة من

الصراعات الدامية التى امتدت حتى منتصف القرن الثانى تقريباً والتى شكلت فصلا مهما من تاريخ الحكم الرومانى فى مصر • وقد مر بنا أن اغريق الاسكندرية كانوا يكنون للطائفة اليهودية فى المدينة حقدا واحتقارا عظيمين ، اذ لم يغفروا لليهود خياناتهم للأسرة الحاكمة البطلمية ومساعدتهم الرومان فى الاستيلاء على مصر ، واحتقروا تزلف اليهود الى الرومان الذين أظهروا لهم الود ومنحوهم الامتيازات • كذلك أنكر الاسكندريون سعى اليهود للحصول على حق المواطنة الاسكندرية ، وتوحى لنا بعض كتابات المؤرخ اليهودى يوسف بأن النزاع كان محتما حول أحقية اليهود فى ذلك وأن زعماء الاغريق تشددوا الى الحد الأقصى فى انكار هذا الحق عليهم • وقد كان من الطبيعى أن يتخذ الاسكندريون من اليهود هدفا للتنفيث عن مشاعر الكره التى أضمروها للرومان حتى ساد بين الفريقين جو من التوتر الشديد •

ويبدو أن بوادر الصدام لاحت منذ أواخر أيام تيبيريوس اذ نرى الوالى أفيليوس فلاكوس يقوم بحملة لجمع ما بيد الأهالى من أسلحة • لكن الاسكندريين لم يلبثوا أن تحينوا فرصة مرور أجريبا الأمير اليهودى بالاسكندرية فى طريقه الى تولى حكم امارة صغيرة على حدود جودايا (اليهودية) بفلسطين ، وكان قد عاش بين ظهرانيهم من قبل مدينا مفلسا ، ونظموا مظاهرة صاخبة للسخرية منه ، ثم أفاقوا الى أن أجريبا صديق مقرب الى كاليجولا وأنه لن ينقذهم من غضب هذا عليهم الا أن يوقعوا بينه وبين اليهود ، فادعوا أنهم ما تظاهروا ضد أجريبا الا لأن اليهود لم يمتثلوا للأمر الصادر باقامة تماثيل للامبراطور فى معابدهم اظهارا للولاء له • وهكذا دبر الاسكندريون للأمر ببراعة واستقطبوا الى جانبهم الوالى فلاكوس ، ثم قاموا بالهجوم على اليهود فى متاجرهم ودورهم وبيعهم ونكلوا بهم تنكيلا • وقد أفلح أجريبا بعد ذلك فى اقناع كاليجولا

بعزل والى مصر الذى لم يعالج الموقف بالحكمة أو الحزم ، وأرسل كل من الاسكندريين واليهود سفارة الى روما لشرح القضية أمام الامبراطور ، لكن كاليجولا لم يقض فى الأمر بشىء حتى لقى مصرعه فى عـام ٤١ م ٠

وحين تولى كلاوديوس العرش (خلفا لكاليجولا) كانت مسألة النزاع اليهودى الاغريقى لا تزال تفرض نفسـها على الامبراطور ، اذ استأنف الفريقان ارسال الوفود الى روما لعرض القضية ٠ وقد وصلتنا احدى البرديات المهمـة التى احتوت رسالة موجهة من كلاوديوس الى شـعب الاسكندريـة ردا على مطـالب كل من الاسكندريين واليهود ٠ وتظهر لنا الرسالة موقف الامبراطور الحـازم الحكيم مع الفريقين ، حيث نصحهم بالخلود الى الهدوء واظهـار التسامح وحذرهما من مغبة نفاد صبره وتبدل حلمه معهم اذا ما عاودوا صراعهم الدامى ٠ أما بالنسبة لليهود فقد أقر كلاوديوس ما كانوا يتمتعون به من امتيازات ، لكنه نصحهم بأن يقنعوا بما أتيح لهم من عيش طيب فى مدينة ليست أصـلا مدينتهم ، وألا يبتغوا وراء ذلك شيئا (ولعله يعنى مطلبهم فى الحصول على المواطنة الاسكندرية) ٠ وأما بالنسبـة الى الاسـكندريين فان الامبراطور لم يستجب الى مطلبهم القديم فى انشاء مجلس شورى للمدينة وان وعد ببحث الأمر مع واليه أيميليوس ركتوس ، وكان هـذا بمثابة تأجيـل يعنى الرفض اللين ٠

ولا ندرى الى أى مدى أفلحت هذه الرسالة فى تهدئة الطرفين، لكننا نعلم من احدى برديات تلك المجموعة المعروفة عند الدارسـين باسم « أعمال الشهداء الوثنيين » أن وفودا جديدة من الاسكندريين واليهود قصدت الى كلاوديوس فى عـام ٥٣ لعرض شكاواها مما يدل على أن المشاكل كانت لا تزال قائمـة ٠ غير أن كلاوديوس انحـاز

هذه المرة الى الجانب اليهودى الذى كان يترأسه أجريبا ، وانتهى الأمر بصدور حكم الاعدام على زعيمى الوفد الاسكندرى • وحين اندلعت ثورة اليهود الأولى ضد الرومان فى فلسطين فى عام ٦٦ ابان عهد الامبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، كان لابد أن تتردد أصداؤها فى الاسكندرية ، ونشب بين الفريقين قتال دام هلك فيه من اليهود خمسون ألفا على ما يذكر المؤرخ يوسف • وقد كرست روما جهدا حربيا كبيرا لسحق الثورة اليهودية فى فلسطين ، ومنذ ذلك الوقت اتجهت الحركة اليهودية الى اظهار العداء السافر للسلطة الرومانية • وأظهر الأباطرة تشددا عنيفا كان من نتائجه أن سكن النزاع بين اليهود والاسكندريين نحو أربعين عاما ، لكنه لم يلبث أن تجدد فى عام ١١٠ فى عهد الامبراطور تراجان الذى كان عليه أن يواجه بعد أعوام ثورة يهودية شملت برقة ومصر وفلسطين وقبرص •

وصول فسبسيان الى عرش الامبراطورية بتأييد والى مصر :

قضى الامبراطور نيرون نحبه فى عام ٦٨ والامبراطورية لاتزال مشغولة بالقضاء على ثورة اليهود فى فلسطين ، وأعقب وفاته عام من الاضطرابات والفتن يعرف بعام الأباطرة الأربعة (٦٨ — ٦٩) اذ نادت الجيوش الرومانية فى الغرب والشرق بقادتها أباطرة ، فحمل لقب الامبراطور أربعة قواد هم على التوالى : جالبا وأوتو وفيتلوس وفسبسيان • وكان هذا الأخير حاكما على جودايا وقائدا للجيوش الرومانية العاملة فى سوريا لقمع الثورة اليهودية • وقد هتف له جنوده بلقب الامبراطور فى صيف عام ٦٩ • وعندئذ لعب والى مصر تيبيريوس يوليوس اسكندر دورا مهما فى تأييد فسبسيان ، فكان هذا التأييد عاملا حاسما فى ارتقائه العرش الامبراطورى ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ظهر لمصر فيها

دور سياسى مهم فى تاريخ الامبراطورية • اذ انه عندما أعلنت الفرقتان الرومانيتان المرابطتان فى مصر ولاءهما لفسبسيان اعتبر ذلك ورقة رابحة فى يده لأنه كان يستطيع عندئذ أن يقطع القمح المصرى عن روما مما يؤدى الى مجاعة تؤدى الى سقوط خصمه • وليس أدل على ادراك فسبسيان لأهمية مصر من أنه اعتبر تاريخ اعلان ولاء جيشها له (أول يوليو ٦٩) تاريخ بدء حكمه • وقد مر فسبسيان بالاسكندرية فى طريقه لارتقاء العرش ، فكان أول امبراطور يزور المدينة منذ دخول أوكتافيوس (أوغسطس) اليها قبل مائة عام • ومن الاسكندرية أرسل فسبسيان ولده تيتوس بقوات من مصر الى فلسطين لاتمام سحق ثورة اليهود وهو ما أتمه فى عام ٧٠ بعد حصار القدس حصارا شديدا واسقاطها وتدمير هيكل اليهود •

ويسترعي انتباهنا مظاهر الحفاوة الكبرى التى استقبل بها الاسكندريون فسبسيان ولعل ذلك كان تعبيرا عن الشماتة فى اليهود بعد ما لحق بهم على يدى هذا الامبراطور فى فلسطين ، أو تأييدا لمنشق على السلطة فى روما أملوا فيه خيرا • غير أن فسبسيان سرعان ما خيب ظن الاسكندريين فيه فأطلقوا فيه كعادتهم ألسنتهم الحادة بالسخرية اللاذعة ، ورد الامبراطور على ذلك بفرض ضريبة رأس ضئيلة عليهم لمجرد اذلالهم ، ثم عدل عنها حين توسط ابنه تيتوس لرفعها عنهم •

ازدهار العبادات المصرية فى عهد تيتوس ودوميتيان :

وحين خلف تيتوس أباه أظهر ميلا الى الاهتمام بشئون الشرق والوقوف على واقعه وأحواله والاصغاء الى شكاوى شعوبه باهتمام• كذلك يمثل عهد تيتوس بداية اتجاه جديد فى نظرة الأباطرة الرومان الى الآلهة المصرية • فقد حضر فى منف ابان حياة أبيه حفل تكريس للعجل أبيس الجديد مرتديا زيا رسميا واضعا على

رأسه تاجا واكليلا جريا على عادة الأباطرة عند حضــور الاحتفالات الكبرى • والدليل على أن الأمر لم يكن مزاجا شخصيا عند تيتوس أن سياسة الرعاية لم تتوقف بعد حكمه القصــير وانما استمرت بل ظهرت بصــورة أكثر وضــوحا فى عهــد خليفتــه دوميتيان (٨١ ــ ٩٦) • وليس المقصود بالرعاية تلك الآلهة المصرية الكبرى التى كانت قد لقيت قبولا عالميا عاما وغزت روما نفسها قبل دخول الرومان مصر والتى استعادت اهتمام أباطرة الرومان بها بعد فترة من الاهمــال والازدراء استغرقت عهدى أوغسطس وتيبيريوس ، وانما نقصد اتجاه الرعاية الى تلك الآلهة المحلية التى ألقت عليهــا سياسة الأباطرة الدينية فى مصر ظلا ثقيلا من الاهمــال • وقد تمثل الاتجاه الجديد فى بناء بعض المعابد لبعض هذه الآلهة مقترنة بمــا يقابلها من الآلهة الاغريقية ،وبداية ظهور صــورها على عمــلات الاسكندرية البرونزية • وفى الوقت نفسه أسبغ دوميتيان على عبادة ايزيس فى روما عناية فائقة •

ثورة اليهود الكبرى فى عهد تراجان :

توالت ضربات الرومــان على اليهود بعد تحطيم الهيــكل فى القدس فى عــام ٧٠ ، فقد فرض الامبراطور فسبسيان على يهود الامبراطورية جميعــا ضريبــة خاصــة تدفع لمعبــد الاله جوبيتر كابيتولينوس فى روما • ولم يكن هذا سوى تحويل لضريبة نصف الشاقل التى كان اليهود يؤدونها للهيكل امتثالا لتعاليم التوراة لتدفع الى اله الوثنيين مما أورثهم شعورا بالحطة والمهانة أضيف الى شعورهم القديم بالمرارة لأدائهم ضريبــة الرأس ، ثم أعقب ذلك اغلاق المعبد اليهودى فى ليونتوبوليس فى مصر ومصــادرة جميــع أملاكه • وقد مالت سياســة الأباطرة منذ ذلك الوقت الى أخذ اليهود بالشدة باعتبار كونهم جماعات مثيرة للشغب وكان طبيعيــا

أن يضمر اليهود للرومان حقدا دفينا ، وأن تنمو بينهم فكرة الخلاص من حكمهم بمساعدة الههم يهوه .

ونعلم أن النزاع تجدد بين اليهود والاسكندريين فى عهد الامبراطور تراجان فى عام ١١٠ (أو عام ١١٣) وأن الفريقين احتكما كالعادة الى الامبراطور الذى لام الاسكندريين على عنفهم وهدأت الأمور على نحو ما لكن اليهود ثاروا من جديد فى عام ١١٤ ، وفى العام التالى انتهزوا فرصة المصاعب التى تعرض لها تراجان فى حملته الشرقية ضد البارثيين واضطراره الى سحب بعض القوات من مصر ، وأشعلوها ثورة عامة فى برقة (قورنيايئة) وقبرص ومصر . ولم تلبث هذه الثورة أن تحولت الى حرب دامية خاضها اليهود بكل ضراوة وذهب ضحيتها عدد كبير من الاغريق والرومان فى قبرص وبرقة وريف مصر ، حيث اتحد اليهود الزاحفون من برقة مع بنى جلدتهم فى أقاليم مصر وسيطروا على بعض البقاع ، وارتكبوا من السلب والتقتيل والتخريب ما رددت وثائق البردى مدى بشاعته . وازاء ضراوة اليهود اضطرت السلطات الرومانية الى تجنيد فرق من الأهالى المصريين . واستمرت الحرب مستعرة حتى وفاة تراجان فى عام ١١٧ ، ولم يتمكن الرومان من اخماد هذه الثورة العامة الا فى مستهل عهد خليفته هادريان . لكن اليهود فى مصر لم يكفوا عن اثارة المتاعب فى الاسكندرية فى عهد هذا الامبراطور لأننا نسمع عن ثورة لهم فى بدايات حكمه وثورة أخرى وأخيرة وقعت قرب نهاية حكمه .

هادريان فى مصر ـ تأسيس مدينة انتينوبوليس :

تركت ثورة اليهود الكبرى آثارا اقتصادية مدمرة فى « ريف » مصر مما اضطر هادريان الى اجراء تخفيض فى بعض الضرائب وايجارات الأراضى العامة ، كذلك ألحقت هذه الثورة كثيرا من

التخريب فى مبانى الاسكندرية فكان عليـه أن يوجه عنايتـه الى اصلاح ما تهدم منها ، وقد انتهز الفرصـة فأقـام بعض المنشآت الجديدة وكان أهمها مكتبة هادريان التى اتخذت دارا لحفظ الوثائق والسجلات بالاسكندرية . وفى عام ١٣٠ زار هادريان مصر قادما اليها من جولة تفقدية لولايات الامبراطورية الشرقية . وبعد أن أقام بالاسكندرية بعض الوقت أبحر فى رحلة نيلية الى الصعيد ليزور آثار مصر الخـالدة ، وتوقف الامبراطور وحاشيته طويلا أمام تمثالى ممنون حيث سجل بعض أفراد هـذه الحاشية كلماته للذكرى .

غير أن أهم ما يذكر لهادريان من أعمـال فى مصر هو تأسيس مدينة انتينوبوليس الاغريقية على الضفة الشرقيـة للنيل فى مصر الوسطى (قرب بلدة الشيخ عبادة) . وقد قيل ان الامبراطور أسس هذه المدينة فى ذات الموقع الذى غرق فيه غلام أثير لديه كان يرافقه وهو انتينوس Antinous . لكن مهما قيل عن حب هادريان لغلامه الغريق وحزنه الشـديد عليه ، ورغبته فى تخليد ذكراه بانشاء مدينة تحمل اسمه ، فان دوافعه الى انشاء مدينـة اغريقية كانت تتمشى مع ما ذاع عن هـذا الامبراطور من عشقه للحضارة الاغريقية ولعله لم يرض عن حالة الضعف التى انتابت هذه الحضـارة فى مصر فرأى فى انشاء مدينة اغريقية جديدة فى مصر الوسطي ما يقوى تيارها ويوازى تأثير مدينة بطوليميس الاغريقية فى جنوب الصعيد (المنشاة ــ محافظة سوهاج) . وكان اتجاه هادريان الى انشاء المدن الاغريقية قد ظهر قبل مجيئه الى مصر فى مدينـة أسسها فى آسيا الصغرى (هادريا نوبوليس) .

وقد بنيت المدينـة الجديدة على نمط المدن الهلينيستية ذات الشوارع المستقيمة المتقاطعة ، وجلب مواطنوها من مدينة بطوليميس ومن الجالية الاغريقية فى أرسينوى (الفيوم) التى يرد ذكرها فى

الوثائق باسم جماعة ال ٦٤٧٥ هيلينيا فى أرسينوى ، ومنحت المدينة مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا صيغ على نمط دستور مدينة نقراطيس ، وانتظم مواطنوها فى قبائل وأحياء ، ومنحوا امتيازا لم يتمتع به مواطنو المدن الاغريقية الأخرى بمصر وهو حق الزواج من مصريات ، ولعل هادريان كان يفكر فى أن يأتى جيل مشبع بالروح الاغريقية وتجرى فى عروقه الدماء المصرية • وانعاشا لاقتصاد المدينة الجديدة التى قامت فى منطقة زراعية خصيبة ، أمر هادريان بانشاء طريق جديد يصلها بميناء برينيتى الشهير على البحر الأحمر •

وفى مجال رعاية هادريان للثقافة الاغريقية فى مصر زاد عدد العلماء فى الموسيون بالاسكندرية وقيل انه عقد ندوة للبحث مع الفلاسفة • وقد ظهر أثر أعمال هادريان فى انتعاش الروح الاغريقية انتعاشا نسبيا وتجلى ذلك فى فن التصوير الاغريقى كما تصوره قطع النقود الاسكندرية وفى ظهور أسلوب جديد لتصوير وجوه الأشخاص على المومياوات •

ثورة الفلاحين فى الدلتا فى عهد ماركوس أوريليوس •

فى عام ١٧٢ ابان عهد الامبراطور الفيلسوف ماركوس اوريليوس قام الفلاحون المصريون فى شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات وعرفت باسم « ثورة الرعاة » Bucolia ، فكانت أول ثورة للمصريين نسمع عنها فى العصر الرومانى منذ ثورات اقليم طيبة فى مطلع ذلك العصر • وقد تزعم الثورة أحد الكهنة وهو ايزيدور • والواقع أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سوءا على مر الأيام حتى بلغت عند منتصف القرن الثانى حدا لا يحتمل تحت وطأة نظام ضرائب بالغ الارهاق

وخدمات الزامية لم توزع توزيعا متكافئا مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء ، وأعمال سخرة أكره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم • وقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة فى عصر تراجان تخريب الأراضى الزراعية واهمال نظام الرى ، فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم التى لم يروا جدوى من فلاحتها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة الجهود الا النزر اليسير •

ومما يدل على سوء الأحوال تفشى ظاهرة فرار المزارعين من الأرض وهجر الأهالى للموطن ، وهو ما عرف فى لغة الوثائق « بالتسحب » Anachoresis اما للعجز عن أداء الضرائب أو فرارا من خدمة الزامية ، فكان المتسحب يلجأ الى المدن الكبيرة وخاصة الاسكندرية على أمل أن يجد فيها عملا أو يتوارى على الأقل من أعين السلطات التى كانت تجد فى طلبه لاعادته الى موطنه Idia ، فان لم يجد لاذ بأحراش الدلتا وربما تحول الى قاطع طريق •

هكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الخرقاء فى ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الانتاجية لأرضها وأهلها • ويبدو أن المصريين انتهزوا فرصة سحب بعض القوات من مصر للمشاركة فى الحروب فى منطقة الدانوب فثاروا ثورتهم تلك التى بلغ من عنفها أن عجزت القوات الرومانية عن مواجهتها ، بل كادت الاسكندرية نفسها أن تسقط فى يد الثوار لولا وصول نجدة من سوريا بقيادة أفيديوس كاسيوس الذى استطاع بالخديعة أن يوقع بين الثوار ويقضى عليهم فى عام ١٧٥ •

غير أن روما لم تفرغ من ثورة المصريين الا لتواجه خطرا أشد تمثل فى اعلان أفيديوس كاسيوس نفسه امبراطورا بعد أن حصل على تأييد جنوده • وقد أمكن القضاء على هذه الحركة بعد شهور

معدودة • لكن ما يسترعى النظر هو تأييد الاسكندريين لها ، ليس حبا فى كاسيوس بل تأييدا لأى حركة انشقاق على السلطة المركزية فى روما • وعندما زار الامبراطور ماركوس أوريليوس الاسكندرية فى العام التالى (١٧٦) لم يبطش بالاسكندريين وانما سلك معهم بل مع أسرة كاسيوس نفسه السلوك الخليق بحاكم فيلسوف حكيم • وقد احتفظ الاسكندريون بذكرى طيبة لهذا الامبراطور حتى أن بردية متأخرة من المجموعة المعروفة « بأعمال الشهداء الوثنيين » وصفته بالفلسفة والزهد والخير وهو ما لم يصف الاسكندريون به أى امبراطور رومانى آخر • لكن ابن أوريليوس وخليفته الامبراطور كومودوس (١٧٦ ــ ١٩٢) كان على النقيض من أبيه فسعى الى الانتقام من أفراد أسرة كاسيوس وتعقبهم حتى استأصل شأفتهم ، وحاكم زعماء الاسكندريين وأعدم الكثير منهم وقد بينت تلك البردية المذكورة أن صراع الاسكندريين مع الأباطرة الرومان أصبح سافرا ، وهى تضم أجزاء من محاضر محاكمة أبيانوس أحد زعماء الاسكندريين الذين تم اعدامهم على يد كومودوس • وقد ازدادت الأحوال العامة سوءا فى عهد هذا الامبراطور ، وليس من قبيل المصادفة أن قام ببناء أسطول جديد لنقل القمح من شمال افريقيا الى روما لمواجهة الموقف اذا ما تأخر وصول القمح من مصر • وفى هذا ما يشير الى أن روما لم تعد تستشعر الاطمئنان على مصر •

المحاولات الاصلاحية فى عهدى سفيروس وكاراكالا :

فى شتاء عام ١٩٩/٢٠٠ زار الامبراطور سبتيميوس سفيروس مصر ، حيث قام بالرحلة الترويحية التقليدية لمشاهدة الآثار المصرية على طول الوادى • لكن هذه الزيارة لم تكن لمجرد السياحة وانما لتدارك الوضع المتفاقم فى مصر بعد أن وصل جهاز الحكم الى حال

من العجز ينذر بانهياره جملة • وكان من أبرز مظاهر هـذا العجز أن الحكومة لم تعد تجد عددا كافيا من الأشخاص القادرين على تحمل عباء وظائف الادارة المحلية فى عواصم الأقاليم Metropole.s بسبب تدهور الأحوال الاقتصـادية للطبقة الوسطى التى نهضت بهذا العبء منذ بداية الحكم الرومانى • وقد قام سفيروس بعدة أعمال فى مصر كان أبرزها منح الاسكندرية وجميع عواصم الأقاليم حق انشاء مجـالس الشـورى Bouloi ، وهكذا حصـلت الاسـكندرية بعد ما يزيد على القرنين على مطلبهـا العزيز من الرومان ، لكن لم يكن لها عندئذ ذلك المذاق الخاص بعد أن ساواها اصلاح سفيروس بسائر عواصم الأقاليم • وقد يبدو من ظاهر هـذا الاصلاح أن الغاية منه اعطـاء مزيد من الحريـة للمدن وعواصم الأقاليم فى تصريف شئونها ، لكن الهدف الحقيقى كان القاء المسئولية فى ملء الوظائف الادارية فى الاقليم على هـذه المجالس ، اذ أصبح أصحاب الأملاك فى كل عاصمة اقليم (متروبوليس) مسـئولين مسئولية جماعية فى هيئـة مجلس الشورى Boule عن شـغل المناصب العامة وتمويلها •

ويعتبر هذا الاصلاح أول تغيير أساسى طرأ على النظم الادارية فى مصر منذ أيام أوغسطس • ولا شـك أنه كان محـاولة لتوحيد هذه النظم مع نظم سائر الولايات • وبغض النظر عما ترتب عليـه من علو قدر عواصم الأقاليم أدبيا حين تساوت مع الاسـكندرية فى التمتع بمجلس شـورى ، فان الأهمية العملية للتغيير أنه لم يعد من اليسير على أعضـاء طبقة الرومان ومواطنى الاسكندرية المقيمين فى « ريف » مصر قريبا من أملاكهم أن يتهربوا من الخدمات الالزامية مثلما كانوا يفعلون فى المـاضى اعتمادا على اثبات أن موطن اقامتهم Idia ليس فى هـذا الريف وانما فى الاسكندرية ، فقد أصبحت المسئولية الجماعية فى المجالس تشمل الجميع •

واتبع اصلاح سفيروس اصلاح مهم آخر على يد ابنه كاراكالا (٢١١ ــ ٢١٧) وهو القانون الذى صدر فى عـام ٢١٢ (أو ٢١٤) وعرف باسم Constitutio Antoninininana الـذى منـح حـق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الامبراطورية (ما عدا فئة الخاضعين المستسلمين (Dediticii وقد ثار جدل طويل بين الباحثين حول تحديد المقصود بهذه الفئة ، وهل كانت تشـمل المصريين أو لا ، لكن ما يهم هنا هو أنه بصـدور هـذا القانون تمت التسوية نهائيـا بين المواطنين الرومـان ومواطنى الاسكندرية وفئـة مواطنى عواصـم الأقاليم Metropolitai من حيث الزامهم بتولى مناصب الحكم المحلى بحكم دخولهم جميعـا فى عضوية مجالس الشورى • وعندما زار كاراكالا الاسكندرية فى عـام ٢١٥ لم يبد الاسـكندريون أى مظهر للترحيب به ، ولعل الامبراطور توهم أن قراره أسعدهم ، لكنهم على العـكس أطلق الاسكندريون ــ كدأبهم ــ ألسنة السخرية عليه ، وانتقم من المدينة شر انتقام اذ أباحها لجنوده وأعدم زعماءها وقتل الكثير من شبابها •

مصر فى خلال محنة الامبراطورية فى القرن الثالث :

يستلفت النظر بعد ذلك فقـدان مصر لأهميتهـا ، بل لقد أصبحت عبئا على الامبراطورية أكثر منها مصـدر نفع عميم كما كان حالها فى المـاضى • ومما يدل على ذلك أن الامبراطور ماكرينوس لم ير غضاضة فى أن يخرق القاعدة التى وضعها أوغسطس وهى الا يعين رجال السناتو فى مناصب ادارية فى مصر ، بل ألا يدخلها أحد منهم ألبتة الا باذن من الامبراطور • فقد عين ماكرينوس أحد أعضاء السناتو البارزين آنذاك مساعدا لوالى مصر • بل لقد رأينا الامبراطور سفيروس الاسكندر بعد ذلك يعين فى منصـب الوالى شخصا قاد ثورة الحرس الامبراطورى ضـده ليس مكافأة له بالطبع لكن ابعادا له الى مكان لا يستطيع منه أن يهدد مركزه •

والواقع أن فترة نصف القرن الواقعة بين مصرع سفيروس الاسكندر هذا (٢٣٥) وتولى الامبراطور دقلديانوس عرش الامبراطورية (٢٨٤) تمثل عصر محنة حقيقية للامبراطورية • فقد توالى ظهور أدعياء العرش ، وتردت البلاد فى هذه الحروب الأهلية ، واخترقت حدود الامبراطورية فى مواضع شتى على يد القبائل الغازية ، وعم الفقر وتفشت المجاعات والطواعين • ونتج عن سياسة اضطهاد المسيحية التى اتخذت شكل السياسة منذ أيام الامبراطور سبتيميوس سفيروس أن غرقت الولايات فى أنهار من الدماء • وقد ران على شئون مصر ابان هذه الفترة خمول شديد بحيث لا نسمع عن دور قامت به هذه الولاية فى تنصيب امبراطور أو آخر ، واقتصر الأمر على تغير اسم الامبراطور فى الوثائق الرسمية • وكل ما سطره التاريخ لمصر من أحداث فى هذه الفترة هو اضطهاد الامبراطور دكيوس المرير للمسيحية فى مصر ضمن اضطهاده العام الذى كان من أعظم المحن التى مرت بها المسيحية (حوالى عام ٢٥٠) ، ثم أغارت قبائل البليميس النوبية على الحدود المصرية الجنوبية فى عهد هذا الامبراطور نفسه •

على أن أهم ما وقع بمصر من أحداث فى هذه الفترة هو غزو الملكة زنوبيا (الزباء) ملكة بالميرا (تدمر) واستيلاؤها عليها فى عام ٢٦٩ واستمرت تحكمها باسم ابنها وهب اللات بن أذينة حتى عام ٢٧١ حين أفلح القائد بروبوس الذى أرسله الامبراطور أوريليانوس الى مصر فى استردادها فى حين هاجم الامبراطور مملكة زنوبيا من الشمال حتى قضى عليها وحملها أسيرة • ونسمع فى العام التالى (٢٧٢) عن ثورة قامت فى الاسكندرية بزعامة تاجر ثرى يدعى فيرموس ، وقدم الامبراطور أوريليانوس بنفسه لقمع الثورة ثم غادر الاسكندرية تاركا فيها قائده بروبوس للقيام بمهمة

اخضاع قبائل البليميس النوبيـة • وعندما مات أوريليانوس نادى الجيش الرومانى فى مصر ببروبوس امبراطورا فارتقى العرش خمس سنين حتى قتل فى عـام ٢٨٢ ، وقتل من بعده ثلاثة أباطرة فى عامين اثنين • وفى عـام ٢٨٤ تولى عرش الامبراطورية الامبراطور دقلديانوس الذى أخذ فى تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، فكان عهده فاتحـة لتغييرات مهمـة أدخلت مصر والامبراطوريـة الرومانية عامة فى مرحلة جديدة •

- ٢ -

النظـم الاداريــة

كان طبيعيا أن تتأثر النظم الادارية الرومانيـة فى مصر بنظم أسلافهم البطالمـة الذين أوجدوا أداة حكم منظمـة تنظيما علميـا دقيقا اكتملت على أيام بطلميوس الثانى (فيلاد لفوس) وأثبتت نجاحها فى أداء عملها على نحو حقق أهداف هذا الملك الاقتصادية وأهـداف خلفائـه من بعده • ولمـا كانت الغاية من كل أنظمـة الرومان فى مصر هى تحقيق أكبر عائد ممكن من دخلها : وكانت نظم الادارة البطلمية فى الواقع هى أداة السيطرة المحكمة على كافة أدوات الانتـاج فقد كان الامبراطور أوغسطس مستعدا لتقبل هذه الأداة البطلمية • والواقع أن الرومان ، على وجـه العموم ، لم يكونوا يتدخلون لتغيير نظم الادارة التى وجدوها فى البـلاد التى آل اليهم أمرهـا تغييرا أساسـيا ما دامت هـــذه الأداة كفيـلة بتحقيق أهداف سياستهم • وكل ما كان الأمر يتطلبه هو أن يشدد من قبضة السلطة المركزية التى كان قد انتابها الضعف ابان عهود البطالمـة الأواخر ، واجراء بعض التعديلات التى يقتضيها وضـع الادارة الجديد بعد زوال السلطة الملكيـة ، مما أوجب ادخـال وظائف جديدة والغاء أخرى أو تغيير طبيعة بعض الوظائف القديمة واختصاصاتها •

الوالى على رأس السلطة المركزية :

وقد مر بنا أن كافة سلطات الحكم المركزى وضعت فى يد حاكم عام أو وال حمل لقب « بريفكتوس » ومنح بصفة استثنائية سلطة الامبريوم البروقنصلية ليتولى قيادة الفرق الرومانية فى البلاد . والى جانب تولى قيادة الجيش ، كان الوالى هو الرئيس الادارى ، له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم فى جميع مستويات الادارة، عدا كبار الموظفين الذين يعينهم الامبراطور . أما من الناحية القضائية فقد خولته سلطته العليا أن يكون القاضى الأعلى ، اليه ترفع الشكاوى وله سلطة مصادرة الأملاك واصدار أحكام الاعدام وتحرير العبيد . ونعلم من الوثائق أن الوالى كان يعقد مجلسا قضائيا Conventus ثلاث مرات فى العام ، مرة فى باوزيون (الفرما) وأخرى فى منف ، وثالثة فى الاسكندرية للنظر فى قضايا أقاليم شرق الدلتا ومصر الوسطى والعليا وأقاليم غرب الدلتا على التوالى . وقد كان يعلن أحيانا عن عقد مجالس قضائية للوالى فى غير هذه المواضع تخفيفا لمشقات الانتقال البعيد اليها . ومن الواضح أن هذه المجالس القضائية لم تقتصر على الفصل فى القضايا أو الشكايات ، وانما كانت كذلك فرصة للوالى لتفقد سائر الشئون المالية والادارية خاصة ما يتعلق بجباية الضرائب وتحصيل حصة القمح المقرر ارسالها سنويا الى روما وهو ما كان يشكل أهم واجبات الوالى . وهنا نذكر عبارة « فيلون » وهى أن والى مصر كان يقضى الجانب الأكبر من وقته كل عام فى تفقد موارد الدخل فى مختلف أقاليم مصر ومراجعة حساباتها .

ونستدل من بعض الوثائق على جوانب أخرى من وضع الوالى القريب من وضع الملوك ومنها مراسم قصره بالاسكندرية وأداء التحية له كل صباح . غير أن سلطة الوالى كانت آخر الأمر خاضعة لسلطة الامبراطور الذى يعينه ويعزله متى شاء ، كذلك

فان الرسائل والفتاوى والتعليمات الصــادرة من الامبراطور كانت تنظم مهامه وتحددهــا من وقت الى آخر • والامبراطور وليس الوالى هو الذى يحدد مقدار الضرائب العينية والنقدية التى تجبى سنويا من مصر • كذلك كان الوالى يرجع الى الامبراطور فى المسائل التى يراها مجاوزة حدود اختصاصــه أو يرفع اليه بعض الأمور ليفصل فيها بنفسه • وقد أصبحت تعليمات الأباطرة المتعاقبين وفتاواهم بمرور الوقت بمثابة قواعد ثابتــة كان الوالى يتصرف وفقا لها • ومن ناحية أخرى يبدو أنه كانت لدى الأباطرة سياســة ثابتة بعدم ترك الوالى فى منصبه أكثر من ثلاث سنوات ، حتى لا تتاح الفرصة لأصحاب الطموح لتوطيد مركزهم وتهديد مركز الامبراطور فى روما •

كبار موظفي السلطة المركزية :

وكان يلى منصــب الوالى فى الســلطة المركزيــة وظيفــة اليوريديكوس iuridicus (باليونانية (dikaiodotcs ويعينه الامبراطور من المواطنين الرومان ، وهو مســاعد الوالى فى الشئون القضــائية ، ويتولى منصب الوالى مؤقتا فى حالة خلو هذا المنصب فجــأة بعزل الوالى أو موته حتى يعين وال جديد • وكان الغرض من انشاء هذه الوظيفة تزويد الادارة الرومانيــة فى مصر بالخبرة القانونية التى كان الولاة من طبقة الفرسان يفتقدونها كيما تأتى أحكامهم مطابقة لمبادىء القــانون • وكثيرا ما كان الوالى ينيب اليوريديكوس فى نظر القضــايا المرفوعة اليه • ولنا أن نسمى هذا الموظف وزير العدل وأن نشبهه بمنصب الأرخيديكاستيس فى العصر البطلمى لأن اختصاصــه القضائى كان يشمل عموم مصر • على أننا نسمع عن موظف قضــائى آخر حمل هذا اللقب البطلمى المذكور فى العصر الرومانى ، لكن يبدو من الوثائق ارتباط هــذا المنصب بمدينة الاسكندرية ، وكان يشترط فيمن يشغله أن يكون

من مواطني هذه المدينــة الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية، كما يبدو أنه كان موكلا بتنفيذ الأحكام القضــائية ، ومشرفا فى الوقت نفسه على دار الوثائق العامة (المحفوظات) فى الاسكندرية Katalogeion ·

أما الشئون المــالية التى كانت تشكل الجانب الأكبر من مهام الوالى واهتماماته فقد عين لمساعدته فيها موظفــا كبيرا حمل أحدهما لقب ديويكتيس (ولنا أن نسميه المتصرف المــالى) والثانى لقب اديوس لوجوس (ولنا أن نسميه مدير الحساب الخــاص) · ومن الواضح أن كلا من الوظيفتين كان ميراثا من الادارة المــالية البطلمية ، لكنه طرأ على اختصاصاتهما فى العصر الرومانى تغيير أساسى · فنحن نعلم أن الديويكتيس كان فى العصر البطلمى على رأس الادارة المــالية بحيث لم يكن الاديوس لوجوس الا واحدا من مرءوسيه · أما فى العصر الرومانى ، ومع اعتبــار الوالى الرئيس الأعلى للادارة المــالية فقد نزلت مرتبة الديويكتيس وأصبحت فى الأغلب مساوية لوظيفة الايديولوجوس ، غير أنه ليس من اليسير تحديد الديويكتيس أو بيان طبيعــة علاقتــه بصــاحب الوظيفــة الكبيرة الثانيـــة ، لكن من المرجح أنه كان مســـاعدا للوالى فى الشـــئون المــالية الاعتيادية المنظمــة مثل تقدير الضرائب سنويا وتنظيم عملية جبايتها · وكان يتعين أن يكون شاغل هذه الوظيفة مواطنا رومانيا ·

أما وظيفة الايديوس لوجوس فمعلوماتنا عنهــا أوفر بفضل تلك الوثيقــة البردية المهمــة التى تضمنت القواعــد والأحــكام والاجراءات الخاصة بها (P. Gnomon) ويبدو واضحا أن هذه الوظيفة اكتسبت فى العصر الرومانى أهمية زائدة ، وأنها اختصت على العموم بالاشراف على كافة موارد الدخل غير الاعتيادية كتلك المتحصلة من مصــادر الأملاك وتوقيع الغرامات وأيلولة الأمــلاك

التى لا صاحب لها للحكومة وما الى ذلك . وأسند الى شاغل هذه الوظيفة الاشراف على أراضى المعابد والتفتيش على حساباتها ، ومن هنا كان لقب الكاهن الأعلى للاسكندرية وعموم مصر الذى حمله هذا الموظف بالرغم من أنه كان موظفا ماليا صرفا .

نظام الادارة المحلية :

تيسيرا للادارة العامة قسمت البلاد الى ثلاث وحدات ادارية كبيرة على رأس كل منها حاكم يحمل لقب ابستراتيجوس ، وهذه الوحدات هى الدلتا ، والأقاليم السبعة وأرسينوى (وتقابل بالتقريب مصر الوسطى) ، ومنطقة طيبة Thebaid وضمت كل وحدة عددا من الأقاليم (النومات (Nomoi) والملاحظ أن هذه التقسيمات قد وجدت فى العصر البطلمى كما أن تقسيم مصر الى أقاليم نظام يرجع الى عهود عتيقة من أيام الفراعنة . وقد كان القصد من وظيفة الابستراتيجوس (حاكم عام المنطقة) أن يكون حلقة الوصل بين موظفى السلطة المركزية فى الاسكندرية والادارة الحكومية المحلية على مستوى الاقليم أى حلقة الوصل بين الوالى ومساعديه وحكام الأقاليم الداخلة فى حدود منطقته الادارية لكن لم يكن للابستراتيجوس سلطة عسكرية كما كان الحال فى العصر البطلمى لأن السلطة العسكرية تركزت فى يد الوالى وحده كما رأينا ، أما اختصاصاته فهى الاشراف على حسن سير العمل فى منطقته والقيام بأى تحقيقات ادارية ورفع أسماء المرشحين لتولى الوظائف فى ادارة الاقليم المحلية الى الوالى ليصدر أمر تعيينهم ، وكان الترشيح يتم بناء على اقتراحات من مديرى الأقاليم التابعين له .

أما حاكم الاقليم فقد استمر يحمل لقب استراتيجوس الذى حمله نظيره فى العصر البطلمى ، لكنه ـ شأن رئيسه

الابستراتيجوس ـ لم يتمتع بأى سلطة عسكرية . وكانت هـذه الوظيفة هى أول مستوى من الوظائف العامة يمكن أن يشغله أفراد من غير المواطنين الرومان . ويصدر أمر تعيينه من الوالى بنـاء على ترشيح ابستراتيجوس المنطقة ، ويشغل وظيفته ثلاث سنوات فى العادة ويتقاضى عنها راتبا ، وتتضمن اختصاصاته الاشراف على جميع النواحى الادارية والمـالية ، وتقدير الضرائب السـنوية على الأراضى والممتلكات والأفراد بناء على الاحصـاءات التى يجمعهـا الاداريون من مرءوسيه . ولم تكن للاستراتيجوس فى اقليمه سـلطة النظر فى القضايا واصدار الأحكام الا بمقتضى تفويض بذلك يصـدر اليه من الوالى أو أحد كبار الموظفين القضائيين فى الادارة المركزية بالاسكندرية .

ويلى وظيفة الاستراتيجوس فى ادارة الأقاليم وظيفة « الكاتب الملكى » ، وهو مساعد الاستراتيجوس الأيمن ونائبه الذى يحل محله فى غيابه ، وكان يختار عادة من فئة « سكان عواصم الأقاليم » Metropolitai ويتقـاضى راتبـا . وتبين الوثـائق أن وظيفـة الكاتب الملكى تمثل قمة البيروقراطية من حيث ما تركز فيها من اختصاصات وكذلك من حيث الدقة البالغـة فى تسجيل كل كبيرة وصغيرة من شئون الادارة . وتظهر أهميـة الوظيفة على وجه خاص فى مسألة تقديرات الضرائب والترشيح للوظائف البلدية والأعمال الالزامية . وكان يساعد الكاتب الملكى موظف له أهميتـه حمل اسـم « أمين المحفوظـات » Bibliophylakes واختصاصـه الاشراف على دار حفظ الوثائق والسجلات التى أنشأها الرومان فى كل عواصم الأقاليم .

الوظائف البلدية فى ادارة الاقليم المحلية :

والى جانب هـذه الوظائف الرسمية على مسـتوى الاقليم (النوموس) وجدت وظائف محلية « بلدية » Archai وهى

وظائف شرفية لم يكن شاغلوها Archontes يتقاضون رواتب وانما احتملوا نفقات مسئولياتها • ويبدو أن تنظيم هذه الوظائف وجد منذ عهد أوغسطس ، حيث استعيرت أسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن الاغريقية القديمة • وكان القصد من هذه الوظائف البلدية أن تتخفف الادارة الرومانية من بعض أعباء الحكم لينهض بها القادرون عليها من سكان عواصم الاقليم • على أن هذه الوظائف كانت فى الوقت نفسه متطلبات تقتضيها الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية للاغريق النازلين فى « ريف » مصر ، ومنها مثلا رعاية الجمنازيوم والقيام على ادارته • وفى بداية الحكم الرومانى كان تولى هذه الوظائف شرفا يسعى اليه الطامحون ، فكان سكان عواصم الأقاليم ينتخبون لها أفضل العناصر • لكن بمرور الوقت ، ومع تدهور أحوال الطبقة الوسطى الاقتصادية ، أصبح من الصعب الحصول على مرشحين لهذه الوظائف ، فلجأت الحكومة الى ارغام السكان على النهوض بها •

ويمكن أن نميز ستا من هذه الوظائف ، لكنها لم تكن بالضرورة كاملة فى كل عواصم الأقاليم • وكان يأتى فى مقدمتها من حيث الأهمية والمكانة الاجتماعية وظيفة مدير الجمنازيوم Gymnasiorchos الذى كان يتولى الاشراف على تلك المؤسسة التربوية التعليمية الاجتماعية التى كانت مركز الحياة العامة الاغريقية فى عاصمة الاقليم ، تليها وظيفة الاكسيختيس Exegetes وكان مختصا بتسجيل الشباب الذين بلغوا السن المقرر لتدريبهم فى منظمات الشباب Ephebeia ، والحفاظ على وضع الفئات ذات الامتيازات الخاصة فى العواصم ، كما كان مختصا برعاية شئون القصر وتعيين الأوصياء على النساء • وهناك وظيفة المشرف على شئون التعليم Kosmetes ومراقب الأسواق Agoranomos الذى كان من اختصاصه أيضا

توثيق العقود ، والمشرف على التمـوين Eutheniarchos وكبير الكهنـــة Archiereus • وفي بدايـة الأمر كان شـــاغل الوظيفـة مسئولا بصفة شخصية عن مهام وظيفته فحسب ، لكن بمرور الوقت أصبح شاغلو الوظائف يشكلون في مجموعهم ما يشبه الهيئة ذات المسئولية التضامنية (ويرد ذكرهـا بلفظ Koinon) وكانت هذه الهيئة في الواقع نواة لمجالس الشـــورى Boulai التي أنشأها الامبراطور سبتيميوس سفيروس في عواصم الأقـاليم اعتبارا من عام ٢٠٠ كما مر بنا •

الادارة على مستوى القرية Kome :

كانت أدنى مستويات الادارة هي القرية ، لكنهـا كانت في الواقع الخلية الأساسية في النسيج الاداري • ونحن نلحظ فيهـا عين النظـام المزدوج الرسمي الحـكومي من ناحية والموكول الى مسئولية الأهالي من ناحية أخرى • ويمثل الوظائف الرسمية مسئول الأمـن أو قـائد الشرطـة Archepodos وكـاتب القريـة Komogrammateus وكان هذا مختصـا باعداد قوائم بأسماء سـكان القرية وعدد رجالها البالغين ومقـدار ملكيـة كل شخص والمستحق على ملكيته من ضرائب وخدمات الزامية ، وكذلك اعداد تقارير سنوية عن حالة الأراضي الزراعيـة بالقرية من حيث نوع المحاصيل ودرجة انتفاعها بمياه الري لتقدير الضريبـة السنوية عليها تقديرا صحيحا • أما ما يقابل الوظائف « البلدية » في عاصمة الاقليم فقد تمثل على مستوى القرية في عدد من شيوخها يتناسب مع عدد السكان ، ويعتبرون مسئولين أمام مدير الاقليم عن حسـن سير الزراعة واستتباب الأمن بين الأهالي • ويبدو أن العضـوية في هذه الهيئة كانت من جملة الأعمال الاجبارية Leitourgia التي وقعت على طبقة ملاك الأراضي في القرية •

التغييرات التى طرأت على النظام الادارى فى القرن الثالث :

هكذا كان هيكل النظام الادارى فى مصر بدءا من رأس السلطة المركزية حتى مستوى القرية • ولعلنا نلحظ مدى مسايرة هـذا النظام لنظام الحكم البطلمي بالرغم مما أدخله الرومان من تعديلات • غير أن أهم ما ينبغى أن يلتفت اليه هو تغير طابع الخدمة الحكومية فى العصر الرومانى عنه فى عصر البطالمـة الذين كانـوا يعينون موظفيهم فى مناصب حكومية دائمة اتخذها هؤلاء مهنة يتكسبون منها ، أما الرومان فقد اكتسبت الخدمة الحكومية عندهم فى مصر بالتدريج طابع التكليف بحيث لم يواف القرن الثانى الميلادى حتى أصبح موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتولون مناصبهم لفترات قصيرة وعلى غير رغبة منهم • وكان لابد من أن يترتب على ذلك ضعف أداة الحكم فى مستوياتها الأدنى الأساسية • وقد مر بنـا ذكر التعديلات التى أدخلها الامبراطور سبتسيميوس سفيروس على نظـام الادارة المحلية اعتبارا من عـام ٢٠٠ م مستهدفا اصـلاح هذا النظام أو بالأحرى انقاذه من الانهيار • وكان أهم هذه التعديلات انشاء مجـالس الشورى فى عواصم الأقاليم • والواضح أنه لم يترتب على انشاء المجلس تمتع عاصمة الاقليم بالحكم الذاتى بالمعنى المفهوم لأن مدير الاقليم Strategus ظل يمارس سلطته الكاملة فى اقليمه • ولم يكن القصـد من انشاء المجلس الا القاء المسئولية كاملة على أعضائه فيما يتعلق بالشئون المـالية لكل اقليم وضمان توفير موظفين للادارة المحلية ولجباية الضرائب ومراقبة دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضى • وقد اقتضى قيام هـذه المجالس انشاء عدة وظـائف جديدة منهـا وظيفـة رئيس مجلس الشـورى Prytanis ووظيفة أمين عام المدينة ، كما ترتب على ذلك التعديل احياء نظـام تقسيم الاقليم الى مراكز على كل منها حاكم

Toparch يساعده موظف (أو أكثر) يشرفان على الايراد العام من الضرائب ومعهم عدد كاف من الجباة • وعلى مستوى القريـة ظهرت من جديد وظيفة حاكم القرية komarch التى انتقلت اليها بالتدريج اختصاصات كاتب القرية وهيئة شيوخها • غير أن هذه التعديلات التى كانت بمثابة اعتراف بفشـل نظـام الادارة القديم الذى كان الهدف منه تحسـين الأداء الادارى لضمان عائد أمثل من الضرائب ، ولكنه لم يفلح فى اصلاح حال الاقتصاد المصرى، لأن طاقة مصر البشرية ذاتها كانت قد أرهقت تحت وطـأة الالتزامات المختلفة بأكثر مما تحتمل •

نظام الادارة فى المدن الاغريقية :

ليس من شك فى أن الرومان أبقوا للمدن الاغريقية التى وجدوها فى مصر وضعهـا الخاص ، وان حرصـوا على ألا تزيد النزعـة الاستقلاليـة فيها • وقد سبق أن عرفنـا أنه كان على مواطنى الاسـكندرية أن يدبروا حياتهم العامـة بدون مجلس الشـورى التشريعى الذى رفض أوغسطس منحه للاسكندرية ولم تحظ به المدينة الا فى عام ٢٠٠ • كذلك لم ينشىء الرومان فى مصر مدنـا اغريقيـة جديدة ، الا تلك المدينـة التى أسسهـا هادريان عند زيارته مصر فى عـام ١٣٠ من منطلق غيرته على الثقافة الاغريقيـة التى كان تيارها قد ضعف فى مصر ، ومنحها دستورا اغريقيا على نمط دستور نقراطيس ، أقدم المدن الاغريقية فى مصر ، بل أعطى مواطنيها امتيازات خاصة فاقت امتيازات مواطنى المدن الاغريقية الأخـرى •

ويلاحظ فى نظم الاسكندرية الادارية وجود موظفين رسميين يمثلون السلطة المركزية وموظفين مدنيين يمثلون المواطنين ، وهو عين النظام الادارى المزدوج الذى لاحظناه من قبل فى ادارة الاقليم

المحلية، بل انه ليبدو أن وظائف الاسكندرية المدنية كانت النموذج الذى احتذاه أوغسطس في انشاء الوظائف البلدية فى عواصم الأقاليم ، فقد وجدت بالاسكندرية كل الوظائف التى سبق ذكرها فى تلك العواصم • ولا نعلم يقينا ما اذا كانت هذه الوظائف تشغل بالانتخاب ، لكن ما يوحى بذلك عبارة وردت فى رسالة الامبراطور كلاوديوس الى الاسكندرية (٤١ م) وما اتخذه مديرو الجمنازيوم من وضع الزعامة لمواطنى الاسكندرية كما تصورهم وثائق « أعمال الشهداء الوثنيين » • كذلك نستنبط من رسالة كلاوديوس المذكورة أن هذه الوظائف كانت تشغل فى بداية الأمر لمدة تزيد على ثلاث سنوات ، ثم حددت المدة بعد ذلك بهذه السنوات الثلاث • وقد درج الأباطرة على تعيين عدد من الموظفين فى هيئة الموظفين المدنيين وغالبا ما كان هؤلاء من عتقاء الامبراطور المخلصين له مما جعلهم عيونا للسلطة الرومانية على هذه الهيئة • ولاشك أن وجود هؤلاء الى جانب موظفى السلطة المركزية مثل حاكم المدينة وقائد الشرطة بها ، قد انتقص كثيرا من حرية المدينة واستقلال هيئة المواطنين فيها بادارة شئون مدينتهم •

أما مدينتا نقراطيس وبطوليميس فاننا نستطيع أن نستنبط مما لدينا من معلومات قليلة ان كلا منهما احتفظت بدستورها الاغريقى القديم بما يتضمنه من انتخاب هيئة حكام وقيام مجلس شورى تشريعى وجمعية عامة ، وأن المواطنين كانوا مقسمين الى قبائل وأحياء •

- ٣ -

الحيـــاة الاجتماعيـــة

فئات السكان وأحوال معيشتهم

وجد الرومان فى مصر مجتمعا طبقيا تمايزت فيه أوضـــاع السكان من حيث الامتيازات والحقوق والواجبات والأعباء • وقد اتخذ المجتمع هذا الشكل الطبقى نتيجة لسياسة التمييز العنصرى التى اتبعها البطالمـــة ، حيث منحوا الاغريق الذين تدفقوا على مصر خاصة فى بداية حكمهم كثيرا من الامتيازات على حساب العنصر الوطنى من الســـكان • وليس من شـــك فى أن البطالمـــة كانـــوا متعاطفين مع العنصر الاغريقى بصفة كونهم ملوكا مقدونيى الأصـــل اغريقيى الثقافة ، لكن كان من وراء هذه السياسة دوافع عمليـــة أيضا وهى احتياج البطالمـــة المـــادى الى خبرة هـــذا العنصر وجهوده لبناء دولتهم فى شتى المجالات الاقتصادية والادارية والعسكرية • وقد أدى الاغريق فى ذلك كله دورا مهمـــا أهلهم له نشاطهم كمـــا حفزتهم اليه تلك الفرص الكبرى التى أتاحهـــا لهم الملوك منـــذ البدايـــة •

وبالنســـبة الى الرومان فانه فضـــلا عن احترامهم للثقافـــة الاغريقية وثقتهم فى قدرتها على العطاء فانهم واجهوا احتياجا ماديـــا

مماثلا الى العنصر الاغريقى أو المتأغرق الذى وجدوه فى مصر لكى يلقوا عليه بعض مسئوليات الحكم على مستوى الادارة المحليـة فى الأقاليم وتولى الوظائف البلدية تخففا من بعض أعباء الحكم الملقـاة على السلطة المركزية .. وهنا ينبغى أن نوضح أنه بدءا من وظيفة مدير الاقليم (الاستراتيجوس) استخدم الرومان عناصر اغريقيـة لتولى الوظائف الحكومية منذ البداية . وازاء ذلك ، تبنى الرومان السياسة البطلمية نفسها فى التمييز بين عناصر السكان من أجـل تقوية العنصر الاغريقى والمتـأغرق ، بل انهم أكدوا الفوارق بين مختلف الطبقات والفئات عن طريق اعطاء كل طبقة أو فئة وضعا قانونيا محددا . وليس أدل على تشدد هذه السياسة من أن بعض المصطلحات الواردة فى وثائق العصر البطلمى والتى كانت تستخدم للدلالة على أنماط بعينها من تجمعات الاغريق فى أنحاء « الريف » المصرى وفقا لأسلوب الحياة الاجتماعيـة الاغريقية مثل مصطلح « جماعة رجـال الجمنازيوم » Hoi apo gymnasiou ، أصبح لها ابان العصر الرومانى مدلول محدد يشير الى طبقة اجتماعية ذات وضع قانونى خاص .

المواطنون الرومان :

واذا كان المقدونيون والاغريق قد تربعوا على رأس الهـرم الطبقى للمجتمع المصرى فى العصر البطلمى فقد كان أمرا طبيعيـا أن يحتل هذه المكانة فى ظل الحكم الرومانى طبقة المواطنين الرومان Cives Romani الذين جاءوا فى ركـاب السـيد المحتـل للعمـل فى الوظائف الكبرى فى الادارة أو تجـارا ورجـال أعمال ، أو جنودا فى الجيش الرومانى المرابط فى مصر ، حيث فضـل الكثير من قدماء المحاربين Veterani الاستقرار فى مصر بعد منحهم حقوق المواطنة الرومانيـة عقب تسريحهم .. وقد شكل هـذا

العنصر أرقى طبقة من حيث التمتع بأكبر قدر من الامتيازات التى نعلم عنها الكثير ومنهـا وقف المناصب الادارية الكبرى عليهم ، واعفاؤهم كليا أو جزئيا من بعض الضرائب ومن القيام بالخدمات الاجبارية وتولى أعباء الوظائف المحلية فى الشطر الأول من العصر الرومانى على الأقل . وحيثما نزل المواطنون الرومان فى أقـاليم مصر قريبا من أملاكهم لم يمكن لمدير الاقليم سلطان عليهم وانمـا يرجعـون فى شـئونهم الى رئيسـه مدير المنطقـة الاداريـة Epistrategus الذى كان يتعين أن يكون مواطنا رومانيـا . ولعل المواطنين الرومان فى مصر من حيث امتيازاتهم والاجراءات الادارية والقانونيـة المتعلقة بهم قد شابهوا وضـع طبقة المقدونيين فى عصر البطالمـة .

غير أن ما ينبغى ملاحظته أن المواطنين الرومان الأصليين لم يتدفقوا على مصر تدفق العنصر الاغريقى من قبل فى أعقاب حملات الاسكندر الأكبر فى الشرق وقيام مملكة البطالمـة ، ولم يتغلغل هؤلاء الرومان فى الريف المصرى مثلما فعل الاغريق ، ولذلك لم يشـكلوا جالية أجنبية مؤثرة فى الحيـاة المصرية العامة وانما ظلوا مجرد (طبقة) متميزة تميزا اجتماعيا واقتصاديا . وينبغى أن نتذكر أن من أكبر مصادر أفراد هذه الطبقة فى مصر هم أولئك الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانيـة من سكان مصر سواء من مواطنى مدينة الاسكندرية (الذين كان وضعهم يؤهلهم لأن يمنحوا هذا الحق) ، أو من سائر الاغريق والمتأغرقين وبعض العناصر الشرقية بعد أدائهم الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى وفقا لقواعد حددها القانون. ولم يكن وضـع « الجالية » الرومانية فى مصر بهذه الصـورة تتيح فرصة لتأثير رومانى ثقافى قوى فى حياة المجتمع . ولنا أن نضيف هنا فى استطرادة عابرة تبين سببا من أسـباب ضعف هذا التأثير ، أن السلطات الرومانية لم تتدخل لفرض اللغة اللاتينية لغة رسمية

للادارة وانما أبقت على وضع اللغة الاغريقية فى هـذا الخصوص واقتصر استخدام اللاتينية على الجيش الرومانى ومعاملات المواطنين الرومان فى اطار القانون المدنى الرومانى ٠

سياسة الرومان فى ترتيب فئات السكان :

واذا نحينا جانبا هذه الطبقة الممتازة لنرى الأساس الذى تم عليه ترتيب سائر سكان مصر فى طبقات وجدنا الشواهد المتجمعة من وثائق البردى ترجح أن معيار تصنيف السكان كان هو أداء ضريبة الرأس Laographia ، وهى تلك الجزية النقدية التى ذكرنا من قبل أن الرومان فرضوها على كافة « المصريين » من الذكور اعتبارا من سن الرابعة عشرة ، ويحمل لفظ « المصريين » هنا معنى اصطلاحيا ، اذ أن كل سكان مصر ، ما عدا المواطنين الرومان اعتبروا من وجهة نظر القانون الرومانى مصريين تقع عليهم بالتالى ضريبة الرأس ٠ لكن هؤلاء جميعا لم يكونوا متساوين فى القدر أو من حيث المنفعة المرتجاة ، فلم يساو الرومان بينهم فى دفع الضريبة ٠ وكان أن وجدت فئات أعفيت منها اعفاء كليا (وفى مقدمة هؤلاء مواطنو مدينة الاسكندرية) ، وفئات دفعتها بمعدل منخفض ، وهؤلاء هم الاغريق المتميزون بثقافتهم أو تعليمهم أو وضعهم الاجتماعى والذين حملوا اسم « مواطنى عواصم الأقاليم » Metropolitai واعتبرهم الرومان سلالة الاغريق الذين استقروا فى أقاليم مصر خارج المدن الاغريقية ، منذ العصر البطلمى ، ثم أخيرا الغالبية العظمى من سكان البلاد الذين دفعوا ضريبة الرأس كاملة غير منقوصة ٠

وقد اتخذت الادارة الرومانية بعض الاجراءات التى تكفل الحفاظ على هذا الوضع الاجتماعى الجامد اذ أن حرصها على خلق

طبقة وسطى متميزة قادرة على القيام ببعض المهام كان يوازيه حرصها على بقاء الفئات الممتازة محصورة فى حدود ضيقه ، لأن التوسع فىمنح الامتيازات وما يستتبعها مناعفاءات ضريبية كاملة أو جزئية كان يقلل من موارد الخزانة • ومن أهم الاجراءات الادارية فى هذا السبيل دورات الاحصاء التى كانت تجرى كل أربعة عشر عاما بمقتضى مرسوم يصدره والي مصر الرومانى • وقد عرف الاحصاء باسمه فى العصر البطلمي وهو « الاحصاء بواقع المنزل » Kat'oigian apographé لأنه كان يجرى منزلا فآخر ، حيث كان يتعين على مالك كل منزل (أو ساكنه) أن يتقدم للسلطات فى سنة الاحصاء باقرار يثبت فيه اسمه وأسماء كافة من يقطن المنزل ، مبينا سن كل منهم وحرفته ووضعه الاجتماعى من حيث التسجيل فى فئة ممتازة أم لا ، وصلة القرابة بين سكان المنزل ، بل انه امعانا فى الدقة والتحرى كانت تثبت الصفات الجسمانية المميزة للسكان • وكان مقدم الاقرار يقسم على صحة ما قدمه من معلومات ، وقد نصت عدة مواد فى وثيقة ادارة الحساب الخاص Gnomon idiou logou على العقوبات التى تقع على من يقدم بيانات غير صحيحة • وعلى أساس من هذه الاقرارات كانت تعد قوائم كاملة بأسماء السكان وأوضاعهم الاجتماعية •

وادخل الرومان عمليتين اداريتين تتصلان بالاحصاء وتكملانه ، الأولى هى الزام الأهالى بشهر مواليدهم والقصد من ذلك أن تكون قوائم الاحصاء مطابقة لأحوال السكان أولا بأول فى خلال الأعوام الأربعة عشر الواقعة بين احصاء وآخر • أما الاجراء الثانى فقد عرف باسم « فحص المستندات » Epicrisis ، ويقضى بأن الشخص الذى يدعى حقا فى الانتماء الى فئة ممتازة كالمحاربين القدامى الذين خدموا فى القوات الرومانية للمدة المقررة وسرحوا تسريحا مشرفا ويطلبون حق المواطنة الرومانيــة ، أو الصبية الذين

أشرفوا على بلوغ سن الرابعة عشرة ويطلبون ادراج أسمائهم فى فئة مواطنى عواصم الأقاليم ليدفعوا ضريبة الرأس بمعدلها المنخفض » عليه أن يتقدم بطلب مدعم بالوثائق التى تثبت حقه · ولم يكن يحصل على الموافقة الا بعد فحص مستنداته من قبل لجنة مختصة ·

طبقات الاغريق وفئاتهم :

هكذا يتضح أن الحكومة الرومانية ميزت بين ثلاث فئات من الاغريق : الأولى مواطنو مدينة الاسكندرية (وقياسا عليهم سائر مواطنى المدن الاغريقية فى مصر) ، وهؤلاء ساوتهم الحكومة بالمواطنين الرومان من حيث الاعفاء الكامل من ضريبة الرأس ، والثانية سكان عواصم الأقاليم الذين دفعوا هذه الضريبة مخفضة ، والثالثة عامة الاغريق من سكان المدن أو العواصم الاقليمية أو القرى، وهؤلاء دفعوا الضريبة كاملة · فأما مواطنو الاسكندرية فلدينا معلومات وافية عن امتيازاتهم التى جعلتهم يؤلفون مع المواطنين الرومان طبقة اقتصادية واحدة · والدليل على ذلك أن الوثائق الرسمية منذ منتصف القرن الأول الميلادى تقرن بين الرومان والاسكندريين فى فئة واحدة فى مقابل فئة السكان المحليين · وقد أحرز الاسكندريون ثروات كبيرة بفضل ممارسة النشاط التجارى فى مدينتهم التى كانت أكبر ميناء فى شرقى البحر المتوسط وأكبر مركز صناعى فى مصر ، ومكنهم ذلك من امتلاك مساحات كبيرة من الأراضى فى الريف المصرى · والى جانب امتياز الاعفاء الكامل من دفع ضريبة الرأس ومن الخدمات الالزامية ، فان حق المواطنة الاسكندرية كان شرطا لاكتساب « المصرى » (بالمعنى الاصطلاحى للكلمة) للمواطنة الرومانية مباشرة بمنحة خاصة من الامبراطور · وبالرغم من كل هذه الامتيازات الاقتصادية والأدبية ، فان

الاسكندريين استاءوا منذ البداية من الحكم الروماني الذى أنزل مدينتهم من علياء مجدها القديم بوصفها عاصمة لمملكة مستقلة الى مقر حكم وال ذى سلطات مطلقة يحكمهم لصالح الامبراطورية • وقد نفث الاسكندريون عما اضمروه من مشاعر العداء للرومان بأن صبوا جام غضبهم على اليهود الذين اعتبروهم صنائع المحتل وعملاءه ، ومن ناحية ثانية تجلى عدم رضائهم عن وضعهم السياسى فى سعيهم الدائب الى الحصول على حق المواطنة الرومانى •

أما فئات الاغريق الممتازة فى ريف مصر ونعنى بهم سكان العواصم فقد كان امتيازهم الاقتصادى كما ذكرنا هو دفع ضريبة الرأس بمعدلات منخفضة ، وكان هذا المعدل فى أوكسيرنيخوس (البهنسا) مثلا اثنتى عشرة دراخمة ، ومن هنا عرف هؤلاء فى الوثائق باسم مواطنى العواصم دافعى الاثنتى عشرة دراخمة ، فى حين كان هذا المعدل فى هرموبوليس (الأشمونين) وهيراكليوبوليس (أهناسيا) ثمانى دراخمات ، وفى أرسينوى (الفيوم) عشرين دراخمة من واقع أربعين دراخمة هى المعدل الكامل للضريبة • ويشير ما لدينا من الوثائق الخاصة بعملية فحص مستندات المتقدمين لادراج أسمائهم فى فئة مواطنى العواصم أن امتياز هذه الفئة كان متوارثا ، ويبدو أن الرومان اتجهوا الى تجميع الاغريق الذين كانوا قد انتشروا فى القرى والكفور فى العصر البطلمى وتركيزهم فى عواصم الأقاليم • وفى سبيل ذلك ألغوا ما كان قائما فى القرى من معاهد الجمنازيوم ، وقصروها على تلك العواصم ، وأضفوا على الجمنازيوم فى عاصمة الاقليم صفة رسمية ، واعتبروا كافة السكان سواء المقيمون فى العواصم أصلا أو انتقلوا اليها هم الفئة المتميزة • غير أن هذه الفئة لم تكن تشكل طبقة اجتماعية مغلقة ، اذ أنه كثيرا ما كان يمنح أفراد عاديون لقب مستروبوليتيس

(مواطن فى عاصمة) تكريمـا له لقاء قيامه بعمل خيرى أو فوزه فى مباراة رياضية • كذلك يتضح من اختلاط الأسماء الاغريقيـة بالأسماء المصرية عند كثير من أفراد هـذه الفئة أن بعض أفرادها كانوا اغريقا متمصرين أو مصريين متأغرقين •

غير أنه وجدت جماعات فى داخل هذه الفئة كانت أشبه بصفوة الصفوة ، وهى التى يرد اسمها فى الوثـائق باسـم « رجـال الجمنازيوم » ، وينص فى بعض هذه الوثائق صراحـة على أنها « طبقة » Tagma (وهو لفظ يونانى يقابل اللفظ اللاتينى Ordo) • وتشير الدلائل الى أن الرومان اختـاروا أعضـاء هذه الطبقة اختيارا من بين مواطنى عواصم الأقاليم فى العام الرابع والثـلاثين من حـكم أوغسطس (٥/٤ م) • وكان الهـدف هو خلق طبقة يستمدون منها رجالا يستطيعون ـ بحكم تعليمهم الاغريقى الذى تلقوه فى الجمنازيوم ـ أن ينهضوا بأعباء الوظائف البلدية وكذلك الوظائف الرسمية مثل الاستراتيجوس والكاتب الملكى • وكان فحص طلبـات المتقدمين للتسجيل فى هذه الطبقة يخضـع لتدقيق شديد ويقتضى تقديم مستندات أكثر مما كان يقدمه طالب عضوية فئة سكان العواصم • ويبدو أن أعضاء هـذه الطبقة كانوا شديدى الاحساس بتميزهم الطبقى بين سـكان العواصم • وفى وثيقة بردية من القرن الثالث نجد أسرة اغريقية ترجع نسبها عبر عشرة أجيال سابقة وعلى مدى قرنين ونصف قرن تقريبـا الى جدها الأول الذى توارثت عنه هذه الأجيـال صفة الانتمـاء الى هذه الطبقة منذ بدء تحديد أعضائها فى العام المذكور •

غير ان الأمر الذى استلفت نظر الباحثين هو عدم ورود ذكر هذه الطبقة بوصفها صفوة من فئة سكان العواصم فى اقليم أرسينوى مما جعل فريقا من هؤلاء الباحثين يرجح ان ما كان يقابل هـذه

الصفوة فى هذا الاقليم هى تلك الجماعة التى يرد ذكرها فى وثائقه تحت اسم « الستة آلاف وأربعمائة وخمسة وسبعين هيلينيا (اغريقيا) فى أرسينوى » ، اذ يشير هذا الرقم الثابت الى طبقة مغلقة يغلب على الظن أن أوغسطس (أو واحدا من خلفائه الأوائل) انتقى أفرادها من سلالة المستوطنين فى هذا الاقليم Katoikoi على أساس وضعهم الراهن آنذاك ، وذلك على غرار ما اتبع فى انتقاء طبقة رجال الجمنازيوم فى عام ٤/٥ م ٠

والى جانب هذه الفئات الممتازة ، وجدت أعداد كبيرة من الاغريق آثروا العيش فى القرى ولم ينتقلوا الى عاصمة الاقليم ، وهؤلاء لم يكن ثمة ما يمنع زواجهم من المصريين قانونا أو خوفا من ضياع امتياز بعينه ، ولذلك اختلطوا بالعنصر الوطنى المصرى واندمجوا فيه وأصبحوا شديدى الشبه به ٠

المصريون :

وقد كان العنصر الوطنى بالطبع هو الأغلبية العظمى فى ريف مصر ، وكانوا أفقر فئات السكان وأكثرها أعباء ٠ فالى جانب ضريبة الرأس التى كانوا يؤدونها كاملة ، كان يخضعون لأعمال السخرة ، ثم الأنواع شتى من الضرائب ٠ وكانت غالبية عامة المصريين يشتغلون بالزراعة ويزاولون مختلف الحرف والصناعات ٠ أما فئة أصحاب الأراضى منهم ، وهم الذين كانوا فى البداية على شىء من اليسر ، فقد سقط على كاهلهم عبء الخدمات الالزامية كزراعة الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة عليها والقيام بمهام ادارية تكلفهم بها السلطات لأن بعضهم كان ملما بشىء من اليونانية التى ظلت لغة الادارة ، فضلا عما كان لديهم من أراض اعتبرت ضمانا للتسديد اذا ما قصروا فى أداء التزام ٠ وعندما

كثرت أعباء هؤلاء لجأوا مع سائر الفلاحين الى الفرار من مواطنهم ، وازدادت على مر الأيام ظاهرة « التسحب » ، حيث كان الفارون يختبئون بين أحراش الدلتا أو يتسللون الى مدينة كبيرة كالاسكندرية يتوارون فى زحمة سكانها ، أو يجدون عملا متواضعا يقوم بأودهم •

أما أرفع فئات المصريين شأنا على مر العصور وهم رجال الدين ، فقد تعمدت السياسة الرومانية اضعافهم لكسر شوكتهم• وقد مر بنا أن أوغسطس صادر جانبا كبيرا من أراضى المعابد بالرغم من أن سياسته العامة كانت تسير فى اتجاه معاكس للمصادرة ، لولا أن الهدف هنا كان سياسيا • كذلك أنقص عدد المعابد التى كانت تتمتع بحق ايواء اللاجئين اليها ، ولم يعف من ضريبة الرأس من الكهنة الا عدد محدود أخذ يتناقص بمرور الوقت •

اليهود :

ونختتم الحديث عن فئات السكان بذكر الجالية اليهودية فى مصر ابان العصر الرومانى والتى يذكر « فيلون » أن عددها فى أوائل هذا العصر بلغ مليون نسمة • ولسنا نرى فى هذا العدد مبالغة ، اذ أنه كان من الطبيعى أن يزداد عددهم فى العصر البطلمى بفضل ما تمتعوا به عندئذ من امتيازات • وقد انتشر اليهود فى جميع أنحاء البلاد ، لكن الحياة فى الاسكندرية اجتذبتهم بصفة خاصة لنشاطها الاقتصادى العظيم حتى شغلت مساكنهم حيا كاملا من احيائها (الحى الرابع) • وعندما دخل أوغسطس الاسكندرية أظهر لليهود ودا وأقر لهم بكل الامتيازات التى منحهم اياها البطالمة ، من حيث التمتع بالحرية التامة فى اقامة شعائرهم وفقا لتعاليم دينهم ، وانشاء جمعية قومية Politeuma كانت

فى الحقيقة رابطة عنصرية وهى التى يتعمد فيلون أن يسميها Politeia ، واختيار زعيم طائفة Ethnarchos ومجلس شيوخ Gerousia وترتب على ذلك اطراد زيادة عددهم حتى شغلت مساكنهم حيين كاملين وامتدت الى حى ثالث من المدينة • غير أن اليهود كانوا يتطلعون الى الحصول من الرومان على حق المواطنة فى الاسكندرية ، وهذا ما نقمه الاسكندريون منهم ، مثلما نقموا هم من الرومان فرضهم ضريبة الرأس على اليهود فى الاسكندرية وأنحاء مصر كسائر المصريين واعتبروا ذلك حطة ومهانة •

ويحدثنا فيلون ، وهو من خاصة مثقفى اليهود ومفكريهم فى الاسكندرية فى أوائل العصر الرومانى ، أن يهود الاسكندرية كانوا ينقسمون الى عدة فئات هى أصحاب رءوس الأموال ، والمشتغلون فى النقل البحرى ، والتجار ، وأرباب الحرف ، والمزارعون فى الأراضى الواقعة حول الاسكندرية • ويبدو أن عددا كبيرا من يهود الاسكندرية اتخذ أسماء الاغريق ولباسهم وتعلم لغتهم وأقبل على ثقافتهم ، فكان يحضر العروض المسرحية الاغريقية ، مثل فيلون نفسه ، بل حلا لبعضهم أن يتسلل للمشاركة فى حياة الجمنازيوم ، لكن أكثريتهم طبقت تعاليم التوارة بحذافيرها ، وهو ما كان يلقى من اغريق الاسكندرية استغرابا مشوبا بالاستهجان والازدراء •

أما اليهود فى سائر أنحاء مصر فكان منهم ملاك الأراضى والتجار وأصحاب المهن الحرة والعاملون فى النقل النهرى والبحرى وصغار الحرفيين والعبيد المعتقون • وكان لابد من أن يتشبه بعضهم بالمصريين من حيث الأسماء وبعض العادات ، لكن هناك ما يشير الى بقاء التقاليد اليهودية قوية عند الأكثرية ، اذ نسمع عن بيع يهودية (أماكن عبادتهم)فى أنحاء من ريف مصر تقوم على رعايتها

جاليات ، كما نعلم أنهم عاشوا فى بعض المدن الاقليمية الكبيرة فى أحياء خاصة • غير أنه لابد من أن نقدر الضعف الذى حل باليهود فى تلك الأنحاء فى أعقاب اخماد ثورتهم الكبرى فى عهد تراجان ، وهى تلك الثورة التى سقط فيهـا الضحايا من الاغريق واليهود والسكان الوطنيين بالآلاف •

ولقد عانت الحكومة الرومانيـة من الفتن بين الاسكندريين واليهود منذ عام ٣٨ م • ثم أشعل اليهود فى عام ٦٦ ثورتهم فى فلسطين ضد الرومان فلم تخمد الا فى عام ٧٠ بسقوط القدس وتدمير الهيكل • ومنذ ذلك الوقت أخذ الرومان ينزلون الضربات باليهود ، مما حرك كوامن ضغينتهم القديمة وبعث فيهم فكرة الخـلاص من الحكم الرومانى جملة ، فأشعلوا نيران حرب ضروس (١١٥ ـــ ١١٧) كان من نتائجها أن من بقى منهم على قيد الحياة فى مصر عاش فى جو مشبع بكراهيتهم • ومن الملحوظ أن اليهود أصبحوا عنـدئذ مجتمعا شديد الانغلاق عزوفا عن الأخذ بأسباب التمدن الاغريقى مستمسكا بصورة أكبر بتقاليده الدينية • وقد يكون ذلك راجعا الى ما لقيه اليهود على أيدى الاغريق والرومـان ، أو الى ظهور المسيحيـة التى ناصبتهم العـداء • ومنذ خمـدت آخر حركاتهم الثورية فى الاسكندرية فى أواخر عهد هادريان ، لم نسمع عنهم شيئا يفيد قيامهم باثارة فتنة أو شغب الا فى عـام ٤٢٥ عندما اتهمهم كيرلس الأكبر أسقف الاسكندرية بالتآمر ، قـاد جماعات المسيحيين ضدهم وطردهم من المدينة •

- ٤ -

السياسة الاقتصادية

كان تحقيق أكبر عائد ممكن من دخل مصر هو الهدف الأكبر الذى وضعه الرومان نصب أعينهم وعملت من أجله مختلف نظمهم الادارية والاقتصادية والاجتماعية . وقد ترددت عند بعض الكتاب القدماء أخبار عن تلك المقادير الهائلة من الحبوب والمبالغ الطائلة من الجزية النقدية التى كانت ترسل الى روما سنويا ، كما أوضحت دراسة الوثائق البردية مدى دقة اشراف الجهاز الادارى بكافة مستوياته على أدوات الانتاج . وفى مجال الضرائب النقدية والنوعية على السواء لم يترك الرومان بابا الا طرقوه . والحق أن من يراجع تلك الوثيقة المهمة المتضمنة لأحكام « ادارة الحساب الخاص » Gnomon idiou logoce يعجب من تعقب هذه الأحكام لكل ما يمكن تحصيله من ايرادات للحكومة ، أو بالأحرى اعتصار موارد الدخل حتى آخر دراخمة من نقد أو صاع من قمح . بل انه فى بعض الوثائق ورد وصف الخزانة على أنها « بالغة القداسة » Hcrótaton tameion ، أى أن صوالحها تفوق أى اعتبار . وقد يصادف الدارس امبراطورا أو آخر من أباطرة الرومان اظهر اعتدالا فى سياسة استغلال موارد مصر ، كما يلوح لنا مثلا من عبارة الإمبراطور تيبيريوس المأثورة عن جز

صوف الغنم لا سلخها ، لكن فى ظاهر هـذه العبارة رحمة وفى باطنها حكمة توجه الى حسن استثمار الضيعة ابقاء على قدراتهـا الانتاجية • وليت السياسـة الرومانية استوعبت هذه الحكمة فقللت من ابتزاز موارد البـلاد وابهاظ أهلهـا بالمغـارم حتى بدأت نذر الانهيار الاقتصـادى منذ منتصف القرن الثانى على الأقل •• وقد يحلو للبعض أن يذكر أن أمر الضرائب التى شملت كل شىء لم يكن جديدا على مصر بل استمرارا لسياسة البطالمـة ، لكن علينا أن نذكر أن الجزية النوعيـة بلغت منذ أوائل العصر الرومـانى أضعاف أضعاف ما كان يحصل عليه البطالمـة ، فضلا عن أن جزءا كبيرا مما كان يبتزه هؤلاء كان يبقى فى مصر ، أما ما ابتزه الرومان فقد حمل الى خارج مصر لينعم به شعب روما •

أنواع الأراضى والضرائب الزراعية :

ونعرض فى ايجاز شديد لمعالم سياسة الرومان الاقتصادية فى مصر فى قطاعاتها التقليدية الثلاثـة وهى الزراعـة والصناعـة والتجارة • وكانت الزراعة بالطبع هى مورد الانتـاج الأول فى البلاد • وقد مر بنا أن أوغسطس وجه اهتماما بالغا لرفع انتاجية الأراضى الزراعية ، فلم يكتف باصـلاح نظام الرى وانما انتهج سياسة جديدة فى مجال ملكية الأراضى الزراعيـة قوامها تشجيع الملكية الخاصة • والملاحظ فى نظـام الأراضى البطلمى أن الأساس النظرى لاستغلال « أراضى العطاء » Gé en aphesci لم يكن يقوم على حق الأفراد الطبيعى فى الامتلاك بل على أنه منحـة من الملك •• وعلى ذلك فانه اذا كانت الملكية الخاصـة قد وجدت فى البطالمـة فقد كانت مخالفة للأسـاس النظرى لحكمهم بل معاكسة له •• لكن أوغسطس شجع الملكية الشخصية بغير حدود ، وكان هدفه أن يقبل الأفراد من القادرين خاصـة ومن الراغبين كافـة على

الامتلاك الكامل للأراضى والقيام على استثمارها لاستعادة قدرتهـا الانتاجية ، وتدلنا الأثمان التى عرضت بها هذه الأراضى للتمليك على أنها كانت أثمانا رمزية • كذلك فان ما يدل على تشجيـع أوغسطس المطلق للملكيـة الشخصية أنه جعل الاقطاعات العسكرية البطلمية ملكا خاصا لحائزيها بعد أن كانت من الناحية النظرية هبة مؤقتة • وكان أوغسطس يستطيع فى الواقع أن يصـادر هذه الأراضى باعتبار أن حائزيهـا لم يعودوا يقدمون للدولة خدمـات عسكرية أى أن أساس حيازتهم لحق الانتفاع قد سقط • وهكذا يمكن القول بأن تغييرا أساسيا قد حدث فى نظام الأراضى بالرغم من أن التسميات الاصطلاحية التى كانت تطلق على أقسام الأراضى فى العصر البطلمى بقيت مستخدمة فى الوثائق •

ولا سبيل هنا الى الحديث بالتفصيل عن نظام الأراضى فى العصر الرومانى ، ويكفى أن نشير فى ايجـاز الى أنه وجد ثلاثـة أقسام رئيسة أولها أرض الدولة وكانت تضم فئتين هما الأراضى الملكية Basiliké gé وهى الأراضى التى كان ملوك البطالمـة يستغلونها استغلالا مباشرا آلت الى ملكيـة الدولة بعد استـيلاء الرومـان عـلى مصـر ، والأراضى العـامة Demosia gé (فى اللاتينية Ager publicus) ويـبدو أنها كانت تتـألف من الأراضى التى انتزعها أوغسطس من المعابد والأراضى المهملة التى بارت أو التى لا صـاحب لها • غير أن الفرق بين فئتى الأراضى فى هذا القسم غير واضح تماما • أما القسم الثانى فيمـكن تسميته أراضى الامبراطور الخاصة Ousiaké gé ، وكانت فى الأصل أراضى منحها الأباطرة لأفراد من أسرهم وأصفيائهم أو باعوها للمستثمرين بأثمان رمزية حتى نشأت ضياع لهم كبيرة • لكنه بعد منتصف القرن الأول بقليـل أخذ الأباطرة يستردون هـذه الأراضى خشـية من تضخم نفوذ ملاكها من الرومان أو خوفا من بوارها لأن كثيرا من

حائزيها كانوا ملاكا متغيبين • وأما القسم الثالث فهو ما يعرف بأراضي الامتلاك الخاص Idiotiké gé ، وقد زادت مساحة هذا القسم في العصر الروماني زيادة كبيرة ، وكانت أهم فئاته التي احتواها أراضي الاقطاعات العسكرية التي أبقاها الرومان في يد حائزيها والاقطاعات التي منحت لقدامى المحاربين الرومان • والى جانب هذه الأقسام الثلاثة الرئيسية وجدت أقسام أقل أهمية مثل أراضي المعابد وأراضي المدن وأراضي الدخل •

وقد تنوعت الضرائب الزراعية على هذه الأقسام تبعا لجودتها ونوع المزروعات وحالة الفيضان كل عام • كذلك كان يميز بين الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان وتلك التي لا تصلها مياهه Abrochos • وكان « كاتب القرية » مسئولا عن اعداد سجل لكافة أنواع الأراضي الواقعة في زمام قريته ومساحة كل نوع وموقعه ومدى استحقاقات الحكومة عليه سواء من الضرائب أو الايجار ، ونوع المزروعات في كل مساحة والتغيير الذي يطرأ على حالة الأرض وفقا لحالة الفيضان • وكان هذا السجل يراجع سنويا ضمانا لمطابقته للواقع لضبط الضرائب المقررة • وقد كانت أهم الضرائب على الأراضي الزراعية هي ضريبة الحبوب ، وكانت تجبى نوعا من القمح على وجه الخصوص وعن كل ما يزرع حبوبا من أراضي الامتلاك الخاص وأراضي المدن وذلك الجزء من أراضي المعابد الذي ترك للكهنة المصريين أمر زراعته • وقد شكل دخل هذه الضريبة جانبا مهما من جزية القمح التي كانت تدفعها مصر لروما سنويا أما الباقي فكان يأتي من ايجار الأراضي العامة التي كانت الدولة تحصله نوعا وتراوحت ضريبة الحبوب على أراضي الامتلاك الخاص بين ¾ أردب وأردبين على كل أرودة (الأرودة ٣/٥ الفدان المصري تقريبا) ولم تكن مسئولية الزارع عن توريد هذه الضريبة تنتهي

الا بعد حصوله على ايصال بذلك من السيتولوجوس Sitologos (أمين الشونة) •

وفرضت على أراضى الكروم والنخيل والبساتين مجموعة ضرائب نقدية احداها ضريبة « الجيومتريا » ، أضيف اليها بالنسبة الى أرض البساتين ضريبة « الأبوموبرا » ثم ضريبة ثالثة دفعتها أرض البساتين سواء كانت من أراضى الدولة أو أراضى الامتلاك الخاص هى ضريبة « الأباروريون » ، ثم ضريبة اضافية على كافة أنواع الأراضى (ويحتمل أن أراضي المعابد أعفيت منها) وهى ضريبة « الناوبيون » وكان ينفق من ايرادها على انشاء الجسور وصيانة القنوات ويدفعها مالك الأرض اذا أراد أن يعفى شخصيا من أعمال السخرة • كذلك فرضت على حيوانات المزارعين والفلاحين ضرائب نقدية ونوعية • فكان ثمة ضرائب نقدية على الخنازير والأغنام أما الحمير المملوكة للأفراد فكان يتعين أن تعمل فى أجران الحبوب الحكومية أو حفر الترع وتطهير القنوات خمسة أيام كل سنة على سبيل السخرة أو يدفع بدلا من تسخيرها ضريبة نقدية •

وهكذا تعطينا هذه الأمثلة من الضرائب الزراعية صورة لثقل وطأة ما ألقى على كاهل المزارعين ، فاذا ما أضفناها الى ضرائب أخرى كان يدفعها هؤلاء فى خارج نطاق النشاط الزراعى ذاته كضريبة الرأس التى فرضت على جميع الذكور بدءا من سن الرابعة عشرة وضريبة التموينية العسكرية (أنونا ميليتاريس) • وهى ضريبة نوعية ، وضريبة التاج التى لم تكن ضريبة ثابتة من حيث معدلها أو المناسبة التى تجبى فيها ثم أصبحت عند أواخر القرن الثانى ضريبة نقدية تجبى سنويا ، اذا أضفنا هذا كله ، حسبنا أن المزارع المصرى كان مكلفا بأن يؤدى للحكومة نسبة كبيرة من دخله ربما زادت على الربع •

النشاط الصناعى والتجارى :

مثلما شجع الرومان الملكية الخاصة فى مجال الزراعة ، مالوا الى سياسة الاقتصاد الحر فى الصناعة والتجارة الى حد كبير وفى هذا اختلفوا مع السياسة البطلمية التى قامت على مبدأ الاحتكار الكامل • ولا يعنى هذا أن الحكومة الرومانية تخلت تماما عن هذا المبدأ ، فالذى نعرفه عن استغلال المناجم والمحاجر أنه ظل حكرا للدولة • لكن قائمة الاحتكارات البطلمية قلت فى العصر الرومانى • ولعلنا ننوه هنا بأن احتكار صناعة الزيت الذى كان أهم احتكارات البطالمة لم يعد عندئذ احتكارا كاملا • لكن الرومان مارسوا من غير شك درجات متفاوتة من التحكم والاشراف على الصناعات المصرية الرئيسية المهمة مثل النسيج وورق البردى والزجاج وطوب البناء والجعة •

ولعل صناعة النسيج كانت أهم هذه الصناعات وهى كما نعلم صناعة جد قديمة فى مصر التى اشتهرت بأنواع بعينها من النسيج فى أسواق العالم • ويبدو أن بعض أصناف النسيج كان يصنع لأغراض التصدير خاصة • وقد اتبع الرومان سياسة محكمة للاشراف على مصانع النسيج لاستغلالها أقصى استغلال فامتلكت الحكومة المصانع ، وأحكمت الاشراف على عمالها من خلال الاشراف على نقاباتهم (وان كان نظام النقابات غير واضح المعالم تماما فى مصر فى عصرهم) ، وهناك ما يشير الى اعفاء هؤلاء العمال من الأعمال الاجبارية • أما ما بقى من مصانع النسيج فى ملكية الأفراد فقد فرضت الحكومة عليه بالطبع ضرائب نقدية ونوعية كما فرضت عليهم امدادها بقدر محدد من ملابس الجند والشرطة لقاء أجر •

أما صناعة ورق البردى التى كانت دائما حكرا لمصر دون منافسة خارجية ، فقد اختلفت الآراء حول سياسة الحكومة ازاءها

ما بين احتكارها أو تركها للانتـاج الحر • وتميل الشواهد من الوثائق الى تأييد الرأى القائل بأن هذه الصناعة كانت حرة فى بداية الحكم الرومانى على الأقل • ولعل الرومان فضـلوا فرض ضريبة مالية ثابتة على الانتاج Charters وضريبة نوعية أخرى تحدد سنويا ترسـل الى روما وفقا لاحتياجاتها • وأما صناعـة الزجاج فكانت عريقة فى مصر كذلك ويتردد فى مصـادر القرنين الأول والثانى ما يفيد أن صـناع الزجـاج فى الاسكندرية ارتقوا بصناعتهم ، وأنه كانت لهم أسرار خاصة فى هذه الصناعة • وتميل الشواهد الى حرية الأفراد فى مجال انتاجها •

غير أن الحكومة اذا كانت قد تنازلت عن مبدأ الاحتكار فى الصناعة ، فانها ظلت فى كل الأحوال متحكمة فى مزاولة الحرف والصناعات • فكان لا يتيسر لأحد مزاولة أى حرفة أو صناعـة الا بترخيص من الحـكومة ، لقـاء نسبة من الأرباح أو الدخـل أو لقاء ضريبـة مجزية ، أو لقاء الاثنين معا فى بعض الحالات ، بل ان الحكومة فرضت ضريبة على الذين كانوا يتعلمون الحرف والصناعات عند بلوغهم سن القدرة على الكسب •

أما دخل الرومان من تجـارة مصر الداخليـة والخارجيـة فليس من شك فى أنه كان دخلا عظيما • فبالنسبة الى التجـارة الداخليـة تبين الوثائق أنه كان يتعين على من يريد الاتجـار فى سلعة أن يحصـل من الحكومة على ترخيص بذلك لقاء مبلغ سنوى أو شهرى يتفاوت بين سلعة وأخرى وبين اقليم وآخر بل بين قرية وأخرى فى الاقليم الواحد ، ومما يجدر بالذكر أنه كان من الممكن أن تبيع الحكومة حق احتكار بيع سلعة ما فى منطقـة بأكملهـا لشخص واحد • ومن ناحية ثانية قامت الحكومة بتحصيل العوائد على التجارة الداخلية المتبادلة بين أقسام مصر الثلاثة الدلتا ومصر

الوسطى والعليا • فوجد لذلك مركز فى منف لجباية هذه العوائد على التجارة بين الدلتا ومصر الوسطى ، وآخر فى هرموبوليس (الأشمونين) للتجارة بين مصر الوسطى ومصر العليا ، وثالث عند سخيا لتحصيل العوائد على التجارة بين الاسكندرية وداخلية البلاد باعتبار أن الاسكندرية كانت تؤلف وحدة قائمة بذاتها • بل انه يتبين من المصادر أن ثمة ضرائب كانت تجبى عن تبادل رسوم اضافية لحراسة الطرق الصحراوية أو لصيانة الموانىء أو نظير الحصول على ترخيص بمغادرة البلاد •

وأما تجارة مصر الخارجية فقد ازدهرت فى العصر الرومانى ازدهارا عظيما • ذلك أن التجارة العالمية بصفة عامة قد نمت فى ظل نشر السلام بعد توطيد أركان الامبراطورية وتوحد العالم القديم فى أكثر مراكزه أهمية • ويفضل موقع مصر المتوسط الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب وامتلاكها سواحل طويلة على كل من البحر المتوسط والبحر الأحمر ، كان من الطبيعى أن تحتل مصر مكان الصدارة فى التجارة العالمية ، وأن تصبح الاسكندرية ميناء مصر الأولى أكبر مركز تجارى فى العالم كله كما يؤكد « استرابون » ، حيث لم يقتصر دورها فى التجارة الخارجية على منتجات مصر المحلية وانما قامت بدور الوسيط التجارى بأن تستورد البضائع اليها ثم تعيد تصديرها بعد اعادة تصنيعها الى الأسواق الخارجية • ولا ريب أن الحكومة كانت تحصل مكوسا عن التجارة الواردة الى مصر من الشرق والمصدرة منها اليه • وثمة قرائن ترجح أن ما كان يحصل على التجارة الواردة الى ميناء ليوكى كومى على البحر الأحمر كانت مكوسا ثابتة تقدر بربع قيمة الواردات ، وهى نسبة مرتفعة كانت توفر للحكومة دخلا عظيما •

- ٥ -

الديانـات والعقـائد

رأينا أن سكان مصر فى عصر الرومان كانوا يؤلفون خليطـا من الجنسيات والعناصر ، وأنه الى جانب الأغلبيـة الساحقة من المصريين ، وجدت أقليات يعتد بها من الاغريق ذوى الامتيـازات الاجتماعية المتفاوتة سـواء فى المدن أو فى الأقاليم ، وجاليات كبيرة أو صغيرة من اليهود والسوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم • وقد أضيف الى هؤلاء وأولئك جميعا العنصر الذى جاء فى ركاب الاحتلال وهم المواطنون الرومان • وترتب على وجود هذا الخليط من العناصر خليط من العقائـد والديانات المصريـة والاغريقيـة والآسيوية والرومانية ، وأخيرا جاءت الديانة المسيحية التى يرجح أنها دخلت الى مصر فى القرن الأول الميـلادى ، فكانت عنصرا بالغ الأثر والأهميـة فى الحياة الدينية والثقافية فى العصر الرومانى • وقد لقى أتباع كل هذه الديانات من الرومان سياسـة متسامحة فى ممارسة شعائرهم الدينية مادام ذلك لم يتعـارض مع ولائهم للدولة • والواقع أنه لم يؤثر عن الرومان تعصب أو تشـدد فى أمور العقيدة • وقد وضح لنا أن تشددهم مع اليهود لم يبدأ الا عندما قاوموا السـلطة الرومانية ، وكذلك الحـال مع المسيحية ، فأن الأباطرة الذين اشتهر عنهم اضطهادها كانت سياسـتهم فى ذلك

نابعة من خوفهم على الامبراطورية من التفكك بفعل هـذا الدين وليس من رغبة فى اضطهاد العقيدة ذاتها ٠

الرومان والديانة المصرية :

احترم الرومان حرية المصريين العقيدية ، بل قاموا على رعاية الديانة المصرية ببناء معابد جديدة أو اصلاح المعابد القديمـة ٠ وقد تابعوا سياسة أسلافهم البطالمـة فى استغلال تمسـك المصريين بعقيدتهم الراسخة فى أن الفرعون يحكم البلاد من خلال الحق الالهى بوصفه الها وبشرا فى آن واحد ، فرسم الأباطرة أنفسهم فراعنة ، واتخذوا الألقاب والصفات الفرعونية ، وبدت صورهم على جدران المعابد والنصب الرسمية فى هيئة الفراعنـة وأزيائهم التقليدية ، على أساس أن هذا يضفى الشرعية على سلطة الامبراطور فى عيون المصريين ٠ بل ان ما يبين شدة حرص الحكومة الرومانية فى مصر على مراعاة التقاليد الفرعونيـة أن الوالى ، وهو الممثل الشخصى للامبراطور ، كان يتشبه بالفراعنة فى عدم الابحار فى النيل فى وقت الفيضان ، وفى تقديم الهدايا والقرابين الى النيل حين يبلغ فيضانه نقطة تمامه ٠ لكن الأمر لم يلبث أن تعدى هذه المظاهر التي كانت الغاية من ورائها سياسية فى المقام الأول بحيث لاحظنا تحولا فى نظرة الأباطرة الى آلهة الديانة المصرية ذاتها ٠ ولعلنا نذكر مدى ما أظهره أوغسطس من احتقار لهذه الآلهة ٠ وما وجهه شعراء عصره اليها من هجاء وتنديد ، لكن لم تلبث هـذه الآلهة أن استهوت بطقوسها وأسرارها خلفـاء أوغسطس من بعد تيبيريوس فأقبلوا يحاولون التعرف على هذه الأسرار ٠ وقد وضحت مظاهر هـذا الاهتمام فى عهود أباطرة أسرة فلافيوس الثلاثة وهم فسبسيان الذى كان معجبا بالالهة المصرية ايزيس ، وتيتوس الذى اشترك فى حفل تكريس العجل أبيس الجديد رسميا فى منف ثم دوميتيان الذى رعى

ديانة ايزيس خاصـة فى روما والذى بدأ فى عهده تصـوير بعض الآلهة المصرية المحلية على نقود الاسكندرية ٠

غير أن هذا التسامح والرعاية للديانة المصرية قد قابله الحزم والتشدد مع رجال الدين المصريين الذين وجد الرومان لهم شـوكة قوية قوامها أساس مادى من اقتصاديات المعابد وسلطان روحى قديم على الأهـالى ٠ ذلك أن البطالمـة الأواخر اضطروا الى اتباع سياسة اللين معهم ، فأعادوا لهم أكثر امتيازاتهم من اعفاءات ضريبية وحرية الانتـاج فى أراضى المعابد وحق ايواء المعابد للاجئين ٠ ولم يكن أوغسطس ليستطيع أن يقر للكهنة بهذا الوضـع القوى لأنه خشى مغبة دور قيادى يقومون فى تغذية روح الثورة على الحكم الرومانى خاصة فى جنوب الوادى . ولذلك صادر مساحات كبيرة من أراضى المعابد ولم يسمح للكهنـة الا بزراعة المساحات الكافيـة لتوفير حاجات المعابد فقط ٠ وفضـلا عن ذلك وضعت المعابد نفسها بنظمها الكهنوتية وحساباتها تحت اشراف السلطة المركزية٠وتوضح لنا الوثائق كيف كان اشراف الاديوس لوجوس على هذه المعابد اشرافا بالغ الدقة ٠ وقد حققت هذه السياسة أهدافها ، فلم نسمع عن نشاط للكهنـة فى اثارة المصريين ضد المحتل على مدى قرنين من الزمان بعد ثورة اقليم طيبة فى مطلع الحكم الرومانى ٠

الرومان والديانة الاغريقية :

ليس من شك فى أن كثيرا من الاغريق احتفظوا بعبادة آلهتهم القديمة خاصـة فى المدن الاغريقية فى مصر ، وان كنا نتصـور أن الاسكندرية التى كانت من أهم مراكز التقـاء الديانة الاغريقيـة بالديانات الشرقية ، قد شهدت امتزاجا كبيرا بين كافة العقائد ٠ وقد استمرت عبادة الثـالوث المقـدس (سرابيس) تحتل مكان

الصدارة فى عبادات الاغريق فى مصر · وقد ازدهرت هـذه العبادة ازدهارا كبيرا فى العصر الرومانى ، بل لقد انتشرت انتشارا عالميا واسع النطاق واكب فيما يبدو انتشار عبادة ايزيس التى كانت تحتل فى الثالوث المقدس مركز الأم · واذا كانت ايزيس فى انتشارها العالمى الذى وصـل الى الهند شرقـا قد احتفظت بشخصيتهـا الأصيلة بالرغم من محـاولة تشبيهها بالالهتين الاغريقيتين ديميتر وأفروديتى فاننا نستطيع أن نرصد فى عبادة سيرابيس فى الاسكندرية ظاهرة تؤكد أن الاغريق أصبحوا أكثر ألفة بالآلهة المصريـة بعد طول معايشة لها فى مصر ولأن هذه الآلهة كانت تستهويهم بأسرارها الغامضـة · ذلك أن القرابين التى كانت تقـدم الى سرابيس من المصريين والاغريق على السواء فى العصر الرومانى ، كانت تقدم اليه وهو فى صورة العجل أبيس ــ وهى الصورة المصرية ــ أكثر مما تقدم اليه فى الصـورة الاغريقية · ولعلنا نذكر هنا أن اهداء الامبراطور هادريان نفسه لمعبد السرابيوم بالاسكندرية كان تمثالا بالغ الروعة للعجل أبيس ·

وفى مجال القصائد الاغريقية استغل أباطرة الرومان مبدأ تأليه الملوك الذى استقر فى العصر الهلنستى لاقامة عبادة عامة تعينهم على احكام السيطرة على شعوب الامبراطورية بتوحيد ولائها لروما فى شخص الامبراطور المقدس · وكان البطالمـة قد استغلوا هذا المبدأ لاضفاء الشرعية على سلطتهم الأوتوقراطية أمام الاغريق · واذا كان ملوك العصر الهلنستى قد رفعوا الى مصـاف الآلهة على أسـاس قيامهم بأعمـال فذة أو اصـلاحات جليلة وما أظهروه من تمتعهم بقدرات غير مألوفة ، فلم يكن من المبالغة فى شىء اعتبار أن أوغسطس الذى نشر ألوية السـلام بعد أن أحرز انتصارات باهرة وانجازات مهمة يرتفع أيضا الى هذه المنزلة ، وقد قرن الرومان بينه وبين زيوس اليوثيريوس Eleutherius مثلما قرنوا بين الامبراطور

نيرون « والروح الخيرة » Agathodaimon • غير أنه ينبغي الالتفات الى أن عبادة الامبراطور عند الرومان لم تكن على أساس أنه اله Deus بل على أنه « مؤله » Divius وتحت هذه الصفة الأخيرة كان يجرى ذكر أرفع الأباطرة شأنا فى عيون الرومان وهو أوغسطس • ولسنا نملك دليلا على أن تأليه الأباطرة قد تم فى حياتهم ، مثلما حدث فى الجيل الثانى من ملوك العصر الهلنستى ، وانما كان ذلك يتم بعد وفاتهم ، وعندئذ توضع تماثيلهم فى معابد الآلهة الكبرى ، ويخصص لعبادتهم فى الأغلب كاهن • غير أن الاغريق فى مصر ، بحكم ما ألفوه من عبادة الملك البطلمى من قبل ، لم يفرقوا بين مفهومى « اله » و « مؤله » وأطلقوا على شخص الامبراطور لفظ اله Theos ، وفى الوثائق الرسمية التى كانت صيغتها تنتهى بالقسم كان هذا يتم بصيغة « الامبراطور الاله » أو باسم طالعه السعيد Tyche أو الملاك الحارس لروحه Genius •كذلك ينبغى أن نذكر أن الأباطرة قدموا أنفسهم من خلال هذه العبادات الى الاغريق فى مصر ، ولم يفرضوها فرضا على المصريين أو على اليهود •

اليهود فى ظل الحكم الرومانى :

وقد استمر اليهود فى مصر يمارسون شعائر دينهم بمنأى عن التأثيرات العقائدية منعزلين فى بيعهم الكثيرة التى وجدت فى عدد من مدن مصر الكبيرة الى جانب بيعتهم الكبرى فى ليونتوبوليس (تل اليهودية) فى جنوب الدلتا • وكان التطور الوحيد الذى طرأ على الديانة اليهودية التقليدية ما حدثنا به الفيلسوف اليهودى الاسكندرى فيلون عن جماعة من النساك من يهود الاسكندرية فى القرن الأول الميلادى عرفوا باسم Therapeutai أى « المتنطسين » ، وكانت لهم بيعة خاصة بالقرب من بحيرة مريوط

مارسوا فيها حياة الزهد والانقطاع للدرس والتأمل ، وكان لكل فرد من الجماعة صومعة صغيرة يتعبد فيها وحيدا ستة أيام فى الأسبوع ثم يلتقى الجميع للصلاة فى يوم السبت من كل أسبوع ثم يوما واحدا كل خمسين يوما • وقد حاول بعض الباحثين أن يرى فى ذلك تأثرا بنحلة شرقية هندية ، لكن ما هو معلوم من تعصب اليهود لعقيدتهم وبعدهم بالتالى عن أسباب التأثر بالعقائد الأخرى يجعل البعض يرجح أن يكون عامل التأثير هنا محليا من واقع البيئة المصرية حيث الصحراء بما فيها من قوة جذب خاصة لأولئك الذين تتملكهم الرغبة فى التأمل والتعمق فى شئون البلاد •

ومن حيث ممارسة الشعائر الدينية ، تمتع اليهود بالحرية الكاملة التى أقرها لهم أوغسطس وكفلها لهم خلفاؤه • وفى أعقاب الفتنة التى اندلعت فى عام ٣٨ بين اليهود والاسكندريين ، جاءت رسالة الامبراطور كلاوديوس الى الاسكندريين فى عام ٤١ فأكدت حق اليهود فى الحرية الدينية الكاملة ، لكنه فى عام ٧٣ أمر الامبراطور فسبسيان بتدمير بيعتهم الكبيرة فى ليونتوبوليس ، ورأى والى مصر عندئذ أن من حسن السياسة أن يكتفى باغلاقها • ولم يكن فسبسيان يصدر فى هذا عن سياسة اضطهاد دينى ، وانما كان ذلك اجراءا سياسيا أو اقتصاديا فى تحليل بعض الباحثين ، والغالب أن الامبراطور خشى أن يتخذ اليهود من هذه البيعة بديلا عن هيكلهم فى القدس الذى كان ابنه تيتوس قد دمره فى عام ٧٠ وهو يسحق ثورة اليهود فى فلسطين •

موقف الرومان من الديانة المسيحية فى مصر :

لا تزال معلوماتنا قاصرة عن معرفة الوقت الذى دخلت فيه المسيحية الى مصر على وجه التحديد ، وان كانت هناك تلك الرواية

المتواترة الواردة عند مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (القرن الرابع الميلادى) من أن القديس مرقص أحد تلامذة السيد المسيح هو الذى أسس كنيسة الإسكندرية . وبالرغم من أن أكثرية الباحثين يتشككون فى صدق هذه الرواية ، فان المتصور أنه كان لابد من أن تصل الديانة الجديدة الى الاسكندرية فى وقت باكر نسبيا بفضل قرب فلسطين من مصر وقيام أسباب الاتصال القوية بين يهود فلسطين وبنى جلدتهم فى مصر ، كذلك لا تمدنا الوثائق البردية من القرنين الأول والثانى للميلاد الا بمعلومات طفيفة عن مدى انتشار المسيحية فى مصر ابان تلك الفترة ، لكن ما عثر عليه فى مصر الوسطى والعليا فى برديات من القرن الثانى تضم شذرات من الأناجيل يكفى لأن نستنبط منه انتشار المسيحية فى تلك الأنحاء .

وعندما انتشرت الديانة الجديدة وقوى شأنها بزيادة عدد أتباعها ، بدأ الأباطرة ينظرون اليها بعين الخوف والتوجس ويرون فيها خطرا يتهدد وحدة الامبراطورية . وجاء هذا الخوف أساسا من عدم مشاركة المسيحيين فى عبادات الدولة الرسمية . وقد أصبح من الأمور المقررة فى سياسة الرومان أن الولاء لدين الدولة الرسمى هو بمثابة الرباط القوى الذى يشد أجزاء امبراطوريتهم التى كانت تضم عديدا من العناصر والأجناس المختلطة أصلا ولغة وثقافة . وكان دين الدولة الرسمي قد تشكل فى عبادة الامبراطور الحاكم التى أصبحت عنوان ولاء الشعوب لهذا الامبراطور وتكريسا فى الوقت نفسه لسلطته المطلقة . ولما كانت المسيحية ترفض كل الديانات القديمة ، فانها رفضت بالطبع مبدأ قدسية شخص الامبراطور ، ولذلك اعتبرت من وجهة نظر السلطات حركة مناهضة للنظام الامبراطورى المتوارث ومن ثم كانت خطرا ينبغى استئصال شأفته .

وقد توالت اضطهادات الأباطرة للمسيحيين منذ عهد نيرون (عام ٦٤ وعام ٦٨) ثم فى عهد تراجان (عام ١٠٦) · لكن ابتداء من الاضطهاد الذى وقع فى عهد سبتيميوس سفيروس (عام ٢٠٢) أصبح الاضطهاد سياســة ثابتــة لدى الأباطرة ، وقد صــدر فى هذا العام مرسوم يحرم اعتناق المسيحية وقد حرم المسيحيون عندئذ من امتياز تمتع به اليهود وهو الاعفاء من حرق البخور أمام تمثــال الامبراطور ولقى كثير منهم حتفه · وجاء الاضطهاد الرسمى الكبير التالى على يد دكيوس الذى أصــدر فى عام ٢٥٠ مرسوما يلزم كل مواطن بتقديم شــهادة من السلطات تفيد قيــام صاحبها بتقديم القرابين الى الآلهة الوثنية · وقد وصلتنــا مجموعــة من هــذه الشهادات التى عرفت باسم Libelli من اقليم الفيوم فى مصر · واستمر الاضطهاد فى عهد فاليريان الى أن أخلد المسيحيون الى فترة من الهدوء النسبى حين أصدر جالينيوس مرســوما بمنحهم الحرية فى ممارسة عبادتهم · وأتاحت هذه السنوات من الهدوء الفرصــة لانتعاش المسيحية فى مصر من حيث زيادة عدد معتنقيها وعدد الكنائس فى أنحــاء مصر · غير أن الاضطهاد عــاد كأعنف ما يكون على عهد دقلديانوس فكانت أعظم محنة تعرضت لها المسيحية فى ســائر أنحاء الامبراطورية وفى مصر على نحو خاص ·

- ٦ -

الحياة العلمية والثقافية فى الاسكندرية

ظلت مدينة الاسكندرية فى العصر الرومانى عاصمة للحكم ، واستمرت فى الوقت نفسه مركزا للبحث العلمى والنشاط الفكرى والثقافى ، متابعة فى ذلك دورها العظيم الذى قامت به فى العصر البطلمى . ولما كان الأباطرة الرومان يكنون الاحترام للثقافة الاغريقية ، فانهم بذلوا التشجيع لتلك المؤسسة العلمية الاغريقية التى شيدها البطالمة وهى « الموسيون » (أو دار العلم) ، فقد استمر علماء هذه المؤسسة يتلقون من الأباطرة العطايا ، ويتمتعون ببعض الامتيازات ومنها الاعفاءات الضريبية ، ونعلم أن الامبراطور كلادريوس أضاف الى الموسيون مبنى جديدا حمل اسمه وكانت تتدارس فيه مؤلفاته ، كما علمنا أن الامبراطور هادريان ، الذى اشتهر بعشقه للثقافة الاغريقية ، زار الموسيون وشارك فى ندوات عقدها مع علمائه ومفكريه حيث بذل لهم المزيد من المكافآت ، كما زاد من عددهم غير أنه ترخص فيما يبدو فى منح عضوية الموسيون لأشخاص من غير العلماء ، لأن بعض وثائق القرن الثانى تذكر بعض رجال الدين والضباط الرومان وكبار الموظفين المدنيين بل أحد الرياضيين ، على أنهم أعضاء فيه .

وحتى نهاية القرن الثانى الميلادى كان الموسيون لايزاله يجتذب

اليه النابهين من العلماء ، فقد كانت طبيعة الدراســة فيه أقرب الى أسلوب أكاديميات البحث العلمي منها الى أسلوب الجامعــات الفنية بتدريس فروع المعرفة المختلفة • لكن يبدو أن الموســيون اقترب منذ بداية القرن الثالث من الوظيفة التعليمية ، حين اضطر علماؤه الى تخصيص قاعات للتدريس لمن يريد من الطلاب لقاء أجر بعد أن أوقف الامبراطور كاراكالا دعم الحكومة المــادى للموسيون، فتوافد عليه طلاب من الاسكندرية وأنحــاء مصر ومن خارجها • ومما يجدر بالذكر أن الطلاب الأجانب من دارسى العلوم وخاصــة الطب ، استمروا يفدون الى الاسكندرية حتى نهاية القرن الرابع على الأقل • ويمكن أن نطلق على الموســيون بهذه الصفة التعليمية التى اكتسبها ، خاصــة فى مجال الدراسات الفلسفية ، مدرســة الاسكندرية « الوثنية » التى وقفت تواجهها منذ أواخر القرن الثانى بشكل واضح تلك المدرسة الوعظية الحوارية التى اهتمت بدراسة اللاهوت المسيحى ، وعرفت باسم مدرسة الاسكندرية المسيحية •

أما مكتبة الاسكندرية التى طبقت شــهرتها آفــاق العــالم القديم والتى كانت وثيقة الصــلة بالموسيون ، فلا نسمع شيئا عن جهود الأباطرة فى دعمها على نحو ما كان يفعل البطالمــة • غير أنه كان يقوم بأمانة المكتبة طوال العصر الرومانى علماء نابهون تولوا رعايتها ، وقد وجدت الى جانب المكتبــة الأم مكتبتان أخريان كانت كبراهما ملحقــة بمعبد سيرابيس (السرابيوم) والأخرى بمعبد قيصر (القيصرون) •

وحين نستعرض أبرز ملامح نتاج الاسكندرية الأدبى والفكرى فى العصر الرومانى يستوقف نظرنا ملاحظتــان : أولاهمــا هبوط مستوى الانتاج الأدبى الشعرى ، حيث لا نجد الا شعرا مصنوعا غير مطبوع أكثره منظومات وصفيــة تتنــاول مواقــع جغرافيــة أو أشخاصــا أو آلهة ، وشتان بين هــذا كله وأغراض الشــعر ومستواه عند كاليماخوس وأبولونيوس وثيوكريتوس فى العصــر

البطلمى • غير أن علماء الموسيون تابعوا عمل أسلافهم في الدراسات الأدبية والنقدية وتحقيق النصوص والتعليق عليها • أما الملاحظة الثانية فهى ازدهار الفكر الفلسفى مما يعتبر اتجاها جديدا لم نره فى الاسكندرية من قبل • ويبدو أن ملوك البطالمة لم يشجعوا دراسة الفلسفة تفاديا فيما يحتمل لما يطرحه هذا النوع من النشاط العقلى من تساؤلات قد تمس أساس سلطتهم الملكية المطلقة • أما الرومان ، فقد وجد من قوادهم وأباطرتهم من تحمس شخصيا لدراسة الفلسفة وتبنى مذهبا أو آخر من مذاهبها ، وأخص هؤلاء بالذكر الامبراطور الرواقى ماركوس أوريليوس •

غير أن ازدهار الفلسفة فى الاسكندرية لم يكن متعلقا بعدم ضيق الرومان بالفلسفة أو حتى تشجيعهم اياها ، وانما كانت ظروف العصر نفسها تبعث على التفكير الفلسفى بين المثقفين • وفى الاسكندرية ، تلك المدينة التى كانت تعج بالحركة التجارية ، واليها كانت تنساب مع القادمين من كافة الأجناس شتى الأفكار الدينية من شتى الثقافات ، واجه المثقف نوعا من البلبلة حين بدا له كأن كل الأديان القديمة محض هراء وانتحالات زائفة ، والى شىء من هذا التوجيه ذهبت دعوة أصحاب مذهب الأدرية (الغنوصية Gnosticism) التى أنكرت كل الأديان القائمة واعتقدت فى فكرة الهية عليا ، ثم جاءت الديانة المسيحية التى لم تكن لتتأخر طويلا فى رحلتها من أرض فلسطين الى الاسكندرية ، فأكدت طرح الثقة بعقائد كثيرة قديمة • وحين انبعثت نزعة التفلسف فى الاسكندرية ، جاءت مصطبغة بصبغة دينية (ثيوصوفيا) •

ويعتبر فيلون اليهودى أول فيلسوف أنتجته هذه البيئة فى الاسكندرية • فقد كان يمثل موقف مثقف مفكر يهودى يدين بعقيدة التوحيد ، وقد واجهته الديانة المسيحية الجديدة بتحد خطير ألجأه الى الاستفادة من منهج الفيثاغورية الجديدة لاقامة الدليل الفلسفى على صدق عقيدته الدينية • لكن فى سبيل ذلك تحولت

الشخصيات الدينية فى التوراه عنده الى مجرد رموز للأفكار المجردة التى كان كثير منها مستمدا من الفكر الفيثاغورى • ويفوق فيلون أهمية فى مجال الفكر الفلسفي الاسكندرى أفلوطين Plotinos الذى يعتبر زعيم الأفلاطونية الجديدة Neoplatonism وهو من بلدة ليكوبوليس (أسيوط) فى صعيد مصر • وقد درس فى الاسكندرية على يد أستاذه أسونيوس ساكاس ، وأقام مذهبا فلسفيا متكاملا جمع فيه بين عناصر شرقية روحية استلهمها من الحكمة المصرية والفارسية والهندية ، وعناصر من الجانب الالهى من فلسفة أفلاطون والفلسفة الفيثاغورية الجديدة ، وهو على اجمال القول يبدأ بالفلسفة لينتهى باتحاد النفس مع الله • ونذكر فى عداد المفكرين الفلاسفة الاسكندريين أثينايوس النقراطيسى الذى يدل على سعة علمه واحاطته بمختلف المذاهب الفلسفية الكتاب الوحيد الذى وصل الينا من مؤلفاته وهو « مأدبة الحكماء » Dipnosophistai ، وهو كتاب ضخم حاكى فيه المؤلف أسلوب فلاسفة قدماء مثل أفلاطون فى « المأدبة » لعرض آرائه ، بيد أنه لم يرق الى مستوى هؤلاء •

وعندما استقرت المسيحية بالاسكندرية واجهت تحديا كبيرا من جانب الفكر الفلسفي الوثنى الذى كان مزدهرا ، فلم يكن هناك بد من أن يستخدم الآباء المعلمون ذات الأسلوب الذى استخدمه أولئك الفلاسفة للافادة منه فى تفسير العقيدة المسيحية ونشر تعاليمها • وبمرور الوقت ظهرت مدرسة دينية مسيحية كانت أول مؤسسة دراسية مهمة للدراسات اللاهوتية فى تاريخ المسيحية • وتفيد المصادر أن أول من تولى رئاسة هذه المدرسة هو بنتايوس Pantaeus الذى كان مالكا لزمام الفلسفة الاغريقية ميالا الى الفلسفة الرواقية • لكن تلميذه كلمنت الاسكندرانى يعتبر المؤسس الأول للدراسات اللاهوتية المسيحية ، وقد أسهمت كتبه ، خاصة كتابه الضخم « المتنوعات » Stromateis بنصيب موفور

فى التوفيق بين الديانة المسيحية وأسمى ما فى الفلسفة الاغريقية من أفكار • وقد خلفه فى رئاسة المدرسة أوريجينيس وهو اسكندرى الأصل مسيحي المولد • وقد نبغ فى دراسة أصول العقيدة ، وفاق كلمنت فى دقة فهم المذاهب الفلسفية ، كما امتاز بالتعمق فى الدراسات اللاهوتية واتقان أسلوب البحث والقدرة على الابتكار • وأهم مؤلفاته العديدة والمتنوعة كتاب « الرد على كلسوس » وفيه دفاع عن المسيحية ضد هجوم المفكر الوثنى كلسوس وشرح لأفكار أوريجنيس الأساسية عن المسيحية ، وكتاب « التحرير على أعمدة ستة » Hexapla وهو عمل علمى ضخم يعتبر اسهاما بارزا فى مجال تحرير نص موثوق به للكتاب المقدس •

أما فى مجال العلوم ، فقد حافظت الاسكندرية على مكانتها القديمة فى الدراسات الفلكية والرياضية والطبية • وأول من يذكر فىهذا المقام العالم الفلكى الرياضى الجغرافى الفذ كلاوديوس بطلميوس الذى اشتهر كثيرا عند العرب بعد ذلك باسم بطلميوس الجغرافى • وقد تصدى بطلميوس لدراسة الجغرافيا على أساس معرفته الرياضية والفلكية فوضع كتابا فى ثمانية أجزاء ، ورسم خريطة للعالم حدد عليها الأماكن بنسب أبعادها الصحيحة ، فكان الكتاب والخريطة نقلة مهمة فى علم الجغرافيا القديمة •

وفى مجال الطب والجراحة ، واصل علماء الاسكندرية اهتمامهم القديم بالتشريح ، وظلت شهرة الاسكندرية القديمة فى العلوم الطبية تجتذب الطلاب من خارج مصر حتى أواخر القرن الرابع كما سبق أن ذكرنا ، ولعل أبرز من درس الطب فى الاسكندرية جالينوس البرجامى (١٢٩ ـ ١٩٩) أعظم أطباء ذلك العصر على الاطلاق • ويصف لنا الكاتب الموسوعى كلسوس (النصف الأول من القرن الأول) عن براعة أطباء الاسكندرية فى اجراء شتى العمليات الجراحية بما فيها جراحة تجميل الوجه • كذلك تشير بعض الوثائق الى أجهزة طبية أو أربطة عرفت بأسماء مبتكريها من أطباء الاسكندرية •

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الباب الثاني
العصر المتوسط
(أولا) العصر المتوسط الأول
الأسر ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢٢٦٠ ــ ٢٠٥٠ ق٠م)
أ٠ د٠ جمال مختار

(ثانيــا) الدولة الوســطى

الصفحة

(ثالثا العصر المتوسط الثانى)
الأسر ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧

البـــاب الثـــالث

عصـــر الدولة الحديثـــة

١٥٧٥ ــ ١٠٧٨ ق٠م

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

البـاب السـادس

العصـر الرومـانى

صدر فى هذه السلسلة :

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ــ علي ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،
د· محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ــ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ــ صلاح الدين الأيوبى ،
د· عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،
د· على بركات ، ١٩٨٧

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د· محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،
محمـــود فـــوزى ، ١٩٨٧

١١ ــ مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ــ هدى شعراوى وعصر التنوير ·
د· نبيل راغب ، ١٩٨٨ ·

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د٠ عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيـــام الدولة الطولونيـة ،
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د٠ على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ،
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعي فى مصر فى العصر العثمانى ،
د٠ محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د٠ على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د٠ أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د٠ محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د٠ توفيــق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمــال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د٠توفيــق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ،**
د٠ نجـوى كامـل ، ١٩٨٩

٣٥ ـ **المجتمع الاســلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٣٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د٠ سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩ ٠

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : الفريد ج٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،**
تأليف : الفريد ج٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضـايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضــاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين ، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صـالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصـادى والاجتمـاعى فى العصر العثمـانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د. جميـل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمـأساة ، رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتقديم : د. حسـن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧)** ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث** ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى** ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩)** ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)** ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية** ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر** ،
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة** ،
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى** ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢** ،
تأليف : ولیم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية** ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ــ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ــ **احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د٠ ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ــ **الراسمالية الصناعيــة فى مصر ، من التمصــير الى التأميم (١٩٥٧ ــ ١٩٦١) ،**
د٠عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ــ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ــ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ــ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ــ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية .**
تأليف :د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، جمــال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ــ **مصر وحقوق الانســان ، بين الحقيقة والافتراء : دراســة وثائقيــة ،**
د٠ محمد نعمان جلال : ١٩٩٣

٦٥ ــ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ــ ١٩١٧)،**
د٠ ســهام نصــار ، ١٩٩٣

٦٦ ــ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **أهل الذمة فى الاسلام ،**
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،**
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضـال الوطنى (زمن الاحتـلال البريطـانى) ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : ولبم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د. حسـن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩)**
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريـد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمـال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنـافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمـة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيـام الدولة الطولونيـة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجارة المصرية فى مصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)** ،
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كلين ، ج ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)** ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية** ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى** ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية** ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط** ،
تأليف : بيتر مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢** ،
د. نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)** ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ج ٢** ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرءوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د. محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د. سمير يحيى الجمال

رقم الايداع ١٩٩٦/١٣٢٩٥

I.S.B.N. 977 — 01 — 5026 — 6 الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

يغطى هذا الجزء من الموسوعة فترة زمنية هائلة تبدأ من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر العتيق وعصر الأسرات ثم العصر المتوسط الأول، فالعصر المتوسط الثانى، وينتقل إلى عصر الدولة الحديثة والرعامسة، ثم العصور المتأخرة، فالعصر البطلمى، وينتهى بالعصر الرومانى، وكل ذلك بأقلام أكبر أساتذة التاريخ المتخصصين، الأمر الذى يضعه بجدارة فى مكان مرموق من المكتبة العربية، ويجعله أحد أهم إصدارات سلسلة «تاريخ المصريين».

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب